المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣

الجزء السّادس

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

(بيان المواعظ في ذم الدنيا)

خطب عليّ عليه السّلام يوما فقال في خطبته:«اعلموا أنّكم ميّتون و مبعوثون من بعد الموت، و موقوفون على أعمالكم، و مجزيّون بها، فلا تغرنّكم الحياة الدّنيا فانّها بالبلاء محفوفة، و بالفناء معروفة، و بالغدر موصوفة، فكلّ ما فيها إلى زوال، و هي بين أهلها دول و سجال، لا تدوم أحوالها، و لن يسلم من شرّها نزّالها، بينا أهلها منها في رخاء و سرور إذا هم منها في بلاء و غرور، أحوال مختلفة، و تارات متصرّفة، العيش فيها مذموم، و الرّخاء فيها لا يدوم، و إنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، و تقصّمهم بحمامها و كلّ جيفة فيها مقدور و حظّه منها موفور، و اعلموا عباد اللّه أنّكم و ما أنتم فيه من هذه الدّنيا على سبيل من قد مضى ممّن كان أطول منكم أعمارا، و أشدّ منكم بطشا، و أعمر ديارا، و أبعد آثارا، فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلّبها، و أجسادهم بالية، و ديارهم خالية، و آثارهم عافية، استبدلوا بالقصور المشيّدة، و السرر و النمارق الممهّدة الصخور و الأحجار المسنّدة في القبور اللاطئة الملحدة، فمحلّها مقترب، و ساكنها مغترب، بين أهل عمارة موحشين و أهل محلّة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران، و لا يتواصلون تواصل الجيران و الإخوان، على ما كان بينهم من قرب الجوار و دنوّ الدّار بالدّيار،

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٤

و كيف يكون بينهم تواصل و قد طحنتهم بكلكلة البلى و أكلتهم الجنادل و الثرى و أصبحوا بعد الحياة أمواتا، و بعد غضارة العيش رفاتا، فجمع بهم الأحباب، و سكنوا التراب، و ظعنوا فليس لهم إياب، هيهات هيهات كلا إنّها كلمة هو قائلها و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون و كأن قد صرتم إلى

ما صاروا إليه من البلى، و الوحدة في دار المثوى، و ارتهنكم ذلك المضجع، و ضمّكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو قضيت الأمور، و بعثرت القبور، و حصّل ما في الصدور، و أوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل، فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب، و هتكت عنكم الحجب و الأستار، و ظهرت منكم العيوب و الأسرار، هنا لك تجزى كلّ نفس بما كسبت إنّ اللّه يقول:«ليجزي الّذين أساؤا بما عملوا و يجزي الّذين أحسنوا بالحسنى»و قال تعالى:«و وضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه»جعلنا اللّه و إيّاكم عاملين بكتابه و متّبعين لأوليائه و أحبّائه حتّى تحلّنا و إيّاكم دار المقامة من فضله إنّه حميد مجيد».

وقال عليه السّلام أيضا في خطبته:«اوصيكم بتقوى اللّه، و الترك للدّنيا التاركة لكم و إن كنتم لا تحبّون تركها، المبلية لأجسامكم و إن كنتم تريدون تجديدها، فانّما مثلكم و مثلها كمثل سفر سلكوا طريقا فكأنّهم قد قطعوه [١] و أمّوا إلى علم فكأنّهم قد بلغوه، و كم عسى أن يجري المجري حتّى ينتهي إلى الغاية [٢] و ما

---

[١] السفر - بفتح فسكون -: جماعة المسافرين اى انكم في مسافة العمر كالمسافرين في مسافة الطريق فلا يلبثون أن يأتوا على نهايتها لأنها محدودة.

[٢] «كم عسى» استفهامية للتحقير و أجراء الفرس ارساله و حمله على السير. و «ما عسى» استفهامية في معنى التحقير للبقاء.

عسى أن يبقى من له يوم في الدّنيا، و طالب حثيث يطلبه حتّى يفارقها، فلا تجزعوا لبؤسها و ضرّائها فإنّه إلى انقطاع، و لا تفرحوا بنعمائها فإنّه إلى زوال، عجبت لطالب الدّنيا و الموت يطلبه و غافل فليس بمغفول عنه».

أقول: وفي الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السّلام قال:«فيما ناجى اللّه تعالى به موسى عليه السّلام: يا موسى لا تركن إلى الدّنيا ركون الظالمين و ركون من اتّخذها أبا و امّا، يا موسى لو وكلتك إلى نفسك لتنظر لها إذا لغلب عليك حبّ الدّنيا و زهرتها، يا موسى نافس في الخير أهله و استبقهم إليه فإنّ الخير كاسمه، و اترك من الدّنيا ما بك الغنى عنه، و لا تنظر عينك إلى كلّ مفتون بها موكّل إلى نفسه، و اعلم أنّ كلّ فتنة بدؤها حبّ الدّنيا و لا تغبط أحدا بكثرة المال فإنّ مع كثرة المال تكثر الذّنوب لواجب الحقوق، و لا تغبطنّ أحدا برضاء الناس عنه حتّى تعلم أنّ اللّه راض عنه، و لا تغبطنّ مخلوقا بطاعة الناس له فإنّ طاعة الناس له و اتّباعهم إيّاه على غير الحقّ هلاك له و لمن تبعه».

وعنه عليه السّلام قال:«فيما وعظ به لقمان ابنه: يا بنيّ إنّ الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا و لم يبق من جمعوا له و إنّما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل و وعدت عليه أجرا فأوف عملك و استوف أجرك، و لا تكن في هذه الدّنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتّى سمنت فكان حتفها عند سمنها، و لكن اجعل الدّنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها و تركتها و لم ترجع إليها آخر الدّهر، أخربها و لا تعمرها فإنّك لم تؤمر بعمارتها، و اعلم أنّك ستسأل غدا إذا وقفت بين يدي اللّه تعالى عن أربع: شبابك فيما أبليته و عمرك فيما أفنيته، و مالك ممّا اكتسبته و فيما أنفقته فتأهّب لذلك و أعدّ له جوابا، و لا تأس على

ما فاتك من الدّنيا فإنّ قليل الدّنيا لا يدوم بقاؤه و كثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك، و جدّ في أمرك، و اكشف الغطاء عن وجهك، و تعرّض لمعروف ربّك، و جدّد التوبة في قلبك، و اكمش في فراغك قبل أن يقصد قصدك [١] و يقضى قضاؤك و يحال بينك و بين ما تريد».

وعنه عليه السّلام قال:«كان أبوذرّ - رضي اللّه عنه - يقول في خطبته: يا مبتغي العلم كأنّ شيئا من الدّنيا لم يكن شيئا إلا ما ينفع خيره و يضرّ شرّه إلا من رحم اللّه [٢]، يا مبتغي العلم لا يشغلك أهل و لا مال عن نفسك أنت يوم تفارقهم كضيف بتّ فيهم ثمّ غدوت عنهم إلى غيرهم و الدّنيا و الآخرة كمنزل تحوّلت منه إلى غيره و ما بين الموت و البعث إلا كنومة نمتها ثمّ استيقظت منها، يا مبتغي العلم قدّم لمقامك بين يدي اللّه تعالى فإنّك مثاب بعملك كما تدين تدان يا مبتغي العلم».

قال أبو حامد: قال بعضهم: يا أيّها النّاس اعملوا على مهل، و كونوا من اللّه على وجل، و لا تغترّوا بالأمل و نسيان الأجل و لا تركنوا إلى الدّنيا فإنّها غدّارة خدّاعة قد تزخرفت لكم بغرورها و فتنتكم بأمانيها، و تزيّنت لخطّابها، فأصبحت كالعروس المتحلّية، العيون إليها ناظرة، و القلوب عليها عاكفة، و النفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها قتلت، و مطمئنّ إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنّها دار كثرت بوائقها، و ذمّها خالقها، جديدها يبلى، و ملكها يفنى، و عزيزها يذلّ، و كثيرها يقلّ، و حيّها يموت، و خيرها يفوت، فاستيقظوا من غفلتكم، و انتبهوا

---

[١] اى نحوك، كناية عن توجّه ملك الموت إليك لقبض روحك او توجّه الامراض و البلايا من اللّه إليك.

[٢] «الا» في قوله: «الا ما ينفع» كلمة استثناء و «ما» موصولة فالمعنى أن ما يتصور في هذه الدنيا اما شيء ينفع خيره او شيء يضر شره الا من رحم اللّه، او كل شيء في الدنيا له جهة نفع و جهة ضر لكل الناس الا من رحم اللّه فيوفقه للاحتراز من جهة شره.

من رقدتكم قبل أن يقال: فلان عليل أو مدنّف ثقيل، فهل على الدّواء من دليل؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل؟ فيدعى لك الأطبّاء و لا يرجى لك الشفاء، ثمّ يقال:

فلان أوصى و ماله قد أحصى، ثمّ يقال: قد ثقل لسانه، فلا يكلّم إخوانه، و لا يعرف جيرانه، و عرق عند ذلك جبينك، و تتابع أنينك، و ثبت يقينك، و طمحت جفونك، و صدقت ظنونك، و تلجلج لسانك، و بكى إخوانك، و قيل لك: هذا ابنك فلان، و منعت الكلام فلا تنطق، و ختم على لسانك فلا ينطلق، ثمّ حلّ بك القضاء، و انتزعت نفسك من الأعضاء، ثمّ عرج بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، و احضرت أكفانك فغسّلوك و كفنّوك، فانقطع عوادك، و استراح حسّادك و انصرف أهلك إلى مالك، و بقيت مرتهنا بأعمالك.

و قال بعضهم لبعض الملوك: إنّ أحقّ الناس بذمّ الدّنيا و قلاها من بسط له فيها و أعطي حاجته منها لأنّه يتوقّع آفة تغدو على ماله فتحتاجه أو على جمعه فتفرّقه أو يأتي سلطانه فينهدمه من القواعد أو تدبّ إلى جسمه فتسقمه أو تفجعه بشيء ثمّ هو ضنين به من أحبابه، فالدّنيا أحقّ بالذمّ هي الآخذة ما تعطي، الرّاجعة فيما تهب، بينا هي تضحك صاحبها إذا ضحكت منه غيره، و بينا هي تبكي له إذا بكت عليه، و بينا هي تبسط كفّها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد، تعقد التاج برأس صاحبها اليوم و تعفره بالتراب غدا، سواء عليها ذهاب ما ذهب و بقاء ما بقي، تجد في الباقي من الذّاهب خلفا و ترضى بكلّ من كلّ بدلا.

و قال: وهب بن منبّه: لمّا بعث اللّه عزّ و جلّ موسى و هارون عليهما السّلام إلى فرعون قال: «لا يروّعنّكما لباسه الّذي لبس من الدّنيا فإنّ ناصيته بيدي، ليس ينطق و لا يتنفّس إلا بإذني، و لا يعجبنّكما ما متّع به منها فإنّما هي زهرة الحياة الدّنيا و زينة المترفين و لو شئت أن أزيّنكما بزينة من الدّنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ مقدرته تعجز عمّا اوتيتما لفعلت و لكنّي أرغب بكما عن ذلك فأزوي ذلك

عنكما، و كذلك أفعل بأوليائي إنّي لأذودهم عن نعيمها كما يذود الرّاعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة، و إنّي لاجنّبهم سلوتها كما يجنّب الرّاعي الشفيق إبله عن مبارك

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٨

العزّة، و ما ذلك لهوانهم عليّ و لكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفّرا إنّما يتزيّن لي أوليائي بالذلّ و الخشوع و الخوف، و التقوى يثبت في قلوبهم فيظهر على أجسادهم فهي ثيابهم الّتي يلبسون، و دثارهم الّذي يظهرون، و ضميرهم الّذي يستشعرون، و نجاتهم الّتي بها يفوزون، و رجاؤهم الّذي إيّاه يأملون، و مجدهم الّذي به يفخرون، و سيماهم الّتي بها يعرفون، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، و ذلّل لهم قلبك و لسانك، و اعلم أنّه من أخاف لي وليّا فقد بارزني بالمحاربة ثمّ إنّي ثائر له يوم القيامة».

و قال بعض الحكماء: الأيّام سهام و الناس أغراض، و الدّهر يرميك كلّ يوم بسهامه، و يخرمك بلياليه و أيّامه حتّى تستغرق جميع أجزائك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيّام بك و سرعة اللّيالي في بدنك؟ لو كشف لك عمّا أحدثت الأيّام فيك من النقص لاستوحشت من كلّ يوم يأتي عليك، و استثقلت ممرّ الساعات بك، و لكن تدبير اللّه فوق الاعتبار و بالسلو عن غوائل الدّنيا وجد طعم لذّاتها، و أنّها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم، و قد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها، و ما يأتي به من العجائب أكثر ممّا يحيط به الواعظ فنستوهب اللّه رشدا إلى الصواب.

و قال بعض الحكماء - و قد استوصف الدّنيا و قدر بقائها - فقال: الدّنيا وقتك الّذي ترجع إليك فيه طرفك لأنّ ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه و ما لم يأت فلا علم لك به، و الدّهر يوم مقبل تنعاه ليلته و تطويه ساعته، و أحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير و النقصان، و الدّهر موكّل بتشتيت الجماعات و انخرام الشمل و تقلّب الدّول، و الأمل طويل، و العمر قصير، و إلى اللّه تصير الأمور.

و خطب بعضهم فقال: يا أيّها الناس إنّكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدّقون به

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٩

فأنتم حمقى و إن كنتم تكذّبون به فإنّكم لهلكى.

و قال محمّد بن الحسين: لمّا علم أهل العقل و العلم و المعرفة و الأدب أنّ اللّه عزّ و جلّ قد أهان الدّنيا، و أنّه لم يرضها لأوليائه، و أنّها عنده حقيرة قليلة، وأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد زهد فيها و حذّر أصحابه من فتنتها، و قال: «أكلوا منها قصدا و قدّموا فضلا»

أخذوا منها ما يكفي و تركوا ما يلهى، لبسوا من الثياب ما ستر العورة، و أكلوا من الطعام أدناه ممّا يسدّ الجوعة، نظروا إلى الدّنيا بعين أنّها فانية و إلى الآخرة أنّها باقية، فتزوّدوا من الدّنيا كزاد الرّاكب فخربوا الدّنيا و عمّروا بها الآخرة، و نظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنّهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنّهم سيرتحلون إليها بأبدانهم، صبروا قليلا و نعّموا طويلا كلّ ذلك بتوفيق اللّه مولاهم الكريم أحبّوا ما أحبّ لهم و كرهوا ما كره لهم.

(بيان صفة الدنيا بالامثلة)

اعلم إنّ الدّنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء تعدّ بالبقاء ثمّ تخلف في الوفاء تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرّة و هي سائرة سيرا عنيفا و مرتحلة ارتحالا سريعا، و لكن الناظر إليها قد لا يحسّ بحركتها فيطمئنّ إليها و إنّما يتحسّر عند انقضائها، و مثالها الظلّ فإنّه متحرّك ساكن، متحرّك في الحقيقة ساكن في الظاهر لا تدرك حركتها بالبصر الظّاهر بل بالبصيرة الباطنة، و لمّا ذكرت الدّنيا عند بعضهم أنشد و قال:

أحلام نوم أو كظلّ زائل   إنّ اللّبيب بمثلها

لا يخدعوكان الحسن بن عليّ عليهما السّلام يتمثّل بهذا البيت:

يا أهل لذّات دنيا لا بقاء لها   إنّ اغترارا

بظلّ زائل حمق

و كان يروى أنّه له، و يقال: إنّه نزل إعرابيّ بقوم فقدّموا إليه طعاما فأكل ثمّ قام إلى ظلّ خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه و قام و هو يقول:

ألا إنّما الدّنيا كظلّ بنيّة و لا بدّ يوما أنّ ظلّك زائل

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٠

و كذلك قيل:

و إنّ امرء دنياه أكبر همّه لمستمسك منها بحبل غرورمثال آخر للدّنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثمّ الا فلاس منها بعد إفلاتها يشبه خيالات المنام و أضغاث الأحلامقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«الدّنيا حلم و أهلها عليها مجازون و معاقبون».

و قال يونس بن عبيد: ما شبّهت نفسي في الدّنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره و ما يحبّ فبينا هو كذلك إذا انتبه فكذلكالناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا،

فإذا ليس في أيديهم شيء ممّا ركنوا إليه و فرحوا به.

و قيل لحكيم: أيّ شيء أشبه بالدّنيا؟ فقال: أحلام النيّام.

مثال آخر للدّنيا في عداوتها لأهلها و إهلاكها لبنيها:

اعلم أنّ طبع الدّنيا التّلطّف في الاستدراج أوّلا و التوصّل إلى الإهلاك آخرا و هي كامرأة تتزيّن للخطّاب حتّى إذا نكحتهم ذبحتهم،فقد رويأنّ عيسى عليه السّلام كوشف بالدّنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كلّ زينة، فقال لها: كم تزوّجت؟ قالت: لا احصيهم، قال: فكلّهم مات عنك أم كلّهم طلّقك؟ قالت: بل كلّهم قتلت، فقال عيسى عليه السّلام: بؤسا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين كيف تهلكينهم واحدا واحدا و لا يكونون منك على حذر.

مثال آخر للدّنيا في مخالفة باطنها لظاهرها:

اعلم أنّ الدّنيا مزيّنة الظواهر، قبيحة السرائر و هي تشبه عجوزا متزيّنة تخدع الناس بظاهرها فإذا وقفوا على باطنها و كشفوا القناع عن وجهها تمثّل لهم قبائحها فندموا على اتّباعها و خجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها، و عن ابن عبّاس قال: يؤتى بالدّنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوّهة خلقها، فيتشرف على الخلايق فيقال لهم: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ باللّه من معرفة هذه، فيقال: هذه الدّنيا الّتي تفاخرتم عليها، و بها تقاطعتم الأرحام و بها

تحاسدتم و تباغضتم و اغتررتم، ثمّ يقذف بها في جهنّم فتنادي أي ربّ أين أتباعي و أشياعي، فيقول اللّه عزّ و جلّ: الحقوا بها أتباعها و أشياعها.

و قال الفضيل بن عياض: بلغني أنّ رجلا عرج بروحه إلى السّماء، فإذا امرأة على قارعة الطريق، عليها من كلّ زينة الحليّ و الثياب و إذا لا يمرّ بها أحد إلا جرحته، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس و إذا أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس، عجوز شمطاء زرقاء عمشاء، قال: قلت: أعوذ باللّه منك، قالت:

لا و اللّه لا يعيذك اللّه منّي حتّى تبغّض الدّرهم، قال: قلت: من أنت؟ قالت: أنا الدّنيا.

مثال آخر للدّنيا و عبور الإنسان بها:

اعلم أنّ الأحوال ثلاثة حالة لم تكن فيها شيئا و هي ما قبل وجودك إلى الأزل، و حالة لا تكون فيها مشاهدا للدّنيا و هي ما بعد موتك إلى الأبد، و حالة متوسطة بين الأبد و الأزل و هي أيّام حياتك في الدّنيا فانظر إلى مقدار طولها و انسبه إلى طرفي الأزل و الأبد حتّى تعلم أنّه أقلّ من منزل قصير في سفر طويل، و لذلكقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«مالي و للدّنيا إنّما مثلي و مثل الدّنيا كمثل راكب

سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقال تحت ظلّها ساعة ثمّ راح و تركها»

و من رأى الدّنيا بهذه العين لم يركن إلى الدّنيا و لم يبال كيف انقضت أيّامه في ضرّ و ضيق أو في سعة و رفاهية، بل لا يبني لبنة على لبنة، توفّي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما وضع لبنة على لبنة و لا قصبة على قصبة [۱].

---

[۱] أخرجه ابن حبان في الثقات و للطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف هكذا«من سأل عنى او سره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمّر لم يضع لبنة على لبنة - الحديث».الترغيب ج ٤ ص ۱۸۷

.

ورأى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعض أصحابه يبني بيتا من جصّ فقال:«أرى الأمر أعجل من هذا و أنكر ذلك»

و إلى هذا أشار عيسى عليه السّلام حيث قال: «الدّنيا قنطرة فاعبروها و لا تعمروها» و هذا مثال واضح فإنّ الحياة الدّنيا معبر إلى الآخرة و المهد هو الميل الأوّل على رأس القنطرة، و اللّحد هو الميل الثاني، و بينهما مسافة محدودة، فمن الناس من قطع نصف القنطرة، و منهم من قطع ثلثها، و منهم من قطع ثلثيها، و منهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة، و هو غافل عنها، و كيف كان فلابدّ له من العبور، فالبناء على القنطرة و تزيينها بأصناف الزّينة و أنت عابر عليها غاية الجهل و الخذلان.

مثال آخر للدّنيا في لين موردها و خشونة مصدرها:

اعلم أنّ أوائل أمور الدّنيا تبدو هيّنة ليّنة، يظنّ الخائض فيها أنّ حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها و هيهات فالخوض في الدّنيا سهل و الخروج منها مع السلامة شديد، وقد كتب عليّ عليه السّلام إلى سلمان الفارسي - رضي اللّه عنه - بمثالها فقال:مثل الدّنيا مثل الحيّة يلين مسّها و يقتل سمّها [١]، فأعرض عمّا يعجبك منها لقلّة ما يصحبك منها، و ضع عنك، همومها لما أيقنت من فراقها و كن أسرّ ما تكون منها أحذر ما تكون منها، فإنّ صاحبها كلّما أطمأنّ منها إلى سرور أشخصته عنه مكروهة و السلام».

مثال آخر للدّنيا و تعذّر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها:

قال النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّما مثل صاحب الدّنيا كمثل الماشي في الماء هل يستطيع الّذي يمشي في الماء أن لا تبتلّ قدماه»

و هذا يعرفك جهالة قوم ظنّوا أنّهم يخوضون في نعيم الدّنيا بأبدانهم و قلوبهم عنها مطهّرة، و علايقها عن بواطنهم منقطعة، و تلك

---

[١] أورده السيد الشريف الرضي في النهج قسم الكتب منه تحت رقم ٦٨ هكذا «لين مسها قاتل سمها».

مكيدة الشيطان، بل لو أخرجوا ممّا هم فيه لكانوا من أعظم المتفجّعين بفراقها، فكما أنّ المشي في الماء يقتضي بللا لا محالة يلتزق بالقدم فكذلك ملابسة الدّنيا تقتضي علاقة و ظلمة في القلب، بل علاقة القلب مع الدّنيا تمنع حلاوة العبادة، قال عيسى عليه السّلام: «بحقّ أقول لكم: كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذّ به من شدّة المرض كذلك

صاحب الدّنيا لا يلتذّ بالعبادة و لا يجد حلاوتها مع ما يجد من حبّ الدّنيا، بحقّ أقول لكم: الدّابّة إذا لم تركب و لم تمتهن تصعب و تغيّر خلقها كذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت و بنصب العبادة تقسو و تغلظ، بحقّ أقول لكم: إنّ ألزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء العسل كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات، أو يدنّسها الطمع، أو يقسيها النعيم، فسوف تكون أوعية للحكمة، وقال نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّما بقي من الدّنيا بلاء و فتنة و إنّما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله و إذا خبث أعلاه خبث أسفله».

مثال آخر لما بقي من الدّنيا و قلّته بالإضافة إلى ما سبق:

عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«مثل هذه الدّنيا مثل ثوب شقّ من أوّله إلى آخره فبقي متعلّقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع».

مثال آخر لتأدية علايق الدّنيا بعضها إلى بعض حتّى الهلاك: قال عيسى عليه السّلام:

«مثل طالب الدّنيا مثل شارب ماء البحر كلّما ازداد شربا إزداد عطشا حتّى يقتله».

مثال آخر لمخالفة آخر الدّنيا أوّلها، و لنضارة أوايلها و خبث عواقبها:

اعلم أنّ شهوات الدّنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة و سيجد العبد عند الموت لشهوات الدّنيا في قلبه من الكراهية و النتن و القبح ما يجده لأطعمة اللّذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها، و كما أنّ الطعام كلّما كان ألذّ طعما و أكثر دسما

و أظهر حلاوة كان رجيعه أقذر و أشدّ نتنا، فكذلك كلّ شهوة في القلب هي أشهى و ألذّ و أقوى فنتنها و كراهتها و التأذّي بها عند الموت أشدّ بل هي في الدّنيا مشاهدة فإن من نهبت

داره و أخذ أهله و ولده و ماله فتكون مصيبته و ألمه و تفجّعه في كلّ ما فقده بقدر لذّته فيه و حبّه له و حرصه عليه، فكلّ ما كان عند الوجود أشهى عنده و ألذّ فهو عند الفقد أدهى و أمرّ، و ما للموت معنى إلا فقد ما في الدّنيا، وقد رويأنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال للضحّاك بن سفيان الكلابيّ: «ألست تؤتى بطعامك و قد ملح و قزح، ثمّ تشرب اللّبن عليه و الماء؟ قال: بلى، قال: فإلى م يصير؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول اللّه، قال: فإنّ اللّه عزّ و جلّ قد ضرب مثل الدّنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اللّه تعالى ضرب الدّنيا لمطعم بن آدم مثلا، و ضرب مطعم ابن آدم للدّنيا مثلا فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم و أنّ قزحه و ملحه إلى ما يصير»

قيل: قد رأيتهم يطيبونها بالأوفاوية و الطيب، ثمّ يرمون به حيث رأيتم، و قد قال اللّه عزّ و جلّ«فلينظر الإنسان إلى طعامه»قال ابن عبّاس: إلى رجيعه.

قيل لبعضهم: إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه؟ قال: نعم إنّ الملك ليقول له: هذا ما بخلت به انظر إلى ما ذا صار.

مثال آخر في نسبة الدّنيا إلى الآخرة:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ما الدّنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ فلينظر بم ترجع إليه»

من الأصل.

مثال آخر للدّنيا و أهلها في اشتغالهم بنعيم الدّنيا و غفلتهم عن الآخرة و خسرانهم

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٥

العظيمة بسببها.

اعلم أنّ أهل الدّنيا في غفلتهم مثلهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة و حذّرهم المقام و خوّفهم مرور السفينة و استعجالها، فتفرّقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم الحاجة و بادر إلى السفينة فصادف المقام خاليا فأخذ أوسع الأماكن و أليقها و أوفقها لمراده، و بعضهم توقّف في الجزيرة ينظر إلى أزهارها و أنوارها العجيبة، و غياضها الملتفّة، و نغمات طيورها الطيّبة و ألحانها الموزونة الغريبة، فصار يلتقط من أحجارها و جواهرها و معادنها المختلفة الألوان و الأشكال، الحسنة المنظر، العجيبة النقوش، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجها و عجائب صورها ثمّ تنبّه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكانا ضيّقا حرجا فاستقرّ فيه، و بعضهم أكبّ على تلك الأصداف و الأحجار و أعجبه حسنها و لم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة إلا مكانا ضيّقا و زاده ما حمّله من الحجارة ضيقا و صارت ثقلا عليه و وبالا، فندم على أخذها و لم يقدر على رميها و لم يجد مكانا لوضعها، فحملها في السفينة على عنقه و هو متأسّف على أخذها، و ليس ينفعه التأسّف، و بعضهم تولج في الغياض و نسي المركب و بعد من متفرّجه و متنزّهه منها حتّى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار و التشمّم لتلك الأنوار و التفرّج بين تلك الأشجار و هو مع ذلك خائف على نفسه من السّباع و غير خال من السقطات و النكبات، و لا ينفك عن شوك ينشب بثيابه، و غصن يجرح بدنه، و حسكة تدخل في رجله، و صوت هائل يفزع منه، و عوسج يخرق ثيابه و يهتك عورته، و يمنعه من الانصراف لو أراده، فلمّا بلغهم نداء أهل السفينة انصرف بعضهم مثقلا بما معه و لم يجد في المركب موضعا فبقي على شاطئ البحر حتّى مات جوعا، و بعضهم لم يبلغهم النّداء و سارت

السفينة، فمنهم من افترسته السباع و منهم من تاه على وجهه حتّى هلك و منهم من مات في الأوحال و منهم من

نهشته الحيّات و تفرّقوا كالجيف المنتنة و أمّا من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار و الأحجارة المزبرجة فقد استرقّته و شغله الحزن بحفظها و الخوف من فوتها، و قد ضيّق عليه مكانه فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار و كمدت ألوان الأحجار و ظهر نتن رائحتها فصار مع كونه مضيّقا عليه متأذّيا بنتنها و وحشتها فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر، هاربا منها و قد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه من الأسقام بتلك الرّوائح فبلغ سقيما مدنّفا. و من رجع قريبا ما فاته إلا سعة المحلّ فتأذّى بضيق المكان مدّة و لكن لمّا وصل إلى الوطن استراح.

و من رجع أوّلا وجد المكان الأوسع و وصل إلى الوطن سالما. فهذا مثال أصناف أهل الدّنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة و نسيانهم موردهم و مصدرهم و غفلتهم عن عاقبة أمورهم، و ما أقبح من يزعم أنّه بصير عاقل أن تغرّه أحجار الأرض و هي الذّهب و الفضّة و هشيم النبت و هي زينة الحياة الدّنيا و شيء منه لا يصحبه عند الموت بل يصير كلا و وبالا عليه و هو في الحال شاغل له بالخوف و الحزن عليه، و هذا هو حال الخلق كلّهم إلا من عصمه اللّه عزّ و جلّ.

مثال آخر لاغترار الخلق بالدّنيا و ضعف إيمانهم بقول اللّه تعالى في تحذيره إيّاهم غوائل الدّنيا:

روي أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لأصحابه:«إنّما مثلي و مثلكم و مثل الدّنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتّى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي؟ أنفدوا الزّاد و خسروا الظهر و بقوا بين ظهراني المفازة لا زاد و لا حمولة فأيقنوا بالهلكة فبيناهم كذلك إذ خرج عليهم رجل

في حلّة يقطر رأسه ماء فقالوا هذا قريب عهد بريف و ما جاءكم هذا إلا من قريب، فلمّا انتهى إليهم قال: يا هؤلاء قالوا: يا هذا، قال:

على م أنتم؟ فقالوا: على ما ترى، قال: أ رأيتم أن هديتكم إلى ماء رواء و رياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئا، قال: عهودكم و مواثيقكم باللّه، فأعطوه عهودهم و مواثيقهم باللّه لا يعصونه شيئا، قال: فأوردهم ماء رواء و رياضا خضرا فمكث فيهم ما شاء اللّه ثمّ قال: يا هؤلاء، قالوا: يا هذا، قال: الرّحيل، قالوا: إلى أين، قال:

إلى ماء ليس كمائكم و إلى رياض ليست كرياضكم فقال أكثرهم: و اللّه ما وجدنا هذا حتّى ظنّنا أنّا لن نجده و ما نصنع بعيش خيرا من هذا و قالت طائفة و هم أقلّهم: ألم تعطوا هذا الرّجل عهودكم و مواثيقكم باللّه أن لا تعصوه شيئا؟ و قد صدقكم في أوّل حديثه فو اللّه ليصدقنّكم في آخره فراح فيمن اتّبعه و تخلّف بقيّتهم فبدر بهم عدوّ فأصبحوا من بين أسير و قتيل».

مثال آخر لتنعّم الناس بالدّنيا ثمّ تفجّعهم على فراقها:

اعلم أنّ مثل الناس فيما أعطوا من الدّنيا مثل رجل هيّأ دارا و زيّنها و هو يدعو إلى داره على الترتيب قوما واحدا بعد واحد، فدخل واحد داره فقدّم إليه طبق ذهب عليه بخور و رياحين ليشمّه و يتركه لمن يلحقه لا ليتملّكه و يأخذه، فجهل رسمه فظنّ أنّه قد وهب ذلك له فتعلّق به قلبه لما ظنّ أنّه له، فلمّا استرجع منه ضجر و تفجّع، و من كان عالما برسمه انتفع به و شكره و ردّه بطيبة قلب و انشراح صدر، فكذلك من عرف سنّة اللّه في الدّنيا علم أنّها دار ضيافة سبّلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزوّدوا منها و ينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافر بالعواري و لا يصرفون إليها كلّ قلوبهم حتّى تعظم مصيبتهم عند فراقها.

فهذه أمثلة الدّنيا و آفاتها و غوائلها.
أقول: و ههنا مثال آخر أورده شيخنا الصدوق - رحمه اللّه - في كتاب إكمال الدّين و إتمام النعمة ناقلا عن بعض الحكماء لا بأس بإيراده و هو هذا:
مثال آخر: ما أشبه حال الإنسان و اغتراره بالدّنيا و غفلته عن الموت و ما بعده من الأهوال و انهماكه في اللّذّات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات بشخص مدلى في بئر، مشدود وسطه بحبل، و في أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجّه إليه منتظر سقوطه، فاتح فاه لالتقامه، و في أعلى ذلك البئر جرذان أبيض و أسود لا يزال يقرضان

ذلك الحبل شيئا فشيئا و لا يفتران عن قرضه آنا من الآنات، و ذلك الشخص مع أنّه يرى ذلك الثعبان و يشاهد انقراض الحبل آنا فآنا قد أقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر و امتزج بترابه و اجتمع عليه زنابير كثيرة، و هو مشغول بلطعه، منهمك فيه، ملتذّ بما أصاب منه، مخاصم لتلك الزنابير عليه، قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك، غير ملتفت إلى ما فوقه و إلى ما تحته.
فالبئر هو الدّنيا و الحبل هو العمر و الثعبان الفاتح فاه هو الموت و الجرذان اللّيل و النهار القارضان للأعمار، و العسل المختلطة بالتراب هو لذّات الدّنيا الممتزجة بالكدورات و الآلام و الزنابيرهم أبناء الدّنيا المتزاحمون عليها.
و ما أشدّ انطباق هذا المثال على الممثّل له فنسأل اللّه الهداية و البصيرة و نعوذ به من الغفلة و الغواية.
(بيان حقيقة الدنيا و ماهيتها في حق العبد)
اعلم أنّ معرفة ذمّ الدّنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدّنيا المذمومة ما هي و ما الّذي ينبغي أن يجتنب، و ما الّذي لا يجتنب، فلابدّ أن نبيّن الدّنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوّة قاطعة لطريق اللّه ما هي؟ فنقول: دنياك و آخرتك عبارتان

عن حالتين من أحوال قلبك و القريب الدّاني منهما يسمّى دنيا و هو كلّ ما قبل الموت و المتراخي المتأخّر يسمّى آخرة و هو ما بعد الموت، فكلّ مالك فيه حظّ و غرض و نصيب و شهوة و لذّة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدّنيا في حقّك إلا أنّ جميع مالك إليه ميل و فيه نصيب و حظّ فليس بمذموم بل هي ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل ما يصحبك في الدّنيا و يبقى معك ثمرته بعد الموت و هو شيئان العلم و العمل فقط، و أعني بالعلم العلم باللّه و صفاته و أفعاله و ملائكته و كتبه و رسله و ملكوت أرضه و سمائه و العلم بشريعة نبيّه، و أعني بالعمل العبادة الخالصة لوجه اللّه و قد يأنس العالم بالعلم حتّى يصير ذلك ألذّ الأشياء عنده فيهجر النوم و المنكح و المطعم في لذّته لأنّه أشهى عنده من جميعها فقد صار حظا عاجلا في الدّنيا،

المحجة البيضاء ج : ٦ ص :

١٩

و لكنّا إذا ذكرنا الدّنيا المذمومة لم نعد هذا من الدّنيا أصلا بل قلنا: إنّه من الآخرة، و كذلك العابد قد يأنس بعبادته و يستلذّها بحيث لو منعت عنه لكان ذلك أعظم العقوبات عليه حتّى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث إنّه يحول بيني و بين قيام اللّيل، و كان آخر يقول: اللّهم ارزقني قوّة الصلاة و الركوع و السجود في القبر، فهذا قد صارت الصلاة من حظوظه العاجلة و كلّ حظّ عاجل فاسم الدّنيا ينطبق عليه من حيث الاشتقاق من الدّنوّ، و لكنّا لسنا نعني بالدّنيا المذمومة ذلك، وقد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم:«حبّب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب و النساء و قرّة عيني في الصّلاة»

فجعل الصلاة من جملة ملاذّ الدّنيا و ذلك لأنّ كلّ ما يدخل في الحسّ و المشاهدة فهو عالم الشهادة و هو من الدّنيا، و التلذّذ بتحريك الجوارح بالسجود و الركوع إنّما يكون في الدّنيا

فلذلك أضافها إلى الدّنيا إلا أنّا في هذا الكتاب لسنا نتعرّض إلا للدّنيا المذمومة فنقول: هذه ليست من الدّنيا.
القسم الثاني و هو المقابل للقسم الأوّل على الطرف الأقصى كلّ ما فيه حظّ عاجل و لا ثمرة له في الآخرة أصلا كالتلذّذ بالمعاصي كلّها و التنعّم بالمباحات الزّائدة على قدر الضرورات و الحاجات الدّاخلة في جملة الرّفاهية و الرّعونات كالتنعّم بالقناطير المقنطرة من الذّهب و الفضّة، و الخيل المسوّمة و الأنعام و الحرث، و الغلمان و الجواري و الخيول و المواشي، و القصور و الدّور المشيّدة، و رفيع الثياب و لذائذ الأطعمة، فحظّ العبد من هذه كلّها هي الدّنيا المذمومة، و فيما يعدّ فضولا أو في محلّ الحاجة نظر طويل.
القسم الثالث و هو متوسط بين الطرفين كلّ حظّ في العاجل معين على الأعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام و القميص الواحد الخشن و كلّ ما لا بدّ منه ليتأتّى للإنسان البقاء و الصحّة الّتي بها يتوصّل إلى العلم و العمل و هذا ليس من الدّنيا كالقسم الأوّل لأنّه معين على القسم الأوّل و وسيلة إليه، فمهما تناوله العبد على

قصد الاستعانة على العلم و العمل لم يكن به متناولا للدّنيا و لم يصر به من أبناء الدّنيا و إن كان باعثه الحظّ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني و صار من جملة الدّنيا و لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب أعني طهارته عن أدناس الدّنيا، و انسه بذكر اللّه، و حبّه للّه، و اعلم أنّ صفاء القلب و طهارته لا تحصل إلا بالكفّ عن شهوات الدّنيا، و الانس لا يحصل إلا بكثرة ذكر اللّه و المواظبة عليه، و الحبّ لا يحصل إلا بالمعرفة و لا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، و هذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت، و هي الباقيات الصّالحات، أمّا طهارة القلب عن شهوات الدّنيا فهي من

المنجيات إذ تكون جنّة بين العبد و بين عذاب اللّه كماورد في الخبر«أنّ أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من جهة رجليه جاء قيام اللّيل يدفع عنه و إذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه – الحديث»

فأمّا الانس و الحبّ فهما من المسعدات و هما موصلان للعبد إلى لذّة اللّقاء و المشاهدة و هذه السعادة تتعجّل عقيب الموت إلى أن يدخل الجنّة فيصير القبر روضة من رياض الجنّة، و كيف لا يكون القبر عليه روضة و لم يكن له إلا محبوب واحد و كانت العوائق تعوقه عن الانس بدوام ذكره و مطالعة جماله فارتفعت العوائق، و أفلت من السجن و خلّى بينه و بين محبوبه فقدم عليه مسرورا سالما من الموانع آمنا من الفراق و كيف لا يكون محبّ الدّنيا عند الموت معذّبا و لم يكن له محبوب إلا الدّنيا و قد غصب منه و حيل بينه و بينه، و سدّت عليه طرق الحيلة في الرّجوع إليه، و قد قيل في ذلك:

ما حال من كان له واحد غيّب عنه ذلك

الواحدو ليس الموت عدما إنّما هو فراق لمحابّ الدّنيا و قدوم على اللّه تعالى، فإذا سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث و هي الذّكر و الفكر و العمل الّذي يفطمه عن شهوات الدّنيا و يبغّض إليه ملاذّها و يقطعه عنها، و كلّ ذلك لا يمكن إلا بصحّة البدن و صحّة البدن لا تنال إلا بالقوت و الملبس و المسكن و يحتاج كلّ واحد إلى أسباب، فالقدر الّذي لا بدّ منه من هذه الثلاثة

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢١

إذا أخذه العبد من الدّنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدّنيا و كانت الدّنيا في حقّه مزرعة الآخرة، و إن أخذ ذلك على قصد التنعّم و لحظّ النّفس صار من أبناء الدّنيا و الرّاغبين في حظوظها إلا أنّ الرّغبة في حظوظ الدّنيا تنقسم إلى ما يعرض

صاحبه لعذاب اللّه في الآخرة و يسمّى ذلك حراما و إلى ما يحول بينه و بين الدّرجات العلى و يعرضه لطول الحساب، و يسمّى ذلك حلالا، و البصير يعلم أنّ طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب «فمن نوقش في الحساب عذّب» فلذلكقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:«حلالها حساب و حرامها عذاب» [١]

وقد قال أيضا:«حلالها عذاب»

إلا أنّه عذاب أخفّ من عذاب الحرام لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت من الدّرجات العلى في الجنّة و ما يرد على القلب من التحسّر على تفويتها بحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها هو أيضا عذاب و قس به حالك في الدّنيا إذا نظرت إلى أقرانك و قد سبقوك بسعادات دنياويّة كيف يتقطّع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنّها سعادات منصرمة لا بقاء لها، و منغّصة بكدورات لا صفاء لها، فما حالك في فوات سعادات لا يحيط الوصف بعظمتها و تنقطع الأزمان و الدّهور دون غايتها، و كلّ من تنعّم في الدّنيا و لو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فهو ينقص من حظّه في الآخرة أضعافه، و التعرّض لجواب السّؤال فيه ذلّ و خوف و خطر و مشقّة و انتظار و كلّ ذلك من نقصان الحظّ، فالدّنيا قليلها و كثيرها حلالها و حرامها ملعونة إلا ما أعان على تقوى اللّه فإنّ ذلك القدر ليس من الدّنيا، و كلّ من كانت معرفته أقوى و أتقن كان حذره من نعيم الدّنيا أشدّ، حتّى أنّ عيسى عليه السّلام وضع رأسه على حجر لمّا نام ثمّ رمى به إذ تمثّل له إبليس و قال:

---

[١]أخرجه ابن أبي الدنيا و البيهقي في شعب الايمان من طريقه موقوفا على على ابن أبي طالب عليه السّلام باسناد منقطع و فيه«و مرامها النار»

و قال العراقي لم أجده مرفوعا.
أقول:اورده الشريف الرضي في النهج تحت رقم ٧٩ من خطبه عليه السّلام هكذا«في حلالها حساب و في حرامها عقاب».

رغبت في الدّنيا. و حتّى أنّ سليمان عليه السّلام في ملكه كان يطعم الناس من لذائذ الأطعمة و هو يأكل خبز الشّعير فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهانا و شدّة فإنّ الصبر عن لذيذ الأطعمة مع وجودها أشدّ، و لهذا زوى اللّه تعالى الدّنيا عن نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكان يطوي أيّاما و كان يشدّ الحجر على بطنه من الجوع و لهذا سلّط اللّه البلاء و المحن على الأنبياء و الأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل كلّ ذلك نظرا لهم و امتنانا عليهم ليتوفّر من الآخرة حظّهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذيذ الفواكه و يلزمه ألم الفصد و الحجامة شفقة عليه و حبّا له لا بخلا عليه، و قد عرفت بهذا أنّ كلّ ما ليس للّه فهو من الدّنيا و ما هو للّه فليس من الدّنيا.
فإن قلت: فما الّذي هو للّه؟ فأقول الأشياء ثلاثة أقسام: منها ما لا يتصوّر أن يكون للّه و هو الّذي يعبّر عنه بالمعاصي و المحظورات و أنواع التنعّمات في المباحات و هي الدّنيا المحضة المذمومة، فهي الدّنيا صورة و معنى، و منها ما صورته للّه و يمكن أن يجعل لغير اللّه و هو ثلاثة الفكر و الذّكر و الكفّ عن الشهوات، فهذه الثلاثة إذا جرت سرّا و لم يكن عليها باعث سوى أمر اللّه و اليوم الآخر فهي للّه و ليست من الدّنيا، و إن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرّف به و طلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحّة البدن

أو الاشتهار بالزّهد، فقد صار هذا من الدّنيا بالمعنى و إن كان يظنّ بصورته أنّه للّه، و منها ما صورته لحظّ النّفس و يمكن أن يجعل معناه للّه و ذلك كالأكل و النكاح و كلّ ما يرتبط به بقاؤه و بقاء ولده فإن كان القصد حظّ النفس فهو من الدّنيا و إن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو للّه بمعناه و إن كانت صورته صورة الدّنيا،قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من طلب الدّنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى اللّه و هو عليه غضبان، و من طلبها استعفافا عن المسئلة و صيانة لنفسه جاء يوم القيامة و وجهه كالقمر ليلة البدر»

فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد فإذا الدّنيا حظّ نفسك العاجل الّذي

لا حاجة إليه لأمر الآخرة و يعبّر عنه بالهوى و إليه الإشارة بقوله تعالى:«و نهى النّفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى».

و اعلم أنّ مجامع الهوى خمسة أمور و هي ما جمعه اللّه عزّ و جلّ في قوله:

«إنّما الحيوة الدّنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأموال و الأولاد»و الأعيان الّتي منها تحصل هذه الأمور الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى:«زيّن للنّاس حبّ الشهوات من النّساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذّهب و الفضّة و الخيل المسوّمة و الأنعام و الحرث ذلك متاع الحيوة الدّنيا و اللّه عنده حسن المآب»فقد عرفت أنّ كلّ ما هو للّه، فليس من الدّنيا، و قدر ضرورة القوت و ما لابدّ منه من مسكن و ملبس فهو للّه إن قصد به وجه اللّه، و الاستكثار منه تنعّم و هو لغير اللّه و بين التنعّم و الضرورة درجة يعبّر عنها بالحاجة، و لها طرفان و واسطة: طرف يقرب من حدّ الضرورة فلا يضرّ فإنّ الاقتصار على حدّ

الضّرورة غير ممكن، و طرف يزاحم جانب التنعّم و يقرب منه و ينبغي أن يحذر، و بينهما وسائط متشابهة «و من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» و الحزم في الحذر و التقوى و التقرّب من حدّ الضّرورة ما أمكن اقتداء بالأنبياء و الأولياء إذ كانوا يردّون أنفسهم إلى حدّ الضّرورة حتّى أنّ اويسا القرنيّ كان يظنّ أهله أنّه مجنون لشدّة تضييقه على نفسه فبنوا له بيتا على باب دارهم فيأتي عليه السنّة و السّنتان و الثلاث ما يرون له وجها و كان يخرج أوّل الأذان و يأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة و كان طعامه أن يلتقط النّوى فكلّما أصاب الحشف خبأها لإفطاره، فإن أصاب ما يقوته من الحشف تصدّق بالنوى و إن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى و اشترى ما يقوته و كان لباسه ما يلفظ إلى المزابل فيلتقط قطع الأكسية فيغسّلها في الفرات و يلفّق بعضها إلى بعض ثمّ يلبسها و كان ذلك لباسه، و كان ربّما مرّ بالصّبيان فيرمونه و يظنّون أنّه مجنون فيقول لهم: يا إخوتاه إن كنتم ترموني فارموني بأحجار صغار فإنّي

أخاف أن تدموني فيحضر وقت الصّلاة و لا أصيب الماء [١]، و هكذا كانت سيرته و لهذا عظّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمرهفقال:«إنّي لأجد نفس الرّحمن من جانب اليمن»

إشارة إليه، و لمّا ولي عمر بن الخطّاب قال: يا أيّها النّاس من كان منكم من أهل العراق فليقم فقاموا، قال: اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة فجلسوا، فقال: اجلسوا إلا من كان من مراد [٢] فجلسوا، فقال: اجلسوا إلا من كان من قرن فجلسوا كلّهم إلا رجلا واحدا فقال له عمر: أقرنيّ أنت؟ فقال: نعم، فقال: أ تعرف أويس بن عامر القرنيّ فوصفه له فقال: نعم و ما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين و اللّه ما فينا

أحمق منه و لا أجنّ منه و لا أوحش منه و لا أدنى منه،فبكى عمر ثمّ قال:ما قلت إلا أنّي سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «يدخل في شفاعته مثل ربيعة و مضر» [۳]

فقال هرم بن حيّان: لمّا سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي همّ إلا أن أطلب اويسا القرنيّ و أسأل عنه حتّى سقطت عليه فوجدته جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضّأ و يغسل ثوبه، قال: فعرفته بالنعت الّذي نعت لي فإذا رجل لحيم، شديد الادمة، محلوق الرأس، كثّ اللّحية، عليه إزار من صوف و رداء من صوف، متغيّر اللّون جدّا، كريه الوجه، متهيّب المنظر، قال: فسلّمت عليه فردّ عليّ و نظر إليّ، فهبت فقلت: حيّاك اللّه من

---

[۱] هذه الخرافة و ما شابهها من الاساطير و المختلقات التي كتبتها يد الاوهام الباطلة و بالحرى أن تكتب في طامور القصاصين، أسفى على هذا التأليف القيم الفخم، يحتوى أمثال هذه الخرافات دون اى ركز أو غميزة. و لقد كان أويس رجلا الهيا مقدما لم يخطأ طريق الحق و الاعتدال شهد مع أمير المؤمنين عليه السّلام صفين و فاز بالشهادة كما نص عليه جمع من الاعلام كالنجاشي و غيره.

[۲] قال الجوهري: مراد: أبو قبيلة من اليمن، و هو مراد بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ. و يقال: كان اسمه يحابر - كمهاجر - فتمرد فسمى مرادا، و هو فعال على هذا القول.

[۳]راجع رجال الكشي ص ٦٥ حديثا طويلا فيه قال النبي صلّى اللّه عليه و آله ذات يوم لاصحابه:«أبشروا برجل من أمتي يقال له: اويس القرنى فانه يشفع لمثل ربيعة و مضر»الحديث و مثله في الاختصاص ص ۷

.

رجل، و مددت يدي لا صافحه فأبى أن يصافحني، فقلت رحمك اللّه يا أويس و غفر لك كيف أنت رحمك اللّه؟ ثمّ خنقتني العبرة من حبّي إيّاه و رقّتي عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتّى بكيت و بكى، ثمّ قال: و أنت فحيّاك اللّه يا هرم بن حيّان كيف أنت يا أخي و من دلّك عليّ؟ قال: قلت: اللّه، فقال: لا إله إلا اللّه سبحان اللّه،إن كان وعد ربّنا لمفعولا،قال: فتعجّبت حين عرفني و لا و اللّه ما رأيته قبل ذلك و لا رآني، فقلت: من أين عرفت اسمي و اسم أبي و ما رأيتك قبل اليوم؟ قال: نبّأني العليم الخبير، عرف روحي روحك حين كلّمت نفسي نفسك، إنّ الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد و إنّ المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا و يتحابّون بروح اللّه و إن لم يلتقوا، يتعارفون و يتكلّمون و إن نأت بهم الدار و تغرّبت بهم المنازل، قال: قلت:

حدّثني رحمك اللّه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحديث أسمعه منك، قال: إنّي لم أدرك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم تكن لي معه صحبة بأبي و امّي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكن رأيت رجالا قد صحبوه و بلغني من حديثه نحوا ممّا بلغك و لست أحبّ أن أفتح هذا الباب على نفسي أن أكون محدّثا أو مفتيا أو قاضيا، في نفسي شغل شاغل عن الناس يا هرم ابن حيّان، فقلت: يا أخي اقرأ عليّ آية من القرآن أسمعها منك و ادع لي بدعوات و أوصني بوصية أحفظها عنك فإنّي احبّك في اللّه حبّا شديدا، قال: فقام و أخذ بيدي على شاطئ الفرات ثمّ قال: أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرّجيم تمّ بكى، ثمّ قال: قال ربّي - و الحق قول ربّي و أصدق الكلام كلامه - ثمّ قرأ:

«و ما خلقنا السموات و الأرض و ما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق و لكنّ أكثرهم لا يعلمون- حتّى انتهى

إلى قوله: -إنّه هو العزيز الرّحيم»فشهق شهقة ظننت أنّه قد غشي عليه، ثمّ قال: يا ابن حيّان مات أبوك حيّان و يوشك أن تموت أنت فإمّا إلى جنّة و إمّا إلى نار، و مات أبوك آدم، و ماتت أمّك حوّاء، و مات نوح، و مات إبراهيم خليل الرّحمن، و مات موسى نجي الرّحمن، و مات داود خليفة الرّحمن، و مات محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو رسول ربّ العالمين، و مات أبوبكر و مات عمر، ثم قال: وا عمراه، قال:

فقلت: رحمك اللّه إنّ عمر لم يمت، قال قد نعاه إليّ ربّي و نعى إليّ نفسي، ثمّ قال: أنا و أنت

في الموتى كأنّه قد كان ثمّ صلّى على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثمّ دعا لي بدعوات خفيّات ثمّ قال:

هذه وصيّتي إليك يا هرم بن حيّان كتاب اللّه و نهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت إليّ نفسي و نفسك عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت و أنذر قومك إذا رجعت إليهم و انصح للامّة جميعا و إيّاك أن تفارق الجماعة قيد شبر فيفارقك دينك و أنت لا تعلم فتدخل النّار يوم القيمة ادع لي و لنفسك ثمّ قال: اللّهمّ إنّ هذا يزعم أنّه يحبّني فيك و زارني من أجلك فعرّفني وجهه في الجنّة، و أدخله عليّ في دارك دار السلام، و احفظه ما دام في الدّنيا حيّا حيثما كان و ضمّ عليه ضيعته و أرضه من الدّنيا باليسير و ما أعطيته من الدّنيا فيسّره له تيسيرا و اجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين و اجزه عنّي خير الجزاء، ثمّ قال: أستودعك اللّه يا هرم بن حيّان و السلام عليك و رحمة اللّه و بركاته، لا أراك بعد اليوم رحمك اللّه لا تطلبني فإنّي اكره الشهرة و الوحدة أحبّ إليّ، إنّي كثير الهمّ شديد الغمّ مع هؤلاء الناس ما دمت حيّا فلا تسأل عنّي و لا تطلبني و اعلم أنّك منّي على بال و إن لم أرك و لم ترني فاذكرني و ادع لي فإنّي سأذكرك و

أدعو لك إن شاء اللّه انطلق أنت ههنا حتّى أنطلق أنا ههنا، فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبى عليّ و فارقته فبكى و أبكاني و جعلت أنظر في قفاه حتّى دخل بعض السكك، ثمّ سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء رحمه اللّه و غفر له.

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدّنيا و قد عرفت ممّا سبق في بيان ذمّ الدّنيا و من سيرة الأنبياء و الأولياء أنّ حدّ الدّنيا كلّ ما أظلّته الخضراء و أقلّته الغبراء إلا ما كان للّه عزّ و جلّ من ذلك، و ضدّ الدّنيا الآخرة و هو كلّ ما أريد به اللّه عزّ و جلّ ممّا يؤخذ بقدر الضرورة من الدّنيا لأجل قوّة طاعة اللّه عزّ و جلّ فذلك ليس من الدّنيا، و يتبيّن هذا بمثال: و هو أنّ الحاجّ إذا حلف أنّه في طريق الحجّ لا يشتغل بغير الحجّ بل يتجرّد له ثمّ اشتغل بحفظ الزاد و علف الجمل و خرز الرّاوية و كلّ ما لابدّ للحجّ منه لم يحنث في يمينه و لم يكن مشغولا بغير الحجّ،

فكذلك البدن مركب النفس يقطع به مسافة العمر فتعهّد البدن بما تبقى به قوّته على سلوك الطريق بالعلم و العمل هو من الآخرة لا من الدّنيا، نعم إذا قصد تلذّذ البدن و تنعّمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفا عن الآخرة و يخشى على قلبه القسوة.

قال الطنافسي: كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيّام طاويا فسمعت في اللّيلة الثامنة مناديا و أنا بين اليقظة و النوم – يقول: ألا إنّ من أخذ من الدّنيا أكثر ممّا يحتاج إليه أعمى اللّه عين قلبه، فهذا بيان حقيقة الدّنيا.

(بيان ماهيّة الدنيا في نفسها) (و اشغالها الّتى استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم) (و خالقهم و موردهم و مصدرهم)

اعلم أنّ الدّنيا عبارة عن أعيان موجودة و للانسان فيها حظّ و له في إصلاحها شغل فهذه ثلاثة أمور قد يظنّ أنّ الدّنيا

عبارة عن آحادها و ليس كذلك أمّا الأعيان الموجودة الّتي الدّنيا عبارة عنها فهي الأرض و ما عليها، قال اللّه تعالى:«إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملا»فالأرض فراش للآدميّين و مهاد و مسكن و مستقرّ، و ما عليها لهم ملبس و مطعم و مشرب و منكح، و يجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام المعادن و النبات و الحيوان، و أمّا المعادن فيطلبها الآدميّ للآلات و الأواني كالنحاس و الرصاص و للنقد كالذّهب و الفضّة و لغير ذلك من المقاصد، و امّا النبات فيطلبها الآدميّ للاقتيات و للتداوي، و أمّا الحيوان فينقسم إلى الإنسان و البهائم، أمّا البهائم فيطلب لحومها للمأكل و ظهورها للمركب و الزّينة، و أمّا الإنسان فقد يطلب الآدميّ أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم و يستسخرهم كالغلمان او ليتمتّع بهم كالجواري و النّسوان و يطلب قلوب الناس ليملكها فيغرس فيها التعظيم و الإكرام و هو الّذي يعبر عنه بالجاه إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميّين فهذه هي الأعيان الّتي يعبّر عنها بالدّنيا و قد جمعها اللّه تعالى في قوله «زيّن للناس

حبّ الشهوات من النساء و البنين» و هذا من الانس «و القناطير المقنطرة من الذّهب و الفضّة»و هذا من الجواهر و المعادن و فيه تنبيه على غيرها من اللآلي و اليواقيت «و الخيل المسوّمة و الأنعام»و هي البهائم و الحيوانات «و الحرث»و هو النبات و الزرع فهذه هي أعيان الدّنيا إلا أنّ لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب و هو حبّه لها و حظّه منها و انصراف همّه إليها حتّى يصير قلبه كالعبد أو المحبّ المستهتر بالدّنيا و يدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلّقة بالدّنيا كالكبر و الغلّ و الحسد و الرّياء و السمعة و سوء الظنّ و المداهنة و حبّ الثناء و حبّ التكاثر و التفاخر فهذه هي الدّنيا الباطنة، و أمّا الظاهرة فهي الأعيان الّتي

ذكرناها. و العلاقة الثانية مع البدن و هو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان ليصلح لحظوظه و حظوظ غيره و هي جملة الصناعات و الحرف الّتي الخلق مشغولون بها و الخلق إنّما نسوا أنفسهم و مآبهم و منقلبهم لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحبّ و علاقة البدن بالشغل و لو عرف نفسه و عرف ربّه و عرف حكمة الدّنيا و سرّها علم أنّ هذه الأعيان الّتي سمّيناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدّابة الّتي تسير بها إلى اللّه تعالى و أعني بالدّابة البدن فإنّه لا يبقى إلا بمطعم و مشرب و ملبس و مسكن، كما لا يبقى الإبل في طريق الحجّ إلا بعلف و ماء و جلال، و مثال العبد في نسيانه نفسه و مقصده مثال الحاجّ الّذي يقف في منازل الطريق و لا يزال يعلف الناقة و يتعهّدها و ينظّفها و يكسوها ألوان الثياب و يحمل إليها أنواع الحشيش و يبرّد لها الماء بالثلج حتّى تفوته القافلة و هو غافل عن الحجّ و عن مرور القافلة و عن بقائه في البادية فريسة للسباع هو و ناقته، و الحاج البصير لا يهمّه من أمر الجمل إلا القدر الّذي يقوى به على المشي فيتعهّده و قلبه إلى الكعبة و الحجّ و إنّما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة، فكذلك البصير في سفر الآخرة لا يشتغل بتعهّد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا للضرورة و لا فرق بين إدخال الطعام في البطن و بين إخراجه من البطن، و أكثر ما شغل الناس عن اللّه هو البطن فإنّ القوت ضروريّ، و أمر الملبس و المسكن أهون و لو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور

و اقتصروا عليها لم يستغرقهم أشغال الدّنيا فانّما استغرقتهم لجهلهم بالدّنيا و حكمتها و حظوظهم منها و لكنّهم جهلوا و غفلوا و تتابعت أشغال الدّنيا و اتّصلت بعضها و تداعت إلى غير نهاية محدودة فتاهوا في كثرة الأشغال و نسوا مقصودها و نحن نذكر تفاصيل أشغال الدّنيا و كيفية حدوث الحاجة

إليها و كيف غلط الناس في مقاصدها حتّى يتّضح لك أنّ أشغال الدّنيا كيف صرفت الخلق عن اللّه و كيف أنستهم عاقبة أمورهم.

فنقول: الأشغال الدّنيويّة هي الحرف و الصناعات و الأعمال الّتي ترى الخلق مكبّين عليها، و سبب كثرة الأشغال هو أنّ الإنسان مضطرّ إلى ثلاث القوت و المسكن و الملبس، القوت للغذاء و البقاء، و الملبس لرفع الحرّ و البرد، و المسكن لذلك و لدفع أسباب الهلاك عن الأهل و المال و لم يخلق اللّه القوت و المسكن و الملبس مصلحا بحيث يستغني عن صنعة الإنسان فيه، نعم خلق اللّه ذلك للبهائم فإنّ النبات يغذي الحيوان من غير طبخ، و الحرّ و البرد لا يؤثّر في أبدانها فيستغني عن البناء و يقنع بالصحراء، و لباسها شعورها و جلودها فتستغني عن اللّباس، و الإنسان ليس كذلك، فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصّناعات و أوائل الأشغال الدّنيويّة و هي الفلاحة و الرّعاية و الاقتناص و الحياكة و البناء، أمّا البناء فللمسكن و الحياكة و ما يكتنفها من الغزل، و الخياطة فللملبس، و الفلاحة فللمطعم، و الرّعاية للمواشي و الخيل و هي أيضا للمطعم و المركب، و الاقتناص يعنى به تحصيل ما خلقه اللّه من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب، فالفلاح يحصّل النباتات، و الرّاعي يحفظ الحيوانات و يستنتجها، و المقتنص يحصّل ما نبت و نتج بنفسه من غير صنعة آدمي و كذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي و نعني بالاقتناص ذلك و يدخل تحته صناعات و أشغال عدّة ثمّ هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات و آلات كالحياكة و الفلاحة و البناء و الاقتناص، و الآلات إنّما تؤخذ إمّا من النبات و هو الأخشاب أو من المعادن كالحديد و الرّصاص و غيرهما أو من جلود الحيوانات، فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع اخر من الصناعات النجارة و الحدادة و الخرز و هؤلاء هم عمّال

الآلات و نعني بالنجّار كلّ عامل على خشب كيفما كان، و بالحدّاد كلّ من عمل على جواهر المعادن

حتّى النحّاس و الإبري و غيرهما، و غرضنا ذكر الأجناس فأمّا آحاد الحرف فكثيرة، و أمّا الخرّاز فنعني به كلّ عامل على جلود الحيوانات و أجزائها فهذه أمّهات الصناعات، ثمّ إنّ الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه و ذلك بسببين أحدهما حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان و لا يكون ذلك إلا باجتماع الذّكر و الأنثى و عشرتهما، و الثاني التعاون على تهيئة أسباب المطعم و الملبس و لتربية الولد فإنّ الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة و الواحد لا يستقلّ بحفظ الولد و تهيئة أسباب القوت، ثمّ ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل و الولد في المنزل، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفّل كلّ واحد بصناعة فانّ الشخص الواحد كيف يتولّى الفلاحة وحده و هو محتاج إلى الآلات، و يحتاج الآلة إلى حدّا و نجّار، و يحتاج الطعام إلى طحّان و خبّاز، و كذلك كيف يتفرّد لتحصيل الملبس و هو يفتقر إلى حراثة القطن و آلات الحياكة و الخياطة و أعمال كثيرة، فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده و حدثت الحاجة إلى الاجتماعات، ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذّوا بالحرّ و البرد و المطر و اللّصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة و منازل يتفرّد أهل كلّ بيت به و بما معه من الآلات و الأثاث و المنازل تدفع الحرّ و البرد و تدفع أذى الجيران من اللّصوصية و غيرها، و لكن جميع المنازل قد تقصدها جماعة من اللّصوص خارج المنازل، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر و التعاون و التحصّن بسور يحيط بجميع المنازل، فحدثت البلاد لهذه الضرورة، ثمّ مهما اجتمع الناس في البلاد و المنازل و تعاملوا تولّدت بينهم خصومات إذ تحدث رئاسة و ولاية للزّوج

على الزوجة، و ولاية للأبوين على الولد لأنّه ضعيف محتاج إلى قوّام به، و مهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم إذ ليس لها قوّة المخاصمة و إن ظلمت و أمّا المرأة فتخاصم الزّوج، و الولد يخاصم الأبوين هذا في المنزل، و أمّا أهل البلد أيضا فيتعاملون في الحاجات و يتنازعون فيها و لو تركوا كذلك لتقاتلوا و هلكوا، و كذلك الرّعاة و أرباب الفلاحة يتواردون على المراعي و الأراضي و المياه و هي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لا محالة ثمّ قد يعجز بعضهم عن

الفلاحة و الصناعة بعمى أو مرض أو هرم أو تعرض عوارض مختلفة لو ترك ضايعا لهلك و لو وكل تفقّده إلى الجميع لتخاذلوا و لو خصّ واحد من غير سبب يخصّه لا يذعن له فحدثت بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات اخر فمنها صناعة المساحة الّتي بها تعرف مقادير الأرض لتمكّن القسمة بينهم بالعدل و منها صناعة الجنديّة لحراسة البلد بالسيف و دفع اللّصوص عنهم و منها صناعة الحكم و التوسّط بينهم لفصل الخصومة و منها الحاجة إلى الفقه و هو معرفة القانون الّذي ينبغي أن يضبط به الخلق و يلزموا الوقوف على حدوده حتّى لا يكثر النزاع و هو معرفة حدود اللّه في المعاملات و شروطها، فهذه أمور سياسيّة لابدّ منها و لا يشتغل به إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من التمييز و العلم و الهداية و إذا اشتغلوا بها لم يتفرّغوا لصناعات اخر و يحتاجون إلى المعائش و يحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مثلا مع الأعداء تعطّلت الصناعات و لو اشتغل أهل الحرب و السلاح بالصناعات لطلب القوت تعطّلت البلاد عن الحرّاس و استضرّ الخلق فمسّت الحاجة إلى أن يصرف إلى معائشهم و أرزاقهم الأموال الضايعة الّتي لا مالك لها إن

كانت أو تصرف إليهم الغنائم إن كانت العداوة مع الكفّار، فإن كانوا أهل ديانة و ورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح، و إن أرادوا التوسّع فتمسّ الحاجة لا محالة إلى أن يمدّهم أهل البلد بأموالهم ليمدّوهم بالحراسة فتحدث الحاجة إلى الخراج ثمّ يتولّد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة إلى صناعات اخر إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين و أرباب الأموال و هم العمّال و إلى من يستوفي منهم بالرّفق و هم الجباة و المستخرجون و إلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة و هم الخزان و إلى من يفرّق عليهم بالعدل و هم العارض للعساكر و هذه الأعمال لو تولاها عدد لا يجمعهم رابط انخرم النظام، فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبّرهم،

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٢

و أمير مطاع يعيّن لكلّ عمل شخصا، و يختار لكلّ واحد ما يليق به، و يراعى النصفة في أخذ الخراج و إعطائه و استعمال الجند في الحرب و توزيع أسلحتهم و تعيين جهات الحرب، و نصب الأمير و القائد على كلّ طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك، فتحدث من ذلك بعد الجند الّذين هم أهل السّلاح و بعد الملك الّذي يراقبهم بالعين الكالئة و يدبّرهم الحاجة إلى الكتّاب و الخزّان و الحسّاب و الجباة و العمّال، ثمّ هؤلاء أيضا يحتاجون إلى المعيشة و لا يمكنهم الاشتغال بالحرف، فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل و هو المسمّى فرع الخراج و عند هذا يكون الناس في الصّناعات ثلاثة طوائف الفلاحون و الرّعاة و المحترفون، و الثانية الجنديّة الحماة لهم بالسيوف، و الثالثة المتردّدون بين الطائفتين في الأخذ و الإعطاء و هم العمّال و الجباة و أمثالهم فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت و المسكن و الملبس و إلى ما ذا انتهى، و هكذا أمور الدّنيا لا يفتح منها باب إلا و ينفتح بسببه عشرة أبواب اخر و هكذا تتناهى إلى غير حدّ محصور و كأنّها هاوية لا نهاية لعمقها و من وقع

في مهواة منها سقط منها إلى أخرى و هكذا على التوالي، فهذه هي الحرف و الصناعات إلا أنّها لا تتمّ إلا بالأموال و الآلات فالمال عبارة عن أعيان الأرض و ما عليها ممّا ينتفع بها و أعلاها الأغذية، ثمّ الأمكنة الّتي يأوي الإنسان إليها و هي الدّور، ثمّ الأمكنة الّتي يسعى فيها للتعيش كالحوانيت و الأسواق و المزارع، ثمّ الكسوة، ثمّ أثاث البيت و آلاته ثمّ آلات الآلات و قد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد، و البقر آلة الحراثة، و الفرس آلة لركوب الحرب، ثمّ يحدث من ذلك حاجة البيع فإنّ الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة و الحدّاد و النجّار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة، فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما و يحتاجان إليه فيحتاج أحدهما إلى أن يبذل ما عنده للآخر حتّى يأخذ منه غرضه و ذلك بطريق المعاوضة إلا أنّ النجّار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى الآلة فلا يبيعه و الفلاح إذا طلب الآلة من النجّار بالطعام ربّما كان عنده طعام في ذلك الوقت

فلا يحتاج إليه فتتعوّق الأغراض فاضطرّوا إلى حانوت تجمع آلة كلّ صنعة يترصّد بها صاحبها أرباب الحاجات و إلى أنبار يجمع إليها ما يحمله الفلاحون فيشتريه منه صاحب الأنبار و يترصّد به أرباب الحاجات، فتظهر لذلك الأسواق و المخازن فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجا باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها لانتظار أرباب الحاجات طمعا في الربح و كذلك في جميع الأمتعة و الأموال، ثمّ يحدث لا محالة بين البلاد و القرى تردّد فيتردّد الناس يشترون من القرى الأطعمة و من البلاد الآلات و ينقلون ذلك فيتعيّشون به لتنتظم أمور الناس في البلاد بسببهم، إذ كلّ بلد ربّما لا يوجد فيه كلّ آلة، و كلّ قرية لا يوجد فيها كلّ طعام فالبعض يحتاج إلى البعض فيحوج إلى النقل فيحدث التجار

المتكفّلون بالنقل و باعثهم عليه حرص جمع المال فيتعبون طول اللّيل و النهار في الأسفار لأغراض غيرهم و نصيبهم منها جمع المال الّذي يأكله لا محالة غيرهم إمّا قاطع طريق و إمّا سلطان ظالم و لكن جعل اللّه في غفلتهم و جهالتهم نظاما للبلاد و مصلحة للعباد بل جميع أمور الدّنيا انتظمت بالغفلة و خساسة الهمّة و لو عقل الناس و ارتفعت همّتهم لزهدوا في الدّنيا و لو فعلوا ذلك لبطلت المعايش و لو بطلت لهلكوا و لهلك الزّهّاد أيضا، ثمّ هذه الأموال الّتي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دوابّ تحملها، و صاحب المال قد لا يملك الدّابّة فتحدث معاملة بينه و بين مالك الدّابّة تسمّى الإجارة و يصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا، ثمّ تحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين فإنّ من يريد أن يشتري طعاما بثوب فمن أين يدري أنّ المقدار الّذي يساويه من الطعام كم هو و المعاملة تجري في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام و حيوان بثوب، و هذه أمور لا تتناسب فلا بدّ من حاكم عدل يتوسّط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب بذلك العدل من أعيان الأموال ثمّ يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأنّ الحاجة إليه تدوم و أبقى الأموال المعادن فاتّخذت النقود من الذّهب و الفضّة و النحاس ثمّ مسّت الحاجة إلى الضرب و النقش و التقدير فحدثت الحاجة إلى دار الضّرب و إلى

الصيارفة و هكذا تتداعى الأشغال و الأعمال بعضها إلى بعض حتّى تنتهي إلى ما تراه فهذه أشغال الخلق و هي معايشهم و شيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلّم و تعب في الابتداء، و في الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل ممّا سعى فيه غيره، فتحدث منه حرفتان خسيستان اللّصوصيّة و الكدية

إذ يجمعهما أنّهما يأكلان من سعي غيرهما، ثمّ إنّ الناس يحترزون عن اللّصوص و المتكدّين و يحفظون منهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم إلى استنباط الحيل و التدبيرات، أما اللّصوص فمنهم من يطلب أعوانا و يكون في بدنه شوكة و قوّة فيجتمعون و يكاثرون و يقطعون الطرق كالأعراب و الأكراد و أمّا الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إمّا بالنقب أو التسلّق عند انتهاز فرصة الغفلة و إمّا بأن يكون طرّارا أو سلالا [١] إلى غير ذلك من أنواع التلصّص الحادثة بحسب ما انتجته الأفكار المصروفة إلى استنباطها، فأمّا المتكدّي فإنّه إذا طلب ما سعى فيه غيره قيل له: اتعب و اعمل كما عمل غيرك فما لك و البطالة فلا يعطى شيئا فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال و تمهيد العذر لأنفسهم في البطالة فاحتالوا للتعلّل بالعجز إمّا بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم و أنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون، و إمّا بالتعامي و التّفالج و التجانن و التمارض و إظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أنّ تلك محنة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرّحمة، و جماعة يلتمسون أفعالا و أقو الا يتعجّب النّاس منها حتّى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها حتّى يسخو برفع

---

[١] قال الفيومى: طررته طرا من باب قتل شققته و منه الطرار و هو الذي يقطع النفقات و يأخذها على غفلة من أهلها، و سل السيف من باب قتل و سللت الشيء: أخذته، و السلة - بالفتح - السرقة و هي اسم من سللته سلا من باب قتل إذا سرقته.

اليد عن قليل من المال في حال التعجّب، ثمّ قد يندم بعد زوال التعجّب و لا ينفع الندم و ذلك قد يكون بالتمسخر و

المحاكاة و الشعبدة و الأفعال المضحكة مثل النوارج و العجابي و قد يكون بالأشعار الغريبة أو الكلام المنثور المسجّع مع حسن الصوت و الشعر الموزون أشدّ تأثيرا في النّفس لا سيّما إذا كان فيه تعصّب يتعلّق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة و فضائل أهل البيت عليهم السلام أو الّذي يحرّك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة البطّالين في الأسواق أو تسليم ما يشبه العوض و ليس بعوض كبيع التعويذات و الحشايش إلى من يخيّل به أنّها أدوية فيخدع بها الصبيان و الجهّال و كأصحاب القرعة و الفال و الزجر من المنجّمين و يدخل في هذه الجنس الوعّاظ المكدّون على رءوس المنابر إذ لم يكن وراءهم طائل علميّ و كان غرضهم استمالة قلوب العوامّ و أخذ أموالهم و أنواع الكدية تزيد على الألف نوع و الألفين و كلّ ذلك استنبطه بدقيق الفكر لأجل المعيشة، فهذه هي أشغال الخلق و أعمالهم الّتي أكبّوا عليها و جرّهم إلى ذلك كلّه الحاجة إلى القوت و الكسوة، و لكن نسوا في أثناء ذلك أنفسهم و مقصودهم و منقلبهم و مآلهم فضلّوا و تاهوا و سبقت إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة أشغال الدّنيا خيالات فاسدة، فانقسمت مذاهبهم و اختلفت آراؤهم على عدّة أوجه فطائفة غلب عليهم الجهل و الغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمرهم فقالوا: المقصود أن نعيش أيّاما في الدّنيا فنجهد حتّى نكسب القوت ثمّ نأكل حتّى نقوى على الكسب ثمّ نكتسب حتّى نأكل فيأكلون ليكسبوا و يكسبون ليأكلوا، فهذه مذاهب الفلاحين و المحترفين و من ليس له تنعّم في الدّنيا و لا قدم في الدّين فإنّه يتعب نهارا ليأكل ليلا و يأكل ليلا ليتعب نهارا و ذلك كسير السواني فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت.

و طائفة أخرى زعموا أنّهم تفطّنوا لأمر و هو أن ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل و لا يتنعّم في الدّنيا بل السعادة في أن يقضي و طره من شهوات

الدّنيا و هي شهوة البطن و الفرج فهؤلاء طائفة نسوا أنفسهم و صرفوا هممهم إلى اتّباع النسوان و جمع لذائذ الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام و يظنّون أنّهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غايات السعادات فيشغلهم ذلك عن اللّه تعالى و اليوم الآخر.

و طائفة ظنّوا أنّ السعادة في كثرة المال و الاستغناء بكنز الكنوز فأسهروا ليلهم و نهارهم في الجمع فهم يتعبون في الأسفار طول اللّيل و النهار و يتردّدون في الأعمال الشاقّة و يكتسبون و يجمعون و لا يأكلون إلا قدر الضرورة شحّا و بخلا عليها أن تنقص و هذه لذّتهم و في ذلك دأبهم و حركتهم إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات و اللّذات فيكون للجامع تعبه و وباله و للآكل لذّته و حسابه، ثمّ إنّ الّذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك في أشباههم و أمثالهم و لا يعتبرون.

و طائفة ظنّوا أنّ السعادة في حسن الاسم و انطلاق الألسن بالثّناء و المدح بالتجمّل و المروّة، فهؤلاء يتعبون في كسب المعايش و يضيقون على أنفسهم في المطعم و المشرب، و يصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة و الدّواب النفيسة، و يزخرفون أبواب الدّور و ما يقع عليه أبصار الناس حتّى يقال: إنّه غنيّ و إنّه ذو ثروة، و يظنّون أنّ ذلك هو السعادة فهمّتهم في ليلهم و نهارهم في تعهّد موقع نظر الخلق.

و طائفة أخرى ظنّوا أنّ السعادة في الجاه و الكرامة بين النّاس و انقياد الخلق بالتواضع و التوقير، فصرفوا همّتهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات و تقلّد الأعمال السلطانيّة لينفذوا أمرهم بها على طائفة من الناس و يرون أنّهم إذا اتّسعت ولايتهم و انقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة و أنّ ذلك غاية المطلب، و هذا أغلب الشهوات على قلوب المتغافلين من الناس فهؤلاء شغلهم حبّ

تواضع الناس لهم عن التواضع للّه و عن عبادته و عن التفكّر في آخرتهم و معادهم، و وراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيّف و سبعين فرقة كلّهم ضلّوا و أضلّوا عن سواء السبيل، و إنّما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم و الملبس و المسكن فنسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة و القدر الّذي يكفي منها و انجرّت بهم أوايل أسبابها

إلى أواخرها، و تداعت بهم إلى مهاوي لم يمكنهم الرقيّ منها، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب و الأشغال و عرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل و حرفة و عمل إلا و هو عالم بمقصوده و عالم بحظّه و نصيبه منه، و إنّ غاية مقصوده تعهّد بدنه بالقوت و الكسوة حتّى لا يهلك و ذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه و فرغ القلب و غلب عليه ذكر الآخرة و انصرفت الهمّة إلى الاستعداد له و إن تعدّى به قدر الضّرورة كثرت الأشغال و تداعى البعض إلى البعض و تسلسل إلى غير نهاية فتشعّب به الهموم، و من تشعّبت به الهموم في أودية الدّنيا فلا يبال اللّه في أيّ واد أهلكه، فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدّنيا.

و تنبّه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدّنيا فحسدهم الشيطان فلم يتركهم و أضلّهم في الأغراض أيضا حتّى انقسموا إلى طوائف فظنّت طائفة أنّ الدّنيا دار بلاء و محنة و أنّ الآخرة دار سعادة لكلّ من وصل إليها سواء تعبّد في الدّنيا أو لم يتعبّد، فرأوا أنّ الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدّنيا و إليه ذهب طوائف من عبّاد الهند فهم يتهجّمون على النار و يقتلون أنفسهم بالإحراق و يظنّون أنّ ذلك خلاص منهم من محن الدّنيا، و ظنّت طائفة أخرى أنّ القتل لا يخلّص بل لابدّ أوّلا من إماتة الصفات البشريّة و قلعها عن النفس بالكلّية و أنّ السّعادة في قطع الشهوة و الغضب، ثمّ أقبلوا على المجاهدة فشدّدوا على أنفسهم حتّى هلك بعضهم

بشدّة الرّياضة، و بعضهم فسد عقله و جنّ، و بعضهم مرض و انسدّت عليه طرق العبادة، و بعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلّية فظنّ أنّ ما كلّفه الشرع محال و أنّ الشرع تلبيس لا أصل له فوقع في الإلحاد و الزندقة، و ظهر لبعضهم أنّ هذا التعب كلّه للّه و أنّ اللّه مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص و لا تزيده عبادة عابد، فعادوا إلى الشّهوات و سلكوا مسلك الإباحة فطووا بساط الشرع و الأحكام و زعموا أنّ ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أنّ اللّه مستغن عن عبادة العباد، و ظنّ طائفة أخرى أنّ المقصود من العبادات المجاهدة حتّى يصل العبد بها إلى معرفة اللّه فإذا حصلت المعرفة فقد وصل و بعد الوصال يستغني عن الوسيلة و الحيلة،

فتركوا السعي و العبادة و زعموا أنّه ارتفع محلّهم في معرفة اللّه سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف و إنّما التكليف على عوام الخلق، و وراء هذا مذاهب باطلة و ضلالة هائلة و خيالات فاسدة يطول إحصاؤها إلى أن يبلغ نيّفا و سبعين فرقة و إنّما الناجي منها فرقة واحدة و هي السالكة ما كان عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه و هو أن لا يترك الدّنيا بالكلّية و لا يقمع الشهوات بالكلّية أمّا الدّنيا فيؤخذ منها قدر الزّاد، و أمّا الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع و العقل، فلا يتّبع كلّ شهوة و لا يترك كلّ شهوة بل يتّبع العدل و لا يترك كلّ شيء من الدّنيا و لا يطلب كلّ شيء من الدّنيا، بل يعلم مقصود كلّ ما يخلق من الدّنيا و يحفظه على حدّ مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، و من المسكن ما يحفظ به من اللّصوص و الحرّ و البرد، و من الكسوة كذلك حتّى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على اللّه بكنه همّه و اشتغل بالذكر و الفكر طول العمر و بقي ملازما لسياسة الشهوات و

مراقبا لها حتّى لا يجاوز حدود الورع و التقوى و لا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة النّاجية.

أقول: و قد عرفت معنى الفرقة الناجية في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات.
قال: و قد كانوا على النهج القصد و على السّبيل الّذي فصّلناه من قبل فإنّهم ما كانوا يأخذون الدّنيا للدّنيا بل للدّين، و ما كانوا يترهّبون و يهجرون الدّنيا بالكلّية، و ما كان لهم في الأمور تفريط و لا إفراط بل كانوا أمرهم بين ذلك قواما و ذلك هو العدل و الوسط بين الطرفين و هو أحبّ الأمور إلى اللّه كما سبق ذكره في مواضع و اللّه المستعان لا ربّ سواه و صلّى اللّه على محمّد و آله أجمعين.
هذا آخر كتاب ذمّ الدّنيا من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و يتلوه إن شاء اللّه كتاب ذمّ المال و الحمد للّه أوّلا و آخرا و ظاهرا و باطنا و صلّى اللّه على محمّد و آله.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٩

كتاب ذمّ المال
بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الحمد للّه مستوجب الحمد برزقه المبسوط، و كاشف الضرّ بعد القنوط، الّذي خلق الخلق، و وسع الرّزق، و أفاض على العالمين أصناف الأموال، و ابتلاهم فيها بتقلّب الأحوال، و ردّدهم فيها بين العسر و اليسر، و الغنى و الفقر، و الطمع و اليأس، و الثروة و الافلاس، و العجز و الاستطاعة، و الحرص و القناعة، و البخل و الجود، و الفرح بالموجود، و الأسف على المفقود، و الإيثار و الإنفاق، و التوسّع و الإملاق، و التّبذير و التقتير، و الرضا بالقليل، و استحقار الكثير، كلّ ذلك ليبلوهم أيّهم أحسن عملا، و ينظر أيّهم آثر الدّنيا على الآخرة بدلا، و ابتغى عن الآخرة عدولا و حولا، و اتّخذ الدّنيا ذخيرة و خولا.

و الصلاة على محمّد الّذي نسخ بملّته مللا، و طوى بشريعته أديانا و نحلا، و على آله و أصحابه الّذين سلكوا سبل ربّهم ذللا و سلّم كثيرا.

أما بعد فإنّ فتن الدّنيا كثيرة الشعب و الأطراف، واسعة الأرجاء و الأكناف، و لكنّ الأموال أعظم فتنها و أطمّ محنها و أعظم فتنة فيها أنّه لا غنى لأحد عنها، ثمّ إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فقد فقد حصل منه الفقر الّذي يكاد أن يكون كفرا، و إن وجد حصل منه الطغيان الّذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسرا، و بالجملة فهي لا تخلو من الفوائد و الآفات، و فوائدها من المنجيات و آفاتها من المهلكات، و تمييز خيرها عن شرّها من المعوصات الّتي لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدّين من العلماء الرّاسخين دون المترسّمين المغترّين، و شرح ذلك مهمّ على الانفراد فإنّ ما ذكرناه في كتاب ذمّ الدّنيا لم يكن نظرا في المال خاصّة بل في الدّنيا عامّة إذا الدّنيا تتناول

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٤٠

كلّ حظّ عاجل و المال بعض أجزاء الدّنيا، و الجاه بعضها، و اتّباع شهوة البطن و الفرج بعضها، و تشفّي الغيظ بحكم الغضب و الحسد بعضها، و الكبر و طلب العلوّ بعضها، و لها أبعاض كثيرة و يجمعها كلّ ما للإنسان فيه حظّ عاجل و نظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده إذ فيه آفات و غوائل و للإنسان من فقده صفة الفقر و من وجوده صفة الغنى، و هما حالتان يحصل بهما الاختبار و الامتحان، ثمّ للفاقد حالتان القناعة و الحرص و إحداهما مذمومة و الأخرى محمودة، و للحريص حالتان طمع فيما في أيدي الناس أو تشمّر للحرف و الصناعات مع اليأس عن الخلق، و الطمع شرّ الحالتين، و للواجد حالتان إمساك بحكم البخل و الشحّ و إنفاق، و إحداهما مذمومة و الأخرى محمودة، و للمنفق حالتان تبذير و اقتصاد و المحمود هو الاقتصاد، و هذه

أمور متشابهة و كشف الغطاء عن الغموض فيها مهمّ فنشرحه في فصول، و هي أربعة عشر فصلا: و هو بيان ذمّ المال، ثمّ مدحه، ثمّ تفصيل فوائد المال و آفاته، ثمّ بيان ذمّ الحرص و الطمع، ثمّ علاج الحرص و الطمع، ثمّ فضيلة السخاء، ثمّ حكايات الأسخياء، ثمّ ذمّ البخل، ثمّ حكايات البخلاء، ثمّ الإيثار و فضله، ثمّ حد السخاء و البخل، ثمّ علاج البخل، ثمّ مجموع الوظائف في المال، تمّ ذمّ الغنى و مدح الفقر.

(بيان ذم المال و كراهة حبه)

قال اللّه تعالى:«يا أيّها الّذين آمنوا لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم عن ذكر اللّه و من يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون» ٦٣: ٩.

و قال اللّه تعالى:«إنّما أموالكم و أولادكم فتنة و اللّه عنده أجر عظيم» ٦٤: ١٥.

و قال تعالى:«من كان يريد الحيوة الدّنيا و زينتها ١١: ١٥- الآية -».

و قال تعالى:«الهيكم التكاثر» ١٠٢: ١.

وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«حبّ المال و الشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء

البقل» [١].

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ما ذئبان ضاريان ارسلا في زريبة غنم بأكثر فسادا من حبّ الشرف و المال و الجاه في دين الرّجل المسلم» [٢].

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«هلك الأكثرون مالا إلا من قال به في عباد اللّه هكذا و هكذا و قليل ما هم».

وقيل: يا رسول اللّه أيّ أمّتك شرّ؟ قال: «الأغنياء».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطائب الطعام و ألوانها و ينكحون أجمل النساء و ألوانها، و

يلبسون ألين الثياب و ألوانها، و يركبون فره الخيل و ألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، و أنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدّنيا يغدون و يروحون إليها، اتّخذوها آلهة من دون إلههم و ربّا دون ربّهم، إلى أمرها ينتهون و لهواهم يتبعون، فعزيمة من محمّد بن عبد اللّه لمن أدرك ذلك الزّمان من عقب عقبكم و خلف خلفكم أن لا يسلّم عليهم و لا يعود مرضاهم و لا يتّبع جنائزهم و لا يوقّر كبيرهم فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام» [٣].

---

[١] قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ و ذكره بعد هذا بلفظ الجاه بدل الشرف.

[٢] أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٢٣ من حديث مالك الأنصاري و صححه و فيه «الشرف» و أيضا «جائعان» بدل «ضاريان» و رواه النسائي في السنن الكبرى هكذا لكن ليس فيها «في زريبة» و للطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد «ما ذئبان ضاريان في زريبة غنم الحديث» و في سنده خالد بن يزيد العمري و هو كذاب و رواه بسند آخر جيد عن أبي هريرة بأدنى اختلاف كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٥١.

[٣]أخرجه البزار عن أبي امامة هكذا«سيكون رجال من أمتي يأكلون الوان الطعام و يشربون الوان الشراب و يلبسون الوان الثياب و يتشدقون في الكلام فأولئك شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم و نبتت عليه اجسامهم»

و في طريقه عبد الرحمن بن زياد بن نعم الافريقى و هو ضعيف في حفظه كما قاله ابن الحجر و قد وثق و الجمهور على تضعيفه كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٥٠. و لم أجد لبقية الحديث أصل.

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«دعوا الدّنيا لأهلها من أخذ من الدّنيا فوق ما يكفيه فقد أخذ حتفه و هو لا يشعر» [١].
وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يقول ابن آدم: مالي مالي، و هل لك من مالك إلا ما تصدّقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت»

وقال رجل: «يا رسول اللّه مالي لا أحبّ الموت؟ فقال: هل معك من مال؟ قال: نعم يا رسول اللّه، قال: قدّم مالك أمامك فإنّ قلب المؤمن مع ماله، إن قدّمه أحبّ أن يلحقه و إن خلّفه أحبّ أن يتخلّف معه».
وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه، و الثاني إلى قبره، و الثالث إلى محشره فالّذي يتبعه إلى قبض روحه فماله، و الّذي يتبعه إلى قبره فأهله، و الّذي يتبعه إلى محشره فعمله».
و قال الحواريّون لعيسى ابن مريم عليه السّلام: مالك تمشي على الماء و لا نقدر على ذلك؟ فقال لهم: «ما منزلة الدّينار و الدّرهم عندكم؟ قالوا: حسن، قال: لكنّهما عندي و المدر سواء».
وكتب سلمان إلى أبي الدّرداء:يا أخي إيّاك أن تجمع من الدّنيا ما لا تؤدّي شكره فإنّي سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «يجاء بصاحب الدّنيا الّذي أطاع اللّه فيها و ماله بين يديه كلّما تكفّأ به الصراط قال له ماله: امض فقد أدّيت حقّ اللّه فيّ، ثمّ يجاء بصاحب الدّنيا الّذي لم يطع اللّه فيها و ماله بين كتفيه كلّما تكفّأ به الصراط قال له ماله: ويلك ألا أدّيت حقّ اللّه فيّ، فما يزال كذلك حتّى

[۱] أخرجه أبو بكر بن لال من حديث انس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير ج ۲ ص ١٦ و رواه البزار و قال: لا يروى الا من هذا الوجه كما في الترغيب ج ٤ ص ١٦٠.

يدعوا بالثبور و الويل» [۱].

و كلّ ما أوردنا في كتاب الزّهد و الفقر في ذمّ الغنى و مدح الفقر يرجع جميعه إلى ذمّ المال فلا نطول بتكريره و كذا كلّ ما ذكرناه في ذمّ الدّنيا فيتناول ذمّ المال بحكم العموم، لأنّ المال أعظم أركان الدّنيا و إنّما نذكر الآن ما ورد في المال خاصّة.

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إذا مات العبد قالت الملائكة: ما قدّم، و قال الناس: ما خلّف».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا تتّخذوا الضيعة فتحبّوا الدّنيا» [۲].

ورويأنّه وضع عليّ عليه السّلام درهما على كفّه، ثمّ قال: «أما إنّك ما لم تخرج عنّي لا تنفعني».

و قيل: إنّ أوّل ما ضرب الدّينار و الدّرهم رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته، ثمّ قبّلهما و قال: من أحبّكما فهو عبدي حقّا.

و قال يحيى بن معاذ: الدّرهم عقرب فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فإنّه إن لدغك قتلك سمّه، قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حلّه و وضعه في حقّه.

و قال: أيضا مصيبتان لم يسمع الأوّلون و الآخرون بمثلها للعبد في ماله عند موته، قيل: و ما هما؟ قال: يؤخذ منه كلّه و يسأل عنه كلّه.

و قيل: ما أعزّ الدّرهم أحد إلا أذلّه.

و قال العلاء بن زياد: تمثّلت لي الدّنيا و عليها من كلّ زينة، فقلت: أعوذ باللّه من شرّك، قالت: إن سرّك أن يعيذك اللّه من شرّي فأبغض الدّينار و الدّرهم.

و ذلك لأنّ الدّينار و الدّرهم هي الدّنيا كلّها إذ يتوصّل بهما إلى جميع أصنافها فمن صبر عنهما صبر عن الدّنيا، و لذلك قيل:

---

[۱] قال العراقي: ليس هو من حديث سلمان انما هو من حديث أبي الدرداء و أنه كتب إلى سلمان كذا رواه البيهقي في الشعب و قال بدل «الدنيا» «المال» و هو منقطع.

[۲] أخرجه الترمذي ج ۹ ص ۲۰۱ من حديث ابن مسعود و فيه «فترغبوا في الدنيا».

إنّي وجدت فلا تظنّوا غيره إنّ التورّع عند هذا الدّرهم

فإذا قدرت عليه ثمّ تركته فاعلم بأنّ تقاك تقوى المسلمو قال غيره:

لا يغرّنك من المرء قميص رقعه أو إزار فوق عظم الساق منه رفعه

أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه أره الدّرهم فانظر حبّه أو ورعه

(بيان مدح المال و الجمع بينه و بين الذم)

اعلم أنّ اللّه سبحانه قد سمّى المال خيرا في مواضع فقال:«إن ترك خيرا ۲: ۱۸۰الآية -» وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«نعم المال الصالح للرّجل الصالح»

و كلّ ما جاء في ثواب الصدقة و الحجّ فهو ثناه على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به و قال تعالى:«و يستخرجا كنزهما رحمة من ربّك»و قال تعالى: ممتنّا على عباده«و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنّات و يجعل لكم أنهارا»وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«كاد الفقر أن يكون كفرا»

و هو ثناء على المال، و لا تقف على وجه الجمع بين المدح و الذمّ إلا بأن تعرف حكمة المال و مقصوده و آفاته و غوائله حتّى ينكشف لك أنّه خير من وجه و شرّ من وجه، و أنّه محمود من حيث هو خير و مذموم من حيث هو شرّ فإنّه ليس هو بخير محض و لا هو شرّ محض، بل هو سبب للأمرين جميعا و ما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة و يذمّ أخرى و لكن البصير المميّز يدرك أنّ المحمود منه غير المذموم و بيانه بالاستمداد ممّا ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات و تفصيل درجات النعم، و القدر المقنع فيه هو أنّ مقصد الأكياس و أرباب البصائر سعادة الآخرة الّتي هي النعيم الدّائم و الملك المقيم و القصد إلى هذا دأب

الكرام و الأكياس، إذقيل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من أكرم الناس و أكيسهم؟ فقال:

«أكثرهم للموت ذكرا و أشدّهم له استعدادا»

و هذه السعادات لا تنال إلا بثلاثة و سائل في الدّنيا و هي الفضائل النفسيّة كالعلم و حسن الخلق، و الفضائل البدنيّة كالصحّة و السلامة، و الفضائل الخارجة عن البدن كالمال و سائر الأسباب و أعلاها النفسيّة ثمّ البدنيّة ثمّ الخارجة، و الخارجة أخسّها، و المال من جملة الخارجات و أدناها الدّراهم و الدّنانير فإنّهما خادمان و لا خادم لهما و يرادان لغيرهما و لا يرادان لذاتهما إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب

سعادتها و أنّها تخدم العلم و المعرفة و مكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها، و البدن يخدم النّفس بواسطة الحواسّ و الأعضاء، و المطاعم و الملابس تخدم البدن.

و قد سبق أنّ المقصود من المطاعم إبقاء البدن و من المناكح إبقاء النسل و من البدن تكميل النفس و تزكيتها و تزيينها بالعلم و الخلق، و من عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال و وجه شرفه و أنّه من حيث هو ضرورة المطاعم و الملابس الّتي هي ضرورة بقاء البدن الّذي هو ضرورة كمال النفس الّذي هو خير، و من عرف فائدة الشيء و غايته و مقصده و استعمله لتلك الغاية ملتفتا إليها غير ناس لها فقد أحسن و انتفع و كان ما يحصل الغرض محمودا في حقّه، فإذن المال آلة و وسيلة إلى مقصود صحيح و يصلح أن يتّخذ آلة و وسيلة إلى مقاصد فاسدة و هي المقاصد الصادّة عن سعادة الآخرة و تسدّ سبيل العلم و العمل، فهو إذا محمود مذموم، محمود بالإضافة إلى المقصود المحمود و مذموم بالإضافة إلى المقصود المذموم، فمن أخذ من الدّنيا أكثر ممّا يكفيه فقد أخذ حتفه و هو لا يشعر كما ورد في الخبر، و لمّا كانت الطباع مائلة إلى اتّباع الشهوات القاطعة لسبيل اللّه و كان المال مسهّلا لها و آلة إليها عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شرّه حتّىقال نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«اللّهمّ اجعل قوت آل محمّد كفافا»

فلم يطلب من الدّنيا ما لم يتمحّض خيره، وقال:«اللّهمّ

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٤٦

أحيني مسكينا و أمتني مسكينا».

و استعاذ إبراهيم صلوات اللّه عليه فقال:«و اجنبني و بنيّ أن نعبد الأصنام»و في بعض التفاسير أنّه عنى به هذين الحجرين الذّهب و الفضّة إذ رتبة النبوّة أجلّ من أن يخشى

عليها أن تعتقد الالهيّة في شيء من هذه الحجارة، إذ قد كفي قبل النبوّة عبادتها مع الصغر، و إنّما معنى عبادتهما حبّهما و الاغترار بهما و الرّكون إليهما،قال نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«تعس عبد الدّرهم تعس عبد الدّينار تعس و انتكس و إذا شيك فلا انتقش» [١]

فبيّن أنّ محبّتهما عابد لهما و من عبد حجرا فهو عابد صنم، بل كلّ من كان عبدا لغير اللّه فهو عابد صنم، أي من قطعه ذلك عن اللّه تعالى و عن أداء حقّه فهو كعابد صنم، و هو شرك إلا أنّ الشرك شركان شرك خفيّ لا يوجب الخلود في النار و قلّما ينفكّ عنه المؤمنون فإنّه أخفى من دبيب النمل و شرك جليّ يوجب الخلود في النار.

(بيان تفصيل آفات المال و فوائده)

اعلم أنّ المال مثل حيّة فيها سمّ و ترياق ففوائده ترياقه و غوائله سمومه فمن عرف غوائله و فوائده أمكنه أن يحترز من شرّه و يستدرّ من خيره.

أما الفوائد:

فهي تنقسم إلى دنيويّة و دينيّة، و أمّا الدنيويّة فلا حاجة إلى ذكرها فإنّ معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق و لولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها، و أمّا الدّينيّة فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع:

النوع الأوّل: أن ينفقه على نفسه

إمّا في عبادة أو في الاستعانة على عبادة، أمّا

---

[١] أخرجه البخاري ج ٤ ص ٤١ و ٤٢ في حديث عن أبي هريرة. و قوله «تعس» اى عثر و انكب بوجهه و هو دعاء عليه بالهلاك. و قوله: «و انتكس» اى انقلب على رأسه و هو دعاء عليه بالخيبة، لان من انتكس في امره فقد خاب و خسر، و قوله: «اذا شيك فلا انتقش» اى إذا شاكه شوكة فلا يقدر على انتقاشها و هو إخراجها بالمنقاش. (النهاية)

في العبادة فهو كالاستعانة به على الحجّ و الجهاد فإنّه لا يتوصّل إليهما إلا بالمال و هما من أمّهات القربات، و الفقير محروم عن فضلهما، و أمّا فيما يقوّيه على العبادة فذلك هو المطعم و الملبس و المسكن و المنكح و ضرورات المعيشة، فإنّ هذه الحاجات إذا لم تتيسّر كان القلب منصرفا إلى تدبيرها فلا يتفرّغ للدّين و مالا يتوصّل إلى العبادة إلا به فهو عبادة فأخذهم الكفاية من الدّنيا لأجل الاستعانة على الدّين من الفوائد الدّينيّة، و لا يدخل في هذا التنعّم و الزّيادة على الحاجة، فإنّ ذلك من حظوظ الدّنيا فقط.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس

و هي أربعة أقسام: الصدقة و المروّة و وقاية العرض و أجرة الاستخدام، أمّا الصدقة فلا يخفى ثوابها و أنّها لتطفئ غضب الرّبّ تعالى و قد ذكرنا فضائلها، و أمّا المروّة فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء و الأشراف في ضيافة و هديّة و إعانة و ما يجري مجراها، فإنّ هذه لا تسمّى صدقة، بل الصدقة ما يسلّم إلى المحتاج إلا أنّ هذا أيضا من الفوائد الدّينيّة إذ به يكتسب العبد الإخوان و الأصدقاء و به يكتسب صفة السخاء و يلتحق بزمرة الأسخياء، فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف و يسلك سبيل الفتوّة و المروّة، و هذا أيضا ممّا يعظم الثواب فيه، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا و الضيافات و إطعام الطعام من غير اشتراط الفقر و الفاقة في مصارفها، و أمّا وقاية العرض فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء و ثلب السّفهاء و قطع ألسنتهم و دفع شرّهم، و هذا أيضا مع تنجّز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدّينيّة أيضاقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة» [١] و كيف لا يكون كذلك و فيه منع المغتاب عن معصية الغيبة و احتراز عمّا يثور من كلامه من العداوة الّتي تحمله في المكافأة و الانتقام

على مجاوزة حدود الشريعة، و أمّا الاستخدام فهو أنّ الأعمال الّتي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه

---

[١] أخرجه أبو يعلى من حديث جابر و الدار قطنى و الخرائطي و البيهقي في شعب الايمان أيضا في حديث عن جابر بسند حسن كما في المغني و أخرجه الحاكم في المستدرك بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

كثيرة و لو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته و تعذّر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر و الذكر الّذي هو أعلى مقامات السالكين، و من لا مال له فيفتقر إلى أن يتولّى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام و طحنه و كنس البيت حتّى نسخ الكتاب الّذي يحتاج إليه و كلّ ما يتصوّر أن يقوم به غيرك و يحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به إذ عليك من العلم و العمل و الفكر و الذّكر مالا يتصوّر أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسران.

النوع الثالث: مالا يصرفه إلى إنسان معيّن

و لكن يحصل به خير عامّ كبناء المسجد و القناطير و الرباطات و دار المرضى و نصب الحباب في الطرق و غير ذلك من الأوقاف المرصّدة للخيرات، و هي من الخيرات المؤبّدة الدّارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية، و ناهيك به خيرا فهذه جملة فوائد المال في الدّين سوى ما يتعلّق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذلّ السؤال و حقارة الفقر و الوصول إلى العزّ و المجد بين الخلق و كثرة الإخوان و الأعوان و الأصدقاء و الوقار و الكرامة في القلوب فكلّ ذلك ممّا يقتضيه المال من الحظوظ الدّنيويّة.

و أما الافات:

فدينيّة و دنيويّة أمّا الدّينيّة فثلاثة:

الأولى أنّه يجرّ إلى المعاصي

فإنّ الشهوات متفاضلة و العجز قد يحول بين المرء و بين المعصية و من العصمة أن لا يقدر، و مهما كان الإنسان آيسا عن نوع من المعصية لم تتحرّك داعيته إليها فإذا استشعر القدرة عليه انبعثت الدّاعية، و المال نوع من القدرة يحرّك داعية المعاصي و ارتكاب الفجور فإن اقتحم ما اشتهاه هلك و إن صبر وقع في شدّة إذ الصبر مع القدرة أشدّ و فتنة السرّاء أعظم من فتنة الضرّاء.

الثانية أنّه يجر إلى التنعّم في المباحات

و هذا أوّل الدّرجات فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير و يلبس الثوب الخشن و يترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان عليه السّلام في ملكه فأحسن أحواله أن يتنعّم بالدّنيا و يمرّن عليه نفسه، فيصير التنعّم مألوفا عنده و محبوبا لا يصبر عنه و يجرّه البعض منه إلى البعض، و إذا أشتدّ انسه به ربّما لا يقدر على التوصّل إليه بالكسب الحلال

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٤٩

فيقتحم الشبهات و يخوض في المراياة و المداهنة و الكذب و النفاق و ساير الأخلاق الرّديّة لينتظم له أمر دنياه و يتيسّر له تنعّمه، فإنّ من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس و من احتاج إلى الناس فلابدّ و أن ينافقهم و يعصي اللّه في طلب رضاهم فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى و هي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلا، و من الحاجة إلى الخلق تثور العداوة و الصّداقة و ينشأ عنه الحسد و الحقد و الرّياء و الكبر و الكذب و الغيبة و النميمة و سائر المعاصي الّتي تخصّ القلب و اللّسان و لا يخلو عن التعدّي أيضا إلى سائر الجوارح، و كلّ ذلك يلزم من شؤم المال و الحاجة إلى حفظه و إصلاحه.

الثالثة و هي الّتي لا ينفكّ عنها أحد و هو أنّه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر اللّه تعالى

و كلّ ما شغل العبد عن اللّه فهو خسران، و لذلك قال عيسى عليه السّلام: في المال ثلاث آفات أن يأخذه من غير حلّه فقيل: إن أخذه من حلّه، قال: يضعه في غير حقّه، فقيل: إن وضعه في حقّه، فقال: يشغله إصلاحه عن اللّه، و هذا هو الدّاء العضال، فإنّ أصل العبادات و مخّها و سرّها ذكر اللّه تعالى و التفكّر في جلاله و ذلك يستدعي قلبا فارغا و صاحب الضيعة يمسي و يصبح متفكّرا في خصومة الفلاح و محاسبته، و خصومة الشركاء و منازعتهم في الماء و الحدود، و خصومة أعوان السّلطان في الخراج، و خصومة الاجراء في التقصير في العمارة، و خصومة الفلاحين في خيانتهم و سرقتهم، و صاحب التجارة يكون متفكّرا في خيانة شريكه و انفراده بالرّبح و تقصيره في العمل و تضييعه للمال، و كذلك صاحب المواشي، و هكذا سائر أصناف الأموال، و أبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنوز تحت الأرض و لا يزال بالفكر متردّدا فيما يصرف إليه و في كيفيّة حفظه، و في الخوف ممّن يعثر عليه، و في دفع أطماع الناس عنه، و أودية أفكار أهل الدّنيا لا نهاية لها و الّذي معه قوت يومه في سلامة عن جميع ذلك فهذه جملة الآفات الدّينيّة سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدّنيا من الخوف و الحزن و الغمّ و الهمّ و التعب في دفع الحسّاد و تجشّم المصاعب في حفظ الأموال و كسبها فإذن ترياق المال أخذ القوت و صرف الباقي إلى الخيرات و ما عداه سموم و آفات.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٥٠

(بيان ذم الحرص و الطمع) (و مدح القناعة و اليأس مما في أيدي الناس)

اعلم أنّ الفقر محمود كما أوردناه في كتاب الفقر و لكن ينبغي أن يكون الفقير قانعا منقطع الطمع عن الخلق، غير

ملتفت إلى ما في أيديهم و لا حريصا على اكتساب المال كيف كان و لا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم و الملبس، و يقتصر على أقلّه قدرا و أخسّه نوعا، و يردّ أمله إلى يومه أو إلى شهره، و لا يشغل قلبه بما بعد الشّهر فإن تشوّق إلى الكثرة أو طول الأمل فاته عزّ القناعة و تدنّس لا محالة بالطمع و ذلّ الحرص، و جرّه الحرص و الطمع إلى مساوي الأخلاق و ارتكاب المنكرات الخارقة للمروّات و قد جبل الآدميّ على الحرص و الطمع و قلّة القناعة،قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لو كان لابن آدم و اديان من ذهب لابتغى وراءهما ثالثا، و لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب و يتوب اللّه على من تاب».

وعن أبي واقد اللّيثي قال:كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا أوحى إليه أتيناه يعلمنا بما أوحي إليه فجئته ذات يوم، فقال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: إنّا أنزلنا المال لإقام الصلاة و إيتاء الزكاة، و لو أنّ لابن آدم واديا من ذهب لأحبّ أن يكون إليه الثاني، و لو كان له الثاني لأحبّ أن يكون إليهما الثالث، و لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب و يتوب اللّه على من تاب».

وقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«منهومان لا يشبعان: منهوم العلم و منهوم المال».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يهرم ابن آدم و يشبّ معه اثنتان الأمل و حبّ المال أو كما قال».

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٥١

و لمّا كانت هذه جبلّة للآدميّ مضلّة، و غريزة مهلكة أثنى اللّه تعالى و رسوله على القناعة، وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«طوبى لمن هدي للإسلام و كان عيشه كفافا و قنع به».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ما من أحد غنيّ و لا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنّه كان أوتي قوتا في الدّنيا» [١].

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ليس الغنى عن كثرة العرض، إنّما الغنى غنى النّفس».

و نهى عن شدّة الحرص و المبالغة في الطلبفقال:«ألا أيّها الناس اجملوا في الطلب فإنّه ليس للعبد إلا ما كتب له، و لن يذهب عبد من الدّنيا حتّى يأتيه ما كتب له في الدّنيا و هي راغمة».

وروي أنّ موسى عليه السّلام سأل ربّه تعالى فقال:«أيّ عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم لما أعطيته، قال: فأيّهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه».

وقال ابن مسعود: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ روح القدس نفث في روعي إنّ نفسا لن تموت حتّى تستكمل رزقها فاتّقوا اللّه و أجملوا في الطلب».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إذا اشتدّ بك الجوع فعليك برغيف و كوز من ماء و على الدّنيا الدّمار».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«كن ورعا تكن أعبد الناس، و كن قانعا تكن أشكر الناس، و أحبّ للناس ما تحبّ لنفسك تكن مؤمنا».

---

[١] أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤٠ باسناده عن نفيع عن انس، و قال السيوطي:

هذا الحديثأورده ابن الجوزي في الموضوعات و أعله بنفيع فانه متروك، و هو مخرج في مسند أحمد و له شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه الخطيب في تاريخه.

و نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الطمع فيمارواه أبو أيّوب الأنصاري أنّ أعرابيّا أتى النبيّ صلّى اللّه

عليه و آله و سلّم فقال:يا رسول اللّه عظني و أوجز، فقال: «إذا صلّيت فصلّ صلاة مودّع، و لا تحدثنّ بحديث تعتذر منه غدا، و أجمع اليأس عمّا في أيدي الناس».

وقال عوف بن مالك:كنّا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول اللّه؟ قلنا: أو ليس قد بايعناك يا رسول اللّه؟ ثمّ قال: ألا تبايعون رسول اللّه؟ فبسطنا أيدينا فبايعناه، و قال قائل منّا: قد بايعناك فعلى ما ذا نبايعك؟ قال: أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا، و الصلوات الخمس، و تسمعوا و تطيعوا، - و أسرّ كلمة خفيّة - و لا تسألوا الناس شيئا. قال: و لقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يناوله إيّاه.

الاثار

قيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلّة تمنّيك و رضاك بما يكفيك.

و قال ابن مسعود: ما من يوم إلا و ملك ينادي يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

و قيل لحكيم: ما مالك؟ قال: التجمّل في الظاهر، و القصد في الباطن، و اليأس ممّا في أيدي الناس.

ويروى أنّ اللّه عزّ و جلّ قال:يا ابن آدم لو كانت الدّنيا كلّها لك لم يكن لك منها إلا القوت فإذا أنا أعطيتك منها القوت و جعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن.

و قيل لبعض الحكماء: أيّ شيء أسرّ للعاقل، و أيّها أعون على دفع الحزن؟ قال: أسرّها إليه ما قدم من صالح العمل، و أعونها له على دفع الحزن الرّضا بمحتوم القدر.

و قال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غمّا الحسود، و أهنأهم عيشا القنوع، و أصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، و أخفضهم عيشا أرفضهم للدّنيا،

و أعظمهم ندامة العالم المفرط. و قد قيل:

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة إنّ الّذي
قسم الأرزاق يرزقه

فالعرض منه مصون لا يدنّسه و
الوجه منه جديد ليس يخلقه

إنّ القناعة من يحلل بساحتها لم يلق
في دهره شيئا يؤرّقهو عاتب أعرابيّ أخاه على الحرص فقال: يا أخي أنت طالب و مطلوب يطلبك ما لا تفوته و تطلب أنت ما قد كفيته، و كلّ ما قد غاب عنك قد كشف لك و ما أنت فيه قد نقلت عنه كأنّك يا أخي لم تر حريصا محروما و زاهدا مرزوقا. و قيل:

أراك يزيدك الإثراء حرصا على الدّنيا
كأنّك لا تموت

فهل لك غاية إن صرت يوما إليها
قلت حسبي قد رضيت؟و قال الشعبيّ: حكي أنّ رجلا صاد قنبرة قالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال:
أذبحك و أكلك، قالت: و اللّه ما أشفي من قرم و لا أشبع من جوع و لكن اعلّمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي أمّا واحدة فاعلّمك و أنا في يدك، و أمّا الثانية فإذا صرت على الشجرة، و أمّا الثالثة فإذا صرت على الجبل، قال: هات الأولى قالت: لا تلهفنّ على ما فات، فخلاها فلمّا طارت على الشجرة قال: هات الثانية قالت: لا تصدّقنّ بما لا يكون أنّه يكون، ثمّ طارت فصارت على الجبل و قالت:
يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درّتين في كلّ واحدة عشرون مثقالا، قال: فعضّ على شفتيه و تلهّف و قال: هات الثالثة، فقالت: أنت قد نسيت الثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تلهفنّ على ما فاتك و لا تصدّقنّ ما لا يكون ألا إنّ لحمي و دمي و ريشي لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون في حوصلتي درّتان في كلّ واحدة عشرون مثقالا؟ ثمّ طارت فذهبت، و هذا مثال لفرط طمع الآدميّ فإنّه يعميه عن درك الحقّ حتّى يقدّر مالا يكون أنّه يكون.

و قال عبد اللّه بن سلام لكعب: ما يذهب العلم من قلوب العلماء بعد إذ وعوه و عقلوه؟ قال: الطمع و شره النفس و طلب الحوائج، فقال رجل للفضيل: فسّر لي قول كعب، قال: يطمع الرّجل في الشيء فيطلبه فيذهب عليه دينه، و شره النفس

في هذا و في هذا حتّى لا تحبّ أن يفوتها شيء، و يكون لك إلى هذا حاجة و إلى هذا حاجة، فإذا قضاها لك خزم أنفك و قادك حيث شاء، و استمكن منك و خضعت له، فمن حبّك للدّنيا سلّمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض، لم تسلّم عليه للّه تعالى و لم تعده للّه فلو لم تكن لك إليه حاجة كان خيرا لك، ثمّ قال: هذا خير لك من مائة حديث عن فلان و فلان.

و قال بعض الحكماء: من عجيب أمر الإنسان أنّه لو نودي بدوام البقاء في أيّام الدّنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر ممّا قد استعمله مع قصر مدّة التمتّع و توقّع الزّوال.

و قال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له: من أين تأكل؟ فقال:

من بيدر اللّطيف الخبير الّذي خلق الرحى يأتيها بالطحين، و أومأ بيده إلى رحى أضراسه.

(بيان علاج الحرص و الطمع) (و الدواء الذي يكتسب به صفة القناعة)

اعلم أنّ هذا الدّواء مركّب من ثلاثة أركان الصبر و العلم و العمل و مجموع ذلك خمسة أمور:

الأوّل و هو العمل:

الاقتصاد في المعيشة و الرّفق في الإنفاق فمن أراد عزّ القناعة فينبغي أن يسدّ على نفسه أبواب الخرج ما أمكنه و يردّ نفسه إلى ما لا بدّ له فإنّ من كثر خرجه و اتّسع إنفاقه لم

تمكنه القناعة بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن، و يقنع بأيّ طعام كان، و يقلّل من الادام ما أمكنه، و يوطّن نفسه عليه و إن كان له عيال فيردّ كلّ واحد منهم إلى هذا القدر فإنّ هذا القدر يتيسّر بأدنى جهد و يمكن معه الإجمال في الطلب، فالاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة و نعني به الرّفق في الإنفاق و ترك الخرق فيه.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اللّه يحبّ الرّفق في الأمر كلّه».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ما عال من اقتصد».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ثلاث منجيات: خشية اللّه في السرّ و العلانية، و القصد في الغنى و الفقر، و العدل في الرّضا و الغضب».

ورويأنّ رجلا أبصر أبا الدّرداء يلتقط حبّا من الأرض و يقول: إنّ من فقهك رفقك في معيشتك.

وقال ابن عبّاس: قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«الاقتصاد و حسن السمت و الهدي الصالح جزء من بضع و عشرين جزءا من النبوّة» [١].

و في الخبر «التدبير نصف المعيشة».

وقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من اقتصد أغناه اللّه، و من بذّر أفقره اللّه، و من ذكر اللّه عزّ و جلّ أحبّه اللّه» [٢].

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتّى يجعل اللّه لك فرجا و مخرجا»

و التؤدة في الإنفاق من أهمّ الأمور.

[١] أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٤٨ عن ابن عباس و قيل في معناه: ان الطريقة الصالحة و حسن الهيئة و سلوك القصد في الأمور هي التي منحها اللّه تعالى أنبياءه (ع) فاقتدوا بهم فيها و تابعوهم عليها. و ليس معنى الحديث أن النبوة تتجزى و لا أن من جمع له هذه الخصال كان فيه جزء من النبوة فان النبوة غير مكتسبة، و انما هي كرامة من اللّه لمن أراد إكرامه بها من عباده و قد ختمت بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و الخبر رواه أيضا الطبراني في الكبير عن ابن سرخس بسند حسن كما في الجامع الصغير بتقديم و تأخير في كلاهما.

[٢]أخرجه البزار عن طلحة بن عبيد اللّه دون قوله«و من ذكر اللّه أحبه اللّه»بسند ضعيف كما في الجامع الصغير

.

الثانيّ أنّه إذا تيسّر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل الاستقبال، و يعينه على ذلك قصر الأمل و التحقّق بأنّ الرّزق الّذي قدّر له لا بدّ و أن يأتيه و إن لم يشتدّ حرصه، فإنّ شدّة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقا بوعد اللّه تعالى إذ قال:«و ما من دابّة في الأرض إلا على اللّه رزقها» ١١: ٦و ذلك لأنّ الشيطان يعده الفقر و يأمره بالفحشاء و يقول: إن لم تحرص على الجمع و الادّخار فربّما تمرض و ربّما تعجز و تحتاج إلى احتمال الذّل في السّؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفا من التعب و يضحك عليه في احتمال التعب نقدا مع الغفلة عن اللّه لتوهّم تعبه في ثاني الحال و ربّما لا يكون، و في مثله قيل:

و من ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالّذي فعل الفقروقد دخل ابنا خالد على رسول اللّه

صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال لهما: «لا تيأسا من الرّزق ما تهزّزت رءوسكما فإنّ الإنسان تلده أمّه أحمر ليس عليه قشر، ثمّ يرزقه اللّه تعالى».

ومرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بابن مسعود و هو حزين فقال له: «لا تكثر همّك ما قدّر يكن و ما ترزق يأتك».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ألا أيّها النّاس أجملوا في الطلب، فإنّه ليس لعبد إلا ما كتب له و لن يذهب عبد من الدّنيا حتّى يأتيه ما كتب له من الدّنيا و هي راغمة»

و لا ينفكّ الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقة بتدبير اللّه في تقدير أرزاق العباد و أنّ ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أنّ رزق اللّه للعبد من حيث لا يحتسب أكثر، قال اللّه تعالى:«و من يتّق اللّه يجعل له مخرجا و يرزقه

من حيث لا يحتسب»فإذا انسدّ عليه باب كان ينتظر الرّزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله،قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أبى اللّه أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب».

و قال بعضهم: اتّق اللّه فما رأيت تقيّا محتاجا. أي لا يترك التقيّ فاقدا لضرورته بل يلقي اللّه في قلوب المؤمنين أن يوصلوا إليه رزقه.

قال الفضيل: قلت لأعرابيّ: من أين معاشك؟ قال: نذر الحاجّ، قلت:

فإذا صدروا؟ فبكى و قال: لو لم نعش إلا من حيث ندري لم نعش.

و قال أبو حازم: وجدت الدّنيا شيئين شيئا منهما هو لي فإن أعجّله قبل أجله لا يصل و لو طلبته بقوّة السماوات و

الأرض، و شيئا منهما هو لغيري فذلك لم أنله فيما مضى و لا أرجوه فيما بقي، يمنع الّذي لغيري منّي كما يمنع الّذي لي من غيري، ففي أيّ هذين أفنى عمري؟ فهذا دواء من جهة المعرفة لا بدّ منه لدفع تخويف الشيطان و إنذاره بالفقر.

الثالث أن يعرف ما في القناعة من عزّ الاستغناء و ما في الطمع و الحرص من الذّل فإذا تحقّق له ذلك انبعث رغبته إلى القناعة لأنّه في الحرص لا يخلو من تعب و في الطمع لا يخلو من ذلّ و ليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات و الفضول و هذا ألم لا يطّلع عليه أحد إلا اللّه و فيه ثواب الآخرة و ذلك ممّا يضاف إليه نظر الناس و فيه الوبال و الإثم ثمّ يفوته عزّ النفس و القدرة على متابعه الحقّ فإنّ من كثر طمعه و حرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحقّ و يلزمه المداهنة و ذلك يهلك دينه و من لا يؤثر عزّ النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان،قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس» [١].

---

[١] أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣٢٥ و صحح اسناده و أبو الشيخ في كتاب الثواب و أبو نعيم في الحلية كلهم من حديث سهل بن سعد أن جبرئيل قاله للنبي (ص) في اثناء حديث و فيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة و كلاهما مختلف فيه و جعله القضاعي في مسند الشهاب من قول النبي صلّى اللّه عليه و آله كما المغني.

ففي القناعة الحرمة و العزّ و لذلك قيل: استغن عمّن شئت تكن نظيره، و احتج إلى من شئت تكن أسيره، و أحسن إلى من شئت تكن أميره.

الرّابع أن يكثر تأمّله في تنعّم اليهود و النصارى و أراذل الناس و الحمقاء من الأكراد و الأعراب و من لا دين لهم و لا عقل، ثمّ ينظر إلى أحوال الأنبياء و الأولياء و إلى سمت الصحابة و التابعين و يستمع أحاديثهم و يطالع أحوالهم و يخير عقله بين أن يكون على مشابهة أرذل الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعزّ أصناف الخلق عند اللّه حتّى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك و القناعة باليسير فإنّه إن تنعّم في البطن فالحمار أكثر أكلا منه، و إن تنعّم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه، و إن تزيّن في الملبس و الخيل ففي اليهود و النصارى من هو أعلى رتبة منه، و إن قنع بالقليل و رضي به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء و الأولياء.

الخامس أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرناه من آفات المال و ما فيه من خوف السرقة و النهب و الضياع و ما في خلوّ اليد من الأمن و الفراغ و يتأمّل ما ذكرناه من آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنّة إلى خمسمائة عام فإنّه إذا لم يقنع بما يكفيه التحق بزمرة الأغنياء و أخرج من جريدة الفقراء و يتمّ ذلك بأن ينظر أبدا إلى من هو دونه في الدّنيا لا إلى من هو فوقه فإنّ الشيطان أبدا يصرف نظره في الدّنيا إلى من هو فوقه فيقول: لم تفتر عن الطلب؟ و أرباب الأموال يتنعّمون في المطاعم و الملابس و يصرف نظره في الدّين إلى من هو دونه فيقول: و لم تضيق على نفسك و تخاف اللّه؟ و فلان أعلم منك و هو لا يخاف اللّه و الناس كلّهم مشغولون بالتنعّم فلم تريد أن تتميّز عنهم؟.قال أبو ذرّ:أوصاني خليلي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي»

أي في الدّنيا.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٥٩

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إذا نظر أحدكم إلى من فضّله اللّه عليه في المال و الخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممّن فضّل عليه»

فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة و عماد الأمر الصبر و قصر الأمل و أن يعلم أنّ غاية صبره في الدّنيا أيّام قلائل ليتمتّع دهرا طويلا فيكون كالمريض الّذي يصبر على مرارة الدّواء لشدّة طمعه في انتظار الشفاء.

(بيان فضيلة السخاء)

اعلم أنّ المال إن كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة و قلّة الحرص و إن كان موجودا فينبغي أن يكون حاله الإيثار و السّخاء و اصطناع المعروف و التباعد من الشحّ و البخل فإنّ السخاء من أخلاق الأنبياء و هو أصل من أصول النّجاة و عنه عبّر النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيثقال:«السخاء شجرة من شجر الجنّة أغصانها متدلّية إلى الأرض فمن أخذ منها غصنا قاده ذلك الغصن إلى الجنّة».

وقال جابر: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«قال جبرئيل: قال اللّه تعالى: إنّ هذا دين ارتضيته لنفسي و لن يصلحه إلا السخاء و حسن الخلق، فأكرموه بهما ما استطعتم»و في رواية«فأكرموه بهما ما صحبتموه».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«ما جبل اللّه أولياءه إلا على السخاء و حسن الخلق».

وعن جابر قالقيل: يا رسول اللّه أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «الصبر و السماحة».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«خلقان يحبّهما اللّه عزّ و جلّ و خلقان يبغضهما اللّه عزّ و جلّ فأمّا اللّذان يحبّهما اللّه عزّ و جلّ فحسن الخلق و السخاء، و أمّا اللّذان يبغضهما اللّه

عزّ و جلّ فسوء الخلق و البخل، فإذا أراد اللّه بعبد خيرا استعمله في قضاء حوائج الناس» [١].

وروى المقدام بن شريح عن أبيه عن جدّه قال:قلت: يا رسول اللّه دلّني على عمل يدخلني الجنّة، قال: «إنّ من موجبات المغفرة بذل الطعام و إفشاء السلام و حسن الكلام».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«يقول اللّه تعالى: اطلبوا الفضل من الرّحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم، فإنّي جعلت فيهم رضائي، و لا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنّي جعلت فيهم سخطي».

وعن ابن عبّاس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«تجافوا عن ذنب السخيّ فإنّ اللّه آخذ بيده كلّما عثر» [٢].

وقال ابن مسعود: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«الرّزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير، و إنّ اللّه تعالى ليباهي بمطعم الطعام الملائكة».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اللّه تعالى جواد يحبّ الجود، و يحبّ معالي الأخلاق و يكره سفسافها».

---

[١]رواه الاصفهانى موقوفا على ابن عمر. و رواه الديلمي من حديث أنس هكذا«اذا أراد اللّه بعبده خيرا صير حوائج الناس إليه»كما في الجامع الصغير و قال العراقي: في سنده يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان.

[٢] أخرجه الدار قطنى في الافراد و الطبراني و أبو نعيم و البيهقي عن ابن مسعود بلفظ «تجاوزوا» بسند ضعيف كما

في الجامع الصغير. و رواه الكليني في الكافي ج ٤ ص ٢٨. و لفظه «اجيزوا».

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٦١

وقال أنس:«إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثيرة بين جبلين من شاء الصّدقة فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإنّ محمّدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ للّه عبادا يخصّهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها اللّه عنه و حوّلها إلى غيره».

وعن الهلالي قال:اتي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باسارى من بني العنبر فأمر بقتلهم و أفرد منهم رجلا فقال: عليّ بن أبي طالب عليه السّلام: يا رسول اللّه الرّبّ واحد و الدّين واحد فما بال هذا من بينهم؟ فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نزل عليّ جبرئيل عليه السّلام فقال:

اقتل هؤلاء و اترك هذا فإنّ اللّه شكر له سخاء فيه».

وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ لكلّ شيء ثمرة و ثمرة المعروف تعجيل السراح» [١.]

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«طعام الجواد دواء و طعام البخيل داء».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من عظمت نعمة اللّه عنده عظمت مئونة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المئونة عرض تلك النعمة للزّوال» [٢].

---

[١] قال العراقي و لم أجد له أصلا: أقول: رواه الكليني في الكافي ج ٤ ص ٣٠ و السراح - بالمهملات -: الارسال و الخروج من الامر بسرعة و سهولة و في المثل «السراح من

النجاح» يعنى إذا لم تقدر على قضاء حاجة أحد فآيسته فان ذلك من الاسعاف.

[٢] أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج من حديث عائشة و البيهقي في الشعب من حديث معاذ بسند ضعيف كما في الجامع الصغير و لفظه «ما عظمت نعمة اللّه... الحديث»

و قال عيسى عليه السّلام: «استكثروا من شيء لا تأكله النّار، قيل: و ما هو؟ قال: المعروف».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«الجنّة دار الأسخياء».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ السخيّ قريب من اللّه قريب من الناس قريب من الجنّة بعيد من النّار، و إنّ البخيل بعيد من اللّه بعيد من الناس بعيد من الجنّة قريبٌ من النّار، و جاهل سخيّ أحبّ إلى اللّه من عالم بخيل و أدوء الدّاء البخل».

وقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«اصنع المعروف إلى من هو أهله و إلى من ليس بأهله فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله و إن لم تصب أهله فأنت من أهله» [١].

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ بدلاء امّتي لم تدخل الجنّة بصلاة و لا بصيام و لكن دخلوها بسخاء الأنفس و سلامة الصدور و النصح للمسلمين».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اللّه عزّ و جلّ جعل للمعروف وجوها من خلقه حبّب إليهم المعروف و حبّب إليهم فعاله و وجّه طلاب المعروف إليهم و يسّر عليهم إعطاءه كما

[١] أخرجه الدارقطني في المستجاد من حديث جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه عن جده مرسلا و رواه الكليني من حديثه عليه السّلام في الكافي ج ٤ ص ٢٧ تحت رقم ٦ و ٩.

و الخبر محمول على ما إذا لم يعلم قطعا أنه ليس من أهله و من حاله مجهول عنده لئلا ينافي مارواه الكليني مسندا عن الصادق عليه السّلامقال للمفضل: «اذا أردت أن تعلم أ شقى الرجل ام سعيد؟ فانظر سيبه [اى عطائه] و معروفه إلى من يصنعه، فان كان يصنعه إلى من هو أهله فاعلم أنه إلى خير و ان كان يصنعه إلى غير أهله فاعلم أنه ليس له عند اللّه خير»

. وقال في حديث آخر«اذا أردت أن تعلم إلى خير يصير الرجل أم إلى شر انظر أين يضع معروفه فان كان يضع معروفه عند أهله فاعلم أنه يصير إلى خير، و ان كان يضع معروفه عند غير أهله فاعلم أنه ليس له في الاخرة من خلاق»راجع الكافي ج ٥ ص ٣١

.

يسرّ الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها و يحيي بها أهلها».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«كلّ معروف صدقة، و كلّ ما أنفق الرّجل على نفسه و أهله كتب له صدقة، و ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة، و ما أنفق الرّجل من نفقة فعلى اللّه خلفها».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«كلّ معروف صدقة، و الدّال على خير كفاعله، و اللّه يحبّ إغاثة اللّهفان».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«كلّ معروف فعلته إلى غنيّ أو فقير صدقة».

ورويأنّ اللّه أوحى إلى موسى عليه السّلام: «لا تقتل السامريّ فإنّه سخيّ».

وقال جابر:بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدّثوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك فقال: «إنّ الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت».

وقال عليّ عليه السّلام:«إذا أقبلت عليك الدّنيا فأنفق منها فإنّها لا تفنى و إذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنّها لا تبقى، و أنشد:

لا تبخلنّ بدنيا و هي مقبلة فليس ينقصها التبذير و السرف

فإن تولّت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن عليّ عليهما السّلام عن المروّة و النجدة و الكرم فقال: أمّا المروّة فحفظ الرّجل دينه و حرزه نفسه و حسن قيامه بضيفه و حسن المنازعة و الاقدام

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٦٤

في الكراهية، و أمّا النجدة فالذبّ عن الجار و الصبر في المواطن، و أمّا الكرم فالتبرّع بالمعروف قبل السؤال، و الإطعام في المحلّ، و الرأفة بالسّائل مع بذل النائل.

و رفع رجل إلى الحسن بن عليّ عليهما السّلام رقعة فقال: حاجتك مقضية، فقيل له: يا ابن رسول اللّه لو نظرت في رقعته ثمّ رددت الجواب على قدر ذلك؟ فقال:

يسألني اللّه تعالى عن ذلّ مقامه بين يديّ حتّى أقرأ رقعته.

وقال عليّ بن الحسين عليهما السّلام:من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيّا و إنّما السخيّ من يبتدئ بحقوق اللّه تعالى في أهل طاعته و لا تنازعه نفسه إلى حبّ الشكر له إذا كان ثقته بثواب اللّه تامّا.

وقال جعفر الصادق عليه السّلام:«لا مال أعود من العقل، و لا مصيبة أعظم من الجهل، و لا مظاهرة كالمشورة، ألا و إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: إنّي جواد كريم لا يجاورني لئيم، و اللّوم من الكفر، و الكفر في النار، و الجود و الكرم من الإيمان و الإيمان في الجنّة».

و قال الأصمعيّ: كتب الحسن بن عليّ إلى الحسين بن عليّ عليهم السّلام يعتب عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه خير المال ما وقي به العرض.

و تمثّل متمثّل عند عبد اللّه بن جعفر بهذين البيتين.

إنّ الصنيعة لا تكون صنيعة حتّى
يصاب بها طريق المصنع

فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها للّه
أو لذوي القرابة أودعفقال عبد اللّه بن جعفر: إنّ هذين البيتين ليبخلان الناس و لكن أمطر المعروف مطرا فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا و إن أصاب اللّئام كنت أنت له أهلا.

و قال حذيفة: ربّ فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنّة بسماحته.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص :
٦٥

و رأى الأحنف بن قيس رجلا و في يده درهم فقال: لمن هذا الدّرهم؟ قال:

لي، فقال: أما إنّه ليس لك حتّى تخرجه من يدك، و في معناه قيل:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال
لكو سمّي و أصل بن عطاء الغزّال لأنّه كان يجلس إلى الغزّالين فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئا.

و قال ابن السماك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله و لا يشتري الأحرار بمعروفه.

و سئل بعض الأعراب و قيل: من سيّدكم؟ فقال: من احتمل شتمنا، و أعطى سائلنا، و أغضى عن جاهلنا.

و قال بعضهم: بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود.
و قيل لبعض الحكماء: من أحبّ الناس إليك؟ قال: من كثرت أياديه عندي، قيل: فإن لم يكن؟ قال: من كثرت أيادي عنده.
و قال بعضهم: إذا الرّجل أمكنني من نفسه حتّى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده.
(حكايات الاسخياء)
قيل:بكى عليّ عليه السّلام يوما فقيل له: ما يبكيك؟ قال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيّام أخاف أن يكون اللّه قد أهانني.
وسأل رجل الحسن بن عليّ عليهما السّلام حاجة فقال له: يا هذا حقّ سؤالك إيّاي يعظم لديّ، و معرفتي بما يجب لك يكبر عليّ، و يدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله و الكثير في ذات اللّه تعالى قليل، و ما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت الميسور و رفعت عنّي مئونة الاحتمال و الاهتمام بما أتكلّف من واجب حقّك فعلت، فقال: يا ابن رسول اللّه أقبل و أشكر العطيّة و أعذر على المنع، فدعا الحسن عليه السّلام بوكيله و جعل يحاسبه على نفقاته حتّى استقصاها فقال: هات الفاضل من الثلاثمائة ألف درهم فأحضر خمسين ألفا، قال: فما فعلت بالخمسمائة دينار قال؟: هي عندي، قال: أحضرها فأحضرها فدفع الدّنانير و الدّراهم إلى الرّجل و قال: هات من يحملها لك فأتاه

بحمّالين فدفع إليه الحسن عليه السّلام رداءه لكراء الحمّالين فقال له مواليه: و اللّه ما عندنا درهم فقال: و لكنّي أرجو أن يكون لي عند اللّه أجر عظيم [١].
وقال أبو الحسن المدائني:خرج الحسن و الحسين و عبد اللّه بن جعفر حجّاجا ففاتتهم أثقالهم فجاعوا و عطشوا فمرّوا بعجوز في خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ قالت: نعم فأناخوا إليها و ليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة فقالت: احلبوها و امتذقوا لبنها، ففعلوا ذلك ثمّ قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا

إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتّى أهيّئ لكم ما تأكلون فقام إليها أحدهم فذبحها و كشطها ثمّ هيّأت لهم طعاما فأكلوا و قاموا حتّى أبردوا، فلمّا ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فإذا رجعنا سالمين فألمّي بنا فإنّا صانعون بك خيرا ثمّ ارتحلوا فأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم و الشاة فغضب الرّجل و قال: ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثمّ تقولين: نفر من قريش، قال: ثمّ بعد مدّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها و جعلا ينقلان البعر إليها و يبيعانه و يعيشان بثمنه فمرّت العجوز في بعض سكك المدينة فإذا الحسن بن عليّ عليهما السّلام جالس على باب داره فعرف العجوز و هي له منكرة فبعث الحسن غلامه و دعا بالعجوز فقال لها: يا أمة اللّه أ تعرفيني؟ قالت: لا، قال: أنا ضيفك يوم كذا و كذا، قالت العجوز: بأبي أنت و امّي أنت هو؟ قال: نعم، ثمّ أمر الحسن فاشتروا لها من شاء الصدقة ألف شاة و أمر لها معها بألف دينار، و بعث بها مع غلامه إلى الحسين عليه السّلام فقال لها الحسين:

---

[١] ما عثرت عليه في أي أصل من الأصول المعتبرة الا على ما أورده الاربلى في كشف الغمة نقلا عن الكنجي الشافعي صاحب مطالب السئول مرسلا. و العجب منأبي حامد حيث نقل قبل هذا الكلام أن مصعب بن الزبير قال:حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة فقال الحسين بن على لاخيه الحسن عليهم السلام: لا تلقه و لا تسلم عليه. فلما خرج معاوية قال الحسن ان علينا دينا فلابد لنا من أتيانه فركب في أثره و لحقه فسلم عليه و أخبره بدينه فمروا عليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار و قد أعيا و تخلف عن الإبل و قوم يسوقونه، فقال معاوية:

ما هذا؟ فذكروا له، فقال: اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد

. انتهى. فليت شعري كيف توافق هاتان القصتان.

بكم وصلك أخي؟ فقالت: بألف شاة و ألف دينار، فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك، ثمّ بعث بها مع غلامه إلى عبد اللّه بن جعفر، فقال: بكم وصلك الحسن و الحسين؟ قالت: بألفي شاة و ألفي دينار، فأمر لها عبد اللّه بن جعفر بألفي شاة و ألفي دينار و قال لها: لو بدأت بي لا تعبتهما، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف دينار و أربعة آلاف شاة.

و اجتمع قرّاء البصرة إلى ابن عباس و هو عامل البصرة فقالوا: لنا جار صوّام قوّام يتمنّى كلّ واحد منّا أن يكون مثله و قد زوّج بنته من ابن أخيه و هو فقير و ليس عنده ما يجهّزها به، فقام عبد اللّه بن عباس فأخذ بأيديهم و أدخلهم داره و فتح صندوقا فأخرج منه ستّ بدر، فقال: احملوا فحملوا، فقال ابن عبّاس: ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله من صيامه و قيامه و ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدّنيا من القدر ما يشغل به مؤمنا عن عبادة ربّه و ما بنا من الكبر مالا نخدم أولياء اللّه، ففعل و فعلوا.

و كان أبو طاهر بن كثير شيعيّا و قال له رجل: بحقّ عليّ بن أبي طالب لمّا وهبت لي نخلتك بموضع كذا، قال: قد فعلت و حقّه لأعطينّك ما يليها و كان ذلك أضعاف ما طلبه الرّجل.

و كان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر: و اللّه ما عندي ما اعطيك و لكن قدّمني إلى القاضي و ادّع عليّ بعشرة آلاف درهم حتّى أقرّ لك بها ثمّ احبسني فإنّ أهلي لا يتركوني محبوسا ففعل ذلك فلم يمس حتّى دفع إليه عشرة آلاف درهم و اخرج أبو مرثد من الحبس.

و كان معن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فأقام مدّة و أراد الدخول على معن فلم يتهيّأ له فقال يوما لبعض خدم معن: إذا دخل الأمير البستان فعرّفني،

فلمّا دخل أعلمه فكتب الشاعر بيتا على خشبة و ألقاها في الماء الّذي يدخل ببستان معن، و كان على رأس الماء فلمّا بصر بالخشبة أخذها و قرأها

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٦٨

فإذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فما لي إلى معن سواك شفيعقال: فقال: من صاحب هذه؟ فدعا بالرّجل فقال له: كيف قلت؟ فقاله، فأمر له بعشرة بدر فأخذها و وضع معن الخشبة تحت بساطه فلمّا كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط و قرأ ما فيها و دعا بالرّجل فدفع إليه مائة ألف درهم، فلمّا أخذها الرّجل تفكّر و خاف أن يأخذ منه ما أعطاه، و خرج فلمّا كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها و دعا بالرّجل فطلب فلم يوجد فقال معن: حقّ عليّ أن أعطيه حتّى لا يبقى في بيت مالي درهم و لا دينار.

و خرج عبد اللّه بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله و هو وحده، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه فقال له عبد اللّه: أ لك حاجة؟ قال: صلاحك و فلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي و أعوذ باللّه أن يطرأ بجنابك مكروه، فأخذ عبد اللّه بيده و مشى معه إلى منزله ثمّ دعا له بألف دينار فدفعها إليه و قال: استنفق هذا فنعم ما أدّبك أهلك.

و حكي أنّ قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة فنزلوا عند قبره و قد جاءوا من سفر بعيد فبأتوا عند قبره فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر و هو يقول له: هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي - و كان قد خلّف الميّت نجيبا معروفا به و كان لهذا الرّجل بعير سمين - فقال: نعم و باع في النوم بعيره بنجيبه فلمّا وقع بينهما العقد عمد هذا الرّجل إلى بعيره فنحره في النوم فانتبه الرّجل من نومه فإذا يثج الدّم من نحر بعيره فقام و نحره و قسّم لحمه فطبخوه و قضوا حاجتهم ثمّ رحلوا و ساروا فلمّا كان اليوم الثاني و هم

في الطريق استقبلهم ركب فقال رجل منهم: من فلان بن فلان منكم؟ - باسم ذلك الرّجل - فقال: أنا، فقال: هل بعت من فلان شيئا؟ - و ذكر الميّت صاحب القبر - قال: نعم بعت منه بعيري بنجيبه في النوم و ذكر القصّة فقال: خذ هذا نجيبه، ثمّ قال: هو أبي و قد رأيته في النوم و هو يقول: إن كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان و سمّاه.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٦٩

و قدم رجل من قريش من سفر فمرّ برجل من الأعراب على قارعة الطريق و قد أقعده الدّهر و أضربه المرض فقال له: يا هذا أعنّا على الدّهر فقال الرّجل لغلامه: ما بقي من النفقة فادفعه إليه فصبّ الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم فذهب ينهض فلم يقدر من الضعف فبكى فقال الرّجل: ما يبكيك لعلّك استقللت ما أعطيناك؟ قال: لا و لكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

و اشترى عبد اللّه بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره الّتي في السوق بتسعين ألف درهم فلمّا كان اللّيل سمع بكاء آل خالد فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا:

يبكون لدارهم، قال: يا غلام ائتهم فأعلمهم أنّ الدّار و المال لهم جميعا.

و قيل أنفذ هارون الرّشيد إلى مالك بن أنس خمسمائة دينار فبلغ ذلك اللّيث ابن سعد فأنفذ إليه ألف دينار فغضب هارون و قال: اعطيه خمسمائة و تعطيه ألفا و أنت من رعيّتي فقال: يا أمير المؤمنين إنّ لي في كلّ يوم من غلّتي ألف دينار و استحييت أن أعطي مثله أقلّ من دخل يوم، و حكي أنّه لم تجب عليه الزّكاة مع أنّ دخله كلّ يوم ألف دينار.

ورويأنّ امرأة سألت اللّيث شيئا من عسل فأمر لها بزقّ فقيل له: إنّها كانت تقنع بأقلّ من هذا، فقال: إنّها سألت على قدرها و نعطيها على قدر النعمة علينا.

و كان اللّيث بن سعد لا يتكلّم كلّ يوم حتّى يتصدّق على ثلاثمائة و ستّين مسكينا.

و قال الأعمش اشتكت شاة عندي و كان خيثمة بن أبي عبد الرّحمن يعودها بالغداة و العشيّ و يسألني هل استوفت علفها و كيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها و كان تحتي لبد أجلس عليه فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللّبد، حتّى وصل إليّ في علّة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من برّه حتّى تمنّيت أنّ الشاة لم تبرأ.

و قيل: مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل له: إنّهم يستحيون ممّا لك عليهم من الدّين فقال: أخزى اللّه مالا يمنع الإخوان من الزّيارة، ثمّ أمر مناديا ينادي من كان عليه لقيس حقّ فهو منه في حلّ قال: فكثرت درجته بالعشيّ لكثرة من زاره و عاده.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٧٠

و قال الشيخ أبو سعد الخركوشيّ النيسابوريّ: سمعت محمّد بن محمّد الحافظ يقول: سمعت الشافعيّ المجاور بمكّة يقول: كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا فولد لبعضهم ولد قال: فجئت إليه و قلت له: ولد لي مولود و ليس معي شيء، فقام معي و دخل على جماعة فلم يفتح له بشيء، فجاء إلى قبر رجل كان يعرفه و جلس عنده و قال: رحمك اللّه كنت تفعل و تصنع و إنّي درت اليوم و كلّفت جماعة دفع شيء لمولود فلم يتّفق لي شيء قال: ثمّ قام و أخرج دينارا فكسّره بنصفين و ناولني نصفه و قال: هذا دين عليك إلى أن يفتح لك بشيء قال: فأخذته و انصرفت فأصلحت ما اتّفق لي به، قال: و رأى ذلك المحتسب تلك اللّيلة ذلك الشخص في منامه فقال: سمعت جميع ما قلت و ليس لنا إذن في الجواب و لكن احضر منزلي و قل لأولادي يحفروا مكان الكانون و يخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها

إلى هذا الرّجل، قال: فلمّا كان الغد تقدّم إلى منزل الميّت و قصّ عليهم القصّة فقالوا له:

انزل، و حفروا الموضع و أخرجوا الدنانير و جاءوا بها و وضعوها بين يديه فقال: هذا مالكم و ليس لرؤياي فيه حكم فقالوا: هو يتسخّى ميتا و نحن لا نتسخّى أحياء فلمّا ألحّوا عليه حمل الدّنانير و جاء إلى الرّجل صاحب المولود و ذكر له القصّة قال: فأخذ منها دينارا فكسّره نصفين فأعطاه النصف الّذي أقرضه و حمل النصف الآخر، و قال: يكفيني هذا تصدّق به على الفقراء، فقال أبو سعد: فلا أدري أيّ هؤلاء أسخى.

و أتى رجل صديقا و دقّ عليه الباب، فقال: لم جئتني؟ قال: عليّ أربعمائة دينار دينا، فوزن أربعمائة و أخرجها إليه و عاد يبكي فقالت امرأته: لم أعطيته إذ شقّ عليك؟ فقال: إنّما أبكي لأنّي لم أتفقّد حاله حتّى احتاج إلى مفاتحتي به.

(بيان ذم البخل)

قال اللّه تعالى:«و من يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون».

و قال تعالى:«و لا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتيهم اللّه من فضله هو خيرا لهم

بل هو شرّ لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة» ٣: ١٨٠.

و قال تعالى:«الّذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل و يكتمون ما آتيهم اللّه من فضله» ٤: ٣٧.

وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إيّاكم و الشحّ فإنّه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم و يستحلّوا محارمهم».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يدخل الجنّة بخيل و لا خبّ و لا خائن و لا سيّئ الملكة»

- و في رواية - «و لا جبّار» - و في رواية - «و لا منّان» [١].

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، و هوى متّبع، و إعجاب المرء بنفسه».
وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اللّه يبغض ثلاثة: الشيخ الزّاني، و البخيل المنّان، و المعيل المختال» [۲].
وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«مثل المنفق و البخيل كمثل رجلين عليهما جنّتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما، فأمّا المنفق فلا ينفق شيئا إلا اتّسعت أو وفرت على جلده حتّى تخفى بنانه، و أمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا قلصت و لزمت كلّ حلقه مكانها حتّى أخذت بتراقيه فهو يوسّعها و لا تتّسع».

---

[۱] أخرجه أحمد في مسند أبي بكر و اللفظ له دون قوله: «و لا منان» و الترمذي ج ۸ ص ۱٤۱ و ۱٤۲ و في سنن ابن ماجه تحت رقم ۳٦۹۱ «لا يدخل الجنة سيء الملكة».
[۲] ما عثرت عليه في أي أصل الا أن للطبراني في الأوسطمن حديث على عليه السّلام«ان اللّه ليبغض الغنى الظلوم و الشيخ الجهول و العائل المختال»كما في الجامع الصغير

.

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل و سوء الخلق».
وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«اللّهمّ إنّي أعوذ بك من البخل، و أعوذ بك من الجبن، و أعوذ بك أن اردّ إلى أرذل العمر».
وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إيّاكم و الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة، و إيّاكم و الفحش فإنّ اللّه لا يحبّ

الفاحش و لا المتفحّش، و إيّاكم و الشحّ فإنّما أهلك من كان قبلكم الشحّ، أمرهم بالكذب فكذبوا، و أمرهم بالظلم فظلموا و أمرهم بالقطيعة فقطعوا».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«شرّ ما في الرّجل شحّ هالع و جبن خالع».

وقتل شهيد على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فبكته باكية و قالت: وا شهيداه، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و ما يدريك أنّه شهيد فلعلّه كان يتكلّم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه».

وقال جبير بن مطعم:بينا نحن نسير مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معه الناس مقفلة من حنين علّقت برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الأعراب يسألونه حتّى اضطرّوه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف فقال: أعطوني ردائي فو الّذي نفسي بيده لو كان عدد هذه العضاه نعما لقسمتها بينكم ثمّ لا تجدوني بخيلا و لا كذوبا و لا جبانا».

وقال عمرقسم النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قسما فقلت: غير هؤلاء كانوا أحقّ به منهم فقال:

«إنّهم يخيّروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني و لست بباخل».

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٧٣

وقال أبو سعيد:دخل رجلان على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطّاب فأثنيا و قالا معروفا و شكرا ما صنع بهما، فدخل عمر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأخبره بما قالا، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لكن فلانا أعطيته ما بين عشرة إلى مائة و لم يقل ذلك، إنّ أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته يتأبّطها و هي نار، فقال عمر: فلم تعطهم ما هو نار؟ فقال: يأبون إلا أن يسألوني و يأبى اللّه لي البخل» [١].

وعن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«الجود من جود اللّه تعالى فجوّدوا يجد اللّه تعالى لكم، ألا إنّ اللّه خلق الجود فجعله في صورة رجل و جعل اسّه راسخا في أصل شجرة طوبى و شدّ أغصانها بأغصان سدرة المنتهى و دلى بعض أغصانها إلى الدّنيا فمن تعلّق بغصن منها أدخله الجنّة، ألا إنّ السخاء من الإيمان و الإيمان في الجنّة و خلق البخل من مقته و جعل اسّه راسخا في أصل شجرة الزقّوم و دلى بعض أغصانها إلى الدّنيا فمن تعلّق بغصن منها أدخله النار، ألا إنّ البخل من الكفر و الكفر في النّار».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«السخاء شجرة تنبت في الجنّة فلا يلج الجنّة إلا سخيّ، و البخل شجرة تنبت في النار و لا يلج النار إلا بخيل».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أنّه قال:«من سيّدكم يا بني سلمة؟ قالوا: سيّدنا جدّ بن قيس إلا أنّه رجل فيه بخل، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و أيّ داء أدوى من البخل و لكن

---

[١] أخرجه أحمد و أبو يعلى و البزار بنحوه. و لم يقل أحمد انهما «سألاه ثمن بعير». و رواه البزار من رواية أبي سعيد عن عمر و رجال أسانيدهم ثقات (المغني) و قال في النهاية: فيه «أما و اللّه ان أحدكم ليخرج بمسألته من عندي يتأبطها» أى يجعلها تحت إبطه.

سيّدكم عمرو بن الجموح».

وفي رواية«إنّهم قالوا: سيّدنا جدّ بن قيس فقال: بم تسودونه؟ قالوا:

إنّه أكثرنا مالا و إنّا على ذلك لنتّهمه بالبخل، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: فأيّ داء أدوى من البخل، ليس ذلك سيّدكم قالوا: فمن سيّدنا يا رسول اللّه؟ قال: سيّدكم بشر ابن البراء بن معرور».

وقال عليّ عليه السّلام: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اللّه يبغض البخيل في حياته السخيّ عند موته».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«السخيّ الجهول أحبّ إلى اللّه عزّ و جلّ من العابد البخيل».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يجتمع الشحّ و الإيمان في قلب عبد».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا:«خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل و سوء الخلق».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلا و لا جبانا».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يقول قائلكم: الشحيح أعذر من الظالم و أيّ ظلم أظلم عند اللّه من الشحّ، حلف اللّه بعزّته و عظمته و جلاله لا يدخل الجنّة شحيح و لا بخيل».

ورويأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يطوف بالبيت فإذا رجل يتعلّق بأستار الكعبة

و هو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و ما ذنبك صفه لي، قال: هو أعظم من أن أصفه لك، قال: ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون؟ قال: بل ذنبي يا رسول اللّه، قال: ويحك ذنبك أعظم أم الجبال؟ قال: بل ذنبي يا رسول اللّه، قال: فذنبك أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبي يا رسول اللّه، قال فذنبك أعظم أم السماوات؟ قال: بل ذنبي يا رسول اللّه، قال: فذنبك أعظم أم العرش؟ قال: بل ذنبي يا رسول اللّه، قال: فذنبك

أعظم أم اللّه؟ قال: بل اللّه أعظم و أعلى و أجلّ، قال: ويحك فصف لي ذنبك، قال: يا رسول اللّه إنّي رجل ذو ثروة من المال و إنّ السائل ليأتيني ليسألني فكأنّما يستقبلني بشعلة من نار، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

إليك عنّي لا تحرقني بنارك فو الّذي بعثني بالهداية و الكرامة لو قمت بين الرّكن و المقام ثمّ صلّيت ألفي ألف عام و بكيت حتّى تجري من دموعك الأنهار و تسقى بها الأشجار ثمّ متّ و أنت لئيم لأكبّك اللّه في النار، ويحك أما علمت أنّ البخل كفر و أنّ الكفر في النار، ويحك أما علمت أنّ اللّه يقول:«و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسهو من يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون».

وقال علي عليه السّلام في خطبته:«أنّه سيأتي على الناس زمان عضوض يعضّ الموسر على ما في يديه و لم يؤمر بذلك قال اللّه تعالى:«و لا تنسوا الفضل بينكم»[١].

وقال عليه السّلام:«ما استقصى كريم حقّه قطّ قال اللّه تعالى: «عرّف بعضه و أعرض عن بعض».

الاثار:

قال ابن عباس: لمّا خلق اللّه تعالى جنّة عدن قال لها: تزيّني

---

[١] ليس هذا الكلام من خطبه عليه السّلام انما هو من حكمه و قصارى كلامه عليه السّلام أورده الرضي - رحمه اللّه - في النهج باب المختار من حكمه تحت رقم ٤٦٨ و العضوض - بالفتح -:

الشديد. و الموسر: الغنى، و يعض على ما في يده أي يمسكه بخلا على خلاف ما امره اللّه في قوله:«و لا تنسوا الفضل بينكم»أى الإحسان كما في هامش النهج و الآية في سورة البقرة: ٢٣٨.

فتزيّنت ثمّ قال لها: أظهري أنهارك فأظهرت عين السلسبيل و عين الكافور و عين التسنيم فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر و أنهار العسل و اللّبن، ثمّ قال لها: أظهري سررك و حجالك و كراسيك و حلّيك و حللك و حور عينك، فأظهرت فنظر إليها فقال: تكلّمي فقالت: طوبى لمن دخلني فقال اللّه تعالى: و عزّتي و جلالي لا اسكنك بخيلا.

و قيل: لو كان البخل قميصا ما لبسته، و لو كان طريقا ما سلكته.

و قيل: ورد على أنوشروان حكيم الهند و فيلسوف الرّوم فقال للهندي: تكلّم فقال: خير الناس من ألفى سخيّا، و عند الغضب وقورا، و في القول متأنّيا، و في الرّفعة متواضعا، و على كلّ ذي رحم مشفقا. و قام الرّوميّ فقال: من كان بخيلا ورث عدوّه ماله، و من قلّ شكره لم ينل النجح، و أهل الكذب مذمومون، و أهل النميمة يموتون فقراء، و من لم يرحم سلّط اللّه عليه من لا يرحمه.

و قال الضحاك في قوله تعالى:«إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالا» ٣٦: ٨قال لأهل البخل أمسك اللّه تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل اللّه فهم لا يبصرون الهدى.

و قال كعب: ما من صباح إلا و قد و كلّ به اللّه ملكين يناديان اللّهمّ اجعل للممسك تلفا و للمنفق خلفا.

و قال الأصمعيّ: سمعت أعرابيّا و قد وصف رجلا فقال: لقد صغر فلان في عيني لعظم الدّنيا في عينه و كأنّما يرى السائل إذ رآه ملك الموت إذا أتاه.

و قال الجاحظ: ما بقي من اللّذات إلا ثلاث: ذمّ البخلاء، و أكل القديد، و حكّ الجرب.

و قال بشر بن الحارث: البخيل لا غيبة لهقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّك إذا لبخيل».

ومدحت امرأة عند النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا: صوّامة قوّامة إلا أنّ فيها بخلا قال: «فما خيرها إذا».
و قال بشر: النظر إلى البخيل يقسي القلب، و لقاء البخلاء كرب على قلوب

المؤمنين.
و قال يحيى بن معاذ: يأبى القلب للأسخياء إلا حبّا و لو كانوا فجّارا و للبخلاء إلا بغضا و لو كانوا أبرارا.
و قال ابن المعتزّ: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه.
و لقي يحيى بن زكريّا عليهما السّلام إبليس في صورته فقال له: يا إبليس أخبرني بأحبّ الناس إليك و أبغض الناس إليك؟ قال: أحبّ الناس إليّ المؤمن البخيل، و أبغض الناس إليّ الفاسق السخيّ، قال له: لم؟ قال: لأنّ البخيل قد كفاني بخله، و الفاسق السخيّ أخاف أن يطّلع اللّه عليه في سخائه فيقيله، ثمّ ولّى و هو يقول:
لو لا أنّك يحيى لما أخبرتك.
(حكايات البخلاء)
قيل: كان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه و قدم إليه طباهجة ببيض فأكل منها فأكثر و جعل يشرب الماء فانتفخ بطنه و نزل به الكرب و الموت فجعل يلتوي فلمّا أجهده الأمر وصف حاله لطبيب، فقال: لا بأس عليك تقيّأ ما أكلت، فقال: هاه أتقيّؤ طباهجة ببيض؟ أموت و اللّه لا أتقيّؤ طباهجة ببيض.
و قيل: أقبل أعرابيّ يطلب رجلا و بين يديه تين فغطّى التّين بكسائه فجلس الأعرابي، فقال له الرّجل: هل تحسن شيئا من القرآن؟ قال: نعم و قرأ«و الزّيتون و طور سينين»فقال: أين«و التّين؟»قال: هو تحت كسائك.
و دعا بعضهم أخا له و لم يطعمه إلى العصر شيئا حتّى اشتدّ جوعه و أخذه مثل الجنون فأخذ صاحب البيت العود و

قال له: بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك؟ قال: صوت المقلى.
و يحكى أنّ محمّد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا قبيح البخل فسئل

نسيب له - كان يألفه - عنه و قال له قائل: صف لي مائدته فقال: هي فترفي فتر و صحافه منقوره من حبّ الخشخاش، قال: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون، قال: أ فيأكل معه أحد؟ قال: بل الذّباب، فقال: سوءة لك أنت خاصّ به و ثوبك مخرق؟ فقال: إنّي و اللّه ما أقدر على إبرة أخيط بها، فقال: ألا استعرت منه؟ قال: و لو ملك محمّد بيتا من بغداد إلى النوبة مملوءا إبرا ثمّ جاء جبرئيل و ميكائيل و معهما يعقوب عليه السّلام يضمنون عنه إبرة و يسألونه أعرنا إيّاها لنخيط به قميص يوسف الّذي قدّ من دبر ما فعل.
و يقال: كان مروان بن أبي حفصة بخيلا لا يأكل اللّحم بخلا حتّى يقرم إليه فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأسا فأكله فقيل له: نراك لا تأكل إلا الرءوس في الصيف و الشتاء فلم تختار ذلك؟ قال: نعم الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام و لا يستطيع أن يغبنني فيه و ليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه إن مسّ عينا أو إذنا أو خدّا وقفت على ذلك، و آكل منه ألوانا آكل عينه لونا و إذنه لونا و غلصمته لونا و دماغه لونا و لسانه لونا و أكفي مئونة طبخه فقد اجتمعت لي فيه مرافق. و خرج يوما يريد الخليفة المهديّ فقالت له امرأة من أهله: ما لي عليك إن رجعت بالجائزة؟ قال: إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما فأعطي ستّين ألفا فأعطاها أربعة دوانق. و اشترى مرّة لحما بدرهم فدعاه صديق له فردّ اللّحم إلى القصّاب بنقصان دانق و قال: أكره الإسراف.

و كان للأعمش جار كان لا يزال يعرض عليه المنزل فيقول: لو دخلت فأكلت كسرة و ملحا فيأبى عليه الأعمش فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال:

سر بنا فدخل منزله فقرّب إليه كسرة و ملحا فجاء سائل فقال له ربّ المنزل: بورك فبك فأعاد عليه المسئلة فقال: له: بورك فيك فلمّا سأل الثالثة قال له: اذهب و إلا و اللّه خرجت إليك بالعصا قال: فناداه الأعمش فقال: اذهب ويحك فلا و اللّه ما رأيت أحدا أصدق مواعيد منه هو منذ مدّة يعدني على كثرة و ملح فلا و اللّه ما زادني عليهما.

(بيان الإيثار و فضيلته)

اعلم أنّ السخاء و البخل كلّ واحد منهما ينقسم إلى درجات فأرفع درجات السخاء الإيثار، و هو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه و إنّما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج و البذل مع الحاجة إليه أشدّ و كما أنّ السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، و كم من بخيل يمسك المال و يمرض فلا يتداوى، و يشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن و لو وجدها مجّانا لأكلها فهذا يبخل على نفسه مع الحاجة و ذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنّه محتاج إلى ذلك، فانظر ما بين الرّجلين فإنّ الأخلاق عطايا يضعها اللّه حيث يشاء و ليس بعد الإيثار درجة في السخاء و قد أثنى اللّه تعالى على الصحابة فقال:«و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة» ٥٩: ٩.

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أيّما امرئ اشتهى شهوة فرّد شهوته و آثر على نفسه غفر له».

و قالت عائشة: ما شبع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثلاثة أيّام متوالية حتّى فارق الدّنيا و لو شئنا لشبعنا و لكنّا كنّا نؤثر على أنفسنا».
و نزل برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله فوضع بين يديه الطعام و أمر امرأته بإطفاء السراج و جعل يمدّ يده إلى الطعام كأنّه يأكل و لا يأكل حتّى أكل الضيف الطعام، فلمّا أصبحقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:لقد عجب اللّه من صنيعكم إلى ضيفكم البارحة و نزلت«و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة».

فالسخاء خلق من أخلاق اللّه تعالى
المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٨٠
و الإيثار أعلى درجات السخاء و كان ذلك من دأب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتّى سمّاه اللّه تعالى عظيما فقال تعالى:«و إنّك لعلى خلق عظيم» ٦٨: ٤.
و قال سهل بن عبد اللّه: قال موسى عليه السّلام: يا ربّ أرني بعض درجات محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمّته قال: يا موسى إنّك لن تطيق ذلك لكنّي أراك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضّلته بها عليك و على جميع خلقي قال: فكشف له عن ملكوت السماوات فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه من أنوارها و قربها من اللّه عزّ و جلّ فقال: يا ربّ بما ذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال: بخلق اختصصته به من بينهم و هو الإيثار، يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره إلا استحيية من محاسبته و بوّأته من جنّتي حيث يشاء.
و قيل: خرج عبد اللّه بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم و فيها غلام أسود يعمل فيها إذ أتى الغلام بقوته و دخل الحائط كلب و دنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص

فأكله ثمّ رمى إليه بالثاني و الثالث فأكله و عبد اللّه ينظر فقال:

يا غلام كم قوتك كلّ يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب إنّه جاء من مسافة بعيدة جايعا فكرهت ردّه، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد اللّه بن جعفر: الام على السخاء إنّ هذا الغلام لأسخى منّي فاشترى الحائط و الغلام و ما فيه من الآلات و أعتق الغلام و وهبه له.

و قيل: أهدي إلى الرّجل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رأس شاة فقال: إن أخي كان أحوج منّي إليه فبعث إليه به فلم يزل يبعث به الواحد إلى الآخر حتّى تداولته سبعة أبيات حتّى رجع إلى الأوّل.

و بات عليّ بن أبي طالب عليه السّلام على فراش رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأوحى اللّه تعالى إلى جبرئيل و ميكائيل عليهما السّلام: إنّي آخيت بينكما و جعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختار كلاهما الحياة و أحبّاها، فأوحى

اللّه إليهما أ فلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب، إنّي آخيت بينه و بين نبيّي محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه و يؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فكان جبرئيل عند رأسه و ميكائيل عند رجليه و جبرئيل ينادي بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي اللّه بك الملائكة، فأنزل اللّه تعالى:«و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات اللّه و اللّه رءوف بالعباد»[١].

و عن أبي الحسن الأنطاكي أنّه اجتمع عنده نيّف و ثلاثون نفسا و كانوا في قرية بقرب الرّيّ و لهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرّغفان و أطفئوا السراج و جلسوا للطعام،

فلمّا رفع الطعام فإذا الطعام بحاله و لم يأكل أحد منهم شيئا إيثارا لصاحبه على نفسه.

و روي أن شعبة جاءه سائل و لم يكن عنده شيء فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثمّ اعتذر إليه.

و قال حذيفة العدويّ: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي و معي شيء من ماء و أنا أقول: إن كان به رمق سقيته و مسحت به وجهه فإذا أنا به و به رمق فقلت: أسقيك فأشار إليّ أن نعم فإذا همّ أن يشرب فإذا رجل يقول: آه فأشار ابن عمّي إليّ أن انطلق إليه به فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك فسمع به آخر فقال: آه فأشار هشام أن انطلق به إليه فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمّي فإذا هو قد مات.

و قال عبّاس بن دهقان: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحارث فإنّه أتاه رجل في مرضه فشكى إليه الحاجة فنزع قميصه فأعطاه و استعار ثوبا فمات فيه.

---

[١] الآية في سورة البقرة: ٢٠٣ و الخبر رواه الثعلبي في تفسيره و ابن عقبة في ملحمته و أبو السعادات في فضائل العشرة و جماعة من أصحابنا كابن بابويه و الكليني و الشيخ الطوسي و ابن عقدة و البرقي و ابن فياض و العبد كى و الصفوانى و الثقفي باسانيدهم عن ابن عباس و أبي رافع و هند بن أبي هالة. راجع تفسير البرهان ذيل الآية و أشار إليه ابن سعد في الطبقات ج ١ ص ٢٢٨ طبع بيروت ١٣٧٦.

و عن بعض الصوفيّة قال: كنّا بطرسوس فاجتمعنا جماعة و خرجنا إلى باب الجهاد فتبعنا كلب من البلد فلمّا بلغنا باب الجهاد إذا نحن بدابّة ميتة فصعدنا إلى موضع عال و قعدنا فلمّا نظر الكلب إلى الميتة فرجع إلى البلد ثمّ عاد بعد ساعة

و معه مقدار عشرين كلبا فجاء إلى تلك الميتة و قعد ناحية و وقعت الكلاب على الميتة فما زالت تأكلها و ذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتّى أكلت الميتة و بقيت العظام و رجعت الكلاب إلى البلد فقام ذلك الكلب و جاء إلى تلك العظام فأكل ما بقي على العظم قليلا ثمّ انصرف. و قد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار و أحوال الأولياء في كتاب الفقر و الزّهد فلا نعيده [١].

(بيان حد السخاء و البخل و حقيقتهما)

لعلّك تقول: قد عرف بشواهد الشرع أنّ البخل من المهلكات و لكن ما حدّ البخل؟ و بما ذا يصير الإنسان بخيلا؟ و ما من إنسان إلا و هو يرى نفسه سخيّا و ربما يراه غيره بخيلا، و قد يصدر فعل من إنسان فيختلف الناس فيه فيقول قوم:

هذا بخل و يقول آخرون: ليس هذا من البخل، و ما من إنسان إلا و يجد في نفسه حبّا للمال و لأجله يحفظ المال و يمسكه فإن كان يصير بإمساكه المال بخيلا فإذن لا ينفكّ أحد عن البخل، و إذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل فلا معنى للبخل إلا الإمساك فما معنى البخل الّذي يوجب الهلاك، و ما حدّ السخاء الّذي يستحقّ العبد به صفة السخاوة و ثوابها.

فنقول: قد قال قائلون: حدّ البخل منع الواجب و كلّ من أدّى ما يجب عليه فليس ببخيل و هذا غير كاف فإنّ من يردّ اللّحم مثلا إلى القصّاب و الخبز إلى الخبّاز بنقصان حبّة أو نصف حبّة فإنّه يعدّ بخيلا بالاتّفاق و كذلك من يسلّم إلى عياله القدر الّذي يفرضه القاضي ثمّ يضايقهم في لقمة زادوا عليها أو تمرة أكلوا من ماله عدّ بخيلا. و من كان بين يديه رغيف فحضر من يظنّ أنّه يأكل معه و أخفاه عدّ

---

[١] كذا و الصحيح أن يقال «فلا نتعرض لذكرها» لان كتاب الفقر و الزهد يأتي بعد، و من هنا يعلم أن المؤلف صنف

كتاب الفقر و الزهد قبلا ولدي الترتيب جعله كتاب الرابع من ربع المنجيات.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٨٣

بخيلا و قال قائلون: البخيل هو الّذي يستصعب العطيّة، و هو أيضا قاصر فإنّه إن أريد به أنّه يستصعب كلّ عطيّة فكم من بخيل لا يستصعب العطيّة القليلة كالحبّة و ما يقرب منها و يستصعب ما فوقها و إن أريد به أنّه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا و قد يستصعب بعض العطايا و هو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم و هذا لا يوجب الحكم بالبخل.

و كذلك تكلّموا في الجود فقيل: الجود عطاء بلا منّ و إسعاف من غير رويّة، و قيل: الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل، و قيل: الجود السرور بالسائل و الفرح بالعطاء بما أمكن، و قيل: الجود عطاء على رؤية أنّ المال للّه تعالى و العبد للّه تعالى فيعطي عبد اللّه مال اللّه على غير رؤية الفقر، و قيل: من أعطى البعض و أبقى البعض فهو صاحب السخاء و من بذل الأكثر و أبقى لنفسه شيئا فهو صاحب جود، و من قاسى الضرّ و آثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار، و من لم يبذل شيئا فهو صاحب بخل، و جملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة البخل و الجود بل نقول: المال خلق لحكمة و مقصود و هو صلاحه لحاجات الخلق و يمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه و يمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، و يمكن التصرّف فيه بالعدل و هو أن يحفظ حيث يجب الحفظ و يبذل حيث يجب البذل، فالإمساك حيث يجب البذل بخل، و البذل حيث يجب الإمساك تبذير، و بينهما وسط و هو المحمود، و ينبغي أن يكون السخاء و الجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا بالسخاء، و قيل له:«و لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك و لا تبسطها كلّ

البسط» ١٧: ٢٩و قال تعالى:«و الّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا و كان بين ذلك قواما» ٢٥: ٦٧فالجود وسط بين الإقتار و الإسراف و بين البسط و القبض و هو أن يقدّر بذله و إمساكه بقدر الواجب و لا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيّبا به غير منازع له فيه فإن بذل في محلّ وجوب البذل و نفسه تنازعه و هو يصابرها فهو متسخّ و ليس بسخيّ بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال

إلا من حيث يراد المال له و هو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه.

فإن قلت: قد صار موقوفا على معرفة الواجب فما الّذي يجب بذله؟ فأقول:

الواجب قسمان واجب بالشرع و واجب بالمروّة و العادة، و السخيّ هو الّذي لا يمنع واجب الشرع و لا واجب المروّة، فإن منع واحدا منهما فهو بخيل، و لكنّ الّذي يمنع واجب الشرع أبخل كالّذي يمنع أداء الزكاة و يمنع أهله و عياله النفقة أو يؤدّيهما و لكن يشقّ عليه فإنّه بخيل بالطبع و إنّما يتسخّى بالتكلّف أو الّذي يتيمّم الخبيث من ماله و لا يطيب له أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه، فهذا كلّه بخل، و أمّا واجب المروّة فهو ترك المضايقة و الاستقصاء في المحقّرات فإنّ ذلك مستقبح و استقباح ذلك يختلف في الأحوال و الأشخاص فمن كثر ماله يستقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، و يستقبح من الرّجل من المضايقة مع أهله و أقاربه و مماليكه ما لا يستقبح مع الأجانب، و يستقبح من الجار ما لا يستقبح مع البعيد، و يستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح أقلّ منه في المبايعة و المعاملة فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة و بما به المضايقة من طعام أو ثوب إذ يستقبح في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها، و يستقبح في شراء الكفن

مثلا أو شراء الاضحيّة أو شراء خبز الصدقة ما لا يستقبح في غيره من المضايقة و كذلك يختلف بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبيّ، و بمن منه المضايقة من صبيّ أو امرأة أو شيخ أو شابّ أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير، فالبخيل هو الّذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إمّا بحكم الشرع و إمّا بحكم المروّة و ذلك لا يمكن التنصيص على مقداره و لعلّ حدّ البخل هو إمساك المال عن غرض ذلك الغرض هو أهمّ من حفظ المال فإنّ صيانة الدّين أهمّ من حفظ المال، فمانع الزّكاة و النفقة بخيل و صيانة المروّة أهمّ من حفظ المال و المضايق في الدقايق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروّة لحبّ المال فهو بخيل ثمّ تبقى درجة أخرى و هو أن يكون الرّجل ممّن يؤدِّي الواجب و يحفظ المروّة و لكن معه مال كثير قد جمعه و ليس يصرفه إلى الصدقات و إلى المحتاجين فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدّة على نوائب الزّمان و غرض

الثواب ليكون رافعا لدرجاته في الآخرة فإمساك المال عن هذا الغرض بحل عند الأكياس و ليس ببخل عند عوام الخلق و ذلك لأنّ نظر العوام مقصور على حظوظ الدّنيا فيرون إمساكه لدفع نوائب الزّمان مهمّا و ربّما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه إن كان في جواره محتاج فمنعه و قال: قد أدّيت الزّكاة الواجبة و ليس عليّ غيرها و يختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله و باختلاف شدّة حاجة المحتاج و صلاح دينه و استحقاقه، فمن أدّى واجب الشرع و واجب المروّة اللائقة به فقد تبرّأ من البخل، نعم لا يتّصف بصفة الجود و السخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة و نيل الدّرجات، و إذا اتّسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع و لا تتوجّه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتّسع له نفسه من قليل أو كثير و درجات ذلك لا

تحصر و بعض الناس أجود من بعض، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة، و المروّة هو الجود و لكن بشرط أن يكون عن طيبة نفس و لا يكون عن طمع و رجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع في الشكر و الثناء فهو بيّاع و ليس بجواد فإنّه يشتري المدح بماله و المدح لذيذ و هو مقصود في نفسه و الجود هو بذل الشيء من غير عوض، هذا هو الحقيقة و لا يتصوّر ذلك إلا من اللّه تعالى فأمّا الآدميّ فاسم الجواد عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض و لكن إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود و تطهير النفس عن رذالة البخل فيسمّى جوادا فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا أو من ملامة الخلق أو ما يتوقّعه من نفع يناله من المنعم عليه فكلّ ذلك ليس من الجود لأنّه مضطرّ إليه بهذه البواعث و هي أعواض معجّلة له عليه فهو معتاض لا جواد كما روي عن بعض المتعبّدات أنّها وقفت على حبّان بن هلال و هو جالس مع أصحابه فقالت: ما السخاء عندكم؟ قالوا: العطاء و البذل و الإيثار، قالت: هذا السخاء في الدّنيا فما السخاء في الدّين؟ قالوا: أن نعبد اللّه تعالى سخيّة بها أنفسنا غير مكرهة، قالت: فتريدون على ذلك أجرا؟ قالوا: نعم، قالت: و لم؟ قالوا: لأنّ اللّه وعدنا بالحسنة عشر أمثالها، قالت: سبحان اللّه فإذا أعطيتم واحدة و أخذتم عشرة

فبأيّ شيء تسخّيتم عليه؟ قالوا لها: فما السخاء عندك يرحمك اللّه؟ قالت: السخاء عندي أن تعبدوا اللّه متنعّمين متلذّذين بطاعته غير كارهين لا تريدون على ذلك أجرا حتّى يكون موليكم يفعل بكم ما يشاء ألا تستحيون من اللّه أن يطّلع على قلوبكم فيعلم منها أنّكم تريدون شيئا بشيء، إنّ هذا في الدّنيا لقبيح، و قالت بعض المتعبّدات:

أيحسب أحدكم أنّ السخاء في الدّرهم و الدّينار فقطّ؟ قيل: ففيم؟ قالت: السخاء عندي في المهج، و قال المحاسبيّ: السخاء في الدّين أن تسخو بنفسك تتلفها للّه عزّ و جلّ و يسخو قلبك ببذل مهجتك و إهراق دمك للّه عزّ و جلّ بسماحة من غير إكراه و لا تريد بذلك ثوابا عاجلا و لا آجلا، و إن كنت غير مستغن عن الثواب و لكن يغلب على ظنّك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على اللّه حتّى يكون مولاك هو الّذي يفعل بك مالا تحسن أن تختاره لنفسك.

(بيان علاج البخل)

اعلم أنّ البخل سببه حبّ المال و لحبّ المال سببان:

أحدهما حبّ الشهوات الّتي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإنّ الإنسان لو علم أنّه يموت بعد يوم ربما كان لا يبخل بماله إذ القدر الّذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب، و إن كان قصير الأمل و لكن كان له أولاد قام له الولد مقام طول الأمل فإنّه يقدّر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم، و لذلكقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«الولد مبخلة مجبنة مجهلة»

فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر و قلّة الثقة بمجيء الرّزق قوي البخل لا محالة.

السبب الثاني أن يحبّ عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقيّة عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته و تفضل آلاف و هو شيخ و لا ولد له و معه أموال كثيرة و لا تسمح نفسه بإخراج الزّكاة و لا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محبّا للدنانير عاشقا لها يلتذّ بوجودها في يده و بقدرته عليها فيكنزها تحت الأرض و هو يعلم أنّه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه و مع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل منها

المحجة البيضاء ج : ٦ ص :

أو يتصدّق بحبّة واحدة، و هذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيّما في كبر السنّ و هو مرض مزمن لا يرجى علاجه، و مثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا فأحبّ رسوله لنفسه ثمّ نسي محبوبه و اشتغل برسوله فإنّ الدّنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك لأنّ الموصل إلى اللّذيذ لذيذ، ثمّ قد تنسى الحاجات و يصير الذّهب عنده كأنّه محبوب في نفسه و هو غاية الضلال بل من رأى بينه و بين الحجر فرقا فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به فالفاضل عن قدر حاجته و الحجر بمثابة واحدة فهذه أسباب حبّ المال، و إنّما علاج كلّ علّة بمضادّة سببها، فيعالج حبّ الشهوات بالقناعة باليسير و بالصبر، و يعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت و النظر في موت الأقران و طول تعبهم في جمع المال و ضياعه بعدهم، و يعالج التفات القلب إلى الولد بأن الّذي خلقه خلقه معه رزقه، و كم من ولد لم يرث من أبيه مالا و حاله أحسن ممّن ورث، و بأن يعلم أنّه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير و ينقلب هو إلى شرّ و أنّ ولده إن كان تقيّا صالحا فيكفيه اللّه، و إن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية و ترجع مظلمته إليه و يعالج أيضا قلبه بكثرة التأمّل في الأخبار الواردة في ذمّ البخل و مدح السخاء و ما توعّد اللّه تعالى به على البخل من العقاب العظيم، و من الأدوية النافعة كثرة التأمّل في أحوال البخلاء و نفرة الطبع عنهم و استقباحه لهم فإنّه ما من بخيل إلا و يستقبح البخل من غيره و يستثقل كلّ بخيل من أصحابه فيعلم أنّه مستثقل و مستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه، و يعالج أيضا قلبه بأن يتفكّر في مقاصد المال و أنّه لما ذا خلق، فلا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه و الباقي يدّخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل ثواب بذله لنفسه، فهذه أدوية من جهة المعرفة و العلم، فإذا عرف بنور البصيرة أنّ البذل خير له من الإمساك في الدّنيا و الآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلا فإن تحرّكت الدّاعية فينبغي أن

يجيب الخاطر الأوّل و لا يتوقّف لأنّ الشيطان يعده الفقر و يخوّفه و يصدّه عنه.

كان أبو الحسن البوشنجي ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذا له و قال: أنزع عنّي القميص و ادفعه إلى فلان، فقال: هلا صبرت حتّى تخرج؟ قال: قد خطر

لي الآن بذله و لم آمن على نفسي أن تتغيّر، و لا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلّفا كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقرّه حتّى إذا سافر و فارق تكلّفا و صبر عنه مدّة تسلّى عنه قلبه فكذلك الّذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلّفا بأن يبذله، بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إيّاه مع الحبّ له، و من لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم و الاشتهار بالسخاء فيبذل على قصد الرّياء حتّى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل و اكتسب لها خبث الرياء، و لكن ينعطف بعد ذلك على الرّياء و يزيله بعلاجه، و يكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال كما قد يسلّى الصبيّ عند الفطام عن الثدي باللّعب بالعصافير و غيرها، لا للبخل و اللّعب و لكن لينفكّ عن الثدي إليه ثمّ ينقل عنه إلى غيره فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلّط بعضها على بعض كما تسلّط الشهوة على الغضب و تكسر سورته بها و يسلّط الغضب على الشهوة و تكسر رعونتها به إلا أنّ هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حبّ الجاه و الرّياء فيبدّل الأقوى بالأضعف، فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنّه يقلع من علّة و يزيد في الأخرى مثلها إلا أنّ علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرّياء فبذلك يتبيّن أنّ الرّياء أغلب عليه فإن كان البذل يشقّ عليه مع الرّياء فينبغي أن يبذل فإنّ ذلك يدلّ على أنّ مرض البخل أغلب على قلبه و مثال دفع بعض هذه

الصفات ببعض ما يقال: من أنّ الميّت تستحيل جميع أجزائه دودا ثمّ يأكل بعض الدّيدان البعض حتّى يقلّ عددها و يكبرون ثمّ يأكل بعضهم بعضا حتّى يرجع إلى اثنين قويّين عظيمين ثمّ لا يزالان يتقاتلان إلى أن يغلب أحدهما الآخر فيأكله و يسمن به ثمّ لا يزال يبقى وحده جائعا إلى أن يموت فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلّط بعضها على بعض حتّى يقمعها فيجعل الأضعف قوتا للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ثمّ تقع العناية بمحوها و إذا بتها بالمجاهدة، و هو منع القوت عنها، و منع القوت عن الصفات المذمومة أن لا يعمل بمقتضاها فإنّها تقتضي لا محالة أعمالا فإذا خولفت خمدت

الصفات و ماتت مثل البخل فإنّه يقتضي إمساك المال فإذا منع مقتضاه و بذل المال مع الجهد مرّة بعد أخرى ماتت صفة البخل و صار صفة البذل طبعا و سقط التعب فيه، فإذن علاج البخل بعلم و عمل، العلم يرجع إلى معرفة آفة البخل و فائدة الجود، و العمل يرجع إلى البذل على سبيل التكلّف و لكن قد يقوى البخل بحيث يعمي و يصم فيمنع تحقّق المعرفة بآفته و إذا لم يتحقّق المعرفة لم يتحرّك الرّغبة فلم يتيسّر العمل فتبقى العلّة مزمنة كالمرض الّذي يمنع معرفة الدّواء و إمكان استعماله فإنّه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت، و من عادة بعض شيوخ الصوفيّة في معالجة علّة البخل في المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم فكان إذا توهّم في مريد فرحه بزاويته و ما فيها نقله إلى زاوية غيره و نقل زاوية غيره إليه و أخرجه عن جميع ما ملكه، و إذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجّادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره و يلبسه ثوبا خليقا لا يميل إليه قلبه، فهذا و نحوه تتجافى القلوب عن متاع الدّنيا فمن لم يسلك هذا السبيل أنس الدّنيا و أحبّها فإن كان له ألف متاع كان له ألف

محبوب، و لذلك إذا سرق كلّ واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبّه له فإذا ماتت نزلت به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنّه كان يحبّ الكلّ و قد سلب عنه بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد و الهلاك.

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصّع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا قال: أراه مصيبة أو فقرا، قال: كيف؟ قال: إن كسر صارت مصيبة لا جبر لها، و إن سرق صرت فقيرا إليه و لم تجد مثله و قد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة و الفقر، ثمّ اتّفق أن كسر يوما و عظمت مصيبة الملك فيه فقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا. و هذا شأن جميع أسباب الدّنيا فإنّ الدّنيا عدوّة لأعداء اللّه إذ تسوقهم إلى النار، و عدوّة لأولياء اللّه إذ تغمّهم بالصبر عنها، و عدوّة للّه إذ تقطع طريقه على عباده، و عدوّة نفسها فإنّها تأكل نفسها، فإنّ المال لا يحفظ إلا بالخزائن و الحرّاس، و الخزائن و الحرّاس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال و هو بذل الدّراهم

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٩٠

و الدّنانير فالمال يأكل نفسه و يضادّ ذاته حتّى يفنى و من عرف آفات المال لم يأنس به و لم يفرح به و لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، و من قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأنّ ما أمسكه لحاجته فليس ببخل و ما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله، بل هو كالماء على شطّ دجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة.

(بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله)

اعلم أنّ المال كما وصفناه خير من وجه و شرّ من وجه و مثاله مثال حيّة يأخذها الرّاقيّ و يستخرج منها الترياق و يأخذها الغافل فيقتله سمّها من حيث لا يدري، و لا يخلو أحد عن سمّ المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الأولى - أن يعرف مقصود المال، و أنّه لما ذا خلق، و أنّه لم يحتج إليه حتّى يكتسب، و لا يحفظ إلا قدر حاجته، و لا يعطيه من همّته فوق ما يستحقّه.

الثانية - أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض، و ما الغالب عليه الحرام كمال السلاطين، و يجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروّة كالهدايا الّتي فيها شوائب الرّشوة و كالسؤال الّذي فيه الذّلّة و هتك المروّة و ما يجري مجراه.

الثالثة - في المقدار الّذي يكتسبه فلا يستكثر منه و لا يستقلّ بل القدر الواجب و معياره الحاجة و الحاجة ملبس و مسكن و مطعم و لكلّ واحد ثلاث درجات أدنى و أوسط و أعلى و ما دام مائلا إلى جهة جانب القلّة و متقرّبا من حدّ الضرورة كان مخفّا و يجيء في جملة المخفّفين، فإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها، و قد ذكرنا تفصيل هذه الدّرجات في كتاب الزّهد.

الرّابعة - أن يراعي جهة المخرج و يقتصد في الإنفاق غير مبذّر و لا مقترّ كما ذكرناه فيضع ما اكتسبه من حلّه في حقّه و لا يضعه في غير حقّه، فإنّ الإثم في الأخذ من غير حقّه و الوضع في غير حقّه سواء.

الخامسة - أن يصلح نيّته في الأخذ و الترك و الإنفاق و الإمساك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة، و يترك ما يترك زهدا فيه و استحقارا له و إذا فعل ذلك لم يضرّه وجود المال و لذلكقال عليّ عليه السّلام:«لو أنّ رجلا أخذ جميع ما في

الأرض و أراد به وجه اللّه فهو زاهد و لو أنّه ترك الجميع و لم يرد به وجه اللّه فليس بزاهد»

فلتكن جميع حركاتك و سكناتك للّه مقصورة على العبادة أو على ما يعين على العبادة فإنّ أبعد الحركات عن العبادة الأكل و قضاء الحاجة و هما معينان على العبادة فإذا كان

ذلك قصدك بهما صارتا عبادة في حقّك، و كذلك ينبغي أن يكون نيّتك في كلّ ما يحفظك من قميص و إزار و فراش و آنية لأنّ كلّ ذلك ممّا قد يحتاج إليه في الدّين و ما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد اللّه فلا يمنعه منه عند حاجته فمن فعل ذلك فهو الّذي أخذ من حيّة المال جوهرها و ترياقها و اتّقى سمّها فلا تضرّه كثرة المال و لكن لا يتأتّى ذلك إلا لمن رسخت في الدّين قدمه و عظم فيه علمه و العامي إذا تشبّه بالعالم في الاستكثار من المال و زعم أنّه يشبه الأغنياء من الصحابة فشأنه شأن الصبيّ الّذي يرى المعزم الحاذق يأخذ الحيّة و يتصرّف بها ليخرج ترياقها فيقتدي به و هو يظنّ أنّه أخذها مستحسنا صورتها و شكلها و مستلينا جلدها فيأخذها اقتداء به فيقتله في الحال إلا أنّ قتيل الحيّة يدري أنّه قتيل و قتيل المال قد لا يعرف، و قد شبّهت الدّنيا بالحيّة، و قيل:

هي دنيا كحيّة تنفث السمّ و إن كانت المجسّة لانت و كما يستحيل أن يتشبّه الأعمى بالبصير في التخطّي قلل الجبال و أطراف البحار و الطرق المشوكة فمحال أن يشبه العاميّ بالعالم الكامل في تناول المال.

(بيان ذم الغنى و مدح الفقر)

اعلم أنّ النّاس قد اختلفوا في تفضيل الغنيّ الشاكر على الفقير الصابر، و قد أوردنا ذلك في كتاب الفقر و الزّهد و كشفنا عن تحقيق الحقّ فيه و لكنّا في هذا الكتاب ندلّ على أنّ الفقر أفضل و أعلى من الغنى على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال فيه و نقتصر فيه على حكاية فصل ذكره حارث المحاسبيّ – رحمه اللّه – في بعض كتبه في الردّ على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتجّ بأغنياء الصحابة و بكثرة مال بعضهم و شبّه نفسه بهم، و المحاسبيّ له قدم في علم المعاملة و له السبق على أكثر الباحثين عن عيوب النفس و آفات الأعمال و أغوار العبادات فكلامه

جدير بأن يحكى على وجهه و قد قال بعد كلام له في الرّدّ على علماء السوء:
بلغنا أنّ عيسى صلوات اللّه عليه قال: «يا علماء السوء تصومون و تصلّون و تصدّقون و لا تفعلون ما تؤمرون و تدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول و الأمانيّ و تعملون بالهوى، و ما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم و قلوبكم دنسة، بحقّ أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدّقيق الطيّب و يبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم و يبقى الغلّ في صدوركم، يا عبيد الدّنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي شهوته من الدّنيا و لا تنقطع منها رغبته، بحقّ أقول لكم: إنّ قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدّنيا تحت ألسنتكم و العمل تحت أقدامكم، بحقّ أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم فصلاح الدّنيا أحبّ إليكم من صلاح الآخرة، فأيّ الناس أخسر منكم لو تعلمون، ويلكم حتّى متى تصفون الطريق للمدلجين و تقيمون في محلّ المتحيّرين كأنّكم تدعون أهل الدّنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ما ذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره و جوفه وحش مظلم، كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم و أجوافكم منه وحشة معطّلة، يا عبيد الدّنيا لا كعبيد أتقياء و لا كأحرار كرام توشك الدّنيا أن تقلعكم عن اصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثمّ تكبّكم على مناخركم: ثمّ تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثمّ يرفعكم العلم من خلفكم حتّى يسلّمكم إلى الملك الدّيّان عراة فرادى [١] فيوقفكم على سوآتكم ثمّ يجزيكم بسوء أعمالكم.
ثمّ قال الحارث: إخواني فهؤلاء علماء السوء شياطين الإنس و فتنة على الناس رغبوا في عرض الدّنيا و رفعتها و آثروها على الآخرة و أذلّوا الدّين للدّنيا فهم في العاجل عار و شين و في الآخرة هم الخاسرون أو يعفو اللّه الكريم بفضله، و بعد

فإنّي رأيت الهالك المؤثر للدّنيا سروره ممزوج بالتنغيص فيتفجّر عنه أنواع الهموم و فنون

---

[۱] أورده ابن شعبة في التحف باختلاف و فيه «حتى يسلماكم» أى الخطايا آخذا بالنواصى، و العلم رافعا من الخلف يسلماكم إلى...

المعاصي و إلى التلف و البوار مصيره، فرح الهالك برجائه فلم تبق له دنياه و لم يسلم له دينه،خسر الدّنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين،فيا لها من مصيبة ما أفظعها، و رزيّة ما أجلّها، ألا فراقبوا اللّه إخواني و لا يغرّنّكم الشيطان و أولياؤه من الإنس بالحجج الدّاحضة عند اللّه، فإنّهم يتكالبون على الدّنيا، ثمّ يطلبون لأنفسهم المعاذير و الحجج و يزعمون أنّ أصحاب محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت لهم أموال فيتزيّن المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال و لقد دهاهم الشيطان و ما يشعرون، و يحك أيّها المفتون متى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى و أفضل من تركه فقد ازدريت محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المرسلين و نسبتهم إلى قلّة الرّغبة و الزّهد في هذا الخير الّذي رغبت فيه أنت و أصحابك من جمع المال، و نسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت، و متى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى من تركه فقد زعمت أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم ينصح للامّة إذ نهاهم عن جمع المال الحلال، و قد علم أنّ جمع المال خير للامّة فقد غشّهم بزعمك حين نهاهم عنه كذبت و ربّ السماء على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لقد كان للامّة ناصحا و عليهم مشفقا و بهم رءوفا، و متى زعمت أنّ جمع المال خير لهم، أو زعمت أنّ اللّه عزّ و جلّ لم يعلم أنّ الفضل في الجمع فلذلك نهاهم عنه و أنت عليم بما في المال من الخير

و الفضل و لذلك رغبت في الاستكثار كأنّك أعلم بمواضع الفضل و الخير من ربّك تعالى اللّه عن جهلك، أيّها المفتون تدبّر ما دهاك به الشيطان حين زيّن لك الاحتجاج بمال الصحابة و يحك و ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرّحمن بن عوف فلعلّ ودّ ابن عوف في القيامة أنّه لم يؤت من الدّنيا إلا قوتا و لقد بلغني أنّه لمّا توفي عبد الرّحمن بن عوف قال اناس من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّا نخاف على عبد الرّحمن فيما ترك فقال كعب: سبحان اللّه و ما تخافون على عبد الرّحمن كسب طيّبا و أنفق طيّبا و ترك طيّبا، فبلغ ذلك أباذرّ - رضي اللّه عنه - فخرج مغضبا يريد كعبا فمرّ بعظم لحى بعير فأخذه بيده ثمّ انطلق يطلب كعبا فقيل لكعب: إنّ أباذرّ يطلبك فخرج هاربا

حتّى انتهى إلى عثمان يستغيث به و أخبره الخبر، فأقبل أبوذرّ - رحمه اللّه - يقتصّ الأثر في طلب كعب حتّى انتهى إلى دار عثمان فلمّا دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربا من أبي‌ذرّ، فقال له أبوذرّ: هيه يا ابن اليهوديّة تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرّحمن بن عوف‌لقد خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوما نحو أحد و أنا معه فقال: يا أباذرّ فقلت: لبّيك يا رسول اللّه، فقال: «الأكثرون هم الأقلّون يوم القيامة إلا من قال هكذا و هكذا عن يمينه و شماله و قدّامه و خلفه و قليل ما هم، ثمّ قال: يا أباذرّ قلت: نعم يا رسول اللّه بأبي أنت و امّي، قال: ما يسرّني أنّ لي مثل أحد ذهبا أنفقه في سبيل اللّه أموت يوم أموت و أترك منه قيراطين قلت أو قنطارين يا رسول اللّه؟ قال: بل قيراطان، ثمّ قال: يا أبا ذرّ و أنت تريد الأكثر و أنا أريد الأقلّ»

فرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يريد هذا و أنت تقول - يا ابن اليهوديّة -:

لا بأس بما ترك عبد الرّحمن بن عوف، كذبت و كذب من قال بقولك، فلم يردّ جوابا حتّى خرج [١] و بعد فالعجب كلّ العجب لكلّ مفتون يتمرّغ في مخاليط الشبهات و السّحت و يتكالب على أوساخ الناس و هو يتقلّب في الشهوات و الزّينة و المباهاة و يتقلّب في فتن الدّنيا، ثمّ يحتجّ بالصحابة و لعمري لقد كانت لبعض الصحابة أموال أرادوا بها التعفّف و البذل في سبيل اللّه فكسبوا حلالا، و أنفقوا قصدا، و قدّموا فضلا، و لم يمنعوا منها حقّا، و لم يبخلوا بها، لكنّهم جادوا اللّه بأكثرها و جاد بعضهم بجميعها، و في الشدّة آثروا اللّه تعالى على أنفسهم كثيرا فباللّه أ كذلك أنت إنّك لبعيد التشبّه بالقوم و بعد فإنّ أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبّين و من خوف الفقر آمنين و باللّه في أرزاقهم واثقين و بمقادير اللّه

---

[١] قال العراقي: الحديث متفق عليه و قد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف «كسب طيبا و ترك طيبا» و إنكار أبيذر عليه فلم أقف على هذه الزيادة الا في قول الحارث المحاسبي بلغني كما ذكره المصنف (يعنى أبا حامد) و قد رواها أحمد و أبو يعلى أخصر من هذا و لفظ كعب إذا كان قضى عنه حق اللّه فلا بأس به فرفع أبوذر عصاه فضرب كعبا وقالسمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يقول: «ما أحب لو كان هذا الجبل لي ذهبا... الحديث»

و فيه ابن لهيعة.

مسرورين، و في البلاء راضين، و في الرّخاء شاكرين، و في الضرّاء صابرين، و في السرّاء حامدين، و كانوا للّه متواضعين، و عن حبّ العلوّ و التكاثر ورعين، لم ينالوا من

الدّنيا إلا المباح لهم، و رضوا بالبلغة منها، و زجّوا الدّنيا و صبروا على مكارهها، و تجرّعوا مرارتها، و زهدوا في نعيمها و زهرتها، فباللّه أ كذلك أنت؟ و لقد بلغنا أنّهم كانوا إذا أقبلت الدّنيا عليهم حزنوا و قالوا: ذنب عجّلت عقوبته من اللّه و إذا رأوا الفقر مقبلا قالوا: مرحبا بشعار الصالحين، و بلغنا أنّ بعضهم كان إذا أصبح و عند عياله شيء أصبح كئيبا حزينا و إذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحا مسرورا فقيل لهم: إنّ الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا و إذا كان عندهم شيء فرحوا و أنت لست كذلك فقال: إنّي إذا أصبحت و ليس عندي شيء فرحت إذ كانت لي بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أسوة و إذا كان عند عيالي شيء اغتممت إذ لم يكن لي بآل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أسوة، و بلغنا أنّهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرّخاء حزنوا و أشفقوا و قالوا: ما لنا و للدّنيا و ما يراد بها، فكأنّهم على جناح خوف، و إذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا و استبشروا، و قالوا: الآن تعاهدنا ربّنا، فهذه أحوال السلف و نعمتهم و فيهم من الفضل أكثر ممّا وصفنا، فباللّه أ كذلك أنت؟ إنّك لبعيد التشبّه بالقوم و سأصف لك أحوالك أيّها المفتون ضدّا لأحوالهم و ذلك أنّك تطغى عند الغنى، و تبطر في الرّخاء، و تمرح عند السرّاء، و تغفل عن شكر النعماء، و تقنط عند الضرّاء، و تسخط عند البلاء، و لا ترضى بالقضاء، نعم و تبغض الفقر و تأنف من المسكنة، و ذلك فخر المرسلين و أنت تأنف من فخرهم و تدّخر المال و تجمعه خوفا من الفقر و ذلك من سوء الظنّ باللّه تعالى و قلّة اليقين بضمانه و كفى به إثما، و لعلّك تجمع المال لنعيم الدّنيا و زهرتها و شهواتها و لذّاتها ولقد بلغنا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«شرار امّتي الّذين غذوا بالنعيم و نبتت عليه أجسامهم»

و بلغنا أن بعض أهل العلم قال:

ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم:«أذهبتم طيّباتكم في حياتكم

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٩٦

الدّنيا و استمتعتم بها»و أنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدّنيا فيا لها حسرة و مصيبة نعم و عساك تجمع المال للتكاثر و العلوّ و الفخر و الزّينة في الدّنيا و قد بلغنا أنّ من طلب الدّنيا للتكاثر بها أو للتفاخر لقي اللّه و هو عليه غضبان، و أنت غير مكترث بما حلّ بك من غضب اللّه حين أردت التكاثر و العلوّ، نعم و عساك المكث عندك في الدّنيا أحبّ إليك من النقلة إلى جوار اللّه و أنت تكره لقاء اللّه و اللّه للقائك أكره و أنت في غفلة، و عساك تأسف على ما فاتك من عرض الدّنيا وقد بلغنا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة»

و أنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب اللّه نعم و لعلّك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دنياك و تفرح لإقبال الدّنيا عليك و ترتاح لذلك سرورا بها وقد بلغنا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«من أحبّ الدّنيا و سرّ بها ذهب خوف الآخرة من قلبه»

و بلغنا أنّ بعض أهل العلم قال: إنّك محاسب على الحزن على ما فاتك و محاسب بفرحك في الدّنيا إذا قدرت عليها و أنت تفرح بدنياك و قد سلبت الخوف من اللّه تعالى، و عساك تعني بامور دنياك أضعاف ما تعني بامور آخرتك، و عساك أنّ مصيبتك في معاصيك في انتقاص دينك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك، نعم و خوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذّنوب، و عساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلّها للعلوّ و الرّفعة في الدّنيا، و عساك ترضى

المخلوقين بمساخط اللّه تعالى كيما تكرم و تعظم، ويحك فكأنّ احتقار اللّه لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إيّاك، عساك تخفي من المخلوقين مساويك و لا تكثرت باطّلاع اللّه عليك فيها فكأنّ الفضيحة عند اللّه أهون عليك من الفضيحة عند الناس، و كأنّ العبيد أعلى عندك قدرا من اللّه تعالى، اللّه عن جهلك، فكيف تنطق عند ذوي الألباب و هذه المثالب فيك، أفّ لك تتلوّث في الأقذار تحتجّ بمال الأبرار؟ هيهات ما أبعدك عن السلف و اللّه لقد بلغني أنّهم كانوا فيما أحلّ اللّه لهم أزهد منكم فيما حرّم

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٩٧

عليكم إنّ الّذي لا بأس به عندكم كان كالموبقات عندهم و كانوا للزّلّة الصغيرة أشدّ استعظاما منكم لكبائر المعاصي فليت أطيب مالك و أحلّه مثل شبهات أموالهم، و ليتك أشفقت من سيّئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل، ليت صومك على مثل إفطارهم، و ليت اجتهادك في العبادة على مثل فتورهم و نومهم، و ليت جميع حسناتك مثل واحدة من حسناتهم، و قد بلغني عن بعض الصحابة أنّه قال: غنيمة الصدّيقين ما فاتهم من الدّنيا، و نهمتهم ما زوي عنهم منها، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدّنيا و لا معهم في الآخرة، فسبحان اللّه كم بين الفريقين من التفاوت، فريق خيار الصحابة في العلوّ عند اللّه و فريق أمثالكم في السفالة أو يعفو اللّه الكريم بفضله، و بعد فإن زعمت أنّك متأسّ بالصحابة بجمع المال للتعفّف و البذل في سبيل اللّه فتدبّر أمرك ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم أو تحسب أنّك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا، لقد بلغني أنّ بعض الصحابة قال: كنّا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام، أ فتطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط لا و ربّ الكعبة ما أحسبك كذلك ويحك كن على يقين أنّ جمع المال لأعمال البرّ مكيدة من الشيطان

ليوقعك بسبب البرّ في اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت و الحرام، وقد بلغنا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«من اجترأ على الشبهات يوشك أن يقع في الحرام» [١]
أيّها المغرور أما علمت أنّ خوفك من اقتحام الشبهات أعلى و أفضل و أعظم لقدرك عند اللّه من اكتساب الشبهات و بذلها في سبيل اللّه و سبيل البرّ، بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال: لأن تدع درهما واحدا مخافة أن لا يكون حلالا خير لك من أن تتصدّق بألف دينار من شبهة لا تدري أ يحلّ لك أم لا، فإن زعمت أنّك أتقى و أورع من أن تتلبّس بالشبهات و إنّما تجمع المال بزعمك من

---

[١]أخرجه البخاري ج ٣ ص ٧٠ في حديث هكذا:«و من اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان. و المعاصي حمى اللّه من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه»

. وأخرجه مسلم ج ٥ ص ٥٠ هكذا«فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه و عرضه و من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه».

الحلال للبذل في سبيل اللّه ويحك إن كنت كما زعمت بالغا في الورع فلا تتعرّض للحساب فإنّ خيار الصحابة خافوا المساءلة، و بلغنا أنّ بعض الصحابة قال: ما سرّني أن أكتسب كلّ يوم ألف دينار من حلال و أنفقها في طاعة اللّه و لم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة، قالوا: و لم ذلك رحمك اللّه؟ قال: لأنّي غنيّ عن مقامي يوم القيامة فيقول: عبدي من أين اكتسبت و في أيّ شيء أنفقت، فهؤلاء المتّقون

كانوا في جدة الإسلام و الحلال موجود لديهم تركوا المال و جلا من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشرّه و أنت من نفاية الامّة و الحلال في دهرك مفقود، تتكالب على الأوساخ ثمّ تزعم أنّك تجمع المال من الحلال في دهرك، ويحك أين الحلال فتجمعه، و بعد فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغيّر عند الغنى قلبك و قد بلغنا أنّ بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه، أ فتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الحقّ في أمرك و أحوالك لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظنّ بنفسك الأمّارة بالسوء، ويحك إنّي لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة من العيش و لا تجمع المال لأعمال البرّ و لا تتعرّض للحسابفإنّه بلغنا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال:«من نوقش الحساب عذّب»

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يؤتى برجل يوم القيامة و قد جمع مالا من حرام فأنفقه في حرام فيقال: اذهبوا به إلى النار، و يؤتى برجل قد جمع مالا من حلال و أنفقه في حرام فيقال: اذهبوا به إلى النار، و يؤتى برجل قد جمع مالا من حرام و أنفقه في حلال فيقال: اذهبوا به إلى النار، و يؤتى برجل جمع مالا من حلال فأنفقه في حلال فيقال له: قف لعلّك أضررت في طلب هذا بشيء ممّا فرضت عليك من صلاة لم تصلّها لوقتها أو فرّطت في شيء من ركوعها و سجودها و وضوئها، فقال:

لا يا ربّ كسبت من حلال و أنفقت منه في حلال و لم أضيّع شيئا ممّا فرضت عليّ، فيقال:

لعلّك اختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول: لا يا ربّ لم أختل و لم أباه في شيء فيقال: لعلّك منعت حقّ أحد أمرتك أن تغطيه من ذوي القربى و اليتامى

و المساكين و ابن السبيل؟ فيقول: لا يا ربّ كسبت في حلال و أنفقت في حلال و لم اضيّع شيئا ممّا افترضته عليّ و لم أختل و لم أباه و لم اضيّع حقّ أحد أمرتني أن اعطيه، قال: فيجيء أولئك فيخاصمونه فيقولون: يا ربّ أعطيته و أغنيته و جعلته بين أظهرنا و أمرته أن يعطينا، فإن كان أعطاهم و ما ضيّع مع ذلك شيئا من الفرائض و لم يختل في شيء فيقال: قف الآن هات شكر كلّ نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لقمة أو لذّة فلا يزال يسأل» [١]
ويحك فمن الّذي يتعرّض لهذه المساءلة الّتي كانت لهذا الرّجل الّذي يتقلّب في الحلال و قام بالحقوق كلّها و أدّى الفرائض بحدودها حوسب بهذه المحاسبة فكيف تراه يكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدّنيا و تخاليطها و شبهاتها و شهواتها و زينتها، ويحك لأجل هذه المساءلة يخاف المتّقون أن يتلبّسوا بالدّنيا فرضوا بالكفاف منها و عملوا بأنواع البرّ من كسب المال فلك ويحك بهؤلاء الأخيار أسوة، فإن أبيت ذلك و زعمت أنّك بليغ في الورع و التقوى و لم تجمع المال إلا من حلال بزعمك للتعفّف و البذل في سبيل اللّه، و لم تنفق شيئا من الحلال إلا بحقّ، و لم يتغيّر بسبب المال قلبك عمّا يحبّ اللّه، و لم تسخط اللّه في شيء من سرائرك و علانيتك، ويحك فإن كنت كذلك - و لست كذلك - فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة و تعتبر بذوي الأموال إذا وقفوا للسؤال و تسق مع الرعيل الأوّل في زمرة المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا حبس عليك للمسائلة و الحساب فإمّا سلامة و إمّا عطب فإنّه بلغناأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«يدخل صعاليك المهاجرين الجنّة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام» [٢]
يا قوم فاستبقوا السباق مع المخفّفين في زمرة المرسلين و كونوا وجلين من التخلّف و الانقطاع عن رسول اللّه صلّى

اللّه عليه و آله و سلّم كما وجل المتّقون، ويحك فإن تخلّفت في القيامة عن المصطفى لتنظرنّ إلى أهوال جزعت منها الملائكة و الأنبياء، و لئن قصرت عن السباق فليطولنّ عليك اللّحاق، و لئن أردت الكثير

---

[١] قال العراقي: لم أقف له على أصل.

[٢] أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢١٣ و ابن ماجه تحت رقم ٤١٢٣ و ٢٤ من حديث أبي سعيد و ابن عمر بلفظ «فقراء» مكان «صعاليك».

لتصيرنّ إلى حساب عسير، و لئن لم تقنع بالقليل لتصيرنّ إلى وقوف طويل و صراخ و عويل، أمّا علمت أنّ ترك الاشتغال بالمال و فراغ القلب بالذكر و التذكار و الفكر و الاعتبار أسلم للدّين و أيسر للحساب و أخفّ للمسائلة و آمن من روعات يوم القيامة و أجزل للثواب و أعلى لقدرك عند اللّه و أروح لبدنك و أقلّ لتعبك و أنعم لعيشك و أرخى لبالك و أقلّ لهمومك، فما عذرك في جمع المال، أنت بترك المال أفضل ممّن طلب المال لأعمال البرّ، نعم شغلك بذكر اللّه أفضل من بذل المال في سبيل اللّه فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة و الفضل في العاجل و بعد فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيّك صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ترضى بما اختار لنفسه من مجانبة الدنيا ويحك تدبّر بما سمعت و كن على يقين أنّ السعادة و الفوز في مجانبة الدّنيا فسر مع لواء المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سابقا إلى جنّة المأوى فإنّهبلغنا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«سادات المؤمنين في الجنّة من إذا تغدّى لم يجد عشاء، و إذا استقرض لم يجد قرضا و ليس له فضل كسوة إلا ما يواريه و

لم يقدر على أن يكتسب ما يغنيه يمسي مع ذلك و يصبح راضيا عن ربّه«فأولئك مع الّذين أنعم اللّه عليهم من النبيّين و الصدّيقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا»[١]

ألا يا أخي فمتى جمعت المال بعد هذا البيان فإنّك مبطل فيما ادّعيت أنّك للبرّ و الفضل تجمعه لا و لكنّك خوفا من الفقر تجمعه و للتنعّم و الزّينة و الفخر و التكاثر و العلوّ و الرّياء و السمعة و التعظّم و التكرّم تجمعه، ثمّ تزعم أنّك لأعمال البرّ تجمع المال ويحك راقب اللّه و استحي من دعواك أيّها المغرور ويحك إن كنت مفتونا بحبّ الدّنيا فكن مقرّا أنّ الخير و الفضل في الرّضا بالبلغة و مجانبة الفضول، نعم و كن عند جمع المال مزريا على نفسك، معترفا بإساءتك، وجلا من الحساب،

---

[١] الآية في سورة النساء: ٧٠. و الخبر عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصرا بلفظ «سادة الفقراء في الجنة الحديث» و قال العراقي: و لم أره في معاجم الطبراني.

فذلك أنجى لك و أقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال، و قد نصحت لكم إن قبلتم و القابلون لهذا قليل، وفّقنا اللّه و إيّاكم لكلّ خير برحمته. آخر كلامه.

و فيه كفاية في إظهار فضل الفقر على الغنى و لا مزيد عليه، و يشهد لذلك جميع الأخبار الّتي أوردناها في كتاب ذمّ الدّنيا و في كتاب الفقر و الزّهد، و يشهد له أيضا ماروي عن أبي أمامة الباهليّأنّ ثعلبة بن حاطب [١] قال: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يرزقني مالا، قال: يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه، قال: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يرزقني

مالا، قال: يا ثعلبة أمالك فيّ أسوة؟ أما ترضى أن تكون مثلي؟ أما و الّذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهبا و فضّة لسارت، قال: و الّذي بعثك بالحقّ نبيّا لئن دعوت اللّه لي أن يرزقني مالا لاعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه و لأفعلنّ و لأفعلنّ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«اللّهمّ ارزق ثعلبة مالا»

فاتّخذ غنما فنمت كما ينمو الدّود فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها فنزل واديا من أوديتها حتّى جعل يصلّي الظهر و العصر في الجماعة و يدع ما سواهما، ثمّ نمت و كثرت فتنحّى حتّى ترك الصلاة في الجماعة إلا الجمعة فتنمى كما ينمى الدّود حتّى ترك الجمعة و طفق يلقى الرّكبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار و سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: ما فعل ثعلبة بن حاطب؟ فقيل: يا رسول اللّه اتّخذ غنما فضاقت عليه المدينة و أخبر بأمره كلّه، فقال: يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، قال: و أنزل اللّه تعالى:«خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم و تزكّيهم بها و صلّ عليهم إنّ صلوتك سكن لهم»و أنزل اللّه تعالى فرائض الصدقة، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجلا من جهينة و رجلا من بني سليم على الصدقة و كتب لهما كتابا بأخذ الصدقة و أمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين و قال: مرّا بثعلبة بن حاطب

---

[۱] أخرجه البغوي و البارودى و ابن قانع و ابن السكن و ابن شاهين عن أبي امامة عن ثعلبة ابن حاطب بسند صحيح كما في الجامع الصغير ج ۲ ص ۸۸. و أخرجه الحسن بن سفيان و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و العسكري في الأمثال و ابن منده و أبو نعيم في معرفة الصحابة و ابن

مردويه و البيهقي في الدلائل و ابن عساكر عن أبي امامة راجع الدر المنثور ج ٣ ص ٢٦٠.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٠٢

و بفلان رجل من بني سليم و خذا صداقتهما، فخرجا حتّى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة و أقرءاه كتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: ما هذا إلا جزية ما هذا إلا جزية ما هذه إلا اخت الجزية، انطلقا حتّى تفرغا ثمّ تعودا إليّ، فانطلقا نحو السليميّ فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إبله فعزلهما للصدقة ثمّ استقبلهما بها فلمّا رأوها قالوا: لا يجب عليك هذا و ما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بلى خذوها نفسي بها طيّبة و إنّما هي لتأخذوها، فلمّا فرغا من صدقاتهما رجعا حتّى مرّا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال: أرياني كتابكما فنظر فيه فقال: هذا اخت الجزية انطلقا حتّى أرى رأيا فانطلقا حتّى أتيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلمّا رآهما قال: يا ويح ثعلبة قبل أن يكلّماه و دعا للسليميّ، فأخبراه بالّذي صنع ثعلبة و بالّذي صنع السليميّ فأنزل اللّه تعالى في ثعلبة«و منهم من عاهد اللّه لئن آتانا من فضله لنصّدّقنّ و لنكوننّ من الصالحين.

فلمّا آتاهم من فضله بخلوا به و تولّوا و هم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا اللّه ما وعدوه و بما كانوا يكذبون»و عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ما أنزل اللّه فيه فخرج حتّى أتى ثعلبة، فقال: لا أمّ لك يا ثعلبة قد أنزل اللّه فيك كذا و كذا، فخرج ثعلبة حتّى أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: إنّ اللّه منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: هذا عملك أمرتك فلم تطعني، فلمّا أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله فلمّا قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جاء بها إلى أبي بكر فأبى

أن يقبلها منه، و جاء بها إلى عمر فأبى أن يقبلها و توفّي ثعلبة بعد في خلافة عثمان» فهذا طغيان المال و شومه و قد عرفته من هذا الحديث و لأجل بركة الفقر و شوم الغنى آثر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الفقر لنفسه و لأهل بيته حتّى:

روي عن عمران بن حصين أنّه قال:كانت لي من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منزلة و جاه فقال: يا عمران بن حصين إنّ لك عندنا منزلة و جاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول اللّه؟ فقلت: نعم بأبي أنت و امّي، فقام و قمت معه حتّى وقف بباب منزل

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٠٣

فاطمة فقرع الباب فقال: السلام عليكم أ أدخل؟ قالت: ادخل بأبي أنت و امّي يا رسول اللّه، قال: أنا و من معي؟ قالت: و من معك يا رسول اللّه قال قالت: و الّذي بعثك بالحقّ نبيّا ما عليّ إلا عباءة قال: اصنعي بها هكذا و هكذا – و أشار بيده – فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال:

شدّي بها على رأسك ثمّ أذنت له فدخل فقال: السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت؟ فقالت أصبحت و اللّه وجعة و زادني وجعا على ما بي أنّي لست أقدر على طعام آكله فقد أجهدني الجوع، فبكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: لا تجزعي يا بنتاه فو اللّه ما ذقت طعاما منذ ثلاث و إنّي لأكرم على اللّه منك و لو سألت ربّي لأطعمني و لكنّي آثرت الآخرة على الدّنيا ثمّ ضرب بيده على منكبها و قال لها: أبشري فو اللّه إنّك لسيّدة نساء أهل الجنّة، فقالت: فأين آسية امرأة فرعون و مريم بنت عمران؟ فقال: آسية سيّدة نساء عالمها، و مريم سيّدة نساء عالمها، و خديجة سيّدة نساء عالمها، و أنت سيّدة نساء عالمك إنكنّ في بيوت من قصب لا أذى فيها و

لا صخب، ثمّ قال لها: اقنعي بابن عمّك فو اللّه لقد زوّجتك سيّدا في الدّنيا و سيّدا في الآخرة».

فانظر الآن إلى حال فاطمة و هي بضعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كيف آثرت الفقر و تركت المال، و من راقب أحوال الأنبياء عليهم السّلام و أقوالهم و ما ورد من أخبارهم و آثارهم لم يشكّ في أنّ فقد المال أفضل من وجوده و إن صرف إلى الخيرات إذ أقلّ ما فيه مع أداء الحقوق و التوقّي من الشبهات و الصرف إلى الخيرات اشتغال الهمّ بإصلاحه و انصرافه عن ذكر اللّه إذ لا ذكر إلا مع الفراغ و لا فراغ مع اشتغال البال.

و قد روي عن جرير عن ليث قال: صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السّلام فقال:

أكون معك و أصحبك فانطلقا حتّى أتيا إلى شاطيء نهر فجلسا يتغدّيان و معهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين و بقي رغيف فقام عيسى عليه السّلام إلى النهر فشرب ثمّ رجع

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٠٤

فلم يجد الرّغيف فقال للرّجل: من أخذ الرّغيف فقال: لا أدري فانطلق و معه صاحبه فرأى ظبية و معها خشفان لها فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه فأكل هو و ذلك الرّجل ثمّ قال للخشف: قم بإذن اللّه فقام فذهب فقال للرّجل: أسألك بالّذي أراك هذه الآية من أخذ الرّغيف؟ قال: لا أدري، قال: ثمّ انتهيا إلى وادي ماء فأخذ عيسى عليه السّلام بيد الرّجل فمشيا على الماء فلمّا جاوزا قال: أسألك بالّذي أراك هذه الآية من أخذ الرّغيف؟ قال: لا أدري، قال: فانتهيا إلى مفازة فجلسا فأخذ عيسى صلوات اللّه عليه يجمع ترابا أو كثيبا ثمّ قال: كن ذهبا بإذن اللّه فصار ذهبا فقسّمه ثلاثة أثلاث فقال: ثلث لي و ثلث لك و ثلث لمن أخذ الرّغيف قال:

فأنا أخذت الرّغيف، قال: فكلّه لك و فارقه عيسى عليه السّلام، فانتهى إليه رجلان في المفازة و معه المال، فأراد أن

يأخذاه منه و يقتلاه فقال: هو بيننا أثلاثا، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتّى يشتري لنا طعاما قال: فبعثوا أحدهم فقال الّذي بعث: لأيّ شيء اقاسم هؤلاء في هذا المال لكنّي أضع في هذا الطعام سمّا فأقتلهما فآخذ المال وحدي قال: ففعل و قال ذانك الرّجلان: لأيّ شيء نجعل لهذا ثلثا و لكن إذ رجع قتلناه و اقتسمناه المال بيننا، قال: فلمّا رجع إليهما قتلاه و أكلا الطعام فماتا فبقي ذلك المال في المفازة و أولئك الثلاثة قتلى عنده، فمرّ بهم عيسى صلوات اللّه عليه على تلك الحال فقال لأصحابه: هذه الدّنيا فاحذروها.

و حكي أنّ ذا القرنين أتى على امّة من الأمم ليس في أيديهم شيء ممّا يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبورا فإذا أصبحوا تعهّدوا تلك القبور و كنسوها و صلّوا عندها و رعوا البقل كما ترعى البهائم و قيّض اللّه لهم في ذلك معايش من نبات الأرض، فأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له: أجب الملك ذا القرنين فقال: مالي إليه حاجة، فأقبل إليه ذو القرنين فقال له: أرسلت إليك لتأتيني فأبيت فها أنا قد جئت، فقال: لو كانت لي إليك حاجة لأتيتك، فقال له ذو القرنين: مالي أراكم على الحالة الّتي لم أر أحدا من الأمم عليها؟ قال: و ما ذاك؟ قال: ليس لكم

دينار و لا شيء أ فلا اتّخذتم الذهب و الفضّة فاستمتعتم بهما؟ قالوا: إنّما كرهنا هما لأنّ أحدا لم يؤت منهما شيئا إلا تاقت نفسه و دعته إلى ما هو أفضل منه، فقال:

ما لكم قد احتفرتم قبورا فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها و صلّيتم عندها؟ قالوا: أردنا إذا نظرنا إليها و أملنا الدّنيا منعتنا قبورنا من الأمل، قال: و أراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض أ فلا اتّخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها و ركبتموها و استمتعتم بها؟ فقالوا: كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها و رأينا في نبات الأرض بلاغا و إنّما يكفي ابن آدم أدنى

العيش من الطعام و أنّ ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما كائنا ما كان من الطعام، ثمّ بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة فقال: يا ذا القرنين أ تدري من هذا؟ قال:

لا و من هو؟ قال: ملك من ملوك الأرض أعطاه اللّه سلطانا على أهل الأرض فغشم و ظلم و عتا فلمّا رأى اللّه ذلك منه حسمه بالموت فصار كالحجر الملقى فقد أحصى اللّه عليه عمله حتّى يجزيه به في آخرته، ثمّ تناول جمجمة أخرى بالية فقال: يا ذا القرنين هل تدري من هذا؟ قال: لا و من هو؟ قال: هذا ملك ملّكه اللّه بعده قد كان يرى ما يصنع الّذي قبله بالناس من الغشم و الظلم و التجبّر فتواضع و خشع للّه عزّ و جلّ و أمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى اللّه عليه عمله حتّى يجزيه به في آخرته، ثم أ هوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال: و هذه الجمجمة كأن قد كانت كهاتين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين: هل لك في صحبتي فأتّخذك أخا و وزيرا و شريكا فيما آتاني اللّه من هذا المال؟ قال:

ما أصلح أنا و أنت في مكان و لا أن نكون جميعا، قال ذو القرنين: و لم؟ قال: من أجل أنّ الناس كلّهم لك عدوّ و لي صديق، قال: و لم؟ قال: يعادونك لما في يديك من الملك و المال و الدّنيا، و لا أجد أحدا يعاديني لرفضي لذلك و لما عندي من الحاجة و قلّة الشيء، قال: فانصرف عنه ذو القرنين متعجّبا منه و متّعظا به.

فهذه الحكايات تدلّك على آفات الغنى مع ما قدّمنا من قبل، و اللّه الموفّق

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٠٦

لا ربّ غيره و لا معبود سواه.

هذا آخر كتاب ذمّ المال من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و يتلوه إن شاء اللّه كتاب ذمّ الجاه و الرّياء، و الحمد للّه أوّلا و آخرا.

كتاب ذمّ الجاه و الرياء

و هو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الحمد للّه علام الغيوب، المطّلع على سرائر القلوب، المتجاوز عن كبائر الذّنوب، العالم بما تجنّه الضمائر من خفايا الغيوب، البصير بسرائر النيّات و خفايا الطويّات، الّذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل و وفى، و خلص عن شوائب الرّياء و الشرك و صفا، فإنّه المتفرّد بالملكوت و الملك، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك، و الصلاة و السلام على محمّد و آله و أصحابه المبرّئين من الخيانة و الإفك و سلّم تسليما كثيرا.

أمّا بعدفقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ أخوف ما أخاف على امّتي الرّياء و الشهوة الخفيّة»

و الرّياء من الشهوة الخفيّة الّتي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في اللّيلة الظلماء و لذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سما سرة العلماء فضلا عن عامّة العبّاد و الأتقياء و هو من أواخر غوائل النفس و بواطن مكائدها، و إنّما يبتلى بها العلماء و العبّاد المشمّرون عن ساق الجدّ لسلوك سبيل الآخرة، فإنّهم مهما قهروا أنفسهم و جاهدوها و فطموها عن الشهوات و صانوها عن الشبهات و حملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة إلى التظاهر

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٠٧

بالخير و إظهار العمل و العلم فوجدت مخلصا من مشقّة المجاهدة إلى لذّة القبول عند الخلق و نظرهم إليه بعين الوقار

و التعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة و توصّلت إلى اطّلاع الخلق و لم تقنع باطّلاع الخالق و فرحت بحمد الناس و لم تقنع بحمد اللّه وحده، و علمت أنّهم إذا غرفوا تركه الشهوات و توقّيه الشبهات و تحمله مشاقّ العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح و الثناء، و بالغوا في التفريط و الإطراء، و نظروا إليه بعين التوقير و الاحترام، و تبرّكوا بمشاهدته و لقائه، و رغبوا في بركة دعائه، و حرصوا على اتّباع رأيه، و فاتحوه بالخدمة و السلام، و أكرموه في المحافل غاية الإكرام، و سامحوه في البيع و المعاملات، و قدّموه في المجالس، و آثروه بالمطاعم و الملابس، و تصاغروا له متواضعين و انقادوا له في أغراضه موقّرين فأصابت النفس في ذلك لذّة هي أعظم اللّذّات و شهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي و الهفوات و استلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذّة اللّذّات و شهوة الشهوات فهو يظنّ أنّ حياته باللّه و بعبادته المرضيّة و إنّما حياتها بهذه الشهوة الخفيّة الّتي تعمى عن دركها العقول النافذة القويّة و يرى أنّه مخلص في طاعة اللّه و مجتنب لمحارم اللّه و النفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد و تصنّعا للخلق و فرحا بما نالت من المنزلة و الوقار و حسن الحال و الإقبال، و احبطت بذلك ثواب الطاعات و اجور الأعمال و أثبت اسمه في جريدة المنافقين و هو يظنّ أنّه عند اللّه من المقرّبين، و هذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصدّيقون، و مهواة لا يرقى منها إلا المقرّبون، و لذلك قيل: آخر ما يخرج من رءوس الصدّيقين حبّ الرّئاسة، و إذا كان الرّياء هو الدّاء الدّفين الّذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه و حقيقته، و درجاته و أقسامه و طرق معالجته، و الحذر منه، و يتّضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين

الشطر الأوّل في حبّ الجاه و الشهرة

و فيه بيان ذمّ الشهرة و انتشار الصيت، و بيان فضيلة الخمول، و بيان ذمّ الجاه، و بيان معنى الجاه و حقيقته، و بيان السبب في كونه محبوبا حبّا أشدّ من حبّ المال، و بيان أنّ الجاه كمال و هميّ

و ليس بكمال حقيقيّ، و بيان ما يحمد من حبّ الجاه و ما يذمّ، و بيان السبب في حبّ المدح و الثناء و كراهية الذمّ، و بيان العلاج في حبّ الجاه، و بيان علاج حبّ المدح، و بيان علاج كراهية الذمّ، و بيان اختلاف أحوال الناس في الذمّ و المدح، فهي اثنا عشر فصلا منها تنشأ معاني الرّياء فلا بدّ من تقديمها.

(بيان ذمّ الشهرة و انتشار الصيت)

اعلم أنّ أصل الجاه هو انتشار الصيت و الاشتهار و هو مذموم بل المحمود الخمول إلا من شهّره اللّه لنشر دينه من غير تكلّف طلب الشّهرة منهقال: أنس قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«حسب امرء من الشرّ أن يشير إليه بالأصابع إلا من عصمه اللّه» [١].

وقال جابر بن عبد اللّه: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«بحسب المرء من الشرّ إلا من عصمه اللّه من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه و دنياه، إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم و لكن ينظر إلى قلوبكم و إلى أعمالكم» [٢]

و لقد ذكر الحسن للحديث تأويلا لا بأس به إذ روى هذا الحديث فقيل له: يا أبا سعيد إنّ الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع فقال: إنّه لم يعن هذا إنّما عنى به المبتدع في دينه و الفاسق في دنياه.

وقال عليّ عليه السّلام:«تبذّل و لا تشتهر، و لا ترفع شخصك لتذكر و تعلم، و اكتم و اصمت تسلم تسرّ الأبرار و تغيظ الفجّار».

و قال إبراهيم بن أدهم: ما صدّق اللّه من أحبّ الشهرة. و قال أيّوب: و اللّه ما صدّق اللّه عبد إلا سرّه أن لا يشعر بمكانه. و عن خالد بن معدان أنّه كان إذا

---

[١] أخرجه الطبراني في الأوسط بسند فيه عبد العزيز بن حصين و هو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٩٦. و أخرجه البيهقي في الشعب كما في مشكاة المصابيح ص ٤٥٥ و في المصابيح للبغوى ج ٢ ص ١٨١ بأدنى اختلاف.

[٢] قال العراقي: هو غير معروف من حديث جابر انما هو معروف من حديث أبي – هريرة رواه الطبراني في الأوسط و البيهقي في الشعب بسند فيه ضعف مقتصرين على أوله و رواه مسلم مقتصرا على الزيادة التي في آخره.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٠٩

كثرت حلقته قام مخافة الشهرة. و عن أبي العالية أنّه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام. و عن الحسن قال: خرج ابن مسعود يوما من منزله فتبعه أناس فالتفت إليهم فقال على م تتبعوني فو اللّه لو تعلمون ما أغلق عليه بأبي ما اتبعني منكم رجلان. و قال الحسن: إنّ خفق النعال حول الرّجال قلّما تلبث عليه قلوب الحمقى، و روي أنّ رجلا صحب ابن محيريز في سفر فلمّا فارقه قال: أوصني؟ قال:

إن استطعت أن تعرف و لا تعرف و تمشي و لا يمشي إليك و تسأل و لا تسأل فافعل.

و خرج أيّوب في سفر فتبعه ناس كثير فقال: لولا أنّي أعلم أنّ اللّه يعلم من قلبي أنّي لهذا كاره لخشيت المقت من اللّه. و قال معمر: عاتبت أيّوب على طول قميصه، فقال: إنّ الشهرة فيما مضى كانت في طوله و هي اليوم في تشميره. و قال الثوريّ:

كانوا يكرهون الشهرتين الثياب الجيّدة و الثياب الرديّة إذ الأبصار تمتدّ إليهما جميعا. و قال رجل لبشر بن الحارث: أوصني فقال: أخمل ذكرك، و طيّب مطعمك. و كان حوشب يبكي و يقول: بلغ اسمي مسجد الجامع و قال بشر: ما أعرف رجلا أحبّ أن يعرف إلا ذهب دينه و افتضح. و قال أيضا: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس.

(بيان فضيلة الخمول)

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على اللّه لأبرّه، منهم البراء بن مالك» [۱].

وقال ابن مسعود: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ربّ ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على اللّه لأبرّه، لو قال: اللّهمّ إنّي أسألك الجنّة لأعطاه الجنّة و لم يعطه

---

[۱] أخرجه مسلم ج ۸ ص ۳٦ و ١٥٤ من حديث أبي هريرة «رب أشعث مدفوع بالابواب لو أقسم على اللّه لابره» و للحاكم «رب أشعث اغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على اللّه لابره» و قال: صحيح الاسناد و لابي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على اللّه لابره منهم البراء بن مالك» و هو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة و قال: صحيح الاسناد و قال العراقي في المغني: بل ضعيفه.

من الدّنيا شيئا».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ألا أدلّكم على أهل الجنّة؟: كلّ ضعيف متضعف لو أقسم على اللّه لأبرّه، و أهل النار كلّ متكبّر جوّاظ».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ أهل الجنّة كلّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الّذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، و إذا خطبوا النساء لم ينكحوا، و إذا قالوا لم ينصت لقولهم، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره، لو قسّم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ من امّتي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إيّاه و لو سأله درهما لم يعطه إيّاه و لو سأله فلسا لم يعطه إيّاه، و لو سأل اللّه تعالى الجنّة لأعطاها إيّاه، و لو سأله الدّنيا لم يعطه إيّاها، و ما منعها إيّاه إلا لهوانها عليه، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على اللّه لأبرّه».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اليسير من الرّياء شرك، و إنّ اللّه يحبّ الأتقياء الأخفياء الّذين إن غابوا لم يفقدوا و إذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كلّ غبراء مظلمة».

و قال محمّد بن سويد: قحط أهل المدينة و كان بها رجل صالح لا يؤبه له لازم لمسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فبيناهم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلّى

ركعتين أوجز فيهما ثمّ بسط يديه فقال: يا ربّ أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة فلم يردّ يديه و لم يقطع دعاءه حتّى تغشّت السماء بالغيم و أمطروا حتّى صاح أهل المدينة من خوف الغرق فقال: يا ربّ إن كنت تعلم أنّهم قد اكتفوا فارفع عنهم فسكن، و تبع محمّد بن سويد صاحب المطر حتّى عرف منزله، ثمّ بكّر عليه فخرج إليه فقال: إنّي أتيتك في حاجة، فقال: ما هي؟ قال: تخصّني بدعوة، قال: سبحان اللّه أنت أنت و تسألني أن أخصّك بدعوة، ثمّ قال: ما الّذي بلغك

ما رأيت قال: أطعت اللّه فيما أمرني و نهاني فسألت اللّه فأعطاني.

و قال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج اللّيل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء و تخفون في أهل الأرض.

وقال أبو أمامة: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذّ ذو حظّ من صلاة أحسن عبادة ربّه و أطاعه في السرّ [و العلانية] و كان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع و صبر على ذلك، قال: ثمّ نقر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بيده فقال: عجّلت منيّته و قلّ تراثه و قلّت بواكيه».

و قال الفضيل: بلغني أنّ اللّه تعالى يقول في بعض ما يمنّ به على عبده: ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك؟.

و كان الخليل بن أحمد يقول: اللّهمّ اجعلني عندك من أرفع خلقك، و اجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، و اجعلني عند الناس من أوسط خلقك.

فهذه الأخبار و الآثار تعرّفك مذمّة الشهرة و فضيلة الخمول و إنّما المطلوب بالشهرة و انتشار الصيت هو الجاه و المنزلة في القلوب و حبّ الجاه هو منشأ كلّ فساد.

فإن قلت: فأيّ شهرة تزيد على شهرة الأنبياء عليهم السّلام و أئمّة العلماء، فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟

فاعلم أنّ المذموم طلب الشهرة و أمّا وجودها من جهة اللّه سبحانه من غير تكلّف من العبد فليس بمذموم، نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، و هو كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فإنّهم يتعلّقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم و أمّا القويّ فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلّقوا به فينجيهم و يثاب على ذلك.

(بيان ذمّ حبّ الجاه)

قال اللّه تعالى:«تلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوّا في الأرض و لا فسادا» ٢٨: ٨٣جمع بين إرادة الفساد و العلوّ و بين أنّ الدّار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعا، و قال تعالى:«من كان يريد الحياة الدّنيا و زينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها و هم فيها لا يبخسون. أولئك الّذين ليس لهم في الآخرة إلا النار و حبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون» ١١: ١٥ - ١٦و هذا أيضا متناول بعمومه لحبّ الجاه فإنّه أعظم لذّة من لذّات الحياة الدّنيا و أكثر زينة من زينتها.

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«حبّ الجاه و المال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ما ذئبان ضاريان ارسلا في زريبة غنم بأكثر فسادا من حبّ الجاه و المال و الشرف في دين الرّجل المسلم».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لعلّي عليه السّلام:«إنّما هلك الناس باتّباع الهوى و حبّ الثناء»خ

أقول:

و من طريق الخاصّة

ماروواه في الكافي عن عبد اللّه بن مسكان قال:

سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول:«إيّاكم و هؤلاء الرّؤساء الّذين يترأسون فو اللّه ما

خفقت النعال خلف رجل إلا هلّك و أهلك».

وعنه عليه السّلام قال:«ملعون من ترأّس، ملعون من همّ بها، ملعون من حدّث بها نفسه».

وعنه عليه السّلام:«من أراد الرّئاسة هلك».

وعن أبي الربيع الشاميّ، عن أبي جعفر عليه السّلام قال:«قال: لي ويحك يا أبا الرّبيع لا تطلبنّ الرّئاسة و لا تكن ذنبا و لا تأكل بنا الناس فيفقرك اللّه و لا تقل فينا ما لا نقول في أنفسنا فإنّك موقوف و مسئول لا محالة فإن كنت صادقا صدّقناك و إن كنت كاذبا كذّبناك».

وعن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول:«أ تراني لا أعرف خياركم من شراركم؟ بلى و اللّه و إنّ شراركم من أحبّ أن يوطّأ عقبه إنّه لا بدّ من كذّاب أو عاجز الرأي» [١].

وفي الصحيح عن معمر بن خلاد عن أبي الحسن الرّضا عليه السّلامأنّه ذكر رجلا فقال له: إنّه يحبّ الرّئاسة فقال: «ما ذئبان ضاريان في غنم تفرّق رعاؤها بأضرّ في دين المسلّم من الرّئاسة».

(بيان معنى الجاه و حقيقته)

اعلم أنّ الجاه و المال هما ركنا الدّنيا و معنى المال ملك الأعيان المنتفع بها و معنى الجاه ملك القلوب المطلوبة تعظيمها و طاعتها، و كما أنّ الغنيّ هو الّذي يملك

---

[١] المصدر ج ٢ ص ٢٩٩ و قال المؤلف في الوافي: أى من أحب أن يوطأ عقبه لابد أن يكون كذابا أو عاجز الرأي لأنه لا يعلم جميع ما يسأل عنه، فان أجاب عن كل ما سئل فلا بد من الكذب و ان لم يجب عما لا يعلم فهو عاجز الرأي، أو المعنى أنه لابد في الأرض من كذاب يطلب الرئاسة و من عاجز يتبعه.

الدّنانير و الدّراهم أي يقدر عليهما ليتوصّل بهما إلى الأغراض و المقاصد و قضاء الشهوات و سائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه هو الّذي يملك قلوب الناس أي يقدر

على أن يتصرّف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه و مآربه و كما أنّه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف و الصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات و لا تصير القلوب مسخّرة إلا بالمعارف و الاعتقادات، فكلّ من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال إنقاد له و تسخّر له بحسب قوّة اعتقاده و بحسب درجة ذلك الكمال عنده و ليس يشترط أن يكون الوصف كمالا في نفسه بل يكفي أن يكون كمالا عنده و في اعتقاده، و قد يعتقد ما ليس كمالا كمالا و يذعن قلبه للموصوف به انقيادا ضروريّا بحسب اعتقاده فإنّ انقياد القلب حال للقلب و أحوال القلب تابعة لاعتقادات القلوب و علومها و تخيّلاتها و كما أنّ محبّ المال يطلب ملك الأرقّاء و العبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترقّ الأحرار و يستعبدهم و يملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرّق الّذي يطلبه صاحب الجاه أعظم لأنّ المالك يملك العبد قهرا و العبد متأبّ بطبعه و لو خلّي و رأيه انسلّ عن الطاعة، و صاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا و ينبغي أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع و الطوع مع الفرح بالعبوديّة و الطاعة له فما يطلبه طالب الجاه فوق ما يطلبه مالك الرقّ بكثير فإذا معنى الجاه قيام المنزلة في قلوب الناس أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم و بقدر إذعان القلوب تكون قدرته على أرباب القلوب و بقدر قدرته على القلوب يكون فرحه و حبّه للجاه فهذا هو معنى الجاه و حقيقته و له ثمرات كالمدح و الإطراء فإنّ المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده فيثني عليه و كالخدمة و الإعانة فإنّه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه و كالايثار و ترك المنازعة و التعظيم و التوقير بالمفاتحة بالسلام و تسليم الصدر في المحافل و التقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب، و معنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات

الكمال في الشخص إمّا بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو

قوّة في بدن أو شيء ممّا يعتقده النّاس كمالا فإنّ هذه الأوصاف كلّها يعظم محلّها في القلوب فتكون سببا لقيام الجاه.

(بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع) (حتى لا يخلو عنه قلب الا بشديد المجاهدة)

اعلم أنّ السبب الّذي يقتضي كون الذّهب و الفضّة و سائر أنواع الأموال محبوبا هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوبا بل يقتضي أن يكون أحبّ من المال كما يقتضي أن يكون الذّهب أحبّ من الفضّة مهما تساويا في المقدار و هو أنّك تعلم أنّ الدّراهم و الدّنانير لا غرض في أعيانهما إذ لا تصلح لمنكح و لا لمطعم و لا لملبس و إنّما هي و الحصى بمثابة واحدة و لكنّها محبوبة لأنّها وسيلة إلى جميع المحابّ و ذريعة إلى قضاء الشهوات، و كذلك الجاه لأنّ معنى الجاه ملك القلوب و كما أنّ ملك الذّهب و الفضّة يفيد قدرة يتوصّل الإنسان بها إلى سائر أغراضه فكذلك ملك قلوب الأحرار و القدرة على استسخارها تفيد قدرة على التوصّل إلى جميع الأغراض فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبّة و ترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحبّ من المال، و لملك القلوب ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأوّل: أنّ التوصّل بالجاه إلى المال أيسر من التوصّل بالمال إلى الجاه

فالعالم أو الزّاهد الّذي تقرّر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال يتيسّر له فإنّ أموال أرباب القلوب مسخّرة للقلوب و مبذولة لمن اعتقد فيه الكمال و أمّا الرّجل الخسيس الّذي لا يتّصف بصفة كمال إذا وجد كنزا و لم يكن له جاه يحفظ ماله و أراد أن يتوصّل بالمال إلى الجاه لم يتيسّر له

فإذن الجاه آلة إلى المال، فمن ملك الجاه فقد ملك المال أيضا، و من ملك المال لم يملك الجاه بكلّ حال فلذلك صار الجاه أحبّ.

الثاني هو أنّ المال معرض للبلوى

و التلف لأنّه يسرق و يغصب و يطمع فيه الملوك و الظلمة و يحتاج فيه إلى الحفظ و الحراسة و الخزائن و يتطرّق إليه أخطار كثير و أمّا القلوب إذا ملكت لم تتعرّض لهذه الآفات، فهي على التحقيق خزائن

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١١٦

عقيدة لا يقدر عليها السرّاق و لا تتناولها أيدي الغصّاب و أثبت الأموال العقار و لا يؤمن فيه الغصب و الظلم و لا يستغنى عن المراقبة و الحفظ، و أمّا خزائن القلوب فهي محفوظة بأنفسها و ذو الجاه في أمن و أمان من الغصب و السرقة فيها، نعم إنّما تغصب القلوب بالتصريف و تقبيح الحال و تغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال و ذلك ممّا يهون دفعه و لا يتيسّر على محاوله فعله.

الثالث أنّ ملك القلوب يسري و ينمو و يتزايد من غير حاجة إلى تعب

و مقاساة لأنّ القلوب إذا أذعنت لشخص و اعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها فيصف ما يعتقده لغيره و يقتنص ذلك القلب أيضا له و لهذا المعنى يحبّ بالطبع الصيت و انتشار الذّكر لأنّ ذلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب و دعاها إلى الإذعان و التعظيم فلا يزال يسري من واحد إلى واحد و يتزايد و ليس له مردّ معين، و أمّا المال فمن ملك منه شيئا فهو مالكه فقطّ و لا يقدر على استنمائه إلا بتعب و مقاساة فالجاه أبدا في النماء بنفسه و لا مردّ لموقعه، و المال واقف و لهذا إذ عظم الجاه و انتشر الصيت و انطلقت الألسنة بالثناء استحقرت

الأموال في مقابلته، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال و إذا فصّلت كثرت وجوه الترجيح.

فإن قلت: فالاشكال قائم في المال و الجاه جميعا فلا ينبغي أن يحبّ الإنسان المال و الجاه، نعم القدر الّذي يتوصّل به إلى جلب الملاذّ و دفع المضارّ معلوم كالمحتاج إلى الملبس و المسكن و المطعم أو كالمبتلى بمرض أو عقوبة إذا كان لا يتوصّل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال و جاه فحبّه للمال و الجاه معلوم إذ كلّ ما لا يتوصّل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب و في الطباع أمر عجيب وراء هذا و هو حبّ جمع الأموال و كنز الكنوز و ادّخار الذّخائر و استكثار الخزائن وراء جميع الحاجات حتّى لو كان للعبد و اديان من ذهب لابتغى وراء هما ثالثا، و كذلك يحبّ الإنسان اتّساع الجاه و انتشار الصيت إلى أقاصي البلاد الّتي يعلم قطعا أنّه قطّ لا يطؤها و لا يشاهد أصحابها ليعظّموه أو ليبرّوه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه و مع اليأس من ذلك فإنّه يلتذّ به غاية الالتذاذ و حبّ ذلك ثابت في الطبع

و يكاد يظنّ أنّ ذلك جهل فإنّه حبّ لما لا فائدة فيه لا في الدّنيا و لا في الآخرة.

فنقول: نعم هذا الحبّ لا ينفكّ عنه القلوب و له سببان أحدهما جليّ تدركه الكافّة و الآخر خفيّ و هو أعظم السببين و لكنّه أدقّهما و أخفاهما و أبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء و ذلك لاستمداده من عرق خفيّ في النفس و طبيعة مستكنّة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغوّاصون، فأمّا السبب الأوّل فهو دفع ألم الخوف لأنّ الشفيق بسوء الظنّ مولع و الإنسان و إن كان مكتفيا في الحال فإنّه طويل الأمل و يخطر بباله أنّ المال الّذي فيه كفايته ربّما يتلف فيحتاج إلى غيره فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه و لا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن

أصابت هذا المال جائحة فهو أبدا لشفقّته على نفسه و حبّه للحياة يقدّر طول الحياة و يقدّر هجوم الحاجات و يقدّر إمكان تطرّق الآفات إلى الأموال و يستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه و هو كثرة المال حتّى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالاخرى و هذا خوف لا يوقف له عند مقدار مخصوص من المال فلذلك لم يكن لميله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدّنيا و لذلكقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«منهومان لا يشبعان منهوم العلم و منهوم المال»

و مثل هذه العلّة تطّرد في حبّه قيام المنزلة و الجاه في قلوب الأباعد عن وطنه و بلده فإنّه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه و يحتاج إلى الاستعانة بهم و مهما كان ذلك ممكنا و لم يكن احتياجه إليهم مستحيلا إحالة ظاهرة كان للنفس فرح و لذّة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف، و أمّا السبب الثاني و هو الأقوى أنّ الرّوح أمر ربّانيّ وصفه اللّه تعالى إذ قال:«و يسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي» ١٧: ٨٥و معنى كونه ربّانيّا من أسرار علوم المكاشفة و لا رخصة في إظهاره إذ لم يظهره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّك قبل معرفة ذلك تعلم أنّ للقلب ميلا إلى صفات بهيمية كالأكل و الوقاع، و إلى

صفات سبعيّة كالقتل و الضرب و الإيذاء، و إلى صفات شيطانيّة كالمكر و الخديعة و الإغواء، و إلى صفات ربوبيّة كالكبر و العزّ و التجبّر و طلب الاستعلاء، و ذلك لأنّه مركّب من أصول مختلفة يطول شرحها و تفصيلها فهو لما فيه من الأمر الربّانيّ يحبّ الرّبوبيّة بالطبع و معنى الرّبوبيّة التوحد بالكمال و التفرّد بالوجود على سبيل الاستقلال فصار الكمال من نعوت الإلهيّة و صار محبوبا بالطبع للإنسان و

الكمال في التفرّد بالوجود، فإنّ المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنّها موجودة وحدها فلو كانت معها شمس أخرى كان ذلك نقصانا في حقّها إذ لم تكن متفرّدة بكمال معنى الشمسيّة و المتفرّد بالوجود هو اللّه تعالى إذ ليس معه موجود سواء فإنّ ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجودا معه لأنّ المعيّة توجب المساواة في الرّتبة و المساواة في الرّتبة نقصان في الكمال بل الكامل من لا نظير له في رتبته، و كما أنّ إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانا في الشمس بل هو من جملة كمالها و إنّما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرّتبة مع الاستغناء عنها، فكذلك وجود كلّ ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعا فلا يكون متّبعا فإذا معنى الرّبوبيّة التفرّد بالوجود و هو الكمال و كلّ إنسان فإنّه بطبعه محبّ لأن يكون هو المتفرّد بالكمال و لذلك قال بعض مشايخ الصوفيّة: ما من إنسان إلا و في باطنه ما صرّح به فرعون من قوله«أنا ربّكم الأعلى»و لكنّه ليس يجد له مجالا، و هو كما قال فإنّ العبوديّة قهر على النفس و الرّبوبيّة محبوبة بالطبع و ذلك للنسبة الربّانيّة الّتي أومأ إليها قوله تعالى:«قل الرّوح من أمر ربّي»و لكن لمّا عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهي محبّة للكمال و مشتهية له و ملتذّة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، فكلّ موجود فهو محبّ لذاته و لكمال ذاته و مبغض للهلاك الّذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته، و إنّما الكمال بعد أن لم يسلم التفرّد بالوجود في الاستيلاء على كلّ الموجودات، فإنّ أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فإن لم يكن منك فأن تكون مستوليا عليه فصار

المحجة البيضاء ج : ٦ ص :

الاستيلاء على الكلّ محبوبا بالطبع لأنّه نوع كمال و كلّ موجود يعرف ذاته فإنّه يحبّ ذاته و يحبّ كمال ذاته و يلتذّ بها إلا أنّ الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه و على تغييره بحسب الإرادة و كونه مسخّرا لك تردّده كيف تشاء فأحبّ الإنسان أن يكون له الاستيلاء على الأشياء الموجودة معه إلا أنّ الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيّر في نفسه كذات اللّه و صفاته و إلى ما يقبل التغيّر و لكن لا يستولي عليها قدرة الخلق كالأفلاك و الكواكب و ملكوت السماوات و نفوس الملائكة و الجنّ و الشياطين و كالجبال و البحار و ما تحت الجبال و البحار، و إلى ما يقبل التغيّر بقدرة العبد كالأرض و أجزائها و ما عليها من المعادن و النبات و الحيوان و من جملتها قلوب الناس فإنّها قابلة للتأثّر و التغيّر مثل أجسادهم و أجساد الحيوانات فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرّف فيه كالأرضيات و إلى ما لا يقدر كذات اللّه تعالى و الملائكة و السماوات فأحبّ الإنسان أن يستولي على السماويات بالعلم و الإحاطة و الاطّلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء إذ المعلوم المحاط به كالدّاخل تحت القدرة و العالم كالمستولي عليه فلذلك أحبّ أن يعرف اللّه و الملائكة و الأفلاك و الكواكب و جميع عجائب السماوات و عجائب البحار و الجبال و غيرها لأنّ ذلك نوع استيلاء عليها و الاستيلاء نوع كمال و هذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يعجز عن وضع الشطرنج فإنّه قد يشتهي أن يعرف اللّعب به و أنّه كيف وضع، و كمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشعبذة أو جرّ الثقيل أو غيره و هو مستشعر في نفسه نقص العجز و القصور عنه لكنّه يشتاق إلى معرفة كيفيّته فهو متألّم بنقص العجز و متلذّذ بكمال العلم إن علمه.

و أمّا القسم الثاني و هو الأرضيّات الّتي يقدر الإنسان عليها فإنّه يحبّ بالطبع أن يستولي عليها بالقدرة على التصرّف فيها

كيف يريد و هي قسمان أجساد و أرواح و الأجساد الدّراهم و الدّنانير و الأمتعة فيحبّ أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ما يشاء من الرّفع و الوضع و التسليم و المنع فإنّ ذلك قدرة و القدرة

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٢٠

كمال، و الكمال من صفات الرّبوبيّة، و الربوبيّة محبوبة بالطبع، فلذلك أحبّ الأموال و إن كان لا يحتاج إليها في ملبسه و مطعمه و في شهوات نفسه و لذلك طلب استرقاق العبيد و استعباد الأشخاص الأحرار و لو بالقهر و الغلبة حتّى يتصرّف في أجسادهم و أشخاصهم بالاستسخار و إن لم يملك قلوبهم فإنّها ربّما لم تعتقد كماله حتّى يصير محبوبا لها و يقوم القهر منزلته فيها فإنّ الحشمة القهريّة أيضا لذيذة لما فيها من القدرة.

القسم الثالث نفوس الآدميّين و قلوبهم و هي أنفس ما على وجه الأرض فهو يحبّ أن يكون له استيلاء و قدرة عليها لتكون مسخّرة له متصرّفة تحت إشارته و إرادته لما فيها من كمال الاستيلاء و التشبّه بالصفات الرّبوبيّة، و القلوب إنّما تتسخّر بالحبّ و لا تحبّ إلا باعتقاد الكمال فإنّ كلّ كمال محبوب لأنّ الكمال من صفات الإلهيّة و الصفات الإلهيّة كلّها محبوبة بالطبع للمعنى الرّبّانيّ من جملة معاني الإنسان و هو الّذي لا يبليه الموت فيعدمه و لا يتسلّط عليه التراب فيأكله لأنّه محلّ الإيمان و المعرفة، و هو الواصل إلى لقاء اللّه و الساعي إليه، فإذا معنى الجاه تسخّر القلوب و من تسخّرت القلوب له كانت له قدرة و استيلاء عليها و القدرة و الاستيلاء كمال و هو من أوصاف الرّبوبيّة فإذا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم و القدرة، و المال و الجاه من أسباب القدرة و لا نهاية للمعلومات و لا نهاية للمقدورات و ما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن و النقصان لا يزول فلذلكقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«منهومان لا يشعبان»

فإذا مطلوب القلب الكمال و الكمال بالعلم و القدرة، و تفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كلّ إنسان و لذّته بقدر ما يدركه من الكمال، فهذا هو السبب في كون العلم و المال و الجاه محبوبا، و هو أمر وراء كونه محبوبا لأجل التوصّل به إلى قضاء الشهوات فإنّ هذه العلّة قد تبقى مع سقوط الشهوات، بل يحبّ الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصّل به إلى الأغراض بل ربّما يفوت عليه جملة من الأغراض و الشهوات و لكنّ الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب و المشكلات لأنّ في العلم استيلاء على المعلوم و هو نوع من الكمال

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٢١

الّذي هو من صفات الرّبوبيّة و كان محبوبا بالطبع، إلا أنّ في حبّ كمال العلم و القدرة أغاليط لا بدّ من بيانها.

(بيان الكمال الحقيقي و الكمال الوهمى الّذى لا حقيقة له)

قد عرفت أنّه لا كمال بعد فوات التفرّد بالوجود إلا في العلم و القدرة و لكنّ الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهميّ و بيانه أنّ كمال العلم للّه تعالى و ذلك من ثلاثة أوجه؟ أحدها من حيث كثرة المعلومات و سعتها فإنّه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلّما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى اللّه تعالى.

و الثاني من حيث تعلّق العلم بالمعلوم على ما هو به و كون المعلوم مكشوفا به كشفا تامّا فإنّ المعلومات مكشوفة للّه سبحانه بأتمّ أنواع الكشف على ما هي عليها فلذلك مهما كان علم العبد أوضح و أتقن و أصدق و أوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم كان أقرب إلى اللّه تعالى.

الثالث من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغيّر و لا يزول فإنّ علم اللّه تعالى باق لا يتصوّر أن يتغيّر و يزول و كذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا تقبل التغيّر و الانقلاب كان أقرب إلى اللّه تعالى، و المعلومات قسمان

متغيّرات و أزليات أمّا المتغيّرات فمثاله العلم بكون زيد في الدّار فإنّه علم له معلوم و لكنّه يتصوّر أن يخرج زيد من الدّار و يبقى اعتقاد كونه في الدّار كما كان فينقلب جهلا فيكون نقصانا لا كمالا فكلّ ما اعتقدته اعتقادا موافقا و تصوّر أن ينقلب المعتقد فيه عمّا اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصا و يعود علمك جهلا، و يلتحق بهذا المثال جميع متغيّرات العالم كعلمك مثلا بارتفاع جبل و مساحة أرض و بعدد البلاد و تباعد ما بينها من الأميال و الفراسخ و سائر ما يذكر في المسالك و الممالك و كذلك العلم باللّغات الّتي هي اصطلاحات تتغيّر بتغيّر الأعصار و الأمم و العادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزيبق يتغيّر من حال إلى حال فليس فيه كمال إلا في الحال و لا يبقى كمالا في القلب، و القسم الثاني هي المعلومات الأزليّة و هو جواز الجائزات، و وجوب الواجبات، و استحالة المستحيلات، فإنّ هذه معلومات أزليّة

أبديّة إذ لا يستحيل الواجب قطّ جائزا و لا الجائز محالا و لا المحال واجبا و كلّ هذه الأقسام داخلة في معرفة اللّه تعالى و ما يجب له و ما يستحيل في صفاته و يجوز في أفعاله، فالعلم باللّه تعالى و بصفاته و أفعاله و حكمته في ملكوت السماء و الأرض و ترتيب الدّنيا و الآخرة و ما يتعلّق به هو الكمال الحقيقيّ الّذي يقرب من يتّصف به من اللّه تعالى و يبقى كمالا للنفس بعد الموت و تكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم و بأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدّنيا كما أنّ من معه سراج خفيّ فإنّه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه فيكمل النور بذلك النور الخفيّ على سبيل الاستتمام و من ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك، فمن ليس

معه أصل معرفة اللّه سبحانه لم يكن له مطمع في هذا النور فيبقىكمن مثله في الظلمات ليس بخارج منهابلكظلمات في بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعضفإذا لا سعادة إلا في معرفة اللّه تعالى فأمّا ما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة فيه أصلا كمعرفة الشعر و أنساب العرب و غيرها. و منها ما له منفعة في الإعانة على معرفة اللّه كمعرفة لغة العرب و التفسير و الفقه و الأخبار، فإنّ معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن، و معرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفيّة العبادات و الأعمال الّتي تفيد تزكية النفس، و معرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة اللّه تعالى كما قال اللّه عزّ و جلّ«قد أفلح من زكّيها» ٩١: ٩و قال:«و الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا» ٢٩: ٦٩فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة اللّه تعالى و إنّما الكمال في معرفة اللّه و معرفة صفاته و أفعاله، و ينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلّها من أفعاله فمن عرفها من حيث هي فعل اللّه و من حيث ارتباطها بالقدرة و الإرادة و الحكمة فهي من تكملة معرفة اللّه تعالى و هذا حكم كمال العلم

ذكرناه و إن لم يكن لايقا بأحكام الجاه و الرّياء و لكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

و أمّا القدرة فليس فيها كمال حقيقيّ للعبد بل للعبد علم حقيقيّ و ليس له قدرة حقيقيّة و إنّما القدرة الحقيقيّة للّه تعالى و ما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد و قدرته و حركته فهي حادثة بإحداث اللّه كما قد قرّرناه في كتاب الصبر و الشكر و كتاب التوكّل و في مواضع شتّى من ربع المنجيات فكمال العلم يبقى معه بعد الموت و يوصله إلى اللّه تعالى فأمّا كمال القدرة فلا، نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى

الحال و هي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه و قوّة يده للبطش و رجله للمشي و حواسّه للإدراك فإنّ هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم و قد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال و الجاه للتوصّل به إلى المطعم و الملبس و المسكن و ذلك إلى قدر معلوم فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة اللّه فلا خير فيه البتّة إلا من حيث اللّذّة الحاليّة الّتي تنقضي على القرب و من ظنّ ذلك كمالا فقد جهل، فالخلق كلّهم هالكون في غمرة هذا الجهل فإنّهم يظنّون أنّ القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، و على أعيان الأموال بسعة الغنى، و على تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال، فلمّا اعتقدوا ذلك أحبّوه و لمّا أحبّوه طلبوه و لمّا طلبوه شغلوا به و تهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقيّ الّذي يوجب القرب من اللّه و من ملائكته و هو العلم و الحرّيّة، أمّا العلم فما ذكرناه من معرفة اللّه و أمّا الحرّيّة فالخلاص من أسر الشهوات و غموم الدّنيا و الاستيلاء عليها بالقهر تشبّها بالملائكة الّذين لا يستفزّهم الشهوة و لا يستهويهم الغضب، فإذا دفع آثار الغضب و الشهوة عن النفس من الكمال الّذي هو من صفات الملائكة، و من صفات الكمال للّه تعالى استحالة التغيّر و التأثّر عليه فمن كان عن التغيّر و التأثّر بالعوارض أبعد كان إلى اللّه تعالى أقرب و بالملائكة أشبه و منزلته عند اللّه أعظم، و هذا كمال ثالث سوى كمال العلم و القدرة، و إنّما لم نورده في أقسام الكمال لأنّ حقيقته ترجع إلى عدم و نقصان فإنّ التغيّر نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة و هلاكها و الهلاك نقص في اللّذّات و في صفات الكمال. فإذا الكمالات ثلاثة إن عدّدنا عدم التغيّر

بالشهوات و عدم الانقياد لها كمالا ككمال العلم و كمال الحرّيّة و أعني به عدم العبوديّة للشهوات و إرادة الأسباب الدّنياويّة و كمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم و

كمال الحرّيّة و لا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته إذ قدرته على أعيان الأموال و على استسخار القلوب و الأبدان تنقطع بالموت و معرفته و حرّيّته لا تنعدمان بالموت بل تبقيان كمالا فيه و وسيلة إلى القرب من اللّه تعالى.

فانظر كيف انقلب الجاهلون و انكبّوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالمال و الجاه و هو الكمال الّذي لا يسلم و إن سلم فلا بقاء له و أعرضوا عن كمال الحرّيّة و العلم الّذي إذا حصل كان أبديّا لا انقطاع له و هؤلاء همالّذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرةفلا جرملا يخفّف عنهم العذاب و لا هم ينصرون،و هم الّذين لم يفهموا قوله تعالى:«المال و البنون زينة الحيوة الدّنيا و الباقيات الصالحات خير عند ربّك» ١٨: ٤٦فالعلم و الحريّة هي الباقيات الصالحات الّتي تبقى كمالا في النفس، و المال و الجاه هو الّذي ينقضي على القرب و هو كما مثّله اللّه تعالى حيث قال:«إنّما مثل الحياة الدّنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض- الآية -» و كلّ ما تذروه الرّياح بالموت فهو زهرة الحياة الدّنيا، و كلّ ما لا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات، فقد عرفت بهذا أنّ كمال القدرة بالمال و الجاه كمال ظنّيّ لا أصل له و أنّ من قصّر الوقت على طلبه و ظنّه مقصودا فهو جاهل إلا قدر البلغة منها إلى الكمال الحقيقيّ.

(بيان ما يحمد من حب الجاه و ما يذم)

و مهما عرفت أنّ معنى الجاه ملك القلوب و القدرة عليها فحكمه حكم ملك الأموال فإنّه عرض من أعراض الحياة الدّنيا و ينقطع بالموت كالمال، و الدّنيا مزرعة الآخرة، فكلّ ما خلق اللّه من الدّنيا فيمكن أن يتزوّد منه إلى الآخرة، و كما أنّه لابدّ من أدنى مال لضرورة المطعم و الملبس فلابدّ من أدنى جاه لضرورة

المعيشة مع الخلق، و الإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحبّ الطعام أو المال الّذي يبتاع به الطعام فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه، و رفيق يعينه، و أستاذ يرشده، و سلطان يحرسه و يدفع عنه ظلم الأشرار، فحبّه لأن يكون له في قلب خادمه من المحلّ ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم، و حبّه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحلّ ما يحسن به مرافقته و معاونته ليس بمذموم، و حبّه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحلّ ما يحسن به إرشاده و تعليمه و العناية به ليس بمذموم، و حبّه لأن يكون له من المحلّ في قلب سلطانه ما يحثّه ذلك على دفع الشرّ عنه ليس بمذموم، فإنّ الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال فلا فرق بينهما إلا أنّ التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال و الجاه في أعيانهما محبوبين بل ينزل ذلك منزلة حبّ الإنسان أن يكون في داره بيت ماء لأنّه يضطرّ إليه لقضاء حاجته و يؤدّ أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتّى يستغني عن بيت الماء و هذا على التحقيق ليس محبّا لبيت الماء فكلّ ما يراد به للتوصّل إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصّل إليه، و تدرك التفرقة بمثال و هو أنّ الرّجل قد يحبّ زوجته من حيث إنّه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام و لو كفي مئونة الشهوة لكان يهجر زوجته كما لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء و لا يدور به، و قد يحبّ زوجته لذاتها حبّ العشّاق و لو كفي الشهوة لبقي مستصحبا لنكاحها، فهذا هو الحبّ دون الأوّل، و كذلك الجاه و المال قد يحبّ كل واحد منهما على هذين الوجهين فحبّهما لأجل التوصّل إلى مهمّات البدن غير مذموم و حبّهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن و حاجته مذموم و لكنّه لا يوصف صاحبه بالفسق و العصيان ما لم يحمله الحبّ على مباشرة معصية و ما لم يتوصّل به إلى اكتسابه بكذب و

خداع و ارتكاب محظور، و ما لم يتوصّل إلى اكتسابه بعبادة، فإنّ التوصّل إلى المال و الجاه بالعبادة جناية على الدّين و هو حرام و إليه يرجع معنى الرّياء المحظور كما سيأتي.

فإن قلت: طلب الجاه و المنزلة في قلب استاده و خادمه و رفيقه و سلطانه

و من يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان؟ أو مباح إلى حدّ مخصوص أو على وجه مخصوص؟ فأقول: يطلب ذلك على ثلاثة اوجه، وجهان منها مباح و وجه منها محظور أمّا المحظور فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة و هو منفكّ عنها مثل العلم و الورع و النسب فيظهر لهم أنّه علويّ أو عالم أو ورع و هو لا يكون كذلك فهذا حرام لأنّه تلبيس و كذب إمّا بالقول و إمّا بالفعل، و أمّا أحد المباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متّصف بها كقول يوسف عليه السّلام:«اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم»فإنّه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظا عليما و كان محتاجا إليه و كان صادقا فيه، و الثاني أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه و معصية من معاصيه حتّى لا يعلمه فلا تزول منزلته به، فهذا أيضا مباح لأنّ حفظ الستر على القبائح جائز و لا يجوز هتك الستر و إظهار القبيح فهذا ليس فيه تلبيس بل هو سدّ لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به كالّذي يخفي عن السلطان أنّه يشرب الخمر و لا يلقي إليه أنّه ورع فإنّ قوله: إنّي ورع تلبيس و عدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاده الورع بل يمنع العلم بالشرب، و من جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فإنّ ذلك رياء و هو ملبّس إذ يخيّل إليه أنّه من المخلصين الخاشعين للّه و هو مرائيّ بما يفعله فكيف يكون مخلصا،

فطلب الجاه بهذا الطريق حرام و كذا بكلّ معصية و ذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق و كما لا يجوز له أن يتملّك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره فلا يجوز له أن يتملّك قلبه بتزوير و خداع فإنّ ملك القلوب أعظم من ملك الأموال.

(بيان السبب في حبّ المدح و الثناء) (و ارتياح النفس به و ميل الطباع إليه و بغضها للذم و نفرتها منه)

اعلم أنّ لحبّ المدح و التذاذ القلب به أربعة أسباب

السبب الأوّل و هو الأقوى:

شعور النفس بالكمال

فإنّا بيّنّا أنّ الكمال محبوب و كلّ محبوب فإدراكه لذيذ فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت و اهتزّت و تلذّذت، و المدح يشعر نفس الممدوح

بكمالها فإنّ الوصف الّذي به مدح لا يخلو إمّا أن يكون جليّا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه، فإنّ كان جليّا ظاهرا محسوسا كانت اللّذّة فيه أقلّ و لكنّه لا يخلو عن لذّة كثنائه عليه أنّه طويل القامة أبيض اللّون، فإنّ هذا نوع كمال و لكنّ النفس تغفل عنه فتخلو عن لذّته فإذا استشعرت به لم يخل حدوث الشعور عن حدوث اللّذّة، و إن كان ذلك الوصف ممّا يتطرّق إليه الشكّ فاللّذّة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق، فإنّ الإنسان ربّما يكون شاكّا في كمال حسنه و في كمال علمه و كمال ورعه و يكون مشتاقا إلى زوال هذا الشكّ بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئنّ نفسه إليه فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة و سكونا و ثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذّته و إنّما تعظم اللّذّة بهذه العلّة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول إلا عن تحقيق و ذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة و الذّكاء و غزارة

الفضل فإنّه في غاية اللّذّة فإن صدر ممّن يجازف في الكلام أو لا يكون بصيرا في ذلك الوصف ضعفت اللّذّة، و بهذه العلّة يبغض الذّمّ أيضا و يكرهه لأنّه يشعره بنقصان في نفسه و النقصان ضدّ الكمال المحبوب فهو ممقوت و الشعور به مؤلم و لذلك يعظم الألم إذا صدر الذمّ من بصير موثوق به في ذلك كما ذكرناه في المدح.

السبب الثاني أنّ المدح يدلّ على أنّ قلب المادح مملوك للمدوح

و أنّه مريد له و معتقد فيه و مسخّر تحت مشيّته، و ملك القلوب محبوب و الشعور بحصوله لذيذ، و بهذه العلّة تعظم اللّذّة مهما صدر الثناء ممّن تتّسع قدرته و ينتفع باقتناص قلبه كالملوك و الأكابر، و يضعف مهما كان المثنيّ ممّن لا يؤبه له و لا يقدر على شيء فإنّ القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدلّ المدح إلا على قدرة قاصرة، و بهذه العلّة أيضا يكره الذّمّ و يتألّم به القلب، و إذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأنّ الفائت به أعظم.

السبب الثالث أنّ ثناء المثنيّ و مدح المادح سبب لاصطياد قلب

كلّ من يسمعه لا سيّما إذا كان ذلك ممّن يلتفت إلى قوله و يعتدّ بثنائه، و هذا يختصّ بثناء يقع

على الملاء فلا جرم كلّما كان الجمع أكثر و المثنيّ أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذّ و الذّمّ أشدّ على النفس.

السبب الرّابع أنّ المدح يدلّ على حشمة الممدوح

و اضطرار المادح إلى إطلاق اللّسان بالثناء عليه إمّا عن طوع و إمّا عن قهر فإنّ الحشمة أيضا لذيذة لما فيها من القهر و القدرة و هذه اللّذّة تحصل و إن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به و لكن كونه مضطرّا إلى ذكره نوع قهر و استيلاء عليه فلا جرم تكون لذّته بقدر تمنّع المادح و قوّته

فيكون لذّة ثناء القويّ الممتنع عن التواضع بالثناء أشدّ، فهذه الأسباب الأربعة قد يجتمع في مدح مادح واحد فيعظم به الالتذاذ، و قد تفترق فتنقص اللّذّة به أمّا العلّة الأولى و هي استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنّه غير صادق في مدحه كما إذا مدح بأنّه نسيب أو سخيّ أو عالم بعلم أو متورّع عن المحظورات و هو يعلم من نفسه ضدّ ذلك فتزول اللّذّة الّتي سببها استشعار الكمال و تبقى لذّة الاستيلاء على قلبه و على لسانه و بقيّة اللّذّات، فإن كان يعلم أنّ المادح ليس يعتقد ما يقوله و يعلم بخلّوه عن هذه الصفة بطلت اللّذّة الثانية و هو استيلاؤه على قلبه و بقيت لذّة الاستيلاء و الحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللّعب بطلت اللّذّات كلّها فلم يكن فيه أصلا لذّة لفوات الأسباب الثلاثة، فهذا ما يكشف الغطاء عن علّة التذاذ النفس بالمدح و تألّمها بسبب الذّم و إنّما ذكرناه ليعرف طريق العلاج لحبّ الجاه و حبّ المحمدة و خوف المذمّة، فإنّ ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته إذ العلاج عبارة عن حلّ أسباب المرض.

(بيان علاج حب الجاه)

اعلم أنّ من غلب على قلبه حبّ الجاه صار مقصور الهمّ على مراعاة الخلق، مشعوفا بالتودّد إليهم و المراياة لأجلهم، و لا يزال في أقواله و أفعاله و أعماله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم و ذلك بذر النفاق و أصل الفساد و يجرّ ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات و المراياة بها، و إلى اقتحام المحظورات للتوصّل إلى اقتناص

القلوب و لذلك شبّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حبّ الشرف و المال و إفسادهما للدّين بذئبين ضاريين وقال:«إنّه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل»

إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل و كلّ من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطرّ إلى النفاق معهم و إلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، و ذلك هو عين النفاق، فحبّ الجاه إذا من المهلكات فيجب علاجه و إزالته عن القلب فإنّه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حبّ المال، و علاجه مركّب من علم و عمل، أمّا العلم فهو أن يعلم السبب الّذي لأجله أحبّ الجاه و هو كمال القدرة على أشخاص الناس و على قلوبهم، و قد بيّنّا أنّ ذلك إن صفا و سلم فآخره الموت، فليس من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كلّ من على وجه الأرض من المشرق إلى المغرب و إلى خمسين سنة لا يبقى الساجد و لا المسجود له، و تكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له، فهذا لا ينبغي أن يترك به الدّين الّذي هو الحياة الأبديّة الّتي لا انقطاع لها، و من فهم الكمال الحقيقيّ و الكمال الوهميّ – كما سبق – صغر الجاه في عينه، إلا أنّ ذلك إنّما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنّه يشاهدها و يستحقر العاجلة و يكون الموت كالحاصل عنده، و أبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتدّ نورها إلى مشاهدة العواقب و لذلك قال تعالى:«بل تؤثرون الحيوة الدّنيا و الآخرة خير و أبقى» ٨٧: ١٦و قال تعالى:«كلا بل تحبّون العاجلة. و تذرون الآخرة» ٧٥: ٢٠ – ٢١إلى غيرها من الآيات، فمن هذا حدّه فينبغي أن يعالج قلبه في حبّ الجاه بالعلم بالآفات العاجلة و هو أن يتفكّر في الأخطار الّتي يستهدف لها أرباب الجاه في الدّنيا، فإنّ كلّ ذي جاه محسود و مقصود بالإيذاء و خائف على الدّوام على جاهه و محترز من أن تتغيّر منزلته في القلوب و القلوب أشدّ تغيّرا من القدر في غليانها و هي متردّدة بين الإقبال و الإعراض، فكلّ ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبني على أمواج البحر فإنّه لإثبات له، و الاشتغال

بمراعاة القلوب و حفظ الجاه و دفع كيد الحسّاد و منع أذى الأعداء اشتغال عن اللّه و تعرّض لمقته في العاجل و الآجل، كلّ ذلك غموم عاجلة مكدّرة للذّة الجاه، فلا يفي في الدّنيا أيضا مرجوها بمخوفها فضلا عمّا يفوت في الآخرة، فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة، و أمّا من نفدت بصيرته و قوي إيمانه لم يلتفت إلى الدّنيا، فهذا هو العلاج من حيث العلم.

و أمّا من حيث العمل

فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتّى يسقط من أعين الخلق و تفارقه لذّة القبول و يأنس بالخمول و يردّ الخلق و يقنع بالقبول من الخالق، و هذا هو منهاج الملامتيّة إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه و هذا غير جائز لمن يقتدى به فإنّه يوهن الدّين في قلوب المسلمين، و أمّا الّذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدّم على محظور لأجل ذلك بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس كما روي أنّ بعض الملوك قصد بعض الزّهاد فلمّا علم بقربه منه استدعى طعاما و بقلا و أخذ يأكل بشره و يعظم اللّقم فلمّا نظر إليه الملك سقط من عينه و انصرف، فقال الزّاهد: الحمد للّه الّذي صرفك عنّي، و منهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر حتّى يظنّ به أنّه يشرب الخمر فيسقط من الأعين، و هذا في جوازه نظر من حيث الفقه إلا أنّ أرباب الأحوال ربّما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم، ثمّ يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم فإنّه عرف بالزّهد و أقبل الناس عليه فدخل حمّاما و لبس ثوب غيره و خرج و وقف في الطريق حتّى عرفوه فأخذوه و ضربوه و استردّوا منه الثياب و قالوا: إنّه طرّار و هجروه، و أقوى الطرق في قطع الجاه

الاعتزال عن الناس و الهجرة إلى موضع الخمول، فإنّ المعتزل في بيته في البلدة الّتي هو بها مشهور لا يخلو عن حبّ المنزلة الّتي ترسّخ له في القلوب بسبب عزلته فربما يظنّ أنّه ليس محبّا لذلك الجاه و هو مغرور، و إنّما سكنت نفسه لأنّها قد ظفرت بمقصودها و لو تغيّر الناس عمّا اعتقدوا فيه و ذمّوه أو نسبوه إلى أمر غير لايق به جزعت نفسه

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٣١

و تألّمت و ربّما توصّلت إلى الاعتذار عن ذلك و إماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، و ربّما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب و تلبيس و لا يبالي به و به يتبيّن بعد أنّه محبّ للجاه و المنزلة، و من أحبّ الجاه و المنزلة فهو كمن أحبّ المال بل هو شرّ منه فإنّ فتنة الجاه أعظم، و لا يمكنه أن لا يحبّ المنزلة في قلوب الناس مادام يطمع في الناس، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى و قطع طمعه عن الناس رأسا أصبح الناس كلّهم عنده كالأراذل، فلا يبالي أ كانت له منزلة في قلوبهم أو لم تكن كما لا يبالي ذلك في قلوب الّذين هم منه في أقصى الشرق لأنّه لا يراهم و لا يطمع فيهم، و لا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة، فمن قنع استغنى عن الناس، و إذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس و لم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن و لا يتمّ ترك الجاه إلا بالقناعة و قطع الطمع. و يستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذمّ الجاه و مدح الخمول و الذّل مثل قولهم: «المؤمن لا يخلو من ذلّة أو علّة أو قلّة».

و ينظر في أحوال السلف و إيثارهم الذّل على العزّ و رغبتهم في ثواب الآخرة.

(بيان وجه العلاج لحب المدح و كراهة الذم)

اعلم أنّ أكثر الخلق إنّما هلكوا بخوف مذمّة الناس و حبّ مدحهم فصارت حركاتهم كلّها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح و خوفا من الذمّ، و ذلك من المهلكات

فيجب معالجته و طريقة ملاحظة الأسباب الّتي لأجلها يحبّ المدح و يكره الذمّ.

أمّا السبب الأوّل: فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك و تقول لنفسك: هذه الصفة الّتي يمدحك بها أنت متّصف بها أم لا؟ فإن كنت متّصفا بها فهي إمّا صفة تستحقّ بها المدح كالعلم و إمّا صفة لا تستحقّ بها المدح كالثروة و الجاه و الأعراض الدّنيويّة، فإن كان من الأعراض الدّنيويّة فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الّذي يصير على القرب هشيما تذروه الرّياح، و هذا من قلّة العقل، بل العاقل يقول:

أشدّ الغمّ عندي في سرور تيقّن عنه صاحبه ارتحالا

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٣٢

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعرض الدّنيا، و إن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها و المدح ليس هو سبب وجودها، و إن كانت الصفة ممّا يستحقّ الفرح بها كالعلم و الورع فينبغي أن لا يفرح بها لأنّ الخاتمة غير معلومة و هذا إنّما يقتضي الفرح لأنّه يقرّب عند اللّه زلفى و خطر الخاتمة باق، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكلّ ما في الدّنيا بل الدّنيا دار أحزان و غموم لا دار فرح و سرور، ثمّ إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل اللّه عليك بالعلم و التقوى لا بمدح المادح فإنّ اللّذة في استشعار الكمال و الكمال موجود من فضل اللّه لا من المدح و المدح تابع له، فلا ينبغي أن تفرح بالمدح و المدح لا يزيدك فضلا، و إن كانت الصفة الّتي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجهل، و مثالك مثال من يهزؤ به إنسان و يقول له: سبحان اللّه ما أكثر العطر الّذي في أحشائه و ما أطيب الرّوايح الّتي تفوح منه إذا قضى حاجته، و هو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من

الأقذار و الأنتان، ثمّ يفرح بذلك، فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح و الورع ففرحت به و اللّه مطّلع على خبائث باطنك و غوائل سريرتك و أقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل، فإذا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفاتك الّتي هي من فضل اللّه عليك و إن كذب فينبغي أن يغمّك ذلك و لا تفرح به.

و أمّا السبب الثاني: و هو دلالة المدح على تسخّر قلب المادح

و كونه سببا لتسخير قلب آخر فهذا يرجع إلى حبّ الجاه و المنزلة في القلوب و قد سبق وجه معالجته و ذلك بقطع الطمع عن الناس و طلب المنزلة عند اللّه، و بأن تعلم أنّ طلبك المنزلة في قلوب الناس و فرحك بها يسقط منزلتك عند اللّه فكيف تفرح به؟.

و أمّا السبب الثالث: و هو حشمة الّتي اضطرّت المادح إلى المدح

فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لإثبات لها و لا تستحقّ الفرح بها، بل ينبغي أن يغمّك مدح المادح و تكرهه و تغضب به كما نقل ذلك عن السلف لأنّ آفة المدح على الممدوح عظيمة كما ذكرناه في كتاب آفة اللّسان، قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد

أمكن الشيطان من أن يدخل في قلبه.

و قال بعضهم: إذا قيل لك: نعم الرّجل أنت، فكان أحبّ إليك من أن يقال لك: بئس الرّجل أنت، فأنت و اللّه بئس الرّجل.

وروي في بعض الأخبارما لو صحّ فهو قاصم للظهور: إنّ رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «لو كان صاحبك حاضرا فرضي بالّذي قلت فمات على ذلك دخل النار».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّة للمادح:«و يحك قطعت ظهره و لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة».

وقال عليه السّلام:«ألا لا تمادحوا، و إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب» [١]

فلهذا كان الصحابة على وجل عظيم من المدح و فتنته، و ما يدخل على القلب من السرور به، و إنّما كرهوا المدح خيفة من أن يفرحوا بمدح الخلق و هم ممقوتون عند الخالق و كان اشتغال قلوبهم بأحوالهم عند اللّه يبغّض إليهم مدح الخلق لأنّ الممدوح على الحقيقة هو المقرّب إلى اللّه و المذموم بالحقيقة هو المبعد عن اللّه الملقى في النار مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند اللّه من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره و إن كان من أهل الجنّة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل اللّه و ثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق، و مهما علم أنّ الآجال و الأرزاق بيد اللّه تعالى قلّ التفاته إلى مدح الخلق و ذمّهم و سقط من قلبه حبّ المدح و اشتغل بما يهمّه من أمر دينه.

(بيان علاج كراهة الذم)

قد سبق أنّ العلّة في كراهة الذّمّ هو ضدّ العلّة في حبّ المدح، فعلاجه أيضا

---

[١] أخرجه أحمد في المسند و الطبراني في الكبير دون قوله: «الا لا تمادحوا» و رجاله رجال الصحيح من حديث ابن عمر و قد تقدم.

يفهم منه. و القول الوجيز فيه أنّ من ذمّك لا يخلو من ثلاثة أحوال.

إمّا أن يكون قد صدق فيما قال و قصده النصح و الشفقة. و إمّا أن يكون صادقا و لكن قصده الإيذاء و التعنّت، أو يكون كاذبا.

فإن كان صادقا و قصده النصح فلا ينبغي أن تذمّه و تغضب عليه و تحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلّد منّته، فإنّ من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك لك حتّى تتّقيه، فينبغي أن تفرح به و تشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، فأمّا اغتمامك بسببه و كراهتك له و ذمّك إيّاه فإنّه غاية الجهل. و إن كان قصده التعنّت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به، أو ذكّرك عيبك إن كنت غافلا عنه، أو قبّحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته، و كلّ ذلك أسباب سعادتك و قد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمّة، فمهما قصدت الدّخول على ملك و ثوبك ملوّث بالعذرة و أنت لا تدري و لو دخلت عليه كذلك لخفت أن يجزّ رقبتك لتلويثك مجلسه بالغدرة فقال لك قائل: أيّها الملوّث بالغدرة طهّر نفسك، فينبغي أن تفرح به لأنّ تنبّهك بقوله غنيمة، و جميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة و الإنسان إنّما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تغتنمه، فأمّا قصد العدوّ التعنّت فجناية منه على دين نفسه و هو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت أنت به و تضرّر هو به؟.

الحالة الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند اللّه فينبغي أن لا تكره ذلك و لا تشتغل بذمّه بل تتفكّر في ثلاثة أمور: أحدها أنّك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله و أخواته و ما ستر اللّه من عيوبك أكثر فاشكر اللّه إذ لم يطّلعه على عيوبك و دفعه عنك بذكر ما أنت بريء منه، و الثاني أنّ ذلك كفّارات لبقيّة مساويك و ذنوبك، و كأنّه رماك بعيب أنت بريء منه و طهّرك من ذنوب أنت ملوّث بها، و كلّ من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته و كلّ من

مدحك فقد قطع ظهرك، فما بالك تفرح بقطع الظهر و تحزن لهدايا الحسنات الّتي تقرّبك إلى اللّه

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٣٥

و أنت تزعم أنّك تحبّ القرب من اللّه. و أمّا الثالث فهو أنّ المسكين قد جنى على دينه حتّى سقط من عين اللّه جلّ و عزّ و أهلك نفسه بافترائه و تعرّض لعقابه الأليم فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب اللّه عليه فتشمت به الشيطان و تقول: «اللّهمّ أهلكه» بل ينبغي أن تقول: «اللّهمّ أصلحه، اللّهمّ تب عليه، اللّهمّ ارحمه» كماقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قال:«اللّهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون» [١]

لمّا أن ضربوه، و دعا إبراهيم بن أدهم لمن شجّ رأسه بالمغفرة، فقيل له في ذلك، فقال: علمت أنّي مأجور بسببه و ما نالني منه إلا خير، فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببي. و ممّا يهوّن عليك كراهة المذمّة قطع الطمع، فإنّ من استغنيت عنه مهما ذمّك لم يعظم أثر ذلك في قلبك، و أصل الدّين القناعة و بها ينقطع الطمع عن الجاه و المال، و مادام الطمع قائما كان حبّ الجاه و المدح في قلب من طمعت فيه غالبا، و كانت همّتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة، و لا ينال ذلك إلا بهدم الدّين، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال و الجاه و محبّ المدح و مبغض الذّمّ في سلامة دينه فإنّ ذلك بعيد جدّا.

(بيان اختلاف أحوال الناس في المدح و الذم)

اعلم أنّ للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذّامّ و المادح.

الحالة الأولى: أن يفرح بالمدح و يشكر المادح و يغضب من الذّمّ و يحقد على الذّامّ و يكافئه أو يحبّ مكافأته. و هذا حال أكثر الخلق و هو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية أن يتبغّض في الباطن على الذّامّ و لكن يمسك لسانه و جوارحه من مكافأته، و يفرح باطنه و يرتاح للمادح و

لكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، و هذا من النقصان إلا أنّه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

الحالة الثالثة: و هي أوّل درجات الكمال أن يستوي عنده ذامّه و مادحه فلا تغمّه

---

[١] أخرجه البيهقي في دلائل النبوة و الحديث في الصحيح أنه صلّى اللّه عليه و آله قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضربه قومه. (المغني)

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٣٦

المذمّة و لا تسرّه المدحة. و هذا قد يظنّه بعض العبّاد بنفسه و يكون مغرورا إن لم يمتحن نفسه بعلاماته، و علاماته أن لا يجد في نفسه استثقالا للذّامّ عند تطويله الجلوس عنده أكثر ممّا يجده في المادح و أن لا يجد في نفسه زيادة هزّة و نشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذّام، و أن لا يكون انقطاع الذّامّ عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، و أن لا يكون موت المادح المطري له أشدّ نكاية في قلبه من موت الذّامّ، و أن لا يكون غمّه بمصيبة المادح و ما يناله من أعدائه أكثر ممّا يكون بمصيبة الذّامّ، و أن لا تكون زلّة المادح أخفّ على قلبه و في عينه من زلّة الذّامّ. فمهما خفّ الذّامّ على قلبه كما خفّ المادح و استويا من كلّ وجه فقد نال هذه الرّتبة و ما أبعد ذلك و ما أشدّه على القلوب، و أكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم و هم لا يشعرون حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات.

و ربّما يشعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذّامّ، و الشيطان يحسّن له ذلك و يقول له: الذّامّ قد عصى اللّه بمذمّتك و المادح قد أطاع اللّه بمدحك، فكيف تسوّي بينهما فإنّما استثقالك للذّامّ من الدّين المحض، و هذا محض

التلبيس، فإنّ العابد لو تفكّر علم أنّ في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر ممّا ارتكبه الذّامّ في مذمّته، ثمّ إنّه لا يستثقلهم و لا ينفر عنهم، و يعلم أنّ المادح الّذي مدحه لا يخلو عن مذمّة غيره و لا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمّة غيره كما يجد لمذمّة نفسه، و المذمّة من حيث أنّها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره، فإذا العابد المغرور لنفسه يغضب و لهواه يتبغّض، ثمّ الشيطان يخيّل إليه أنّه من الدّين حتّى يغترّه على اللّه بهواه فيزيده على ذلك بعدا من اللّه، و من لم يطّلع على مكائد الشيطان و آفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضايع يفوت عليه الدّنيا و يخسره في الآخرة و فيهم قال اللّه تعالى:«قل هلْ نُنَبِّئكم بالأخسرين أعمالا الّذين ضَلَّ سعيُهم في الحيوة الدّنيا و هم يَحْسَبُونَ أنّهم يُحْسِنونَ صنعا» ١٨: ١٠٣ - ١٠٤.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٣٧

الحالة الرّابعة و هي الصدق في العبادة أن يكره المدح و يمقت المادح إذ يعلم أنّه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرّ له في الدّين و يحبّ الذّامّ إذ يعلم أنّه مهد إليه عيوبه و مرشد له إلى مهمّه و مهد إليه حسناته، وقد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبرّ و التقوى»

و قد روي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صحّ إذرويأنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «ويل للصائم و ويل للقائم، و ويل لصاحب الصوف إلا من... فقيل: يا رسول اللّه إلا من؟ فقال: إلا من تنزّهت نفسه عن الدّنيا و أبغض المدحة و استحبّ المذمّة» [١]

و هذا شديد جدّا، و غاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية، و هو أن يضمر الفرح و الكراهة على الذّامّ و المادح و لا يظهره بالقول و العمل.

فأمّا الحالة الثالثة و هي التسوية بين المادح و الذّامّ فلسنا نطمع فيها، ثمّ إن طالبنا نفسنا بعلامة الحالة الثانية ما وفت بها لأنّها لا بدّ و أن نتسارع إلى إكرام المادح و قضاء حاجاته و نتثاقل عن إكرام الذّامّ و الثناء عليه و قضاء حوائجه و لا نقدر على أن نسوّي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب و من قدر على التسوية بين المادح و الذّامّ في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتّخذ قدوة في هذا الزّمان إن وجد فهو الكبريت الأحمر يتحدّث به و لا يرى، فكيف بما بعده من المرتبتين، و كلّ واحدة من هذه الرّتب فيها درجات أمّا الدّرجات في المدح فهو أنّ من الناس من تمنّى المدحة و الثناء و انتشار الصيت فيتوصّل إلى نيلها بكلّ ممكن حتّى يرائي بالعبادات و لا يبالي بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس و استنطاق ألسنتهم بالمدح و هذا من الهالكين. و منهم من يريد ذلك و يطلبه بالمباحات و لا يطلبه بالعبادات و لا يباشر المحظورات و هذا على شفا جرف هار فانهار به. فإنّ حدود الكلام الّذي يستميل به القلوب و حدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك

---

[١] قال العراقي: لم أجده هكذا و ذكره صاحب الفردوس منحديث أنس«ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله»

و لم يخرجه ولده في مسنده.

أن يقع فيما لا يحلّ له ليتوصّل إلى نيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جدّا.

و منهم من لا يريد المدحة و لا يسعى لطلبها و لكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة و لم يتكلّف الكراهية فهو قريب من أن يستجرّه فرط السرور إلى

الرّتبة الّتي قبلها، و إن جاهد نفسه في ذلك و كلّف قلبه الكراهية و بغّض السرور إليه بالتفكّر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة، فتارة تكون اليد له و تارة تكون عليه، و منهم من إذا سمع المدح لم يسرّ به و إذا سمع الذّمّ لم يغتمّ و لم يؤثر فيه و هذا على خير، و إن كان قد بقي عليه بقيّة من الإخلاص، و منهم من يكره المدح إذا سمعه و لكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح و ينكر عليه و أقصى درجاته أن يكره و يغضب و يظهر الغضب و هو صادق فيه، لا أن يظهر الغضب و قلبه محبّ له فإنّ ذلك عين النفاق لأنّه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص و الصدق و هو مفلس عنه و كذلك بالضدّ من هذا تتفاوت الأحوال في حقّ الذّامّ، و أوّل درجاته إظهار الغضب و آخرها إظهار الفرح، و لا يكون الفرح و إظهاره إلا ممّن في قلبه حنق و حقد على نفسه لتمرّدها عليه و لكثرة عيوبها و مواعيدها الكاذبة و تلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدوّ، و الإنسان يفرح ممّن يذمّ عدوّه، و هذا شخص عدوّه نفسه فيفرح إذا سمع ذمّها و يشكر الذّامّ على ذلك و يعتقد فطنته و ذكاءه لما وقف على عيوبها فيكون ذلك كالتشفّي له من نفسه و يكون غنيمة عنده إذا صار بالمذمّة أوضع في أعين الناس حتّى لا يبتلى بفتنة الناس، و إذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون جبرا لعيوبه الّتي هو عاجز عن إماطتها و لو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة و هو أن يستوي عنده ذامّه و مادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرّغ معه لغيره، و بينه و بين السعادة عقبات كثيرة هذه إحدى تلك العقبات، و لا ينفع شيء منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل.

(الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه و المنزلة بالعبادات و هو الرّياء)

و فيه بيان ذمّ الرّياء و بيان حقيقة الرّياء و ما يراءى به، و بيان درجات الرّياء، و بيان الرّياء الخفيّ، و بيان ما يحبط العمل من الرّياء و ما لا يحبط،

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٣٩

و بيان دواء الرّياء و علاجه، و بيان الرّخصة في إظهار الطاعات، و بيان الرّخصة في كتمان الذّنوب، و بيان ترك الطاعات خوفا من الرّياء و الآفات، و بيان ما يصحّ من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق، و بيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة و بعدها. و هي أحد عشر فصلا.

(بيان ذمّ الرّياء)

اعلم أنّ الرّياء حرام و المرائي عند اللّه ممقوت و قد شهدت لذلك الآيات و الأخبار و الآثار.

أمّا الآيات

فقوله تعالى:«فويل للمصلّين. الّذين هم عن صلاتهم ساهون. الّذين هم يراءون. و يمنعون الماعون» ١٠٧: ٤ - ٧.

و قوله تعالى:«و الّذين يمكرون السيّئات لهم عذاب شديد و مكر أولئك هو يبور» ٣٥: ١٠و قال مجاهد: هم أهل الرّياء. و قال تعالى:«إنّما نطعمكم لوجه اللّه لا نريد منكم جزاء و لا شكورا» ٧٦: ٩فمدح المخلصين بنفي كلّ إرادة سوى وجه اللّه، و الرّياء هو ضدّه.

و قال تعالى:«فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملا صالحا و لا يشرك بعبادة ربّه أحدا» ١٨: ١١٠،نزل ذلك فيمن يطلب الأجر و الحمد بعباداته و أعماله و غير ذلك.

و أمّا الأخبار

فقد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّمحين سأله رجل فقال: يا رسول اللّه: فيم النجاة؟ فقال: «ألا يعمل العبد بطاعة اللّه يريد بها الناس» [١]

وفي حديثالثلاثة - المقتول

[١] لم أجد له أصلا الا مارواه الصدوق - ره - في أماليه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله«أنه سئل فيما النجاة غدا؟ فقال: انما النجاة في أن لا تخادعوا اللّه فيخدعكم فانه من يخادع اللّه يخدعه و يخلع منه الايمان و نفسه يخدع لو يشعر فقيل له: و كيف يخادع اللّه؟ قال: يعمل بما امر اللّه به ثم يريد غيره، فاتقوا اللّه و اجتنبوا الرّياء فانه شرك باللّه، ان المرائي يدعى يوم القيامة باربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر حبط عملك و بطل أجرك و لا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له»

انتهى.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٤٠

في سبيل اللّه و المتصدّق بماله و القارئ لكتابهكما أوردناه في كتاب الإخلاص- فإنّ اللّه تعالى يقول لكلّ واحد منهم: «كذبت بل أردت أن يقال: فلان شجاع، كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد، كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فأخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّهم لم يثابوا و أنّ رياء هم هو الّذي أحبط أعمالهم».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من راءى راءى اللّه به و من سمع سمّع اللّه به».

وفي حديث آخر طويل«إنّ اللّه تعالى يقول للملائكة: إنّ هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجّين».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر، قالوا: و ما الشّرك الأصغر يا رسول اللّه؟ قال: الرّياء يقول اللّه تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم:

اذهبوا إلى الّذين كنتم تراءون في الدّنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«استعيذوا باللّه من حبّ الحزن قيل: و ما هو يا رسول اللّه قال: واد في جهنّم اعدّ للقرّاء المرائين».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يقول اللّه تعالى: من عمل عملا أشرك فيه غيري فهو له كلّه و أنا منه بريء و أنا أغنى الأغنياء عن الشّرك».

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٤١

و قال عيسى صلوات اللّه عليه: «إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه و لحيته و يمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنّه صائم و إذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله و إذا صلّى فليرخ ستر بابه فإنّ اللّه يقسم الثناء كما يقسم الرّزق».

وقال نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يقبل اللّه عملا فيه مقدار ذرّة من رياء».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«أدنى الرّياء شرك» [١].

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أخوف من أخاف عليكم الرّياء و الشّهوة الخفيّة»

و هي أيضا ترجع إلى خفايا الرّياء و دقائقه.

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ في ظلّ العرش يوم لا ظلّ إلا ظلّه رجلا تصدّق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله».

و لذلكورد:«أنّ فضل عمل السرّ على عمل الجهر بسبعين ضعفا».

وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ المرائي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضلّ عملك و حبط أجرك، اذهب فخذ أجرك ممّن كنت تعمل له» [٢].

وقال شدّاد بن أوس:رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يبكي فقلت: ما يبكيك؟ قال:

«إنّي تخوّفت على امّتي الشّرك أما إنّهم لا يعبدون صنما و لا شمسا و لا قمرا و لا حجرا و لكنّهم يراءون بأعمالهم».

---

[۱]أخرجه الحاكم ج ۳ ص ۲۷۰ و صحّحه. و رواه البيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل قال:سمعت النبي صلّى اللّه عليه و آله يقول في حديث له: «ان يسيرا من الرياء شرك... الحديث»راجع الدر المنثور ج ٤ ص ۲٥۷

.

[۲] قال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسمّ و زاد «يا كافر يا خاسر» و لم يقل «يا مرائي» و اسناده ضعيف اه أقول: و قد مر مضمونه في الهامش آنفا.

وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لمّا خلق اللّه الأرض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيّرها أوتاد الأرض فقالت الملائكة: ما خلق ربّنا خلقا هو أشدّ من الجبال فخلق اللّه الحديد فقطع الجبل، ثمّ خلق النار فأذاب الحديد، ثمّ أمر اللّه تعالى الماء بإطفاء النار و أمر الرّيح فكدرت الماء، فاختلفت الملائكة فقالت: نسأل اللّه تعالى فقالوا: يا ربّ ما أشدّ ما خلقت من خلقك؟ قال اللّه تعالى: لم أخلق شيئا هو أشدّ من [قلب] ابن آدم حين يتصدّق بيمينه بصدقة فيخفيها عن شماله فهذا أشدّ خلق خلقته».

وروى عبد اللّه بن المبارك بإسناده عن رجل أنّه قال لمعاذ:حدّثني حديثا سمعته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: فبكى معاذ حتّى ظننت أنّه لا يسكت ثمّ سكت، ثمّ قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: لي يا معاذ، قلت: لبّيك بأبي أنت و امّي قال: إنّي

محدّثك حديثا إن أنت حفظته نفعك و إن أنت ضيّعته و لم تحفظه انقطعت حجّتك عند اللّه يوم القيامة، يا معاذ إنّ اللّه تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات و الأرض ثمّ خلق السماوات، فجعل لكلّ سماء من السبعة ملكا بوّابا عليها قد جلّلها عظما فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى أن أمسى، له نور كنور الشمس حتّى إذا صعدت به إلى السماء الدّنيا زكّته فكثّرته فيقول الملك للحفظة: اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربّي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري، قال: ثمّ تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمرّ فتزكّيه و تكثّره حتّى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكّل بالسماء الثانية: قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنّه أراد بعمله هذا عرض الدّنيا أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنّه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم، قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نورا من صدقة و صيام و صلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٤٣

الملك الموكّل بها: قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنّه كان يتكبّر على الناس في مجالسهم، قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدّرّيّ له دويّ من تسبيح و صلاة و حجّ و عمرة حتّى يجاوزوا به إلى السماء الرّابعة فيقول لهم الملك الموكّل بها: قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، اضربوا به ظهره و بطنه أنا صاحب العجب أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنّه كان إذا عمل عملا أدخل العجب في عمله، قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد يجاوزوا به إلى السماء الخامسة كأنّه العروس المزفوفة إلى بعلها فيقول لهم الملك الموكّل بها: قفوا

و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه و احملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنّه كان يحسد الناس من يتعلّم و يعمل بمثل عمله و كلّ من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم و يقع فيهم، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة و زكاة و حجّ و عمرة و صيام فيجاوزون به إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكّل بها: قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنّه كان لا يرحم إنسانا قطّ من عباد اللّه أصابه بلاء أو ضرّ بل كان يشمت به أنا ملك الرّحمة أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلي غيري، قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم و صلاة و نفقة و زكاة و اجتهاد و ورع له دويّ كدويّ الرّعد و ضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكّل بها: قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوارحه و اقفلوا على قلبه إنّي أحجب عن ربّي كلّ عمل لم يرد به وجه ربّي إنّه أراد بعمله غير اللّه تعالى، إنّه أراد رفعة عند الفقهاء، و ذكرا عند العلماء، وصيّتنا في المدائن أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، و كلّ عمل لم يكن للّه خالصا فهو رياء و لا يقبل اللّه عمل المرائي، قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة و زكاة و صيام و حجّ و عمرة و خلق حسن و صمت و ذكر اللّه و تشيّعه ملائكة السماوات حتّى يقطعوا به الحجب كلّها إلى اللّه تعالى فيقفون بين يديه و يشهدون له بالعمل الصالح المخلص

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٤٤

للّه قال: فيقول اللّه لهم: أنتم الحفظة على عمل عبدي و أنا الرّقيب على نفسه إنّه لم يردني بهذا العمل و أراد به غيري فعليه لعنتي، فتقول الملائكة كلّهم: عليه لعنتك و لعنتنا، و تقول السماوات كلّها: عليه لعنة اللّه و لعنتنا، و تلعنه السماوات السبع و من فيهنّ. قال معاذ: يا رسول اللّه أنت

رسول اللّه و أنا معاذ، قال: اقتد بي و إن كان في عملك تقصير يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن و احمل ذنوبك عليك و لا تحملها عليهم، و لا تزكّ نفسك بذمّهم و لا ترفع نفسك عليهم، و لا تدخل عمل الدّنيا في عمل الآخرة و لا تتكبّر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك، و لا تناج رجلا و عندك آخر، و لا تتعظّم على الناس فينقطع عنك خير الدّنيا، و لا تمزّق الناس فتمزّقك كلاب النار يوم القيامة في النار، قال اللّه تعالى:«و الناشطات نشطا» ٧٩: ٢تدري من هنّ يا معاذ قلت: ما هنّ بأبي أنت و أمّي يا رسول اللّه قال: كلاب في النار تنشط اللّحم و العظم، قلت: بأبي أنت و امّي يا رسول اللّه فمن يطيق هذه الخصال و من ينجو منها؟ قال: يا معاذ إنّه ليسير على من يسّره اللّه عليه، قال: فما رأيت أحدا أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر ممّا في هذا الحديث» [١].

وقال عليّ عليه السّلام:«للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، و ينشط إذا كان في الناس، و يزيد في العمل إذا اثني عليه، و ينقص إذا ذمّ» [٢].

أقول:

و من طريق الخاصّة

مارواه في الكافي عن الصادق عليه السّلام قال:«قال اللّه تعالى: «أنا خير شريك من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي

---

[١] أخرجه بطوله ابن المبارك في الزهد عن رجل لم يسمه عن معاذ و رواه ابن حبان في غير الصحيح و الحاكم و غيرهما و نقله المنذرى في الترغيب ج ١ ص ٦ و قال: آثار الوضع ظاهرة عليه في جميع طرقه و بجميع ألفاظه، و رواه ابن الجوزي في الموضوعات أيضا.

[٢] رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٩٥ و فيه «و يحب أن يحمد في جميع أموره» بدل قوله: «و ينقص إذا ذم». و سيأتي عنقريب.

خالصا».

وعنه عليه السّلام قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، و تحسن فيه علانيتهم طمعا في الدّنيا، لا يريدون به ما عند ربّهم، يكون دينهم رياء، لا يخالطهم خوف، يعمّهم اللّه بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم».

وعنه عليه السّلام قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا به فإذا صعد بحسناته يقول اللّه تعالى: اجعلوها في سجّين إنّه ليس إيّاي أراد بها» [١].

وبإسناده قال: قال أمير المؤمنين عليه السّلام:«ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، و يكسل إذا كان وحده، و يحبّ أن يحمد في جميع أموره».

وعنه عليه السّلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السّلام:اخشوا اللّه خشية ليست بتعذير و اعملوا للّه في غير رياء و لا سمعة، فإنّه من عمل لغير اللّه و كله اللّه إلى عمله».

وعن أبيه الباقر عليه السّلام قال:«الإبقاء على العمل أشدّ من العمل، قيل: و ما الإبقاء على العمل؟ قال: يصل الرّجل بصلة، و ينفق نفقه للّه وحده لا شريك له فكتبت له سرّا، ثمّ يذكرها فتمحى فتكتب له علانية ثمّ يذكرها فتمحى و تكتب له

---

[١] المصدر ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٧، و الابتهاج: السرور. و قوله «يصعد بعمل العبد» اى يشرع في الصعود.

و قوله «فإذا صعد» اى ثم صعوده و وصل إلى موضع يعرض فيه الاعمال على اللّه تعالى. و قوله: «بحسناته» من قبيل وضع المظهر موضع المضمر، تصريحا بان العمل من جنس الحسنات. و قوله: «اجعلوها في سجين» اى اثبتوا تلك الاعمال، او التي تزعمون أنها حسنات في ديوان الفجار الذي هو في سجين كما في قوله تعالى: «كلا ان كتاب الفجار لفي سجين».

المحجة البيضاء ج : ٦ ص :
١٤٦

رياء».

وعن الصادق عليه السّلامأنّه قال لعبّاد بن كثير البصري في المسجد: «ويلك يا عبّاد إيّاك و الرياء فإنّه من عمل لغير اللّه وكله اللّه إلى من عمل له».

وعنه عليه السّلام«اجعلوا أمركم هذا للّه و لا تجعلوه للناس فإنّه ما كان للّه فهو للّه و ما كان للناس فلا يصعد إلى اللّه».

وعنه عليه السّلام«كلّ رياء شرك، إنّه من عمل للناس كان ثوابه على الناس و من عمل للّه كان ثوابه على اللّه».

وعنه عليه السّلام في قول اللّه عزّ و جلّ:«فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملا صالحا و لا يشرك بعبادة ربّه أحدا» ١٨: ١١٠قال: الرّجل يعمل شيئا من الثواب لا يطلب به وجه اللّه إنّما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه، ثمّ قال: ما من عبد أسرّ خيرا فذهبت الأيّام أبدا حتّى يظهر اللّه له خيرا، و ما من عبد يسرّ شرّا فذهبت الأيّام حتّى يظهر اللّه له شرّا».

وعنه عليه السّلام قال:«ما يصنع أحدكم أن يظهر حسنا و يسرّ سيّئا؟ أ ليس يرجع إلى نفسه فيعلم أنّ ذلك ليس كذلك و اللّه تعالى يقول:«بل الإنسان على نفسه بصيرة»إنّ السريرة إذا صحّت قويت العلانية».

وعنه عليه السّلام قال:«من أراد اللّه بالقليل من عمله أظهره اللّه له أكثر ممّا أراد و من أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه و سهر من ليله أبى اللّه إلا أن يقلّله في عين من سمعه».

وعن الرّضا عليه السّلام قال لمحمد بن عرفة:«ويحك يا ابن عرفة اعملوا لغير رياء

و لا سمعة فإنّه من عمل لغير اللّه وكله اللّه إلى ما عمل، ويحك ما عمل أحد عملا إلا ردّاه اللّه به، إن خيرا فخير و إن شرّا فشرّ».

قال أبو حامد:

و أمّا الآثار:

رأى أبو أمامة رجلا في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك.

و قال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل اللّه أريد وجه اللّه و محمدة الناس؟ قال: لا شيء لك فسأله ثلاث مرّات كلّ ذلك يقول: لا شيء لك، ثمّ قال في الثلاثة: إنّ اللّه يقول «أنا أغنى الأغنياء عن الشّرك - الحديث -».

و قال الحسن: لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته و نفعت أصحابه و ما يمنعه منها إلا مخافة الشّهرة. و إن كان أحدهم ليمرّ و يرى الأذى في الطريق فما منعه أن ينحّيه إلا مخافة الشهرة، و يقال: إنّ المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا غادر يا فاجر يا خاسر اذهب فخذ أجرك ممّن عملت له فلا أجر لك عندنا.

و قال الفضيل: كانوا يراءون بما يعملون و صاروا اليوم يراءون بما لا يعملون.

و قال عكرمة: إنّ اللّه يعطي العبد على نيّته ما لا يعطيه على عمله لأنّ النيّة لا رياء فيها.

و قال الحسن: المرائي يريد أن يغلب قدر اللّه تعالى و هو رجل سوء يريد أن يقول الناس: هو صالح. و كيف يقولون و قد حلّ من ربّه محلّ الاردياء فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه.

و قال قتادة: إذا راءى العبد يقول اللّه تعالى: انظروا إلى عبدي يستهزئ بي.

و قال مالك بن دينار: القرّاء ثلاثة قرّاء الدّنيا و قرّاء الملوك و قرّاء الرّحمن.

و قال ابن المبارك: أن كان الرّجل ليطوف بالبيت و هو بخراسان، فقيل:

و كيف ذاك؟ قال: يحبّ أن يذكر أنّه مجاور بمكّة.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٤٨

و قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق اللّه من أراد أن يشتهر.

(بيان حقيقة الرّياء و ما يراءى به)

اعلم أنّ الرّياء مشتقّ من الرؤية، و السمعة مشتقّة من السماع و إنّما الرّياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أنّ الجاه و المنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات و تطلب بالعبادات و اسم الرّياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلب بالعبادات و إظهارها، فحدّ الرّياء هو إرادة المنزلة بطاعة اللّه تعالى فالمرائي هو العابد و المراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم لطلب المنزلة في قلوبهم و المراءى به هي الخصال الّتي قصد المرائي إظهارها و الرّياء هو قصده إظهار ذلك و المراءى به كثيرة و تجمعها خمسة أقسام و هي مجامع ما يتزيّن به العبد للنّاس فهو البدن و الزيّ و القول و العمل و الأتباع و الأشياء الخارجة و كذلك أهل الدّنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أنّ طلب الجاه و قصد الرّياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرّياء بالطاعات.

القسم الاوّل: الرّياء في الدّين من جهة البدن

و ذلك بإظهار النحول و الصفار ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد و عظم الحزن على أمر الدّين و غلبة خوف الآخرة و ليدلّ بالنحول على قلّة الأكل و بالصفار على سهر اللّيل و كثرة الاجتهاد و عظم الحزن على الدّين و كذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدلّ به على استغراق الهمّ بالدّين و عدم التفرّغ لتسريح الشعر، و هذه الأسباب مهما ظهرت استدلّ الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعو النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة و يقرب من هذا خفض الصوت و إغارة العينين و ذبول الشفتين ليستدلّ بذلك على أنّه مواظب على الصوم و أنّ وقار الشرع هو الّذي خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الّذي ضعف قوّته و عن هذا قال عيسى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إذا صام أحدكم فليدهّن رأسه و يرجّل شعره و يكحل عينيه و ذلك كلّه لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرّياء و لذلك قال ابن مسعود: أصبحوا صياما مدهّنين، فهذه مراياة أهل الدّين في البدن و أما أهل الدّنيا فيزاءون بإظهار السمن و صفاء اللّون و اعتدال القامة و حسن الوجه و نظافة البدن

المحجة البيضاء ج : ٦ ص :

١٤٩

و قوّة الأعضاء و تناسبها.

الثاني الرّياء بالزيّ و الهيئة

أمّا الهيئة فبتشعيث شعر الرّأس و حلق الشارب و إطراق الرأس في المشي و الهدوء في الحركة و إبقاء أثر السجود على الوجه و غلظ الثياب و لبس الصوف و تشميرها إلى قريب من نصف الساق و تقصير الاكمام و ترك تنظيف الثوب و تركه مخرقا، كلّ ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنّه متّبع للسنّة فيه و مقتد فيه بعباد اللّه الصالحين، و منه لبس المرقّع و الصلاة على السجّادة و لبس الثياب الزرق تشبّها بالصوفيّة مع الإفلاس عن حقائق التصوّف في الباطن.

و منه التقنّع بالإزار فوق العمامة ليري به أنّه انتهى تقشّفه إلى الحذر من غبار الطريق و لتنصرف إليه الأعين بسبب تميّزه بتلك العلامة و منه الدّراعة و الطيلسان يلبسه و هو خال من العلم ليوهم أنّه من أهل العلم.

و المراءون بالزّي على طبقات منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزّهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها و قصرها و وسخها و تخرّقها، و لو كلّف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا ممّا كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذّبح و ذلك لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له في الزّهد و رجع عن تلك الطريقة و رغب في الدّنيا. و طبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح و عند أهل الدّنيا من الملوك و التجّار، و لو لبسوا الثياب الفاخرة ردّهم القرّاء و لو لبسوا الثياب المخرقة النازلة ازدرتهم أعين الملوك و الأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدّين و الدّنيا فلذلك يطلبون الأصواف الدّقيقة و الأكيسة الرّقيقة و المرقّعات المصبوغة و الفوط الرّفيعة فيلبسونها، و لعلّ قيمة أثوابهم قيمة ثياب الأغنياء، و هيئته و لونه لون ثياب الصلحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين، و هؤلاء لو كلّفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذّبح خوفا من السقوط من أعين الملوك و الأغنياء، و لو كلّفوا لبس ثوب الدّيبقي و الكتّان الرقيق الأبيض أو المقصّب المعلّم و إن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم عليهم خوفا من أن يقول أهل الصلاح: قد رغبوا في زيّ أهل الدّنيا و كلّ طبقة منهم رأى منزلته في زيّ مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى

ما دونه أو ما فوقه و إن كان مباحا خيفة من المذمّة. و أمّا أهل الدّنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة و المراكب الرّفيعة و أنواع التوسّع و التجمّل في الملبس و المسكن و أثاث البيت و فره الخيل و بالثياب المصبغة و الطيالسة النفيسة و ذلك

ظاهر بين الناس، فإنّهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة و يشتدّ عليهم لو برزوا للنّاس على تلك الثياب ما لم يبالغوا في الزّينة.

الثالث الرّياء بالقول و رياء أهل الدّين بالوعظ

و التذكير و النطق بالحكمة و حفظ الأخبار و الآثار لأجل الاستعمال في المحاورة إظهارا لغزارة العلم و دلالة على شدّة العناية بأحوال السلف الصّالحين و تحريك الشفتين بالذّكر في محضر الناس و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بمشهد الخلق و إظهار الغضب للمنكرات، و إظهار الأسف على مقارفة الناس بالمعاصي، و تضعيف الصوت في الكلام و ترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدلّ بذلك على الحزن و الخوف، و ادّعاء حفظ الحديث و لقاء الشيوخ و الدّقّ على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنّه بصير بالأحاديث و المبادرة إلى أنّ الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه و المجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوّته في علم الدّين، و الرياء بالقول كثير و أنواعه لا تنحصر، و أمّا أهل الدّنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار و الأمثال و التفاصح في العبارات و حفظ النحو الغريب للإغراب على أهل الفضل و إظهار التودّد إلى الناس لاستمالة القلوب.

الرّابع الرّياء بالعمل كمراءاة المصلّي بطول القيام

و مدّ الظهر و تطويل السجود و الرّكوع و إطراق الرأس و ترك الالتفات و إظهار الهدوء و السكون و تسوية القدمين و اليدين، و كذلك بالصوم و الغزو و الحجّ و بالصدقة و بإطعام الطعام و بالإخبات في المشي عند اللّقاء كإرخاء الجفون و تنكيس الرأس و الوقار في الكلام حتّى أنّ المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطّلع عليه أحد من أهل الدّين رجع إلى الوقار، و إطراق الرأس خوفا من أن ينسبه إلى العجلة و قلّة الوقار، فان غاب الرّجل عاد إلى عجلته فإذا رآه عاد إلى خشوعه و لم

يحضره ذكر اللّه حتّى يكون يجدّد الخشوع له بل هو لاطّلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنّه من العبّاد و الصلحاء. و منهم من إذا سمع هذا استحيي من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس فيكلّف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتّى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير و يظنّ أنّه يتخلّص به عن الرّياء و قد تضاعف به رياؤه فإنّه صار في خلوته أيضا مرائيا فإنّه إنّما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من اللّه و حياء منه، و أمّا أهل الدّنيا فمراءاتهم بالتبختر و الاختيال و تحريك اليدين و تقريب الحظا و الأخذ بأطراف الذّيل و إدارة العطفين ليدلّوا بذلك على الجاه و الحشمة.

الخامس المراءاة بالأصحاب و الزائرين و المخالطين

كالّذي يتكلّف أن يستزير عالما من العلماء ليقال: إنّ فلانا قد زار فلانا، أو عابدا من العباد ليقال: إنّ أهل الدّين يتبرّكون بزيارته و يتردّدون إليه، أو ملكا من الملوك أو عاملا من عمّال السلطان ليقال: إنّهم يتبرّكون به لعظم رتبته في الدّين، و كالّذي يكثر ذكر الشيوخ ليري أنّه لقي شيوخا كثيرة و استفاد منهم، فيباهي بشيوخه و مباهاته و مراءاته تترشّح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: و من لقيت من الشيوخ؟ و أنا قد لقيت فلانا و فلانا و درت البلاد و خدمت الشيوخ، و ما يجري مجراه، فهذه مجامع ما يرائي به المراءون و كلّهم يطلبون به الجاه و المنزلة في قلوب العباد، و منهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه، فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة و كم من عابد اعتزل إلى قلّة جبل مدّة مديدة و إنّما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق و لو عرف أنّهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوّش قلبه و لم يقنع بعلم اللّه ببراءة ساحته بل يشتدّ لذلك غمّه و يسعى بكلّ

حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم مع أنّه قطع طمعه من أموالهم و لكنّه يحبّ مجرّد الجاه فإنّه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه فإنّه نوع قدرة و استيلاء و كمال في الحال و إن كان سريع الزّوال لا يغترّ به إلا الجهّال و لكن أكثر الناس جهّال، و من المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللّسان بالثناء و الحمد، و منهم من يريد انتشار الصيت في

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٥٢

البلاد لتكثر الرّحلة إليه، و منهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته و تنجز الحوائج على يديه فيقوم له به جاه عند العامّة، و منهم من يقصد التوصّل بذلك إلى جمع حطام و كسب مال و لو من الأوقاف و أموال اليتامى و غير ذلك من الحرام و هؤلاء شرّ طبقات المرائين الّذين يراءون بالأسباب الّتي ذكرناها. فهذه حقيقة الرّياء و ما به يقع الرّياء.

فصل فإن قلت: فالرّياء حرام؟ أو مكروه؟ أو مباح؟ أو فيه تفصيل؟.

فأقول: فيه تفصيل

فإنّ الرّياء هو طلب الجاه و هو إمّا أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنّه طلب منزلة في قلوب العباد و لكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات و أسباب محظورة فكذلك الجاه و كما أنّ كسب قليل من المال و هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه و هو ما يسلم به عن الآفات محمود و هو الّذي طلبه يوسف عليه السّلام حيث قال:

«إنّي حفيظ عليم»و كما أنّ المال فيه سمّ ناقع و ترياق نافع فكذلك الجاه و كما أنّ كثير المال يلهى و يطغى و ينسى ذكر اللّه و الدّار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشدّ و فتنة الجاه أعظم من فتنة المال و كما أنّا لا نقول: تملّك المال الكثير حرام فلا نقول أيضا: تملّك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال و كثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز، نعم

انصراف الهمّ إلى سعة الجاه مبدء الشرور كانصراف الهمّ إلى كثرة المال و لا يقدر محبّ الجاه و المال على ترك معاصي القلب و اللّسان و غيرها و أمّا سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه و من غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه فلا جاه أوسع من جاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من بعده من علماء الدّين و لكن انصراف الهمّ إلى طلب الجاه نقصان في الدّين و لا يوصف بالتحريم فعلى هذا نقول تحسين الثوب الّذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة و هو ليس بحرام لأنّه ليس رياء بالعبادة بل بالدّنيا و قس على هذا كلّ تجمّل للناس و تزيّن لهم و الدّليل

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٥٣

عليه ماروي عن عائشةأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أراد يوما أن يخرج على أصحابه به فكان ينظر في حبّ من الماء و يسوّي عمامته و شعره فقالت: أو تفعل ذلك يا رسول اللّه؟ فقال: نعم «إنّ اللّه يحبّ من العبد أن يتزيّن لإخوانه إذا خرج إليهم»،

نعم هذا كان من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عبادة لأنّه كان مأمورا بدعوة الخلق و ترغيبهم في الاتّباع و استمالة قلوبهم، و لو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتّباعه فكان يجب عليه أن يظهر لهم من محاسن أحواله لكيلا تزدريه أعينهم فإنّ أعين عوام الخلق تمتدّ إلى الظواهر دون السرائر فكان ذلك قصد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذرا من ذمّهم و لومهم و استرواحا إلى توقيرهم و احترامهم كان قد قصد أمرا مباحا إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمّة و يطلب راحة الانس بالإخوان و مهما استثقلوه و استقذروه لم يأنس بهم، فإذا المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحا و قد تكون طاعة و قد تكون مذمومة و ذلك بحسب الغرض

المطلوب بها و لذلك نقول الرّجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة و الصدقة و لكن ليعتقد الناس أنّه سخيّ فهذا مراءاة ليس بحرام و كذلك أمثاله.

أمّا العبادات كالصدقة و الصلاة و الغزو و الحجّ فللمرائي فيه حالتان إحداهما أن لا يكون له قصد إلا الرّياء المحض دون الأجر و هذا يبطل عبادته لأنّ الأعمال بالنيّات و هذا ليس بقصد العبادة ثمّ لا يقتصر على إحباط عبادته حتّى نقول: صار كما كان قبل العبادة بل يعصي بذلك و يأثم لما دلّت عليه الأخبار و الآيات، و المعنيّ فيه أمران أحدهما يتعلّق بالعبادة و هو التلبيس و المكر لأنّه خيّل إليهم أنّه مخلص مطيع للّه و أنّه من أهل الدّين و ليس كذلك، و التلبيس في أمر الدّنيا أيضا حرام حتى لو قضى دين جماعة و خيّل إلى الناس أنّه متبرّع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم بذلك لما فيه من التلبيس و تملّك القلوب بالخداع و المكر، و الثاني يتعلّق باللّه و هو أنّه مهما قصد بعبادة اللّه خلق اللّه فهو مستهزئ باللّه و لذلك قال قتادة: إذا رائي العبد قال اللّه تعالى لملائكته: انظروا إليه كيف يستهزئ بي. و مثاله أن تمثّل بين يدي

ملك من الملوك طول النّهار كما جرت عادة الخدم و إنّما وقوفك لملاحظتك جارية من جواري الملك أو غلاما من غلمانه فإنّ هذا استهزاء بالملك إذا لم تقصد التقرّب إلى الملك بخدمته بل قصدت به عبدا من عبيده فأيّ استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة اللّه مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضرّا و لا نفعا و هل ذلك إلا أنّه ظنّ أنّ ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من اللّه و أنّه أولى بالتقرّب إليه من اللّه إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته و أيّ استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر

المهلكات و لهذا سمّاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«الشّرك الأصغر»

نعم بعض درجات الرّياء أشدّ من بعض كما سيأتي بيانه في درجات الرّياء و لا يخلو شيء منه عن أثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة و لو لم يكن في الرّياء إلا أنّه يسجد و يركع لغير اللّه لكان فيه كفاية فإنّه إذا لم يقصد التقرّب إلى اللّه فقد قصد غير اللّه و لعمري لو قصد غير اللّه بالسجود لكفر كفرا جليّا إلا أنّ الرّياء هو الكفر الخفيّ لأنّ المرائي عظم في قلبه النّاس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد و يركع لهم فكان الناس هم المعظّمون بالسجود من وجه و مهما زال قصد تعظيم اللّه بالسجود و بقي تعظيم الخلق كان ذلك قريبا من الشّرك إلا أنّه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم للّه فعن هذا كان شركا خفيّا لا شركا جليّا و ذلك غاية الجهل و لا يقدم عليه إلا من خدعه الشّيطان و أوهم عنده أنّ العباد يملكون من نفعه و ضرّه و رزقه و أجله و مصالح حاله و مآله أكثر ممّا يملكه اللّه تعالى فلذلك عدل بوجهه عن اللّه تعالى إليهم فأقبل بقلبه عليهم يستميل بذلك قلوبهم، و لو وكله اللّه إليهم في الدّنيا و الآخرة لكان ذلك أقلّ مكافأة له على صنيعه فإنّ العباد كلّهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم ضرّا و لا نفعا فكيف لغيرهم، هذا في الدّنيا فكيف في يوم لا يجزي والد عن ولده و لا مولود هو جاز عن والده شيئا بل يقول الأنبياء فيه:

نفسي نفسي فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة و نيل القرب عند اللّه ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدّنيا من النّاس فلا ينبغي أن نشكّ في أنّ المرائي بطاعة اللّه في

سخط اللّه من حيث النقل و العقل جميعا، هذا إذا لم يقصد الأجر فأمّا إذا قصد الأجر و الحمد جميعا في صدقته أو صلاته فهو الشرك الّذي يناقض الإخلاص و قد ذكرنا حكمه

في كتاب الإخلاص و يدلّ على ما نقلناه في الآثار ههنا على أنّه لا أجر فيه أصلا.

(بيان درجات الرّياء)

اعلم أنّ بعض أبواب الرّياء أشدّ و أغلظ من بعض و اختلافه باختلاف أركانه و تفاوت الدّرجات فيه و أركانه ثلاثة المراءى به، و المراءى لأجله، و نفس قصد الرّياء.

الرّكن الأول نفس قصد الرّياء

و ذلك لا يخلو إمّا أن يكون مجرّدا دون إرادة عبادة اللّه و الثّواب و إمّا أن يكون مع إرادة الثواب فإن كان كذلك لا يخلو إمّا أن تكون إرادة الثواب أقوى و أغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العباد فتكون الدّرجات أربعا.

الدّرجة الأولى و هي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلا كالّذي يصلّي بين أظهر النّاس و لو انفرد لكان لا يصلّي، بل ربّما يصلّي من غير طهارة مع النّاس فهذا جرّد قصده إلى الرّياء فهو الممقوت عند اللّه، و كذلك من يخرج الصّدقة خوفا من مذمّة النّاس و هو لا يقصد الثّواب و لو خلا بنفسه لما أدّاها فهذه من الدّرجة العليا من الرّياء.

الدّرجة الثانية أن يكون له قصد الثواب أيضا

و لكن قصدا ضعيفا بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله و لا يحمله ذلك القصد على العمل و لو لم يكن قصد الثواب لكان قصد الرّياء يحمله على العمل فهذا قريب ممّا قبله و ما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقلّ بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت و الإثم.

الدّرجة الثالثة أن يكون قصد الثواب و قصد الرّياء متساويين بحيث لو كان كلّ واحد خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلمّا اجتمعا انبعثت الرّغبة، أو كان كلّ واحد منهما لو انفرد لاستقلّ بحمله على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأسا برأس لاله و لا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب و ظواهر الأخبار تدلّ على أنّه لا يسلم و قد تكلّمنا عليه في كتاب الإخلاص.

الدّرجة الرّابعة أن يكون اطّلاع الناس مرجّحا و مقوّيا لنشاطه و لو لم يكن لكان لا يترك العبادة و لو كان قصد الرّياء وحده لما أقدم عليه و الّذي نظنّه - و العلم عند اللّه - أنّه لا يحبط أصل الثواب و لكنّه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرّياء و يثاب على مقدار قصد الثواب، و أمّاقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يقول اللّه تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»

فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرّياء أرجح.

الرّكن الثاني المراءى به و هو الطاعات

و ذلك ينقسم إلى الرّياء بأصول العبادات و إلى الرّياء بأوصافها.

القسم الأوّل و هو الأغلظ الرّياء بالاصول

و هو على ثلاث درجات:

الدّرجة الأولى الرّياء بأصل الإيمان

و هو أغلظ أبواب الرّياء و صاحبه مخلّد في النار و هو الّذي يظهر كلمتي الشّهادة و باطنه مشحون بالتّكذيب و لكنّه يرائي بظاهر الإسلام و هو الّذي ذكره اللّه تعالى في كتابه في مواضع شتّى كقوله:إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنّك لرسول اللّه و اللّه يعلم إنّك لرسوله و اللّه يشهد إنّ المنافقين لكاذبون» ٦٣: ١أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم.

و قال تعالى:«و من الناس من يعجبك قوله في الحيوة الدّنيا و يشهد اللّه على ما في قلبه و هو ألدّ الخصام. و إذا تولّى سعى في الأرض ٢: ٢٠٤ - ٢٠٥- الآية -».

و قال تعالى:«و إذا لقوكم قالوا آمنّا و إذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ» ٣: ١١٩.

و قال تعالى:«يراءون النّاس و لا يذكرون اللّه إلا قليلا» ٤: ١٤٢و الآيات فيهم كثيرة و كان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممّن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض و ذلك ممّا يقلّ في زماننا و لكن يكثر نفاق من ينسلّ من الدّين باطنا فيجحد الجنّة و النّار و الدّار الآخرة ميلا إلى قول الملحدة أو يعتقد طيّ بساط الشرع و

الأحكام ميلا إلى أهل الإباحة أو يعتقد كفرا أو بدعة و هو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين و المرائين المخلّدين في النّار و ليس وراء هذا الرّياء رياء، و حال هؤلاء هو أشدّ من حال الكفّار المجاهرين لأنّهم جمعوا بين كفر الباطن و نفاق الظاهر.

الدّرجة الثانية الرّياء بأصول العبادات

مع التّصديق بأصل الدّين و هذا أيضا عظيم عند اللّه و لكنّه دون الأوّل بكثير، و مثاله أن يكون مال الرّجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزّكاة خوفا من ذمّة و اللّه يعلم منه أنّه لو كان في يده لما أخرجها أو يدخل وقت الصلاة و هو في جمع فيصلّي معهم و عادته ترك الصلاة في الخلوة و كذلك يصوم رمضان و هو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر و كذلك يحضر الجمعة و لولا خوف المذمّة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه و يبرّ والديه لا عن رغبة في الثواب و لكن خوفا من الناس، أو يغزو أو يحجّ كذلك فهذا المرائي معه أصل الإيمان باللّه يعتقد أنّه لا معبود سواه و لو كلّف أن يعبد غير اللّه أو يسجد لغير اللّه لم يفعل و لكنّه يترك العبادات للكسل و ينشط عند اطّلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحبّ إليه من منزلته عند الخالق و خوفه من مذمّة النّاس أعظم من خوفه من عقاب اللّه و رغبته في محمدتهم أشدّ من رغبته في ثواب اللّه و هذا غاية الجهل، و ما أجدر صاحبه بالمقت و إن كان غير منسلّ عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الدّرجة الثالثة أن لا يرائي بالإيمان و لا بالفرائض و لكنّه يرائي بالنوافل و السنن الّتي لو تركها لا يعصي و لكنّه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها و لإيثار لذّة الكسل على ما يرجى من الثواب، ثمّ يبعثه الرّياء على فعله و ذلك كحضور الجماعة في الصّلاة و عيادة المريض و اتّباع الجنازة و غسل الميّت و كالتهجّد باللّيل و صيام يوم عرفة و نحو ذلك، فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفا من المذمّة أو طلبا للمحمدة، و يعلم اللّه تعالى أنّه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض، فهذا أيضا عظيم و لكنّه دون ما قبله فإنّ الّذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق، و هذا أيضا قد فعل ذلك و اتّقى ذمّ الخلق دون ذمّ الخالق فكأنّ ذمّ الخلق أعظم عنده من عقاب اللّه تعالى، و أمّا هذا فلم يفعل ذلك لأنّه لم يخف عقابا على ترك

النافلة لو تركها و كأنّه على الشّطر من الأوّل و عقابه نصف عقابه، فهذا هو الرّياء بأصول العبادات.

القسم الثاني الرّياء بأوصاف العبادات

لا باصولها و هي أيضا على ثلاث درجات:

الدّرجة الأولى أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة كالّذي غرضه أن يخفّف الرّكوع و السجود و لا يطول القراءة فإذا رآه الناس أحسن الرّكوع و السّجود و ترك الالتفات و تمّم القعود بين السجدتين، و قد قال ابن مسعود: من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربّه. أي أنّه ليس يبالي باطّلاع اللّه عليه في الخلوة فإذا اطّلع آدميّ عليه أحسن الصلاة، و من جلس بين يدي إنسان متربّعا أو متّكئا فدخل غلامه فاستوى و أحسن الجلسة كان ذلك تقديما للغلام على السيّد و استهانة بالسيّد لا محالة، و هذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة، و كذلك الّذي يعتاد إخراج الزّكاة من الدّنانير الرّديّة أو من الحبّ الرّديء فإذا اطّلع عليه غيره

أخرجها من الجيّد خوفا من مذمّته، و كذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة و الرّفث لأجل الخلق لا إكمالا لعبادة الصّوم خوفا من المذمّة فهذا أيضا من الرّياء المحظور لأنّ فيه تقديما للمخلوق على الخالق و لكنّه دون الرّياء بأصول التطوّعات.

فإن قال المرائي: إنّما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة فإنّهم إذا رأوا تخفيف الرّكوع و السجود و كثرة الالتفات أطلقوا اللّسان بالذّمّ و الغيبة فإنّما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية فيقال له: هذه مكيدة للشيطان و تلبيس و ليس الأمر كذلك فإنّ ضررك من نقصان صلاتك و هي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك من غيبة غيرك، فلو كان باعثك الدّين لكان شفقتك على نفسك أكثر و ما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك لينال منه ولاية يتقلّدها فيهديها إليه و هي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف و لا يبالي به إذا كان الملك وحده و إذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمّة غلامه و ذلك محال بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر.

نعم للمرائي فيه حالتان إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة و المحمدة عند الناس، و ذلك حرام قطعا، و الثانية أن يقول: ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الرّكوع

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٥٩

و السجود و لو خفّفت كان صلاتي عند اللّه ناقصة و آذاني الناس بذمّهم و غيبتهم و أستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمّتهم و لا أرجو عليه ثوابا فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب و تحصل المذمّة. فهذا فيه أدنى نظر و الصحيح أنّ الواجب عليه أن يحسن و يخلص فإن لم تحضره النيّة فينبغي أن يستمرّ على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذّم بالمراءاة بطاعة اللّه فإنّ ذلك استهزاء كما سبق.

الدّرجة الثّانية أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه

و لكن فعله في حكم التكملة و التتمّة لعبادته كالتطويل في الرّكوع و السجود و مدّ القيام و تحسين الهيئة و رفع اليدين و المبادرة إلى التكبيرة الأولى و تحسين الاعتدال و الزّيادة في القراءة على السورة المعتادة و كذلك كثرة الخلوة في شهر رمضان و طول الصمت و كاختيار الأجود على الجيّد في الزكاة و إعتاق الرقبة الغالية في الكفّارة و كلّ ذلك ممّا لو خلّي و نفسه لكان لا يقدم عليه.

الدّرجة الثالثة أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل كحضوره الجماعة قبل القوم و قصده الصفّ الأوّل و توجّهه إلى يمين الإمام و ما يجري مجراه و كلّ ذلك ممّا يعلم اللّه منه أنّه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف و متى يحرم بالصلاة فهذه درجات الرّياء بالإضافة إلى ما يرائي به و بعضه أشدّ من بعض و الكلّ المذموم.

الركن الثالث المراءى لأجله

فإنّ للمرائي مقصودا لا محالة فإنّما يرائي لإدراك مال أو غرض من الأغراض لا محالة، و له أيضا ثلاث درجات:

الدّرجة الأولى و هي أشدّها و أعظمها أن يكون مقصده التمكّن من معصية

كالّذي يرائي بعباداته و يظهر التقوى و الورع بكثرة النوافل و الامتناع من أكل الشبهات و غرضه أن يعرف بالأمانة، فيولّى القضاء و الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها، أو تسلّم إليه تفرقة الزّكوات أو الصّدقات ليستأثر بما يقدر عليه منها، أو يودع الودايع فيأخذها و يجحدها، أو تسلّم إليه الأموال الّتي تنفق في طريق الحجّ فيختزل بعضها أو كلّها، أو يتوصّل بها إلى استتباع الحجيج و يتوصّل بقوّتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي، و قد يظهر بعضهم زيّ التصوّف و هيئة الخشوع

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٦٠

و كلام الحكمة على سبيل الوعظ و التّذكير و إنّما قصده التحبّب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور، و قد يحضرون في مجالس العلم و التذكير و حلق القرآن يظهرون الرّغبة في سماع العلم و القرآن و غرضهم ملاحظة النّسوان و الصّبيان أو يخرج إلى الحجّ و مقصوده الظفر بمن في الرّفقة من غلام أو امرأة و هؤلاء أبغض المرائين إلى اللّه تعالى لأنّهم جعلوا طاعة ربّهم سلّما إلى معصيته، و اتّخذوه آلة و متجرا و بضاعة لهم في فسقهم، و يقرب من هؤلاء - و إن كان دونهم - من هو مقترف بجريمة اتّهم بها و هو مصرّ عليها و يريد أن ينفي التّهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالّذي جحد وديعة و اتّهمه الناس بها فيتصدّق بالمال ليقال: إنّه يتصدّق بمال نفسه فكيف يستحلّ مال غيره، و كذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع و إظهاره التقوى.

الدّرجة الثانية أن يكون غرضه نيل حظّ مباح

من حظوظه الدّنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالّذي يظهر الحزن و البكاء و يشتغل بالوعظ و التذكير لتبذل له الأموال و ترغب في نكاحه النساء، فيقصد إمّا امرأة بعينها لينكحها، أو امرأة شريفة على الجملة، و كالّذي يرغب في أن يتزوّج بنت عالم أو عابد فيظهر له العلم و العبادة ليرغب في تزويجه ابنته فهذا رياء محظور لأنّه طلب بطاعة اللّه متاع الدّنيا و لكنّه دون الأوّل فإنّ المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الدّرجة الثالثة أن يقصد نيل حظّ و إدراك مال أو نكاح،

و لكن يظهر عبادته خيفة من أن ينظر إليه بعين النقص و لا يعدّ من الخاصّة و الزّهّاد و يعتقد أنّه من جملة العامّة، كالّذي يمشي مستعجلا فيطّلع عليه الناس فيحسن المشي و يترك العجلة كيلا يقال: إنّه من أهل اللّهو و السهو لا من أهل الوقار، و كذلك يسبق إلى الضحك أو يبدر منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار و

تنفّس الصّعداء و إظهار الحزن و يقول: ما أعظم غفلة الآدميّ عن نفسه، و اللّه يعلم منه أنّه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، و إنّما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير، و كالّذي يرى جماعة يصلّون النوافل و يتهجّدون أو يصومون التطوّع

المحجة البيضاء ج : ٦ ص :
١٦١

أو يتصدّقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل و يلحق بالعوام و لو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئا منه، و كالّذي يعطش في اليوم الّذي يصام فيه تطوّعا فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس أنّه غير صائم فإذا ظنّوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجلهم أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظنّ أنّه صائم و قد لا يصرّح بأنّه صائم و لكن يقول: لي عذر، و هو جمع بين خبثين فإنّه يري أنّه صائم ثمّ يري أنّه مخلص ليس بمراء و إنّه يحترز من أن يذكر عبادته للنّاس فيكون مرائيا فيريد أن يقال: إنّه ساتر لعباداته، ثمّ إن اضطرّ إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريحا أو تعريضا بأن يتعلّل بمرض يقتضي فرط العطش و يمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان ثمّ قد لا يذكر ذلك متّصلا بشربه كيلا يظنّ به أن يعتذر رياء و لكنّه يصبر، ثمّ يذكر عذره في معرض حكاية عرضا مثل أن يقول: إنّ فلانا محبّ للإخوان شديد الرّغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه و قد ألحّ عليّ اليوم و لم أجد بدّا من تطييب قلبه، و مثل أن يقول: إنّ امّي ضعيفة القلب مشفقة عليّ تظنّ أنّي لو صمت يوما مرضت فلا تدعني أن أصوم، فهذا و ما يجري مجراه علامات الرّياء فلا تسبق إلى اللّسان إلا لرسوخ عرق الرّياء في الباطن، و أمّا المخلص فإنّه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه فإن لم يكن له رغبة في الصوم و قد علم اللّه ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره فيه ما يخالف علم اللّه فيه فيكون ملبّسا، و إن كانت له رغبة في الصوم للّه قنع بعلم اللّه و لم

يشرك فيه غيره، و قد يخطر له أنّ في إظهاره اقتداء غيره به و تحريك رغبة الناس فيه، و فيه مكيدة و غرور و سيأتي شرح ذلك و شروطه فهذه درجات الرّياء و مراتب أصناف المرائين، و جميعهم تحت مقت اللّه و غضبه و هو من أشدّ المهلكات و إنّ من شدّته أنّ فيه شوائب هي أخفى من دبيب النملة كما ورد به الخبر، يزلّ فيه فحول العلماء فضلا عن العبّاد الجهّال بآفات النفوس و غوائل القلوب.

(بيان الرّياء الخفى الّذي هو أخفى من دبيب النّمل)

اعلم أنّ الرّياء جليّ و خفيّ، فالجليّ هو الّذي يبعث على العمل و يحمل عليه لو لا قصد الثواب، و هو أجلاه، و أخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرّده إلا أنّه يخفّف العمل الّذي أريد به وجه اللّه كالّذي يعتاد التهجّد كلّ ليلة و يثقل عليه فإذا دخل عليه الضيفان نشط له و خفّ عليه و علم أنّه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلّي لمجرّد رياء الضيفان و أخفى من ذلك ما لا يؤثّر في العمل و لا بالتسهيل و التخفيف أيضا و لكنّه مع ذلك مستبطن في القلب و مهما لم يؤثّر في الدّعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات و أجلى علاماته أن يسرّ باطّلاع الناس على طاعته، فربّ عبد مخلص في عمله لا يعتقد الرّياء بل يكرهه و يردّه و يتمّم العمل كذلك و لكنّ إذا اطّلع عليه الناس سرّه ذلك و ارتاح له و روّح ذلك عن قلبه شدّة العبادة، و هذا السرور يدلّ على رياء خفيّ منه يترشّح السّرور، و لو لا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطّلاع الناس، فلقد كان الرّياء مستكنّا في القلب استكنان النّار في الحجر فأظهر منه اطّلاع الخلق أثر الفرح و السرور، ثمّ إذا استشعر لذّة السرور بالاطّلاع و لم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتا و غذاء للعرق الخفيّ من الرّياء حتّى يتحرّك على نفسه حركة خفيّة فيتقاضى تقاضيا خفيّا أن يتكلّف سببا يطّلع عليه

بالتعريض و إلقاء الكلام عرضا، و إن كان لا يدعو إلى التصريح. و قد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضا و تصريحا و لكن بالشمائل كاظهار النحول و الصفار و خفض الصوت و يبس الشفتين و جفاف الرّيق و آثار الدّموع و غلبة النعاس الدّال على طول التهجّد، و أخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطّلاع و لا يسرّ بظهور طاعته، و لكنّه مع ذلك إذا رأى الناس أحبّ أن يبدءوه بالسلام، و أن يقابلوه بالبشاشة و التوقير، و أن يثنوا عليه، و أن ينشطوا في قضاء حوائجه، و أن يسامحوه في البيع و الشراء، و أن يوسّعوا له في المكان، و إن قصّر فيه مقصّر ثقل على قلبه و وجد لذلك استبعادا في نفسه كأنّ نفسه يتقاضى الاحترام على الطّاعة الّتي أخفاها مع أنّه لم يطّلع عليه و لو لم يكن قد سبقت منه تلك الطاعة

لما كان يستبعد تقصير الناس في حقّه، و مهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كلّ ما يتعلّق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم اللّه تعالى، و لم يكن خاليا عن شوب خفيّ منالرّياء أخفى من دبيب النمل

و كلّ ذلك يوشك أن يحبط الأجر و لا يسلم منه إلا الصّدّيقون. وقد روي عن عليّ عليه السّلام أنّه قال:«إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول للقرّاء يوم القيامة: ألم يكن يرخّص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبتدءون بالسلام؟ ألم تكن تقضى لكم الحوائج».

وفي الحديث الآخر- «لا أجر لكم قد استوفيتم اجوركم».

و قال عبد اللّه بن المبارك: روي عن وهب أنّه قال: إنّ رجلا من السوّاح قال لأصحابه: إنّا إنّما فارقنا الأموال و الأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر ممّا دخل على أهل الأموال في أموالهم إنّ أحدنا إذا لقي أحبّ أن يعظّم لمكان دينه، و إن اشترى شيئا

أحبّ أن يرخّص عليه لمكان دينه، و إن سأل حاجة أحبّ أن تقضى له لمكان دينه. فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكبه من الناس فإذا السهل و الجبل قد امتلأ بالناس، فقال السائح: ما هذا قيل: هذا الملك قد أظلّك، فقال للغلام: ائتني بطعام فأتاه ببقل و زيت و قلوب الشجر فجعل يحشو شدقه و يأكل أكلا عنيفا، فقال الملك: أين صاحبكم، قالوا: هذا قال: كيف أنت؟ قال: كالناس - و في حديث آخر -: بخير، فقال الملك: ما عند هذا من خير، فانصرف عنه. و قال السّائح: الحمد للّه الّذي صرفك عنّي و أنت لي ذامّ.

فلم يزل المخلصون خائفين من الرّياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصّالحة يحرصون على إخفائها أعظم ممّا يحرص الناس على إخفاء فواحشهم كلّ ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم فيجازيهم اللّه في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق إذ علموا أنّ اللّه لا يقبل في القيامة إلا الخالص و علموا شدّة حاجتهم و فاقتهم في القيامة و أنّهيوم لا ينفع فيه مال و لا بنون،ولا يجزي والد عن ولده،و يشتغل الصدّيقون بأنفسهم فيقول كلّ واحد: نفسي نفسي، فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت اللّه إذا توجّهوا إلى مكّة فإنّهم يستصحبون مع أنفسهم الذّهب المغربي الخالص

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٦٤

لعلمهم بأنّ أرباب البوادي لا يروّج عندهم الزايف، و الحاجة تشتدّ في البادية، و لا وطن يفزع إليه، و لا حميم يتمسّك به، فلا ينجي إلا الخالص من النّقد، فهكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة و الزّاد الّذي يتزوّدونه له التقوى فإذن شوائب الرّياء الخفيّ كثيرة لا تنحصر و مهما أدركت النفس تفرقة بين أن يطّلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرّياء فإنّه لمّا قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرّضّع أو غابوا، اطّلعوا على حركته أو لم يطّلعوا، و لو كان مخلصا قانعا بعلم اللّه لاستحقر عقلاء

العباد كما استحقر صبيانهم و مجانينهم، و علم أنّ العقلاء لا يقدرون له على رزق و لا أجل و زيادة ثواب و نقصان عقاب، كما لا يقدر عليه البهائم و الصبيان و المجانين، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب رياء خفيّ و لكن ليس كلّ شوب محبطا للاجر و مفسدا للعمل بل فيه تفصيل.

فان قلت: فما نرى أحدا ينفكّ عن السّرور إذا عرفت طاعاته فالسّرور مذموم كلّه أو بعضه محمود؟.

فنقول أوّلا: كلّ سرور فليس بمذموم بل السّرور منقسم إلى محمود و مذموم، فأمّا المحمود فأربعة:

الاوّل: أن يكون قصده إخفاء الطاعة و الإخلاص للّه و لكن لمّا اطّلع عليه الخلق علم أنّ اللّه اطّلعهم عليه و أظهر الجميل من أحوالهم فيستدلّ به على حسن صنيع اللّه به و نظره له و الطافه به فإنّه يستر الطاعة و المعصية، ثمّ اللّه يستر عليه المعصية و يظهر الطاعة، فلا لطف أعظم من ستر القبيح و إظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر اللّه له لا بحمد الناس و قيام المنزلة في قلوبهم، و قد قال اللّه تعالى:

«قل بفضل اللّه و برحمته فبذلك فليفرحوا» ١٠: ٥٨و كأنّه ظهر له أنّه عند اللّه مقبول ففرح به.

الثاني: أن يستدلّ بإظهار اللّه الجميل و ستره القبيح عليه في الدّنيا أنّه كذلك يفعل به في الآخرة إذقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ما ستر اللّه على عبد ذنبا في الدّنيا

إلا ستر عليه في الآخرة»

فيكون الاوّل فرحا بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل و هذا التفات إلى المستقبل.

الثالث: أن يظنّ رغبة المطّلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما ظهر آخرا، و أجر السّرّ بما قصده أوّلا، و من اقتدى به في طاعة فله

أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، و توقّع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإنّ ظهور مخائل الرّبح لذيذ و موجب للسرور لا محالة.
الرّابع: أن يحمده المطّلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم للّه في مدحتهم و بحبّهم للمطيع، و بميل قلوبهم إلى الطاعة إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته و يحسده أو يذمّه و يهزء به أو ينسبه إلى الرياء و لا يحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عباد اللّه، و علامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إيّاه.
و أمّا المذموم فهو الخامس و هو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتّى يمدحوه و يعظّموه و يقوموا بقضاء حوائجه و يقابلوه بالإكرام في مصادره و موارده فهذا مكروه.
(بيان ما يحبط العمل من الرّياء الخفىّ و الجليّ و ما لا يحبط)
فنقول: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثمّ ورد وارد الرّياء فلا يخلو إمّا أن يرد بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرّد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يحبط العمل إذ العمل قد تمّ على نعت الإخلاص سالما عن الرّياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره لا سيما إذا لم يتكلّف هو إظهاره و التحدّث به، و لم يتمنّ ذكره و إظهاره و لكن اتّفق ظهوره بإظهار اللّه إيّاه و لم يكن منه إلا ما دخل من السّرور و الارتياح على قلبه.
أقول: و يدلّ على هذا ماروا في الكافي عن أبي جعفر عليه السّلام«أنّه سئل عن

الرّجل يعمل الشّيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك؟ قال: لا بأس ما من أحد إلا و هو يحبّ أن يظهر اللّه له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك».

وقد رويأنّ رجلا قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يا رسول اللّه أسرّ العمل لا أحبّ أن يطّلع عليه أحد فيطّلع عليه فيسرّني؟ قال: لك أجران أجر السرّ و أجر العلانية»خ

رواه أبو حامد في موضع آخر، قال هاهنا: نعم لو تمّ العمل على الإخلاص من غير عقد رياء و لكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدّث به و أظهره فهذا مخوف و في الآثار و الأخبار ما يدلّ على أنّه محبط، فقد روي عن ابن مسعود أنّه سمع رجلا يقول: قرأت البارحة سورة البقرة قال: ذلك حظّه منها.

وروي عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّمأنّه قال لرجل قال له: صمت الدّهر يا رسول اللّه، فقال له: «ما صمت و لا أفطرت».

فقال بعضهم إنّما قال ذلك لأنّه أظهره، و قيل:

هو إشارة إلى كراهة صوم الدّهر، و كيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من ابن مسعود استدلالا على أنّ قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرّياء و قصد له لما أن ظهر منه التحدّث به، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا للثواب بل الأقيس أن يقال: إنّه مثاب على عمله الّذي مضى و معاقب على مراءاته بطاعة اللّه بعد الفراغ منها بخلاف ما لو تغيّر عقده إلى الرّياء قبل الفراغ فإنّ ذلك مبطل، و أمّا إذا ورد وارد الرّياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا و كان قد عقد على

الإخلاص و لكن ورد في أثنائها وارد الرّياء فلا يخلو إمّا أن يكون مجرّد سرور لا يؤثّر في العمل، و إمّا أن يكون رياء باعثا على العمل فإن كان باعثا على العمل و ختم العمل به حبط أجره، و مثاله أن يكون في تطوّع فتجدّدت له نظارة أو حضر ملك من الملوك و هو يشتهي أن ينظر إليه أو يذكر

شيئا نسيه من ماله و هو يريد أن يطلبه و لو لا الناس لقطع الصلاة فاستتمّها خوفا من مذمّة الناس فقد حبط أجره و عليه الإعادة إن كان في فريضة، وقد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوّله»

أي النظر إلى خاتمته.

وروي«من راءى بعمله ساعة حبط عمله الّذي كان قبله» [۱] و هو منزل على الصلاة في هذه الصورة لا على الصدقة و لا على القراءة، فإنّ كلّ جزء منها منفرد فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي، و الصوم و الحجّ من قبيل الصلاة، فأمّا إذا كان وارد الرّياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب، كما لو حضر جماعة في أثناء صلاته ففرح بحضورهم و عقد الرياء و قصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم و كان لولا حضورهم لكان يتمّها أيضا فهذا رياء قد أثر في العمل و انتهض باعثا على الحركات، فإن غلب حتّى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة و الثواب و صار قصد العبادة مغمورا، فهذا أيضا ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، لأنّا نكتفي بالنيّة السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها و يغمرها، و يحتمل أن يقال: لا يفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد و إلى بقاء أصل قصد الثواب، و إن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه. و الأقيس أنّ هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادرا عن باعث الدّين، و إنّما انضاف إليه سرور بالاطّلاع فلا يفسد العمل لأنّه لم ينعدم به أصل نيّته و بقيت تلك النيّة باعثة على العمل و حاملة على الإتمام.

---

[۱] قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ و للشيخين من حديث جندب «من سمع سمع اللّه به و من راءى راءى اللّه به» رواه مسلم من حديث ابن عباس و قد تقدم.

أقول: و قد أسلفنا ما يدلّ على ذلك من النصّ.

قال: أمّا الأخبار الّتي وردت في الرّياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق، و إمّا ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرّياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه أمّا إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلّية ثواب الصدقة و سائر الأعمال و لا ينبغي أن يفسد الصلاة، و لا يبعد أيضا أن يقال: إنّ الّذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه اللّه و الخالص ما لا يشوبه شيء فلا يكون مؤدّيا للواجب مع هذا الشوب و العلم عند اللّه فيه، و قد ذكرنا في (كتاب الإخلاص) كلاما أو في ممّا أوردناه الآن فليرجع إليه. فهذا حكم الرّياء الطارئ بعد عقد العبادة إمّا قبل الفراغ أو بعده.

القسم الثالث الّذي يقارن حال العقد بأن يبتدء الصلاة على قصد الرّياء فإن تمّ عليه حتّى يسلّم فلا خلاف في أنّه يعصي و لا يعتدّ بصلاته، و إن ندم عليه في أثناء ذلك و استغفر و رجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه، قالت فرقة: لم تنعقد صلاته مع قصد الرّياء فليستأنف، و قالت فرقة: تلزمه إعادة الأفعال كالركوع و السجود و يفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لأنّ التحريم عقد و الرّياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا، و قالت فرقة: لا يلزمه إعادة شيء بل يستغفر اللّه بقلبه و يتمّ العبادة على الإخلاص و النظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأها بالإخلاص و ختم بالرّياء لكان يفسد عمله.

و شبّهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا ازيل العارض عاد إلى الأصل، فقالوا: إنّ الصلاة و الركوع و السجود لا تكون إلا للّه، و لو سجد لغير اللّه لكان كافرا، و لكن قد اقترن به عارض الرّياء ثمّ إن زال بالندم و التوبة و صار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس و ذمّهم فتصحّ صلاته، و مذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدّا

خصوصا من قال: يلزمه إعادة الرّكوع و السجود دون الافتتاح. لأنّ الرّكوع و السجود إن لم يصحّ صارت أفعالا زائدة في الصلاة فتبطل

الصلاة، و كذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صحّ نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف لأنّ الرّياء يقدح في النيّة و أولى الأوقات بمراعاة الأحكام النيّة حال الافتتاح فالّذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال: إن كان باعثه مجرّد الرّياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب و امتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه و لم يصحّ ما بعده، و ذلك في من إذا خلا بنفسه لم يصلّ و لمّا رآه الناس تحرم بالصلاة و كان بحيث لو كان ثوبه أيضا نجسا كان يصلّي لأجل الناس فهذه صلاة لا نيّة فيها إذا النيّة عبارة عن إجابة باعث الدّين، و ههنا لا باعث و لا إجابة. فأمّا إذا كان بحيث لو لا الناس أيضا لكان يصلّي إلا أنّه ظهرت له الرّغبة في المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان، فهذا إمّا أن يكون في صدقة أو قراءة و ما ليس فيه تحليل و تحريم أو في عقد صلاة و حجّ، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرّياء و أطاع بإجابة باعث الثواب«فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره، و من يعمل مثقال ذرّة شرّا يره» ٩٩: ٧ - ٨فله ثواب بقدر قصده الصحيح و عقاب بقدر قصده الفاسد، و لا يحبط أحدهما الآخر، و إن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرّق خلل إلى النيّة فلا يخلو إمّا أن تكون نفلا أو فرضا، فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه و أطاع من وجه إذا اجتمع في قلبه الباعثان، و أمّا إذا كان في فرض و اجتمع الباعثان و كان كلّ واحد منهما لا يستقلّ و إنّما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه لأنّ الإيجاب لم ينتهض باعثا في حقّه بمجرّده و استقلاله، و إن كان كلّ باعث مستقلا حتّى لو لم يكن باعث الرّياء لأدّى

الفرض، و لو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوّعا لأجل الرّياء فهذا في محلّ النظر، و هو محتمل جدّا، فيحتمل أن يقال: إنّ الواجب صلاة خالصة لوجه اللّه و لم يؤدّ الواجب الخالص، و يحتمل أن يقال: الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه و قد وجد، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه كما لو صلّى في دار مغصوبة فإنّه و إن كان عاصيا بإيقاع الصلاة في الدّار المغصوبة فإنّه مطيع بأصل الصلاة و مسقط للفرض عن نفسه، و تعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة، أمّا إذا كان الرّياء في المبادرة مثلا دون أصل الصلاة، مثل

من بادر بالصلاة في أوّل الوقت لحضور جماعة و لو خلا لأخّرها إلى وسط الوقت و لولا الفرض لكان لا يبتدئ صلاة لأجل الرّياء فهذا ممّا يقطع بصحّة صلاته و سقوط الفرض به لأنّ باعث أصل الصلاة من حيث إنّها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت، فهذا أبعد عن القدح في النيّة، هذا في رياء يكون باعثا على العمل و حاملا عليه، فأمّا مجرّد السرور باطّلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثّر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة فهذا ما نراه لايقا بقانون الفقه، و المسألة غامضة من حيث إنّ الفقهاء لم يتعرّضوا لها في فنّ الفقه، و الّذين خاضوا فيها و تصرّفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه، و مقتضى فتاوي الفقهاء في صحّة الصلاة و فسادها، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب و طلب الإخلاص على إفساد العبادات بأدنى الخواطر و ما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه و العلم عند اللّه تعالى فيه.

(بيان دواء الرّياء و طريق معالجة القلب فيه)

لقد عرفت ممّا سبق أنّ الرّياء محبط للأعمال و سبب للمقت عند اللّه و أنّه من كبائر المهلكات، و ما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجدّ في إزالته و لو بالمجاهدة و تحمّل

المشاقّ، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرّة البشعة، و هذه مجاهدة يضطرّ إليها العباد كلّهم، إذ الصبيّ يخلق ضعيف العقل و التمييز، ممتدّ العين إلى الخلق، كثير الطمع فيهم، فيرى الناس يتصنّع بعضهم لبعض فيغلب عليه حبّ التصنّع بالضرورة و يترسّخ ذلك في نفسه و إنّما يشعر بكون ذلك مهلكا بعد كمال عقله و قد انغرس الرّياء في قلبه و ترسّخ فيه، فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة و مكابدة لقوّة الشهوات، فلا ينفكّ أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة و لكنّها تشقّ أوّلا و تخفّ آخرا و في علاجه مقامان: أحدهما قطع عروقه و اصوله الّتي منها انشعابه، و الثاني دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأوّل في قطع عروقه و استئصال اصوله،

و اصوله: حبّ المنزلة و الجاه، و إذا فصّل رجع إلى ثلاثة أصول و هو حبّ لذّة المحمدة و الفرار من ألم المذمّة و الطمع لما في أيدي الناس، و يشهد للرّياء بهذه الأسباب و أنّها الباعثة للمرائي

ماروى أبو موسىأنّ أعرابيا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: يا رسول اللّه إنّ الرّجل يقاتل حمية - و معناه أنّه يأنف أن يقهر أو يذمّ بأنّه مقهور مغلوب - [و قال و الرّجل يقاتل ليري مكانه - و هذا هو طلب لذّة الجاه و القدر في القلوب -، و الرّجل يقاتل للذكر - و هذا هو الحمد باللّسان] - فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه» [١].

و قال ابن مسعود: إذا التقى الصفّان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم، فلان يقاتل للذكر، و فلان يقاتل للملك. و القتال للملك إشارة إلى الطمع في الدّنيا.

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من غزا لا يبغي إلا عقالا فله ما نوى»

فهذه إشارة إلى الطمع، و قد لا يشتهي الحمد و لا يطمع فيه و لكن يحذر من ألم الذّمّ كالبخيل بين الأسخياء و هم يتصدّقون بالمال الكثير فإنّه يتصدّق بالقليل كيلا يبخّل، و هو ليس يطمع في الحمد و قد سبقه غيره، و كالجبان بين الشجعان لا يفرّ من الزّحف خوفا من الذّمّ و هو لا يطمع في الحمد، و قد هجم غيره على صفّ القتال و لكن إذا يئس من الحمد كره الذّمّ، و كالرجل بين قوم يصلّون جميع اللّيل فيصلّي ركعات معدودة كيلا يذمّ بالكسل و هو لا يطمع في الحمد، و قد يقدر الإنسان على الصبر عن لذّة الحمد و لا يقدر على الصبر على ألم الذّمّ، و كذلك قد يترك السؤال عن علم ما هو محتاج إليه خيفة من أن يذمّ بالجهل و يفتي بغير علم و يدّعي العلم بالحديث و هو به جاهل و كلّ ذلك حذرا من الذّمّ فهذه الأمور الثلاثة هي الّتي تحرّك المرائي إلى الرّياء و علاجه ما ذكرناه في الشطر الأوّل من الكتاب على الجملة.

و لكنّا نذكر الآن ما يخصّ الرّياء و ليس يخفى أنّ الإنسان إنّما يقصد

---

[۱]أخرجه مسلم ج ٦ ص ٤٦ هكذا«أن رجلا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن القتال في سبيل اللّه عز و جل فقال: الرجل يقاتل غضبا و يقاتل حمية، قال: فرفع رأسه إليه و ما رفع رأسه إليه الا أنه كان قائما فقال من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه».

الشيء و يرغب فيه لظنّه أنّه خير له و نافع و لذيذ إمّا في الحال و إمّا في المآل، فإن علم أنّه لذيذ في الحال و لكنّه ضارّ في المآل سهل عليه قطع الرّغبة عنه كمن يعلم أنّ العسل لذيذ و لكن إذا بان له أنّ فيه سمّا أعرض عنه، فكذلك طريق قطع هذه الرّغبة أن يعلم ما فيها من المضرّة، و مهما عرف العبد مضرّة الرّياء و ما يفوته من صلاح قلبه و ما يحرم عنه في الحال من التوفيق و في الآخرة من المنزلة عند اللّه و ما يتعرّض له من العقاب العظيم و المقت الشديد و الخزي الظاهر حيث ينادى به على رءوس العباد: يا فاجر، يا غادر، يا مرائي أما استحييت إذا اشتريت بطاعة اللّه عرض الدّنيا، راقبت قلوب العباد و استهزأت بنظر اللّه تعالى، و تحبّبت إلى العباد بالتبغّض إلى اللّه، و تزيّنت لهم بالشين عند اللّه، و تقرّبت إليهم بالبعد من اللّه، و تحمّدت إليهم بالتذمّم عند اللّه، و طلبت رضاهم بالتعرّض لسخط اللّه، أما كان أحد أهون عليك من اللّه، فمهما تفكّر العبد في هذا الخزي و قابل ما يحصل له من العباد و التزيّن لهم في الدّنيا بما يفوته من الآخرة، و ما يحبط عليه من ثواب الأعمال مع أنّ العمل الواحد ربّما كان يترجّح به ميزان حسناته لو خلص فإذا فسد بالرّياء حوّل إلى كفّة السيّئات فترجّح به و يهوي إلى النّار، فلو لم يكن في الرّياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيّا في معرفة ضرره و إن كانت مع ذلك سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علوّ الرّتبة عند اللّه في زمرة النبيّين و الصدّيقين و قد حطّ عنهم بسبب الرّياء و ردّ إلى صفّ النعال من مراتب الأولياء هذا مع ما يتعرّض له في الدّنيا من تشتّت الهمّ بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإنّ رضا الناس غاية لا تدرك، فكلّ ما يرضى به فريق يسخط به فريق، و رضا بعضهم في سخط بعضهم، و من طلب رضاهم في سخط اللّه سخط اللّه عليه و أسخطهم أيضا عليه ثمّ أيّ غرض له في مدحهم و إيثار ذمّ اللّه لأجل حمدهم و لا يزيده حمدهم رزقا و لا أجلا، و لا ينفعه يوم فقره و فاقته،

و هو يوم القيامة، و أمّا الطمع بما في أيديهم فبأن يعلم أنّ اللّه تعالى هو المسخّر للقلوب بالمنع و الإعطاء، و أنّ الخلق مضطرّون فيه و لا رازق إلا اللّه و من طمع في الخلق لم يخل من الذّل و الخيبة، و إن وصل إلى المراد لم يخل عن المنّة و المهانة

فكيف يترك ما عند اللّه برجاء كاذب و وهم فاسد، قد يصيب و يخطئ و إذا أصاب فلا تفي لذّته بألم منّته و مذلّته و أمّا ذمّهم فلم يحذر منه و لا يزيده ذمّهم شيئا ما لم يكتبه اللّه عليه، و لا يعجل أجله و لا يؤخّر رزقه و لا يجعله من أهل النّار إن كان من أهل الجنّة، و لا يبغّضه إلى اللّه إن كان محمودا عند اللّه، و لا يزيده مقتا إن كان ممقوتا عند اللّه، فالعباد كلّهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرّا و لا نفعا و لا يملكون موتا و لا حياة و لا نشورا، فإذا قرّر في قلبه آفة هذه الأسباب و ضررها فترت رغبته و أقبل على اللّه قلبه، فإنّ العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره و يقلّ نفعه و يكفيه أنّ الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرّياء و إظهار الإخلاص لمقتوه و سيكشف اللّه عن سرّه حتّى يبغّضه إلى الناس و يعرّفهم أنّه مرائي و ممقوت عند اللّه، و لو أخلص للّه لكشف اللّه لهم إخلاصه و حبّبه إليهم و سخّرهم له و أطلق ألسنتهم بحمده و الثناء عليه، مع أنّه لا كمال في مدحهم و لا نقصان في ذمّهم كما قال شاعر من بني تميم: إنّ مدحي زين و إنّ ذمّي شين،فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «كذبت ذلك اللّه الّذي لا إله إلا هو» [١] إذ لا زين إلا في مدحه و لا شين إلا في ذمّه فأي خير لك في مدح الناس و أنت عند اللّه مذموم و من أهل النار، و أيّ شرّ لك من ذمّ الناس و أنت عند اللّه محمود و في زمرة المقرّبين، فمن أحضر في قلبه الآخرة و نعيمها المؤبّد و المنازل الرّفيعة عند اللّه تعالى استحقر ما يتعلّق بالخلق أيّام

الحياة مع ما فيه من الكدورات و المنّة و المنغّصات و اجتمع همّه و انصرف إلى اللّه قلبه و تخلّص من مذلّة الرّياء و مقاساة قلوب الخلق و انعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره، و ينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به انسه باللّه و وحشته للخلق و استحقاره للدّنيا و استعظامه للآخرة و سقط محلّ الخلق من قلبه و انحلّ عنه داعية الرّياء و تذلّل له منهج الإخلاص فهذا و ما قدّمناه في الشطر الأوّل هي الأودية العلمية القالعة مغارس الرّياء.

---

[۱] أخرجه أحمد ج ۳ ص ٤٨٨ من حديث الاقرع بن حابس و هو قائل ذلك القول، و قال العراقي: رجاله ثقات الا أنه رواه عن الاقرع أبو سلمة بن عبد الرّحمن و لا اعرف له سماعا عن الاقرع. و رواه الترمذي من حديث البراء و حسنه بلفظ «فقال رجل: ان حمدى».

و أمّا الدّواء العملي فهو أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات و إغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش حتّى يقنع قلبه بعلم اللّه و اطّلاعه على عبادته و لا تنازعه النفس إلى طلب علم غير اللّه به، و قد روي أنّ بعض أصحاب أبي حفص الحدّاد ذمّ الدّنيا و أهلها فقال له أبو حفص: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخّص في إظهار هذا القدر لأنّ في ضمن ذمّ الدّنيا بعض دعوى الزّهد فيها فلا دواء للرّياء مثل الإخفاء و ذلك يشقّ في بداية المجاهدة و إذا صبر عليه مدّة بالتكلّف سقط عنه ثقله، و هان عليه ذلك بتواصل ألطاف اللّه و ما يمدّ به عباده من حسن التوفيق و التأييد و لكن اللّه لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، فمن العبد المجاهدة و من اللّه الهداية، و من العبد قرع الباب و من اللّه فتح الباب و اللّه لا يضيع

أجر المحسنين فإن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجرا عظيما.

المقام الثاني في دفع العارض منه في أثناء العبادة

و ذلك لابدّ من تعلّمه أيضا فإنّ من جاهد نفسه و قلع مغارس الرّياء من قلبه بالقناعة و قطع الطمع و أسقط نفسه من أعين المخلوقين و استحقر مدح المخلوقين و ذمّهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرّياء و لا تنقطع عنه نزغاته، و هوى النفس و ميلها لا ينمحي بالكلّيّة فلا بدّ و أن يتشمّر لدفع ما يعرض من خاطر الرّياء و خواطر الرّياء ثلاثة قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد و قد ترادف على التّدريج فالأوّل العلم باطّلاع الخلق و رجاء اطّلاعهم، ثمّ يتلوه هيجان الرّغبة من النفس في حمدهم و حصول المنزلة عندهم، ثمّ يتلوه هيجان الرّغبة في قبول النفس له و الرّكون إليه و عقد الضمير على تحقيقه فالأوّل معرفة، و الثاني حالة تسمّى الشهوة و الرّغبة، و الثالث فعل يسمّى العزم و تصميم العقد، و إنّما كمال القوّة في دفع الخاطر الأوّل و ردّه قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له معرفة اطّلاع الخلق أو رجاء اطّلاعهم دفع ذلك بأن قال لنفسه: مالك و للخلق علموا أو لم يعلموا؟ و اللّه عالم بحالك، و أيّ فائدة في علم غيره، فإن هاجت الرّغبة إلى لذّة الحمد تذكّر ما رسخ في قلبه من قبل في آفة الرّياء و تعرّضه للمقت عند اللّه تعالى في القيامة و خيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله

فكما أنّ معرفة اطّلاع الناس تثير شهوة و رغبة في الرّياء، فمعرفة آفة الرّياء أيضا تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة إذ يتفكّر في تعرّضه لمقت اللّه و عقابه الأليم و الشّهوة تدعوه إلى القبول، و الكراهة تدعوه إلى الإباء، و النفس تطاوع لا محالة أقواهما و أغلبهما، فإذن لا بدّ في ردّ الرّياء من ثلاثة أمور: المعرفة، و الكراهة، و الإباء، و قد يشرع العبد في

العبادة على عزم الإخلاص ثمّ يرد خاطر الرّياء فيقبله و لا تحضره المعرفة و لا الكراهة الّتي كان الضمير منطويا عليها و إنّما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذّمّ و حبّ الحمد و استيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متّسع لغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرّياء و شؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذّمّ و هو كالّذي يحدّث نفسه بالحلم و ذمّ الغضب و يعزم على التحلّم عند جريان سبب الغضب، ثمّ يجري من الأسباب ما يشتدّ به غضبه فينسى سابق عزمه و يمتلي قلبه غيظا يمنع من تذكّر آفة الغضب و يشتغل عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب و تدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب و إليه أشار جابر بقوله: «بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحت الشجرة على أن لا نفرّ و لم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين حتّى نودي يا أصحاب الشجرة فرجعوا» [١] و ذلك لأنّ القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتّى ذكروا، و أكثر الشهوات الّتي تهجم فجأة هكذا تكون إذ تنسى معرفة مضرّته الدّاخلة في عقد الإيمان، و مهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإنّ الكراهة ثمرة المعرفة و قد يتذكّر فيعلم أنّ الّذي خطر له هو خاطر الرّياء الّذي يعرضه لسخط اللّه و لكن يستمرّ عليه لشدّة شهوته فيغلب هواه عقله و لا يقدر على ترك لذّة الحال، فيسوّف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكّر في ذلك لشدّة الشهوة، و كم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى ذكره إلا رياء الخلق و هو يعلم ذلك و لكنّه يستمرّ عليه فتكون عليه الحجّة أوكد إذ قبل داعي الرّياء مع علمه بغائلته و كونه مذموما

---

[١] أخرجه النسائي ج ٧ ص ١٤٠ دون قوله: «فأنسيناه يوم حنين الخ» فرواه مسلم ج ٥ ص ١٦٧.

عند اللّه و لا تنفعه معرفته إذ خلت المعرفة عن الكراهة، و قد تحضر المعرفة و الكراهة و لكن مع ذلك يقبل داعي الرّياء و يعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوّة الشهوة، و هذا أيضا لا ينتفع بكراهته، إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل.

فإذن لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث و هي المعرفة و الكراهة و الإباء، فالاباء ثمرة الكراهة، و الكراهة ثمرة المعرفة، و قوّة المعرفة بحسب قوّة الإيمان و نور العلم، و ضعف المعرفة بحسب الغفلة و حبّ الدّنيا و نسيان الآخرة و قلّة التفكّر فيما عند اللّه و قلّة التأمّل في آفات الحياة الدّنيا و عظيم نعيم الآخرة و بعض ذلك ينتج بعضا و يثمره و أصل ذلك كلّه حبّ الدّنيا و غلبة الشهوة، و هو رأس كلّ خطيئة و منبع كلّ ذنب، لأنّ حلاوة حبّ الجاه و المنزلة و نعيم الدّنيا هي الّتي تغمر القلب و تميله و تحول بينه و بين التفكّر في العاقبة و الاستضاءة بنور الكتاب و السنّة و أنوار العلوم.

فإن قلت: فمن صادف من نفسه كراهة بالرّياء و حملته الكراهة على الإباء و لكنّه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه و حبّه له و منازعته إيّاه إلا أنّه كاره لحبّه و لميله إليه و غير محبّب إليه، فهل يكون في زمرة المرائين؟.

فاعلم أنّ اللّه تعالى لم يكلّف العبد إلا ما يطيق، و ليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته و لا قمع الطمع حتّى لا يميل إلى الشهوات و لا ينزع إليها و إنّما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب، و علم الدّين و أصول الإيمان باللّه و اليوم الآخر فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلّف به و يدلّ على ذلك من الأخبار ماروي أنّ أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شكوا إليه و قالوا: تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخرّ من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الرّيح في مكان سحيق أحبّ إلينا من أن

نتكلّم بها، فقال: أو قد وجدتموها؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان»

و لم يجدوا إلا الوسواس و الكراهة له و لا يمكن أن يقال: أراد

بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة و الرّياء و إن كان عظيما فهو دون الوسوسة في حقّ اللّه تعالى فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى، و كذلكيروى عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في حديث ابن عبّاس أنّه قال:«الحمد للّه الّذي ردّ كيد الشيطان إلى الوسوسة».

و قال أبو حازم: ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك فلا يضرّك ما هو من عدوّك، و ما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه. فإذن وسوسة الشيطان و منازعة النّفس لا تضرّك مهما رددت مرادهما بالإباء و الكراهة. و الخواطر الّتي هي العلوم و التذكّرات و التخيّلات للأسباب المهيّجة للرّياء هي من الشيطان.

و الرّغبة و الميل بعد تلك الخواطر من النفس و الكراهة من الإيمان و من آثار العقل إلا أنّ للشيطان ههنا مكيدة و هو أنّه إذا عجز عن حمله على قبول الرّياء خيّل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان و مطاولته في الردّ و الجدال حتّى يسلبه ثواب الإخلاص و حضور القلب، لأنّ الاشتغال بمجادلة الشيطان و مدافعته انصراف عن سرّ المناجاة مع اللّه عزّ و جلّ فيوجب ذلك نقصانا في منزلته عند اللّه.

و المتخلّصون عن الرّياء في دفع خواطر الرّياء على أربع مراتب:

الأولى: أن يردّه على الشيطان فيكذّبه و لا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته و يطيل الجدال معه لظنّه أنّ ذلك أسلم للقلب و هو على التحقيق نقصان لأنّه اشتغل عن مناجاة اللّه و عن الخير الّذي هو بصدده و انصرف إلى قتال قطّاع الطريق و التعريج على قتال قطّاع الطريق نقصان في السلوك، الثانية: أن يعرف أنّ القتال و الجدال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه و دفعه و لا يشتغل بمجادلته، الثالثة: أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا لأنّ ذلك وقفة و إن قلّت، بل يكون قد قرّر في عقد ضميره كراهة الرّياء و كذب الشيطان فيستمرّ على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب و لا بالمخاصمة، الرابعة: أن يكون قد علم أنّ

الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرّياء فيكون قد عزم على أنّه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص و الاشتغال باللّه عزّ و جلّ و إخفاء الصدقة و العبادة غيظا للشيطان، و ذلك هو الّذي يغيظ الشيطان و يقمعه و يوجب يأسه و قنوطه حتّى لا يرجع، و يروى عن الفضيل بن غزوان أنّه قيل له: إنّ فلانا ذكرك بسوء، قال: و اللّه لأغيظنّ من أمره، قيل: و من أمره؟ قال: الشيطان، ثمّ قال: «اللّهمّ اغفر له» أي لأغيظنّه بأن اطيع اللّه فيه، و مهما عرف الشيطان من عبد اعتاد هذه العادة كفّ عنه خيفة من أن يزيد في حسناته، و قال إبراهيم التيميّ:

إنّ الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم فلا يطعه و ليحدث عند ذلك خيرا، فإذا رآه كذلك تركه. و قال أيضا: إذا رآك الشيطان متردّدا طمع فيك و إذا رآك مداوما ملّك و قلاك.

و ضرب الحارث المحاسبيّ لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم و الحديث لينالوا

منه فائدة و هداية و رشدا، فحسدهم على ذلك ضالّ مبتدع و خاف أن يعرفوا الحقّ، فتقدّم إلى واحد منهم فمنعه و صرفه عنه و دعاه إلى مجلس ضلال فأبى فلمّا عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليردّ ضلاله و هو يظنّ أنّ ذلك مصلحة له و هو غرض الضّالّ ليفوت عليه بقدر تأخّره، فلمّا مرّ الثاني عليه نهاه و استوقفه فوقف فدفع في نحر الضالّ و لم يشتغل بالقتال و استعجل ففرح منه الضالّ بقدر توقّفه للدّفع فيه، و مرّ به الثالث فلم يلتفت إليه و لم يشتغل بدفعه و لا بقتاله بل استمرّ على ما كان فخاب منه رجاؤه بالكلّيّة، و مرّ الرّابع فلم يتوقّف له و أراد أن يغيظه فزاد في عجلته و ترك التأنّي في المشي فيوشك إن عادوا و مرّوا عليه مرّة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير فإنّه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله.

فإن قلت: فالشيطان إذا كان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصّد له قبل حضوره للحذر منه انتظارا لوروده أم يجب التوكّل على اللّه ليكون هو الدّافع له، أو يجب الاشتغال بالعبادة و الغفلة عنه؟ قلنا: اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه: فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أنّ الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنّهم انقطعوا إلى اللّه و اشتغلوا بحبّه و اعتزلهم الشيطان، فآيس منهم و خنس عنهم كما آيس من ضعفاء العباد في الدّعوة إلى الخمر و الزّنى فصارت ملاذّ الدّنيا و إن كانت مباحة كالخمر و الخنزير عندهم، و إذ خلوا من حبّها بالكلّيّة لم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر، و ذهبت فرقة من أهل الشام إلى أنّ الترصّد للحذر منه إنّما يحتاج إليه من قلّ يقينه و نقص توكّله فمن أيقن بأن لا شريك للّه في تدبيره فلا يحذر غيره و يعلم أنّ الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر و لا يكون إلا ما أراده اللّه تعالى فهو الضارّ و النافع، و العارف

يستحيي منه أن يحذر غيره، فاليقين بالوحدانيّة يغنيه عن الحذر، و قالت فرقة من أهل العلم: لابدّ من الحذر من الشيطان و ما ذكره البصريّون من أنّ الأقوياء قد استغنوا عن الحذر و خلت قلوبهم عن حبّ الدّنيا بالكلّيّة و هو وسيلة للشيطان، يكاد يكون غرورا إذ الأنبياء عليهم السّلام لم يتخلّصوا من وساوس الشيطان و نزغاته فكيف يتخلّص غيرهم و ليس كلّ وسواس الشيطان من الشهوات و حبّ الدّنيا بل في صفات اللّه و أسمائه و في تحسين البدع و الضلال و غيره، و لا ينجو أحد من الخطر فيه، و القرآن من أوّله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدعى الأمن منه، و أخذ الحذر منه حيث أمر اللّه تعالى به لا ينافي الاشتغال بحبّ اللّه تعالى فإنّ من الحبّ له امتثال أمره و قد أمرنا بالحذر من العدوّ كما أمرنا بالحذر من الكفّار، فقال تعالى:و ليأخذوا حذرهم و أسلحتهم ٤: ١٠٢و قال تعالى:

و أعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة و من رباط الخيل ترهبون به عدوّ اللَّه و عدوَّكم ٨: ٦٠

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٨٠

فإذا لزمك بأمر اللّه الحذر من العدوّ الكافر و أنت تراهم فبأن يلزمك الحذر من عدوّ يراك و لا تراه أولى، و لذلك قيل: صيد تراه و لا يراك يوشك أن تظفر به، و صيد يراك و لا تراه يوشك أن يظفر بك، و أشار إلى الشيطان فكيف و ليس في الغفلة من عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة و في إهمال الحذر من الشيطان التعرّض للنّار و العقاب الأليم، فليس من الاشتغال باللّه الإعراض عمّا حذّر اللّه عنه، و به يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنّهم أنّ ذلك قادح في التوكّل فإنّ أخذ الترس و السلاح و جمع الجنود و حفر الخندق لم يقدح في توكّل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكيف يقدح في التوكّل الخوف ممّا خوّف اللّه به، و الحذر ممّا أمر بالحذر منه، و قد ذكرنا في كتاب التوكّل ما يبين غلط من

ظنّ أن معنى التوكّل النزوع عن الأسباب بالكلّيّة و قوله تعالى:«و أعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة و من رباط الخيل» ٨: ٦٠لا يناقض امتثاله التوكّل مهما اعتقد القلب أنّ الضارّ و النافع و المحيي و المميت هو اللّه، فكذلك يحذر الشيطان و يعتقد أنّ المضلّ و الهادي هو اللّه، و يرى الأسباب وسائط مسخّرة كما ذكرناه في كتاب التوكّل.

و هذا ما اختاره المحاسبيّ و هو الصحيح الّذي يشهد له نور العلم و ما قبله يشبه أن يكون من كلام العبّاد الّذين لم يعزر علمهم و يظنّون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق باللّه يستمر على الدّوام و هو بعيد.

ثمّ اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفيّة الحذر فقال قوم: إذا حذّرنا اللّه تعالى العدوّ فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره و الحذر منه و الترصّد له فإنّا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا، و قال قوم: إنّ ذلك يؤدّي إلى خلوّ القلب عن ذكر اللّه و اشتغال الهمّ كلّه بالشيطان و ذلك مراد الشيطان منّا بل نشتغل بذكر اللّه تعالى و لا ننسي الشيطان و عداوته و الحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين، فإنّا إن نسيناه ربّما عرض من حيث لا نحتسب و إن تجرّدنا لذكره كنّا قد أهملنا ذكر اللّه تعالى فالجمع أولى، و قال العلماء المحقّقون: غلط الفريقان فأمّا الأوّل: فقد تجرّد لذكر الشيطان و نسي ذكر

اللّه تعالى فلا يخفى غلطه، و إنّما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدّنا عن الذّكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا و هو منتهى ضرر العدوّ، ثمّ يؤدّي ذلك إلى خلوّ القلب عن نور ذكر اللّه تعالى فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب و ليس فيه نور ذكر اللّه و قوّة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به و لا يقوي على دفعه فلم يأمرنا بانتظار الشيطان و لا بإدمان ذكره، و أمّا الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ

جمعت في القلب بين ذكر اللّه و الشيطان و بقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر اللّه و قد أمر اللّه الخلق بذكره و نسيان ما عداه - إبليس و غيره - فالحقّ أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان و يقرّر على نفسه عداوته فإذا اعتقده و صدق به و سكن الحذر فيه فليشتغل بذكر اللّه و يكبّ عليه بكلّ الهمّة و لا يخطر بباله أمر الشيطان فإنّه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثمّ خطر الشيطان له تنبّه له و عند التنبّه يشتغل بدفعه، و الاشتغال بذكر اللّه لا يمنع من التيقّظ عند نزغة الشيطان، بل الرّجل ينام و هو خائف على أن يفوته مهمّ عند طلوع الصبح فيلزم نفسه الحذر و ينام على أن يتنبّه في ذلك الوقت فينتبه في اللّيل مرّات قبل أوانه لما استكنّ في قلبه من الحذر مع أنّه بالنوم غافل عنه فاشتغاله بذكر اللّه كيف يمنع تنبّهه، و مثل هذا القلب هو الّذي يقوى على دفع العدوّ و إذا كان اشتغاله بمجرّد ذكر اللّه تعالى قد أمات منه الهوى و أحيى فيه نور العقل و العلم و أماط عنه ظلمة الشهوات، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان و ترصّده و ألزموها الحذر ثمّ لم يشتغلوا بذكره بل بذكر اللّه و دفعوا بالذّكر شرّ العدوّ و استضاءوا بنور الذّكر حتّى أبصروا خواطر العدوّ، فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجّر منها الماء الصافي، فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر و الّذي جمع بين ذكر الشيطان و بين ذكر اللّه قد نزح الماء القذر من جانب و لكنّه تركه جاريا إليها من جانب آخر فيطول تعبه و لا تجفّ البئر عن الماء القذر، و البصير هو الّذي جعل لمجري الماء القذر سدّا و ملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر و السدّ من غير كلفة و مئونة و زيادة تعب.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٨٢

(بيان الرّخصة في قصد إظهار الطّاعات)

اعلم أنّ في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص و النجاة من الرّياء و في الإظهار فائدة الاقتداء و ترغيب الناس في الخير و لكنّ فيه آفة الرّياء، قال بعض السلف:
قد علم المسلمون أنّ السرّ أحرز العملين و لكنّ في الإظهار أيضا فائدة و لذلك أثنى اللّه تعالى على السرّ و العلانية فقال:«إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي، و إن تخفوها و تؤتوها الفقراء فهو خير لكم» ٢: ٢٧١و الإظهار قسمان أحدهما في نفس العمل و الآخر في التحدّث بما عمل.
القسم الأوّل إظهار نفس العمل
كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها كماروي عن الأنصاريّالّذي جاء بالصرّة فتتابع الناس بالعطيّة لمّا رأوه، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من سنّ سنّة حسنة فعمل بها كان له أجرها و أجر من اتّبعه»

ثمّ تجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة و الصيام و الحجّ و الغزو و غيره، و لكنّ الاقتداء على الطباع في الصدقة أغلب، نعم الغازي إذا همّ بالخروج فاستعدّ و شدّ الرّحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لأنّ الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره فالمبادرة إليه ليس من الإعلان بل هو تحريض مجرّد، فكذلك الرّجل قد يرفع صوته في الصلاة باللّيل لينبّه جيرانه و أهله فيقتدى به فكلّ عمل لا يمكن إسراره كالحجّ و الجهاد و الجمعة فالأفضل المبادرة إليه و إظهار الرّغبة فيه للتحريض بشرط أن لا تكون فيه شوائب الرّياء، و أمّا ما يمكن إسراره كالصدقة و الصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدّق عليه و يرغّب الناس في الصدقة فالسرّ أفضل لأنّ الإيذاء حرام، فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم: السرّ أفضل من العلانية و إن كان في العلانية قدوة، و قال قوم:

السرّ أفضل من علانية لا قدوة فيها، أمّا العلانية للقدوة فهي أفضل من السرّ، و يدلّ على ذلك أنّ اللّه تعالى أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء و خصّهم بمنصب النبوّة

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٨٣

و لا يجوز أن يظنّ بهم أنّهم حرموا أفضل العملين و يدلّ عليهقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أجرها و أجر من عمل بها»

وقد روي في بعض الحديث:«إنّ عمل السرّ يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفا و يضاعف عمل العلانية إذا استنّ بعامله على عمل السرّ سبعين ضعفا» [١]

و هذا لا وجه للخلاف فيه فإنّه مهما انفكّ القلب عن شوائب الرّياء و تمّ الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدى به أفضل لا محالة و إنّما يخاف من ظهور الرّياء و مهما حصلت شائبة الرّياء لم ينفعه اقتداء غيره و هلك به فلا خلاف في أنّ السرّ أفضل منه.

و لكنّ على من يظهر العمل وظيفتان: إحداهما: أن يظهره حيث يعلم أنّه يقتدى به أو يظنّ ذلك ظنّا و ربّ رجل يقتدي به أهله دون جيرانه، و ربّما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق و ربّما يقتدي به أهل محلّته، و إنّما العالم المعروف هو الّذي يقتدي به الناس كافّة فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربّما نسب إلى الرّياء و النفاق و ذمّوه و لم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة فإنّما يصحّ الإظهار بنيّة القدوة ممّن هو في محلّ القدوة على من هو في محلّ الاقتداء به.

و الثانية أن يراقب قلبه فإنّه ربّما يكون فيه حبّ الرّياء الخفيّ فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء، و إنّما شهوتها التجمّل بالعمل و بكونه مقتدى به، و هذا حال كلّ من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين و قليل ما هم، فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك و هو لا يشعر، فإنّ الضعيف مثاله مثال الغريق الّذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى

جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتّى تشبثوا به فهلكوا و هلك و الغرق بالماء في الدّنيا ألمه ساعة و ليت كان الهلاك بالرّياء مثله

---

[١] أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصرا على الشطر الأول بنحوه و قال: هذا من افراد بقية عن شيوخه المجهولين و قد تقدم و له من حديث ابن عمر «عمل السر أفضل من عمل العلانية و العلانية أفضل لمن أراد الاقتداء» و قال قد تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران. و لهمن حديث عائشة«يفضل او يضاعف الذكر الخفى الذي لا يسمعه الحفظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفا»

و قال: تفرد به معاوية بن يحيى الصد في و هو ضعيف. (المغني)

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٨٤

لا بل عذابه مدّة مديدة و هذه مزلّة أقدام العبّاد و العلماء، فإنّهم يتشبّهون بالأقوياء في الإظهار و لا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرّياء و التفطّن لذلك غامض، و محك ذلك أن يعرض على نفسه أنّه لو قيل له: اخف العمل حتّى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك و يكون لك في السرّ مثل أجر الإعلان، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به و هو المظهر للعمل فباعثه الرّياء دون طلب الأجر و اقتداء الناس به و رغبتهم في الخير فإنّهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره و أجره قد توفّر عليه مع إسراره فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق و مراءاتهم، فليحذر العبد خدع النفس فإنّ النفس خدوعة و الشيطان مترصّد و حبّ الجاه على القلب غالب و قلّما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئا و السلامة في

الإخفاء، و في الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا فالحذر من الإظهار أولى بنا و بجميع الضعفاء.

القسم الثاني أن يتحدّث بما فعله بعد الفراغ

و حكمه حكم إظهار العمل نفسه و الخطر في هذا أشدّ لأنّ مئونة النطق خفيفة على اللّسان و قد تجري في الحكاية زيادة و مبالغة و للنفس لذّة في إظهار الدّعاوي عظيمة إلا أنّه لو تطرّق إليه الرّياء ثمّ يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون فالحكم فيه أنّ من قوي قلبه و تمّ إخلاصه و صغر الناس في عينه و استوى عنده مدحهم و ذمّهم و ذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به و الرّغبة في الخير بسببه فهو جائز بل مندوب إليه إن صفت النيّة و سلمت من جميع الآفات لأنّه ترغيب في الخير و الترغيب في الخير خير، و قد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء. فلا ينبغي أن يسدّ باب إظهار الأعمال، و الطباع مجبولة على التشبّه و الاقتداء بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنّه رياء فيه خير كثير للناس و لكنّه شرّ للمرائي فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند اللّه تعالى و قد روي أنّه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلّين بالقرآن من البيوت

فصنّف بعضهم كتابا في دقائق الرّياء فتركوا ذلك و ترك الناس الرّغبة فيه فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنّف. فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه، و إنّ اللّه يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر و بأقوام لا خلاق لهم كما ورد في الأخبار و بعض المرائين ممّن يقتدى به منهم.

(بيان الرّخصة في كتمان الذّنوب و كراهة اطّلاع) (الناس عليها و كراهة ذمّهم لها)

اعلم أنّ الأصل في الإخلاص استواء السّريرة و العلانية، كما قال بعضهم:

عليك بعمل العلانية قيل: و ما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطّلع عليك لم تستحي منه. و قال آخر: ما عملت عملا أبالي أن يطّلع الناس عليه إلا إتياني أهلي و البول و الغائط. إلا أنّ هذه درجة عظيمة لا ينالها كلّ أحد و لا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه و هو يخفيها و يكره اطّلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات و الأمأني و اللّه مطّلع على جميع ذلك، فإرادة العبد لإخفائه عن العبيد ربّما يظنّ أنّه رياء محظور، و ليس كذلك بل المحظور أن يستر ذلك ليرى الناس أنّه ورع و أنّه خائف من اللّه مع أنّه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي، أمّا الصادق الّذي لا يرائي فيجوز له ستر المعاصي، و يصحّ قصده فيه، و يصحّ اغتمامه باطّلاع الناس عليه من ثمانية أوجه:

الأوّل: هو أن يفرح بستر اللّه عليه

و إذا افتضح اغتمّ بهتك اللّه ستره و خاف أن يهتك ستره في القيامة إذورد في الخبر«أنّ من ستر اللّه عليه في الدّنيا ذنبا ستر عليه في الآخرة»

و هذا غمّ ينشأ من قوّة الإيمان.

الثاني: أنّه قد علم أنّ اللّه تعالى يكره ظهور المعاصي و يحبّ سترها

كما

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستره بستر اللّه تعالى»

فهو و إن عصى اللّه بالذّنب فلم يخل قلبه من محبّة ما أحبّه اللّه، و هذا ينشأ من قوّة الإيمان لكراهة اللّه لظهور

المعاصي، و أثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذّنب من غيره أيضا و يغتمّ بسببه.

الثالث أن يكره ذمّ الناس له

به من حيث إنّ ذلك يغمّه و يشتغل قلبه و عقله عن طاعة اللّه تعالى فإنّ الطبع يتأذّى بالذّمّ و ينازع العقل و يشتغل عن الطاعة و بهذه العلّة ينبغي أيضا أن يكره الحمد الّذي يشغله عن اللّه تعالى و يستغرق قلبه و يصرفه عن الذكر و هذا أيضا من قوّة الإيمان إذ صدق الرّغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان.

الرّابع: أن يكون ستره و رغبته فيه لكراهته لذمّ الناس

من حيث يتأذّى طبعه به فإنّ الذّمّ مؤلم للقلب كما أنّ الضرب مؤلم للبدن و تألّم القلب بالذّنب ليس بحرام و لا الإنسان به عاص، و إنّما يعصي إذا جزعت نفسه من ذمّ النّاس و دعته إلى ما لا يجوز حذرا من ذمّهم و ليس يجب على الإنسان أن لا يغتمّ بذمّ الخلق و لا يتألّم به نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامّه و مادحه لعلمه أنّ الضارّ و النافع هو اللّه و أن العباد كلّهم عاجزون، و ذلك قليل جدّا و أكثر الطباع تتألّم بالذّمّ لما فيه من الشعور بالنقصان، و ربّ تألّم بالذّمّ محمود إذا كان الذّامّ من أهل البصيرة في الدّين فإنّهم شهداء اللّه و ذمّهم يدلّ على ذمّ اللّه تعالى و على نقصان في الدّين فكيف لا يغتمّ به، نعم الغمّ المذموم و هو أن يغتمّ لفوات الحمد بالتورّع كأنّه يحبّ أن يحمد بالورع و لا يجوز أن يحبّ أن يحمد بطاعة اللّه فيكون قد طلب بطاعة اللّه ثوابا من غيره، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة و الرّدّ، و أمّا كراهة الذّمّ بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذرا من ذلك و يتصوّر أن يكون العبد بحيث

لا يحبّ الحمد و لكن يكره الذّمّ و إنّما مراده أن يتركه الناس حمدا و ذمّا فكم من صابر عن لذّة الحمد لا يصبر على ألم الذّمّ إذ الحمد بطلب اللّذّة و عدم اللّذّة لا يؤلم و أمّا الذّمّ فإنّه مؤلم، فحبّ الحمد على الطاعات طلب ثواب الطاعة في الحال، و أمّا كراهة الذّمّ على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد و هو أن يشغله غمّه باطّلاع الخلق على ذنبه عن اطّلاع اللّه، فإنّ ذلك غاية النقصان في الدّين، بل ينبغي أن يكون غمّه باطّلاع اللّه و ذمّه له أكثر. و قد يكره الذّمّ من حيث إنّ الذّامّ قد عصى اللّه تعالى به و هذا من الإيمان، و علامته أن يكره ذمّه لغيره أيضا، فهذا التوجّع لا يفرق بينه و بين غيره بخلاف التوجّع من جهة الطبع.

الخامس: أن يستر ذلك كيلا يقصد بشرّ

إذا عرف ذنبه و هذا وراء ألم الذّمّ فإنّ الذّمّ مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه و خسّته، و إن كان ممّن يؤمن شرّه، و قد يخاف شرّ من يطّلع على ذنبه بسبب من الأسباب فله أن يستر ذلك حذرا منه.

السادس: مجرّد الحياء

فإنّه نوع ألم وراء ألم الذّمّ و القصد بالشرّ، و الحياء هو خلق كريم يحدث في أوّل الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه و هو وصف محمود، إذقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«الحياء خير كلّه»

وقال:«الحياء شعبة من الإيمان».
وقال:«الحياء لا يأتي إلا بالخير».
وقال:«إنّ اللّه يحبّ الحييّ الحليم»

فالّذي يفسق و لا يبالي بأن يظهر فسقه للناس قد جمع إلى الفسق التهتّك و الوقاحة و فقد الحياء فهو أشدّ حالا ممّن يفسق فيستره و يستحي إلا أنّ الحياء ممتزج بالرّياء يشتبه به

اشتباها عظيما قلّ من يتفطّن له، و يدّعي كلّ مراء أنّه مستحي و أنّ سبب تحسينه للعبادات هو الحياء من

الناس، و ذلك كذب بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم و يهيج عقيبه داعية الرّياء و داعية الإخلاص و يتصوّر أن يخلص معه و يتصوّر أن يرائي معه، و بيانه أنّ الرّجل يطلب من صديقه قرضا و نفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنّه يستحي من ردّه و يعلم أنّه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي و لا يقرض رياء و لا لطلب ثواب فله عند ذلك أحوال: أحدها أن يشافه بالردّ الصريح و لا يبالي فينسب إلى قلّة الحياء، و هذا فعل من لا حياء له فإنّ المستحي إمّا أن يتعلّل أو يقرض، فإن أعطى فيتصوّر له ثلاثة أحوال: أحدها أن يمزج الرّياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الردّ فيهيج خاطر الرّياء، و يقول: ينبغي أن تعطي حتّى يثني عليك و يحمدك و ينشر اسمك بالسخاء، أو ينبغي أن تعطي حتّى لا يذمّك و لا ينسبك إلى البخل، فإذا أعطى على هذه الصفة فقد أعطى بالرّياء، و كان المحرّك للرّياء هو هيجان الحياء. الثاني أن يتعذّر عليه الردّ بالحياء و يبقى في نفسه البخل فيتعذّر الإعطاء فيهيج باعث الإخلاص و يقول له: إنّ الصدقة بواحدة و القرض بثمانية عشر ففيه أجر عظيم و إدخال السرور على قلب صديق و ذلك محمود عند اللّه فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص يهيج الحياء بإخلاصه. الثالث أن لا يكون له رغبة في الثواب و لا خوف من مذمّته و لا حبّ لمحمدته لأنّه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه، فأعطاه لمحض الحياء و هو ما يجده في قلبه من ألم الحياء و لولا الحياء لردّه و لو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يردّه و إن كثر الحمد و الثواب فيه فهذا مجرّد الحياء و لا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل و مقارفة الذنوب، و المرائي يستحي من المباحات أيضا حتّى

أنّه يرى مستعجلا في المشي فيعود إلى الهدوّ، أو ضاحكا فيرجع إلى الانقباض و يزعم أن ذلك حياء و هو عين الرّياء، و قد قيل: إنّ بعض الحياء ضعف و هو صحيح و المراد به الحياء ممّا ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس و إمامة الصلاة و هو في الصّبيان و النساء محمود و في العقلاء غير محمود، و قد يشاهد معصية من شيخ فيستحي من شيبته أن ينكر عليه لأنّ «من إجلال اللّه إجلال ذي الشيبة المسلم» و هذا الحياء حسن و أحسن منه

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٨٩

أن يستحي من اللّه فلا يضيع الأمر بالمعروف، و القويّ يؤثر الحياء من اللّه على الحياء من الناس و الضعيف قد لا يقدر عليه، فهذه هي الأسباب الّتي يجوز لأجلها ستر القبائح و الذّنوب.

السابع: أن يخاف من إظهار ذنبه سقوط وقع المعاصي من النفس

و جرأتها عليها، فإنّ النفس متى ألفت ظهور الذّنوب زاد انهماكها و استرسلت في شهواتها.

الثامن: أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيره و يقتدي به،

و هذه العلّة الواحدة هي الجارية في إظهار الطاعة و هي القدوة و يختصّ ذلك بالأئمّة أو بمن يقتدى به و بهذه العلّة ينبغي أن يخفي العاصي أيضا معصيته من أهله و ولده لأنّهم يتعلّمون منه.

ففي ستر الذّنوب هذه الأعذار الثمانية و ليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد، و مهما قصد بستر المعصية أن يخيّل إلى الناس أنّه ورع كان مرائيا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة.

فإن قلت: فهل يجوز للعبد أن يحبّ حمد الناس له بالصلاح و حبّهم إيّاه بسببه، وقد قال رجل للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله

و سلّم: دلّني على ما يحبّني اللّه عليه و يحبّني الناس قال: «ازهد في الدّنيا يحبّك اللّه و انبذ إليهم هذا الحطام يحبّوك»، فنقول:

حبّك لحبّ الناس لك قد يكون مباحا و قد يكون محمودا و قد يكون مذموما، فالمحمود أن تحبّ ذلك لتعرف به حبّ اللّه لك فإنّه تعالى إذا أحبّ عبدا حبّبه في قلوب عباده، و المذموم أن تحبّ حبّهم و حمدهم على حجّك و غزوك و صلاتك و على طاعة بعينها، فإنّ ذلك طلب عوض على طاعة اللّه عاجلا سوى ثواب اللّه، و المباح أن تحبّ أن يحبّوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعيّنة فحبّك ذلك كحبّك المال لأنّ ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٩٠

(بيان ترك الطاعات خوفا من الرّياء و دخول الافات)

اعلم أنّ من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به و ذلك غلط و موافقة للشيطان بل الحقّ فيما يترك من الأعمال و ما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره: و هو أنّ الطاعات تنقسم إلى ما لا لذّة في عينها كالصلاة و الصوم و الحجّ و الغزو فإنّها مقاساة و مجاهدات، و إنّما تصير لذيذة من حيث أنّها توصل إلى حمد الناس، و حمد الناس لذيذ، و ذلك عند اطّلاع الناس عليه و إلى ما هو لذيذ و هو أكثر ما لا يقتصر على البدن بل يتعلّق بالخلق كالخلافة و القضاء و الولايات و الحسبة و إمامة الصلاة و التذكير و التدريس و إنفاق المال على الخلق و غير ذلك ممّا تعظم الآفة فيه لتعلّقه بالخلق و لما فيه من اللّذّة.

القسم الأوّل: الطاعات اللازمة للبدن

الّتي لا تتعلّق بالغير و لا لذّة في عينها كالصلاة و الصوم و الحجّ فخطرات الرّياء فيها ثلاث:

إحداها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس و ليس معه باعث الدّين، فهذا ممّا ينبغي أن يترك لأنّه معصية لا طاعة فيه، فإنّه تذرّع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرّياء و سخت النفس و يقول لها: ألا تستحيينّ من مولاك لا تسخو بالعمل لاجله و تسخو بالعمل لأجل عباده حتّى يندفع باعث الرّياء و سخت النفس بالعمل للّه تعالى عقوبة للنفس على خاطر الرّياء و كفّارة عليه ليشتغل بالعمل.

الثانية أن ينبعث لأجل اللّه و لكن يعترض الرّياء مع عقد العبادة و أوّلها، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنّه وجد باعثا دينيّا فليشرع في العمل و ليجاهد نفسه في دفع الرّياء و تحصيل الإخلاص بالمعالجة الّتي ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرّياء و الإباء عن القبول.

الثالثة أن يعقد على الإخلاص ثمّ يطرأ الرّياء و دواعيه فينبغي أن يجاهد

في الدّفع و لا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص و يردّ نفسه إليه قهرا حتّى يتمّ العمل، لأنّ الشيطان يدعوك أوّلا إلى ترك العمل فإذا لم تجبه و اشتغلت فيدعوك إلى الرّياء فإذا لم تجب و دفعته بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص و أنت مراء و تعبك ضائع فأيّ فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه حتّى يحملك بذلك على ترك العمل، فإذا تركته فقد حصلت غرضه، و مثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيا كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها تراب و قال له: خلّصها من التراب و نقّها تنقية بالغة، فيترك أصل العمل و يقول: أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيّا، فترك العمل من أصله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل فلا معنى له، و من هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا له: إنّه مراء فيعصون اللّه به، فهذا من مكائد

الشيطان لأنّه أوّلا أساء الظنّ بالمسلمين و ما كان من حقّه أن يظنّ بهم ذلك، ثمّ إن كان فلا يضرّه قولهم و يفوته ثواب العبادة و ترك العمل خوفا من قولهم: «إنّه مراء» هو عين الرّياء فلولا حبّه لمحمدتهم و خوفه من ذمّهم فما له و لقولهم قالوا: إنّه مراء أو قالوا: إنّه مخلص، و أيّ فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال: إنّه مراء، و بين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال:

إنّه غافل مقصّر، بل ترك العمل أشدّ من ذلك، فهذه كلّها مكائد الشيطان على العبّاد الجهّال، ثمّ كيف يطمع في أن يتخلّص من الشيطان بأن يترك العمل و الشيطان لا يخليه بل يقول له الآن: يقول الناس: إنّك تركت العمل ليقال: إنّك مخلص لا يشتهي الشهرة فيضطرّك بذلك إلى أن تهرب فإن هربت و دخلت سربا تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لزهدك و هربك منهم و تعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك، فكيف تتخلّص بل لا نجاة منه إلا أن تلزم قلبك معرفة آفة الرّياء و هو أنّه ضرر في الآخرة و لا نفع فيه في الدّنيا لتلزم الكراهة و الإباء قلبك و تستمر مع ذلك على العمل و لا تبالي، و إن نزغ العدوّ نازغ الطبع، فإنّ ذلك لا ينقطع و ترك العمل لأجل ذلك يجرّ إلى البطالة و ترك الخيرات فما دمت تجد باعثا دينيّا على العمل فلا تترك العمل و جاهد خاطر الرّياء و ألزم قلبك الحياء من اللّه

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ١٩٢

إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين و هو مطّلع على قلبك، و لو اطّلع الخلق على قلبك و أنت تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربّك و عقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت مراء فاعلم كذبه لما تصادف قلبك من كراهة الرّياء و إبائه و خوفك منه و حيائك من اللّه، و إن لم تجد في قلبك له كراهية و منه خوفا و لم يبق باعث دينيّ بل تجرّد باعث الرّياء

فاترك العمل عند ذلك، و هو بعيد فمن شرع في العمل للّه تعالى فإنّه لابد أن يبقى معه أصل قصد الثواب.

فإن قلت: فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة.

قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممّن لا يحصى، و بالجملة ترك النوافل جائز و الكلام في الأفضل و الأفضل إنّما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء فالأفضل أن يتمّ العمل و يجتهد في الإخلاص و لا يتركه، و أرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدّة الخوف فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء.

القسم الثاني ما يتعلّق بالخلق

و تعظم فيه الآفات و الأخطار، أعظمها الخلافة ثمّ القضاء، ثمّ التذكير و التدريس و الفتوى، ثمّ إنفاق المال.

أمّا الخلافة و الإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كانت مع العدل و الإخلاص، وقد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرّجل وحده ستّين عاما»

فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستّين سنة.

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أوّل من يدخل الجنّة ثلاثة الإمام المقسط أحدهم».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ثلاثة لا تردّ دعوتهم الإمام العادل» منهم [١].

---

[١]أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٧٥٢«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الامام العادل، و الصائم حتى يفطر، و دعوة المظلوم يرفعها اللّه دون الغمام يوم القيامة... الحديث».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أقرب الناس منّي مجلسا يوم القيامة إمام عادل» [١]

أقول: لما كانت الخلافة عندنا إنّما تكون منصوصة من اللّه عزّ و جلّ مخصوصة بالإمام المعصوم المطهّر من الرّجز و شوائب النفس الّتي منها تهيج الرّياء و لا يدّعيها بعده إلا المشرك الّذي أحبط بشركه جميع أعمال برّه رأسا فلا حاجة بنا إلى الكلام فيها من حيث تطرّق الرّياء إليها فلنطوه، و قد نقل أبو حامد عن شيخيه في هذا المقام من القول و الفعل ما نقل.

قال: و أمّا القضاء فهو و إن كان دون الخلافة و الإمارة فهو في معناها، فإنّ كلّ ذي ولاية أمير أي له أمر نافذ، و الإمارة محبوبة بالطبع و الثواب في القضاء عظيم مع اتّباع الحقّ، و العقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحقّ.

وقد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«القضاة ثلاثة واحد في الجنّة و اثنان في النّار»

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من استقضى فقد ذبح بغير سكين» [٢]

فحكمه حكم الامارة ينبغي أن يتركه الضعفاء و كلّ من للدّنيا و لذّاتها وزن في عينه، و ليتقلّده الأقوياء الّذين لا تأخذهم في اللّه لومة لائم، و مهما كانت السلاطين ظلمة و لم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم و إهمال بعض الحقوق لأجلهم و لأجل المتعلّقين بهم، إذ يعلم أنّه لو حكم عليهم بالحقّ لعزلوه أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلّد القضاء، و إن تقلّده فعليه أن يطالبهم بالحقوق، و لا يكون خوف العزل عذرا مرخّصا له في الإهمال أصلا، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي للّه فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضي لاتّباع الهوى و الشيطان فكيف يرتقب عليه ثوابا و هو مع الظلمة في الدّرك الأسفل من النار.

[١]أخرجه الترمذي ج ٦ ص ٧٠ من حديث أبي سعيد الخدري هكذا:ان أحب الناس إلى اللّه يوم القيامة و ادناهم منه مجلسا امام عادل و ابغض الناس... الحديث».

[٢]أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٣٠٨ و فيه«من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين»من حديث أبي هريرة و أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٢٦٨.

أقول: و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن الصادق عليه السّلام قال:«اتّقوا الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء العادل في المسلمين لنبيّ أو وصيّ نبيّ» [١].

وعنه عليه السّلام قال:«قال أمير المؤمنين عليه السّلام لشريح: يا شريح قد جلست مجلسا لا يجلسه إلا نبيّ أو وصيّ نبيّ أو شقيّ» [٢].

وعنه عليه السّلام قال:«القضاة أربعة ثلاثة في النار و واحد في الجنّة: رجل قضى بجور و هو يعلم فهو في النار، و رجل قضى بجور و هو لا يعلم فهو في النار، و رجل قضى بالحقّ و هو لا يعلم فهو في النار، و رجل قضى بالحقّ و هو يعلم فهو في الجنّة».

قال أبو حامد: و أمّا الوعظ و الفتوى و التدريس و رواية الحديث و جمع الأسانيد العالية و كلّ ما يتّسع بسببه الجاه و يعظم به القدر فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولاية، و قد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا و كانوا يقولون: «حدّثنا» باب من أبواب الدّنيا. من قال: حدّثنا فقد قال:

أوسعوا لي.

أقول: و قد أسلفنا كلاما عن مولانا الصادق عليه السّلام في الفتوى في كتاب العلم من ربع العبادات.

---

[١] المصدر ج ٧ ص ٤٠٦ و قال العلامة المجلسي - رحمه اللّه -: لا يخفى أن هذه الاخبار تدل بظواهرها على عدم جواز القضاء لغير المعصوم عليه السّلام و لا ريب انهم عليهم السلام يبعثون القضاة إلى البلاد، فلا بد من حملها على ان القضاء بالاصالة لهم و لا يجوز لغيرهم تصدى ذلك الا باذنهم و كذا فيقوله في الخبر الاتى:«لا يجلسه الا نبي»

اى الا بالاصالة و الحاصل أن الحصر اضافى بالنسبة إلى من جلس فيها بغير إذنهم و نصبهم عليهم السلام.

[٢] المصدر ج ٧ ص ٤٠٦ و قال العلامة المجلسي - رحمه اللّه -: يحتمل أن يكون الغرض بيان صعوبة القضاء و انه لغير المعصوم غالبا يستلزم الشقاء او بيان أنه من زمن النبي صلّى اللّه عليه و آله إلى هذا الزمان ما جلس فيه الا هذه الثلاثة الاصناف و يؤيده ما في كتاب «من لا يحضره الفقيه» «ما جلسه».

قال: و الواعظ يجد في وعظه و تأثّر قلوب الناس به و تلاحق بكائهم و زعقاتهم و إقبالهم عليه لذّة لا توازيها لذّة فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كلّ كلام مزخرف يروّج به عند العوام و إن كان باطلا و يفرّ عن كلّ كلام يستثقله العوام و إن كان حقّا، و يصير مصروف الهمّة بالكلّيّة إلى ما يحرّك قلوب العوام و يعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثا و حكمة إلا و يكون فرحه به من حيث إنّه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر، و كان ينبغي أن يكون فرحه به من

حيث إنّه عرف طريق السعادة و طريق سلوك سبيل الدّين ليعمل به أوّلا، ثمّ يقول: إذا أنعم اللّه عليّ بهذه النعمة و نفعني بهذه الحكمة فأفيضها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون، فهذا ممّا يعظم فيه الخوف و الفتنة فحكمه حكم الولايات، فمن لا باعث له إلا طلب الجاه و المنزلة و الأكل بالدّين و التّفاخر و التكاثر، فينبغي أن يتركه و يخالف الهوى فيه إلى أن ترتاض نفسه و تقوى في الدّين منّته و يأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود إليه.

فإن قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطّلت العلوم و اندرست و عمّ الجهل كافّة الخلق؟ فنقول: قد نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن طلب الإمارة و توعّد عليها [١] حتّىقال:«إنّكم تحرصون على الإمارة و إنّها حسرة و ندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقّها، و قال: نعمت المرضعة و بئست الفاطمة» [٢]

و معلوم أنّ السلطنة و الإمارة و لو تعطّلت لبطل الدّين و الدّنيا جميعا و ثار القتال بين الخلق و زال الأمن و خربت البلاد و تعطّلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك، فأمّا قول القائل نهيك عن ذلك

---

[١]أخرج مسلم و البخاري ج ٩ ص ٧٩ باسنادهما عن عبد الرحمن بن سمرة قال:قال النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فإنك ان اعطيتها عن مسئلة وكلت إليها، و ان اعطيتها عن غير مسئلة اعنت عليها... الحديث»

.

[٢]أخرجه البخاري أيضا ج ٩ ص ٧٩ هكذا من حديث أبي هريرة«انكم ستحرصون على الامارة، و ستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة و بئست الفاطمة».

يؤدّي إلى اندراس العلم فهو غلط إذ نهي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن القضاء لم يؤدّ إلى تعطيل القضاء [١] بل الرّئاسة و حبّها يضطرّ الخلق إلى طلبها و كذلك حبّ الرّئاسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الناس و قيّدوا بالسلاسل و الأغلال عن طلب العلوم الّتي فيها القبول و الرّئاسة لأفلتوا من الحبس و قطعوا السلاسل و طلبوها و قد وعد اللّه تعالى أن يؤيّد هذا الدّين بأقوام لا خلاق لهم، فلا تشتغل قلبك بأمر الناس فإنّ اللّه لا يضيعهم، و انظر لنفسك، ثم إنّي أقول: مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم و إلا فيعلم أنّ كلّهم لا يمتنعون و لا يتركون لذّة الرّئاسة فإن لم يكن في البلد إلا واحد و كان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه و حسن سمته في الظاهر و تخييله إلى العوام أنّه إنّما يريد اللّه بوعظه و أنّه تارك للدّنيا و معرض عنها فلا نمنعه عنها و نقول له: اشتغل و جاهد نفسك، فإن قال: لست آمن على نفسي فنقول: اشتغل و جاهد لأنّا نعلم أنّه لو ترك ذلك لهلك الناس كلّهم إذ لا قائم به غيره، و لو واظب و غرضه الجاه فهو الهالك وحده و سلامة دين الجميع أحبّ عندنا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء للقوم و نقول: لعلّ هذا هو الّذيقال فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اللّه يؤيّد هذا الدّين بأقوام لا خلاق لهم»

ثمّ الواعظ هو الّذي يرغب في الآخرة و يزهد في الدّنيا بكلامه و بظاهر سيرته فأمّا ما أحدثه الوعّاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة و الألفاظ المسجّعة المقرونة بالأشعار ممّا ليس فيه تعظيم لأمر الدّين و لا تخويف للمسلمين بل فيه الترجية و التجرئة على المعاصي بطيّارات النكت فيجب

إخلاء البلاد منهم فإنّهم نوّاب الدّجّال و خلفاء الشيطان، و إنّما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حبّ القبول و لا يقصد غيره، و فيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حقّ علماء السوء ما يبين

---

[١] نهيه صلّى اللّه عليه و آله عن القضاءأخرجه مسلم ج ٦ ص ٧ من حديث أبيذر«لا تامرن على اثنين و لا تولين مال يتيم».

لزوم الحذر من فتن العلم و غوائله.

و لقد قال عيسى عليه السّلام: «يا علماء السوء تصومون و تصلّون و تتصدّقون، و لا تفعلون ما تؤمرون، و تدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول و الأماني و تعملون بالهوى و ما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم و قلوبكم دنسة، بحقّ أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدّقيق الطيّب و تبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم و يبقى الغل في صدوركم، يا عبيد الدّنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدّنيا شهوته، و لا تنقطع منها رغبته، بحقّ أقول لكم: إنّ قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدّنيا تحت ألسنتكم و العمل تحت أقدامكم، بحقّ أقول لكم: أفسدتم آخرتكم فصلاح الدّنيا أحبّ إليكم من صلاح الآخرة، فأي الناس أخسّ منكم لو تعلمون، ويلكم حتّى متى تصفون الطريق للمدلجين و تقيمون في محلّة المتحيّرين؟ كأنّكم تدعون أهل الدّنيا ليتركوها لكم، مهلا مهلا، ويلكم ما ذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره و جوفه وحش مظلم، كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم و

أجوافكم منه وحشة معطّلة، يا عبيد الدّنيا لا كعبيد أتقياء و لا كأحرار كرام، توشك الدّنيا أن تقلعكم عن اصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثمّ تكبّكم على مناخركم، ثمّ تأخذ خطاياكم بنواصيكم، يدفعكم العلم من خلفكم ثمّ يسلّمكم إلى الملك الدّيان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثمّ يجزيكم بسوء أفعالكم» و قد روى الحارث المحاسبيّ هذا الحديث في بعض كتبه [١].

ثمّ قال: هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس و فتنة على الناس، رغبوا في عرض الدّنيا و رفعتها، و آثروها على الآخرة و أذلّوا الدّين للدّنيا، فهم في العاجل عار و شين و في الآخرة هم الخاسرون.

---

[١] قد مر أنه رواه الحسن بن على بن شعبة الحرانى في تحف العقول بأدنى اختلاف و لم أجده في كتاب الرعاية لحقوق اللّه و الظاهر أنه منقول من كتاب آخر له - رحمه اللّه -.

(فصل) فإن قلت: فهذه الآفات ظاهرة

و لكن ورد في العلم و الوعظ رغائب كثيرة حتّىقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لأن يهدي اللّه بك رجلا خير لك من الدّنيا و ما فيها» [١.]

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أيّما داع دعا إلى هدى و اتّبع عليه كان له أجره و أجر من اتّبعه».

إلى غير ذلك من فضائل العلم، فينبغي أن يقال للعالم: اشتغل بالعلم و اترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرّياء في الصلاة: لا تترك العمل و لكن أتمم العمل و جاهد نفسك.

فاعلم أنّ فضل العلم كبير و خطره عظيم كفضل الخلافة و الإمارة و لا نقول لأحد من عباد اللّه: اترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة إنّما الآفة في إظهاره للتصدّي بالوعظ و

التدريس و رواية الأحاديث و لا نقول له أيضا: اتركه ما دام يجد من نفسه باعثا دينيّا ممزوجا بباعث الرّياء و أمّا إذا لم يحرّكه إلا الرّياء، فترك الإظهار أنفع له و أسلم و كذلك نوافل الصلوات إذا تجرّد فيها باعث الرّياء وجب تركها، امّا إذا خطر له وساوس الرّياء في أثناء الصلاة و هو له كاره فلا يترك الصلاة لأنّ آفة الرّياء في العبادات ضعيفة و إنّما تعظم في الولايات و في التصدّي للمناصب الكبيرة كالعلم. و بالجملة فالمراتب ثلاث:

الأولى: الولايات و الآفات فيها عظيمة و قد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة.

الثانية الصلاة و الصوم و الحجّ و الصدقة و قد تعرّض لها أقوياء السلف

---

[١]أخرجه البخاري ج ٦ ص ٢٣ من حديث سهل بن سعد ذيل حديث اعطائه (ص) الراية لعلى عليه السّلام و ساق الحديث إلى أن قال:«فقال على يا رسول اللّه اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: أنفذ على رسلك حتى ينزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام و أخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه فو اللّه لان يهدى اللّه بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم».

و ضعفاؤهم و لم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة و ذلك لضعف الآفة الدّاخلة فيها و القدرة على نفيها مع إتمام العمل للّه بأدنى قوّة.

المرتبة الثالثة: و هي متوسّطة بين الرّتبتين و هو التصدّي لمنصب الوعظ و الفتوى و الرّواية و التدريس و الآفات فيها

أقلّ ممّا في الولايات و أكثر ممّا في الصلاة، و الصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف و القوي و لكن يدفع خاطر الرّياء.

و الولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء و مناصب العلم بينهما و من جرّب آفات منصب العلم علم أنّها بالولايات أشبه و أنّ الحذر منها في حقّ الضعيف أسلم و اللّه أعلم.

و ههنا رتبة رابعة و هي جمع المال و أخذه للتفرقة على المستحقّين فإنّ في الإنفاق و إظهار السخاء استجلابا للثناء و في إدخال السّرور على قلوب الناس لذّة للنفس فالآفات فيها أيضا كثيرة.

و قد اختلف العلماء فقال قوم: إذا طلب الدّنيا من الحلال و سلم منه و تصدّق به فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات و النوافل لأنّه خير متعدّ كالنكاح، و قال قوم:

الجلوس في دوام ذكر اللّه أفضل و الأخذ و الإعطاء يشغل عن ذكر اللّه و قد قال عيسى عليه السّلام: «يا طالب الدّنيا لتبرّ بها، تركك لها أبرّ» و قال قوم: أقلّ ما فيه أنّه يشغله إصلاحه عن ذكر اللّه و ذكر اللّه أفضل و أكبر، و هذا فيمن سلم من الآفات فأمّا من يتعرّض لآفات الرّياء فتركه لها أبرّ و الاشتغال بالذّكر لا خلاف في أنّه أفضل.

و بالجملة ما يتعلّق بالخلق و للنفس فيه لذّة فهو مثار الآفات و الأحبّ أن يعمل و يدفع الآفات فإن عجز فلينظر و ليجتهد و ليستفت قلبه و ليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشرّ و ليفعل ما يدلّ عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع.

و بالجملة ما يجده أخفّ على قلبه فهو في الأكثر أضرّ عليه لأنّ النفس لا تستلذّ إلا بالشرّ و قلّما تستلذّ الخير و تميل إليه، و إن كان لا يبعد ذلك أيضا في بعض الأحوال، و هذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي و إثبات و هو موكول

إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه و يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، ثمّ قد يقع ممّا ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال و لا ينفقه خيفة من الآفة و هو عين البخل و لا خلاف في أنّ تفرقة المال في المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه و إنّما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أنّ الأفضل ترك الكسب و الإنفاق أو التجرّد للذكر أو الكسب من الحلال و إنفاقه في الخيرات و ذلك لما في الكسب من الآفات و أمّا المال الحاصل الحلال فتفرقته أفضل بكلّ حال من إمساكه.

فإن قلت: فبأيّ علامة يعرف العالم و الواعظ أنّه صادق مخلص في وعظه غير مريد رئاء الناس؟ فاعلم أنّ لذلك علامات إحداها أنّه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا و أغزر منه علما و الناس له أشدّ قبولا فرح به و لم يحسده، نعم لا بأس بالغبطة و هي أن يتمنّى لنفسه مثل علمه، و الأخرى أنّ الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغيّر كلامه بل يبقى كما كان عليه فينظر إلى الخلق بعين واحدة، و الأخرى أن لا يحبّ اتّباع الناس له في الطريق و المشي خلفه في الأسواق، و لذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها.

(بيان ما يصحّ من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق و ما لا يصحّ)

اعلم أنّ الرّجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجّد أو يقوم بعضهم فيصلّون اللّيل كلّه أو بعضه و هو ممّن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتّى يزيد على ما كان يعتاده أو يصلّي مع أنّه كان لا يعتادها أصلا، و كذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم و لولاهم لما انبعث هذا النشاط، فهذا ربّما يظنّ أنّه رياء و أنّ الواجب ترك الموافقة و ليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل، لأنّ كلّ مؤمن راغب في عبادة اللّه و في قيام اللّيل و صيام النهار، و لكن قد تعوقه

العوائق و تمنعه الأشغال، و يغلبه التمكّن من الشهوات، أو تستهويه الغفلة، فربّما يكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق و الأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرّجل

في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجّد مثل تمكّنه من النوم على فراش وثير أو تمكّنه من التمتّع بزوجته أو المحادثة مع أهله و أقاربه و الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل الّتي تفتر رغبته عن الخير و حصلت له أسباب باعثة على الخير لمشاهدته إيّاهم و قد أقبلوا على اللّه عزّ و جلّ و أعرضوا عن الدّنيا فانّه ينظر إليهم فينافسهم و يشقّ عليه أن يسبقوه بطاعة فتتحرّك داعيته للدّين لا للرّياء، أو ربّما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم، و في منزله ربّما يغلبه النوم و ربّما ينضاف إليه أنّه في منزله على الدّوام، و النفس لا تسمح بالتهجّد دائما و إنّما يسمح بالتهجّد وقتا قليلا فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق، و قد يعسر عليه الصوم في منزله و معه أطائب الأطعمة و يشقّ عليه الصبر عنها فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشقّ عليه الصوم فينبعث داعية الدّين للصوم فإنّ الشهوات الحاضرة عوائق و دوافع تغلب باعث الدّين، فإذا سلم منها قوي الباعث، فهذا و أمثاله من الأسباب يتصوّر وقوعه و يكون السبب فيه مشاهدة الناس و كونه معهم، و الشيطان عند ذلك ربّما يصدّ عن العمل و يقول: لا تعمل فإنّك تكون مرائيا إذ كنت لا تعمل في بيتك و لا تزد على صلاتك المعتادة، و قد تكون رغبته في الزّيادة لأجل رؤيتهم و خوفا من ذمّهم و نسبتهم إيّاه إلى الكسل، لا سيّما إذا كانوا يظنّون به أنّه يقوم اللّيل فإنّ نفسه لا تسمح بأن تسقط من

أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته و عند ذلك قد يقول الشيطان: صلّ فإنّك مخلص و لست تصلّي لأجلهم بل للّه، و إنّما كنت لا تصلّي كلّ ليلة لكثرة العوائق و إنّما داعيتك لزوال العوائق لا لاطّلاعهم و هذا أمر مشتبه، إلا على ذوي البصائر، فإذا عرف أنّ المحرّك هو الرّياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده و لا ركعة واحدة لأنّه يعصي اللّه بطلب محمدة الناس بطاعة اللّه تعالى، و إن كان انبعاثه لدفع العوائق و تحرّك الغبطة و المنافسة بسبب عبادتهم فليوافق، و علامة ذلك أن يعرض على نفسه أنّه لو رأى هؤلاء يصلّون من

حيث لا يرونه بل من وراء حجاب و هو في ذلك الموضع بعينه هل كانت تسخو نفسه بالصلاة و هم لا يرونه، فإن سخت نفسه بها فليصلّ فإنّ باعثه الحقّ، و إن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك، فإنّ باعثه الرّياء.

و كذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كلّ يوم، و يمكن أن يكون ذلك لحبّ حمدهم، و يمكن أن يكون سبب تحرّك نشاطه بسبب نشاطهم و زوال غفلته بسبب إقبالهم على اللّه تعالى، و قد يتحرّك بذلك باعث الدّين و يقارنه نزوع النفس إلى حبّ الحمد، فمهما علم أنّ الغالب على قلبه إرادة الدّين فلا ينبغي أن يترك العمل لما يجده من حبّ الحمد، بل ينبغي أن يردّ ذلك على نفسه بالكراهة و يشتغل بالعبادة، و كذلك قد تبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفا من اللّه لا من الرّياء و لو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى و لكن بكاء الناس يؤثّر في ترقيق القلب، و قد لا يحضره البكاء فيتباكي تارة للرّياء و تارة مع الصدق إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يبكون فلا تدمع عينه فيتباكي تكلّفا، و ذلك محمود و علامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنّه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه

هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكي أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنّما خوفه من أن يقال: إنّه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي.

قال لقمان عليه السّلام لابنه: لا تري الناس أنّك تخشى اللّه ليكرموك و قلبك فاجر.

و كذلك الصيحة و التنفّس و الأنين عند القرآن أو الذّكر أو بعض مجاري الأحوال تارة تكون من الصدق و الحزن و الخوف و الندم و التأسّف و تارة تكون بمشاهدة حزن غيره و قساوة قلبه فيتكلّف التنفّس و الأنين و يتحازن و ذلك محمود، و قد تقترن به الرّغبة فيه لدلالته على أنّه كثير الحزن ليعرف بذلك فإن تجرّدت هذه الدّاعية فهي الرّياء و إن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها و لم يقبلها و كرهها سلم بكاؤه و تباكيه، و إن قبل ذلك و ركن إليه بقلبه حبط أجره و ضاع سعيه و تعرّض لسخط اللّه به، و قد يكون أصل الأنين من الحزن و لكن يمدّه و يزيد

في رفع الصوت فتلك الزّيادة من الرّياء و هو محظور لأنّها في حكم الابتداء لمجرّد الرّياء، فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه و لكن يسبقه خاطر الرّياء فيقبله فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتّى تبصر بعد أن استرسلت لخشية اللّه، و لكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرّياء. و كذلك قد يسمع الذّكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط، ثمّ يستحيي أن يقال له: إنّه سقط من غير زوال عقل و حالة شديدة، فيزعق و يتواجد تكلّفا ليري أنّه سقط لكونه مغشيّا عليه و قد يكون ابتداء السقوط عن صدق و قد يزول عقله فيسقط و لكن يفيق سريعا فتجزع نفسه أن يقال: حالته غير ثابتة، و إنّما هي كبرق خاطف فيستديم الزّعقة و الرّفض ليري دوام حاله، و كذلك قد يفيق بعد الضعف و لكن يزول ضعفه سريعا فيجزع أن يقال:

لم تكن غشيته صحيحة و لو كانت لدام ضعفه، فيستديم إظهار الضعف و الأنين فيتّكئ على غيره حالة المشي يري أنّه يضعف عن القيام و يتمايل في المشي و يقرب الخطا ليظهر أنّه ضعف عن سرعة المشي، فهذه كلّها مكيدة الشيطان و نزغات النفس. فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكّر أنّ الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن و اطّلعوا على ضميره لمقتوه و إنّ اللّه مطّلع على ضميره و هو له أشدّ مقتا، كما روي عن ذي النون أنّه قام و زعق، فقام معه شيخ فرأى فيه أثر التكلّف فقال: يا شيخ اذكر الّذي يراك حين تقوم، فجلس الشيخ، و كلّ ذلك من أعمال المنافقين وقد جاء في الخبر «تعوّذوا باللّه من خشوع النفاق»

و إنّما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح و القلب غير خاشع. و من ذلك الاستغفار و الاستعاذة باللّه من عذابه و غضبه فإنّ ذلك قد يكون لخاطر خوف و تذكّر ذنب و تندّم عليه و قد يكون للمراءات. فهذه خواطر ترد على القلب متضادّة مترادفة متقاربة، و هي مع تقاربها متشابهة، فراقب قلبك في كلّ ما يخطر لك و انظر ما هو و من أين هو؟ فان كان للّه فامضه، و احذر مع ذلك أن

يكون قد خفي عليك شيء من الرّياء الّذي هو كدبيب النمل، و كن على وجل من عبادتك أ هي مقبولة أم لا، لخوفك على الإخلاص فيها، و احذر أن يتجدّد لك خاطر الرّكون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإنّ ذلك ممّا يكثر جدّا، فإذا خطر لك فتفكّر في اطّلاع اللّه عليك و مقته لك، و تذكّر ما قاله أحد الثلاثة النفر الّذين حاجّوا أيّوب إذ قالوا: يا أيّوب أما علمت أنّ العبد تضلّ عنه علانيته الّتي كان يخادع بها عن نفسه و يجزى بسريرته، و قول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أنّي أخشاك و أنت لي ماقت. وكان من دعاء عليّ بن

الحسين عليهما السّلام:«اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي و تقبح لك فيما أخلو سريرتي محافظا على رئاء الناس من نفسي، و مضيّعا لما أنت مطّلع عليه منّي، أبدي للناس أحسن أمري و افضي إليك بأسوء عملي، تقرّبا إلى الناس بحسناتي، و فرارا منهم إليك بسيّئاتي فيحلّ بي مقتك، و يجب عليّ غضبك، أعذني من ذلك يا ربّ العالمين»

و قد قال أحد الثلاثة نفر لأيّوب عليه السّلام: يا أيّوب ألم تعلم أنّ الّذين حفظوا علانيتهم و أضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرّحمن تسودّ وجوههم بالردّ. فهذه جمل آفات الرّياء فليراقب العبد قلبه ليقف عليها،و في الخبر«أنّ للرّياء سبعين بابا» [١]

و قد عرفت أنّ بعضه أغمض من بعض حتّى أنّ بعضه مثل دبيب النمل، و بعضه أخفى من دبيب النمل، و كيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل، إلا بشدة المراقبة و التفقّد، و ليس يدرك إلا بعد بذل المجهود فكيف يطمع في إدراكه

---

[١] قال العراقي: هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا و كانه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه «الرياء» بالمثناة و انما هو «الربا» بالموحدة و المرسوم كتابته بالواو، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ«الربا سبعون حوبا أيسرها أن ينكح الرجل أمه»

و في اسناده أبو معشر و اسمه نجيح مختلف فيه، وروى ابن ماجه أيضا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى اللّه عليه و آله قال:«الربا ثلاثة و سبعون بابا»

و اسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ«الربا بضع و سبعون بابا و الشرك مثل ذلك»

و هذه الزيادة قد يستدل بها على أنه «الرياء» بالمثناة لاقترانه مع الشرك. و اللّه أعلم.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٠٥

من غير تفقّد للقلب و امتحان للنفس و تفتيش عن خدعها؟

(بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم قلبه قبل العمل و بعده و فيه)

اعلم أنّ أولى ما يلزم المريد قلبه في ساير أوقاته القناعة بعلم اللّه في جميع طاعاته، و لا يقنع بعلم اللّه إلا من لا يخاف إلا اللّه و لا يرجو إلا اللّه، فأمّا من خاف غيره و ارتجاه اشتهى اطّلاعه على محاسن أحواله، فإن كان في هذه الرّتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل و الإيمان لما فيه من خطر التعرّض للمقت و ليراقب قلبه عند الطاعات العظيمة الشاقّة الّتي لا يقدر عليها غيره فإنّ النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصا على الإفشاء و تقول: مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك فما في الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلّك، و ينكرون قدرك، و يحرمون الاقتداء بك؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه و يتذكّر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة و نعيم الجنّة و دوامها أبد الآباد و عظم غضب اللّه و مقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده، و يعلم أنّ إظهاره لغيره محبّب إليه و سقوط عند اللّه و إحباط للعمل العظيم، فيقول: و كيف أبيع هذا العمل بحمد الخلق و هم عاجزون لا يقدرون لي على رزق و لا أجل، فيلزم ذلك قلبه و لا ينبغي أن ييأس عنه فيقول:

إنّما يقدر على الإخلاص الأقوياء فأمّا المخلطون فليس ذلك من شأنّهم فيترك المجاهدة في الإخلاص، لأنّ المخلط إلى

ذلك أحوج من المتّقي، لأنّ المتّقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامّة، و المخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان و الحاجة إلى الجبران بالنوافل فإن لم تسلم صار مأخوذا بالفرائض و هلك به، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج، وقد روى تميم الدّاريّ عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال:«يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل: انظروا هل له من تطوّع، فإن كان له تطوّع أكمل به فرضه، و إن لم يكن له تطوّع أخذ بطرفيه فالقي في النار»

فيأتي المخلط يوم القيامة و فرضه ناقص و عليه ذنوب كثيرة، فاجتهاده في

جبر الفرائض و تكفير السيّئات و لا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل، و أمّا المتّقي فجهده في زيادة الدّرجات فإن حبط تطوّعه بقي من حسناته ما يترجّح به على سيّئاته فيدخل الجنّة.

فإذن ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطّلاع غير اللّه عليه لتصحّ نوافله، ثمّ يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتّى لا يتحدّث به و لا يظهره، فإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلا من عمله خائفا أنّه ربّما داخله من الرّياء الخفيّ ما لم يقف عليه فيكون شاكّا في قبوله و ردّه، مجوّزا أن يكون اللّه قد أحصى عليه من نيّته الخفيّة ما مقته بها و ردّ عمله بسببها و يكون هذا الشكّ و الخوف في دوام عمله و بعده إلا في ابتداء العقد، بل ينبغي أن يكون متيقّنا في الابتداء أنّه مخلص ما يريد بعمله إلا اللّه حتّى يصحّ عمله فإذا شرع و مضت لحظة يمكن فيها الغفلة و النسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفيّة أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به، و لكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنّه استيقن أنّه دخل بالإخلاص و شكّ في

أنّه هل أفسده برياء؟ فيكون رجاء القبول أغلب، و بذلك تعظم لذّته في المناجاة و الطاعات.

فالإخلاص: يقين، و الرّياء: شك. و خوفه لأجل ذلك الشكّ أجدر بأن يكفر خاطر الرّياء إن كان قد سبق و هو غافل عنه.

و الّذي يتقرّب إلى اللّه بالسعي في حوائج الناس و إفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط، و رجاء الثواب على عمل المتعلّم بعلمه فقطّ، دون شكر و مكافأة و حمد و ثناء من المتعلّم و المنعم عليه، فإنّ ذلك يحبط الأجر. فمهما توقّع من المتعلّم مساعدة في شغل و خدمة، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه، أو تردّدا منه في حاجته فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره، نعم إن لم يتوقّع هو و لم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه الّذي علّمه ليكون له مثل أجره و لكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره و لا يريده منه و لا يستبعده منه لو قطعه، و مع هذا فقد كان العلماء يحذرون ذلك حتّى أنّ بعضهم وقع في بئر فجاء

قوم و أدلوا حبلا ليرفعوه فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من كتاب اللّه أو سمع منه حديثا خيفة من أن يحبط ذلك أجره. فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من اللّه في اهتداء الناس به فقط و يجب على المتعلّم أن يلزم قلبه طلب حمد اللّه تعالى و ثوابه و نيل المنزلة عنده لا عند المعلّم و عند الخلق، و ربّما يظنّ أنّ له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلّم رتبة فيتعلّم منه و هو خطأ لأنّ إرادته غير اللّه بطاعته خسران في الحال، و العلم ربّما يفيده و ربّما لا يفيده، فكيف يخسر في الحال عملا نقدا على توهّم علم و ذلك غير جايز، بل ينبغي أن يتعلّم للّه تعالى و يعبد

للّه تعالى و يخدم المعلّم للّه لا يكون له في قلبه منزلة إن كان يريد أن يكون تعلّمه طاعة، فإنّ العباد أمروا بأن لا يعبدوا إلا اللّه و لا يريدوا بطاعتهم غيره، و كذلك كلّ من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إنّ رضا اللّه في رضا الوالدين و لا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإنّ ذلك معصية في الحال و سيكشف اللّه تعالى عن ريائه و تسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا.

و أمّا الزّاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر اللّه و القناعة بعلمه، و لا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده و استعظامهم محلّه، فإنّ ذلك يغرس الرّياء في صدره حتّى تتيسّر عليه العبادات في خلوته به، و إنّما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله و استعظامهم لمحلّه، و هو لا يدري أنّه المخفّف للعمل عليه.

و قال إبراهيم بن أدهم: تعلّمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سمعان منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ فقال: منذ سبعين سنة فقلت: فما طعامك؟ فقال: يا حنيفي و ما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم، قال: في كلّ ليلة حمّصة، قلت: فما الّذي يهيج في قلبك حتّى تكفيك هذه الحمّصة؟ قال: ترى الدّير الّذي بحذائك؟ قلت: نعم قال: إنّهم يأتوني في كلّ سنة يوما واحدا فيزيّنون صومعتي و يطوفون حولها و يعظّموني، فكلّما تثاقلت نفسى عن العبادة ذكرتها عزّ تلك الساعة فأنا أحتمل جهد سنة لعزّ ساعة،

فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعزّ الأبد، فوقر في قلبي المعرفة، فقال: حسبك أو أزيدك؟ فقلت: بلى قال: أنزل عن الصومعة فنزلت فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمّصة، فقال لي: ادخل إلى الدّير فقد رأوا ما أدليت إليك فلمّا دخلت الدّير

اجتمعت النصارى عليّ فقالوا: يا حنيفي ما الّذي أدلى إليك الشيخ قلت: من قوته قالوا: و ما تصنع به و نحن أحقّ به ثمّ قالوا: ساوم، قلت: عشرون دينارا، فأعطوني عشرين دينارا، فرجعت إلى الشيخ فقال: يا حنيفي ما الّذي صنعت؟ قلت: بعته منهم، قال: بكم؟ قلت: بعشرين دينارا، قال: أخطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك، هذا عزّ من لا تعبده فانظر كيف يكون عزّ من تعبده؟ يا حنيفي أقبل على ربّك ودع الذّهاب و الجيئة.

المقصود أنّ استشعار النفس عزّ العظمة في القلوب يكون باعثا في الخلوة، و قد لا يشعر العبد به، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه، و علامة سلامته أن يكون الخلق عنده و البهائم بمثابة واحدة فلو تغيّروا له من اعتقادهم له لم يجزع و لم يضق به ذرعا إلا كراهية ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردّها في الحال بعقله و إيمانه فإنّه لو كان في عبادة فاطّلع الناس كلّهم عليه لم يزده ذلك خشوعا، و لم يداخله سرور بسبب اطّلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه و لكن إذا قدر على ردّه بكراهة العقل و الإيمان و بادر إلى ذلك و لم يقبل ذلك السّرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع و الانقباض كيلا ينبسطوا إليه، فذلك لا بأس به و لكن فيه غرور إذ النفس قد تكون شهوتها الخفيّة إظهار الخشوع و تتعلّل بطلب الانقباض، فليطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من اللّه غليظ و هو أنّه لو علم أنّ انقباضهم عنه إنّما حصل بأن يعدو كثيرا أو يضحك كثيرا أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك، فإذا لم تسمح به و سمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم و لا ينجو من ذلك إلا من تقرّر في قلبه أنّه ليس في الوجود أحد سوى اللّه تعالى، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشقّ عليه إزالتها، فإذا كان كذلك لم يتغيّر بمشاهدة

الخلق، و من علامات الصدق فيه أنّه لو كان له صاحبان أحدهما غنيّ و الآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغنيّ زيادة هزّة في نفسه لإكرامه إلا إذا كان في الغنيّ زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له لذلك الوصف لا بالغنى، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طمّاع و إلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في رغبة الآخرة و يحبّب إلى القلب المسكنة، و النظر إلى الأغنياء بخلافه، فكيف استروح إلى الغنيّ أكثر ممّا استروح إلى الفقير، نعم لك زيادة إكرام الغنيّ إذا كان أقرب إليك أو كان بينك و بينه حقّ و صداقة سابقة، و لكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدّم الغنيّ عليه في إكرام و توقير البتّة، فإنّ الفقير أكرم على اللّه من الغنيّ، فإيثارك له لا يكون إلا طمعا في غناه و رياء له، ثمّ إذا سوّيت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة و الخشوع للغنيّ أكثر ممّا تظهره للفقير، و إنّما ذلك لرياء خفيّ أو طمع خفيّ كما قال ابن السماك لجارية له: مالي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة، قالت: الطمع يشحذ لسانك. و قد صدقت فإنّ اللّسان ينطلق عند الغنيّ بما لا ينطلق به عند الفقير، و كذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير، و مكائد النفس و خفاياها في هذا الفنّ لا تنحصر، و لا ينجيك منها إلا بأن تخرج ما سوى اللّه من قلبك، و تتجرّد بالشفقة على نفسك بقيّة عمرك، و لا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغّصة في أيّام متقاربة منقضية، و تكون في الدّنيا كملك من ملوك الدّنيا قد أمكنته الشهوات و ساعدته اللّذّات، و لكن في بدنه سقم و هو يخاف الهلاك على نفسه في كلّ ساعة لو اتّسع في الشهوات و علم أنّه لو احتمى و جاهد شهوته عاش و دام ملكه، فلمّا عرف ذلك جالس الأطبّاء و حارف الصيادلة، و عوّد نفسه شرب الأدوية المرّة فصبر على بشاعتها و هجر جميع اللّذّات و صبر على

مفارقتها، فبدنه كلّ يوم يزداد نحو لا لقلّة أكله، و لكن سقمه كلّ يوم يزداد نقصانا لكثرة

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢١٠

احتمائه، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكّر في توالي الآلام و الأوجاع عليه و أدّاه ذلك إلى الموت المفرّق بينه و بين مملكته الموجب لشماتة أعدائه به و مهما اشتدّ عليه شرب دواء تفكّر فيما يستفيده منه من الشفاء الّذي هو سبب التمتّع بملكه و نعيمه في عيش هنيء و بدن صحيح و قلب رخيّ و أمر نافذ، فيخفّ عليه مهاجرة اللّذّات و مصابرة المكروهات. فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كلّ مهلك له في آخرته و هي لذّات الدّنيا و زهرتها فاجتزي منها بالقليل و اختار الذّبول و النحول و الوحشة و الحزن و الخوف و ترك المؤانسة بالخلق جميعا خوفا من أن يحلّ عليه غضب من اللّه فيهلك و رجاء أن ينجو من عذابه، فخفّ ذلك كلّه عليه عند شدّة يقينه و إيمانه بعاقبة أمره و بما أعدّ له من النعيم المقيم في رضوان اللّه أبد الآباد، ثمّ علم أنّ اللّه رحيم لم يزل بعباده المريدين لمرضاته عونا و بهم رءوفا و عليهم عطوفا، و لو شاء لأغناهم عن التّعب و النصب، و لكن أراد أن يبلوهم و يعرف صدق إرادتهم حكمة منه و عدلا، ثمّ إذا تحمّل التعب في بدايته أقبل اللّه عليه بالمعونة و التيسير و حطّ عنه الإعياء و سهّل عليه الصبر، و حبّب إليه الطّاعة و زرقه فيها من لذّة المناجاة ما يلهيه ذلك عن سائر اللّذّات و يقوّيه على إماتة الشهوات و يتولّى سياسته و تقويته و أمدّه بمعونته فإنّ الكريم لا يضيّع سعي الرّاجي و لا يخيب أمل المحبّ، و هو الّذي يقول:«من تقرّب إليّ شبرا تقرّبت إليه ذراعا» و يقول:

«لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي و إنّي إلى لقائهم لأشدّ شوقا»

فليظهر العبد في البداية جدّه و صدقه و إخلاصه فلا يعوزه من اللّه تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده و كرمه و رأفته و رحمته و للّه الحمد و المنّة.
هذا آخر كتاب ذمّ الجاه و الرّياء من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء.
و يتلوه إن شاء اللّه تعالى كتاب ذمّ الكبر و العجب و الحمد للّه أوّلا و آخرا.

كتاب ذمّ الكبر و العجب
و هو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء.
بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الحمد للّه الخالق البارئ المصوّر العزيز الكبير الجبّار المتكبّر العليّ الّذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبّار الّذي كلّ جيّار له ذليل خاضع، و كلّ متكبّر في جناب عزّه مسكين متواضع، فهو القاهر الّذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغنيّ الّذي ليس له في ملكه شريك و لا منازع، القادر الّذي بهر أبصار الخلايق جلاله و بهاؤه، و قهر العرش المجيد استواؤه و استعلاؤه و استيلاؤه، و حصر ألسن النبيّين وصفه و ثناؤه، و ارتفع عن حدّ قدرتهم احصاؤه و استقصاؤه، فاعترف بالعجز عن صفة كنه جلاله ملائكته و أنبياؤه، و كسر ظهور الأكاسرة عزّه و علاؤه، و قصر أيدي القياصرة عظمته و كبرياؤه، فالعظمة إزاره و الكبرياء رداؤه، و من نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه، جلّ جلاله، و تقدّست أسماؤه.
و الصّلاة على محمّد الّذي انزل معه النور المنتشر ضياؤه، حتّى أشرقت بنوره أكناف العالم و أرجاؤه، و على آله و أصحابه الّذين هم أحبّاء اللّه و أولياؤه، و خيرته و أصفياؤه، و سلّم تسليما كثيرا.

أمّا بعدفقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يقول اللّه تعالى: العظمة إزاري و الكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، و هوى متّبع، و إعجاب المرء

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢١٢

بنفسه»

فالكبر و العجب داءان مهلكان، و المتكبّر و المعجب سقيمان مريضان، و هما عند اللّه ممقوتان بغيضان.

و إذا كان القصد في هذا الرّبع من الكتاب شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر و العجب فإنّهما من قبائح المرديات، و نحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين:

شطر في الكبر، و شطر في العجب إن شاء اللّه تعالى.

الشطر الأوّل من الكتاب في الكبر،

و فيه بيان ذمّ الكبر، و بيان ذمّ الاختيال، و بيان فضيلة التواضع، و بيان حقيقة التكبّر و آفته، و بيان من يتكبّر عليه، و درجات الكبر، و بيان ما به الكبر، و بيان البواعث على التكبّر، و بيان أخلاق المتواضعين و ما فيه يظهر الكبر، و بيان علاج الكبر، و بيان امتحان النّفس في خلق الكبر، و بيان المحمود من خلق التواضع و المذموم منه.

(بيان ذمّ الكبر)

قد ذمّ اللّه تعالى الكبر في مواضع من كتابه و ذمّ كلّ جبّار متكبّر فقال تعالى:«سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ» ٧: ١٤٦.

و قال تعالى:«كذلك يطبع اللّه على كلّ قلب متكبّر جبّار» ٤٠: ٣٥.

و قال تعالى:«و استفتحوا و خاب كلّ جبّار عنيد» ١٤: ١٥.

و قال تعالى:«إنّه لا يحبّ المستكبرين» ١٦: ٢٣.

وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر، و لا يدخل النّار من كان في قلبه مثقال حبّة من إيمان».

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢١٣

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يقول اللّه تعالى: الكبرياء ردائي و العظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنّم و لا أبالي»

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يزال الرّجل يذهب بنفسه حتّى يكتب في الجبّارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب».

و قال سليمان بن داود عليهما السّلام يوما للطّير و الجنّ و الإنس و البهائم: «اخرجوا فخرجوا في مائتي ألف من الإنس و مائتي ألف من الجنّ، فرفع حتّى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السّماوات ثمّ خفض حتّى مسّت قدماه في البحر فسمع صوتا يقول: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرّة من كبر لخسفت به أبعد ممّا رفعته».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يخرج من النار عنق له أذنان يسمعان و عينان يبصران و لسان ينطق يقول: وكّلت بثلاثة: بكلّ جبّار عنيد، و بكلّ من دعا مع اللّه إلها آخر، و بالمصوّرين».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يدخل الجنّة جبّار و لا بخيل و لا سيّئ الملكة».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«تحاجّت الجنّة و النّار، فقالت النّار: اوثرت بالمتكبّرين و المتجبّرين، و قالت الجنّة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس و سقاطهم و عجزتهم، فقال اللّه تعالى للجنّة: إنّما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، و قال للنّار:

إنّما أنت عذابي اعذّب بك من أشاء و لكلّ واحدة منكما ملؤها».
وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«بئس العبد عبد تجبّر و اعتدى و نسي الجبّار الأعلى، بئس

العبد عبد تجبّر و اختال و نسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل و سها و لها و نسي المقابر و البلى، بئس العبد عبد عتا و بغى و نسي المبتدأ و المنتهى».
وعن ثابت أنّه قال:بلغنا أنّه قيل: يا رسول اللّه ما أعظم كبر فلان، فقال:
«أ ليس بعده الموت».
وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أنّ نوحا لمّا حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال: إنّي آمر كما باثنتين و أنها كما عن الشرك و الكبر، و آمر كما بلا إله إلا اللّه؟ فإنّ السماوات و الأرضين و ما فيهنّ لو وضعت في كفّة الميزان و وضعت «لا إله إلا اللّه» في الكفّة الأخرى لكانت أرجح منهما و لو أنّ السّماوات و الأرضين و ما فيهنّ كانتا حلقة فوضعت «لا إله إلا اللّه» عليها لقصمتها، و آمر كما بسبحان اللّه و بحمده فإنّهما صلاة كلّ شيء و بها يرزق كلّ شيء».
و قال عيسى عليه السّلام: «طوبى لمن علّمه اللّه كتابه ثمّ لم يمت جبّارا».
وقال نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أهل النّار كلّ جعظريّ و كلّ جوّاظ مستكبر جمّاع منّاع، و أهل الجنّة الضّعفاء المقلّون» [١].
وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ أحبّكم إلينا و أقربكم منّا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا، و إنّ أبغضكم إلينا و أبعدكم منّا في الآخرة الثرثارون المتشدّقون المتفيهقون، قالوا: يا رسول اللّه قد علمنا الثرثارين المتشدّقين، فمن المتفيهقون؟ قال:

المتكبّرون».

---

[۱] أخرجه الحاكم ج ۱ ص ٦١ من حديث سراقة بن مالك بسند صحيح بتقديم و تأخير و فيه «المغلوبون» مكان «المقلون» و دون ذكر «جماع مناع». و الجعظرى: الغليظ المتكبر «النهاية).

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢١٥

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يحشر المتكبّرون يوم القيامة في مثل صور الذّرّ تطؤهم الناس ذرّا في مثل صور الرّجال يعلوهم كلّ شيء من الصّغار ثمّ يساقون إلى سجن في جهنّم يقال له: بولس، يعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال و عصارة أهل النّار».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«يحشر الجبّارون المتكبّرون يوم القيامة في صور الذّرّ يطؤهم النّاس لهوانهم على اللّه تعالى».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«أنّ في جهنّم واديا يقال له: هبهب، حقّ على اللّه سبحانه أن يسكن فيه كلّ جبّار».

وعنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ في النّار قصرا يجعل فيه المتكبّرون و يطبق عليهم» [۱].

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«اللّهمّ إنّي أعوذ بك من نفخة الكبرياء» [۲].

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من فارق روحه جسده و هو بريء من ثلاث دخل الجنّة:

الكبر، و الدّين، و الغلول» [۳].

و سئل سلمان عن السيّئة الّتي لا تنفع معها حسنة فقال: الكبر.

---

[١] قال العراقي: أخرجه البيهقي في شعب الايمان من حديث أنس و قال: «توابيت» مكان «قصرا» و قال: «فيقفل» مكان «يطبق» و فيه أبان بن أبي عياش و هو ضعيف.
[٢] ما عثرت على أصل له الا على ما أخرجه ابن ماجه في كتاب (اقامة الصلاة باب الاستعاذة في الصلاة) رقم ٨٠٧في حديث:«اللهمّ انى أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همزه و نفخه و نفثه».

و قال عمرو: همزه الموتة، و نفثه الشعر، و نفخه الكبر. انتهى، و الموتة نوع من الجنون و الصرع يعترى الإنسان، فإذا أفاق عاد إليه كمال العقل كالسكران.
[٣] أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٤١٢ من حديث ثوبان. أقول: قال العراقي: رواه ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدار قطنى قال: انما هو الكنز (بالنون و الزاي) مكان «الكبر» و كذلك أيضا ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير «و الذين يكنزون الذهب و الفضة.»

أقول:

و من طريق الخاصّة

ماروى في الكافي عن أبي جعفر عليه السّلام قال:«الكبر رداء اللّه و المتكبّر ينازع اللّه رداءه».

وعنه عليه السّلام:«العزّ رداء اللّه و الكبر إزاره، فمن تناول شيئا منه أكبّه اللّه في جهنّم».

وعنه، و عن أبي عبد اللّه عليهما السّلام قالا:«لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر».

وعن محمّد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السّلام قال:«لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من الكبر، قال: فاسترجعت فقال: مالك تسترجع؟ قلت: لما سمعت منك،

فقال: ليس حيث تذهب إنّما أعني الجحود، إنّما هو الجحود».

وعن أبي عبد اللّه عليه السّلام قال:«الكبر أن تغمص النّاس و تسفه الحقّ».

وعنه عليه السّلام قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنّ أعظم الكبر غمص الخلق و سفه الحقّ، قال: قلت: ما غمص الخلق و سفه الحقّ؟ قال: يجهل الحقّ و يطعن على أهله، فمن فعل ذلك فقد نازع اللّه رداءه».

وعنه عليه السّلام قال:«إنّ في جهنّم لواديا للمتكبّرين يقال له: سقر، شكا إلى اللّه شدّة حرّه و سأله أن يأذن له أن يتنفّس، فتنفّس فأحرق جهنّم».

وعنه عليه السّلام قال:«إنّ المتكبّرين يجعلون في صور الذّرّ يتوطّأهم الناس حتّى يفرغ اللّه من الحساب».

وعن عمر بن يزيد قال:قلت لأبي عبد اللّه عليه السّلام: إنّني آكل الطعام الطيّب و أشمّ الرّيح الطيّبة و أركب الدّابّة الفارهة و يتبعني الغلام فترى في هذا شيئا

من التجبّر فلا أفعله؟ فأطرق أبو عبد اللّه عليه السّلام ثمّ قال: «إنّما الجبّار الملعون من غمص الناس و جهل الحقّ» قال عمر: فقلت: أمّا الحقّ فلا أجهله و الغمص لا أدري ما هو؟ قال: «من حقّر الناس و تجبّر عليهم فذلك الجبّار».

وعنه عليه السّلام قال:«إنّ يوسف عليه السّلام لمّا قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السّلام دخله عزّ الملك فلم ينزل إليه فهبط عليه جبرئيل فقال: يا يوسف أبسط راحتك فخرج منها نور ساطع فصار في جوّ السّماء فقال يوسف: يا جبرئيل ما هذا النور الّذي خرج من راحتي؟ قال: نزعت النبوّة من عقبك عقوبة لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبيّ» [١].

وعنه عليه السّلام قال:«ما من عبد إلا و في رأسه حكمة و ملك يمسكها فإذا تكبّر قال له: اتّضع وضعك اللّه، فلا يزال أعظم الناس في نفسه و هو أصغر الناس في أعين النّاس، فإذا تواضع رفعها اللّه ثمّ قال له: انتعش نعشك اللّه فلا يزال أصغر الناس في نفسه و أرفع الناس في أعين الناس».

وعنه عليه السّلام قال:«ما من أحد يتيه إلا من ذلّة يجدها في نفسه»

وفي لفظ

---

[١] الكافي ج ٢ ص ٣١١ تحت رقم ١٥. و النزول اما عن الدابة او عن السرير و كلاهما مرويان و ينبغي حمله على أن ما دخله لم يكن تكبرا و تحقيرا لوالده لكون الأنبياء منزهين عن أمثال ذلك، بل راعى فيه المصلحة لحفظ عزّته عند عامّة الناس لتمكنه من سياسة الخلق و ترويج الدين إذ كان نزول الملك عندهم لغيره موجبا لذله و كان رعاية الادب للاب مع نبوّته و مقاساة الشدائد لحبّه أهم و أولى من رعاية تلك المصلحة، فكان هذا منه عليه السّلام تركا للأولى، فلذا عوتب عليه و خرج نور النبوة من صلبه، لانّهم لرفعة شأنهم و علو درجتهم يعاتبون بأدنى شيء، فهذا كان شبيها بالتكبر و لم يكن تكبرا، و قوله: «فصار إلى جو السماء» أى استقر هناك أو ارتفع إلى السماء. قاله العلامة المجلسي - رحمه اللّه - في مرآة العقول.

آخر«ما من أحد تكبّر أو تجبّر إلا لذلّة وجدها في نفسه» [١].

وعن أبي جعفر عليه السّلام قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:ثلاثة لا يكلّمهم اللّه و لا ينظر إليهم يوم

القيامة و لا يزكّيهم و لهم عذاب أليم: شيخ زان و ملك جبّار و مقلّ مختال».

(بيان ذم الاختيال و إظهار آثار الكبر في المشي و جر الثياب)

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا ينظر اللّه إلى رجل يجرّ إزاره بطرا».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«بينما رجل يتبختر في بردته و قد أعجبته نفسه خسف اللّه به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر اللّه إليه يوم القيامة».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إذا مشت امّتي المطيطاء و خدمتهم فارس و الرّوم سلّط اللّه بعضهم على بعض»

قال ابن الأعرابيّ: هي مشية فيها اختيال.

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من تعظّم في نفسه و اختال في مشيته لقى اللّه و هو عليه غضبان».

و روي أنّ عمر بن عبد العزيز حجّ قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس و هو

---

[۱] المصدر ج ۲ ص ۳۱۲ تحت رقم ۱۷ و المعنى واضح اى ما تكبر من الناس أحد الا من أيقن بضعف أو ذلة كامنة في نفسه و لذلك يتكبر لكي يجبرها و يدفع عن نفسه تلك الخسة و الذلّة و يحتمل أن يكون اللام لام الصيرورة أو الذلّة سبب للتكبر.

يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثمّ قال: ليست هذه مشية من في بطنه خرء فقال عمر: كالمعتذر يا عمّ لقد ضرب كلّ عضو منّي على هذه المشية حتّى تعلّمتها.

و يروى أنّ مطرف بن عبد اللّه بن الشخيّر رأى المهلّب و هو يتبختر في جبّة خزّ، فقال له: يا عبد اللّه هذه مشية يبغضها اللّه و رسوله، فقال له المهلّب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك أوّلك نطفة مذرة و آخرك جيفة قذرة، و تحمل بين جنبيك العذرة، فمضى المهلّب و ترك مشيته تلك.

و قال مجاهد في قوله تعالى:«ثمّ ذهب إلى أهله يتمطّى»أي يتبختر.

و إذ ذكرنا ذمّ الكبر و الاختيال فلنذكر فضيلة التواضع.

(بيان فضيلة التواضع)

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ما زاد اللّه عبدا بعفو إلا عزّا، و ما تواضع أحد للّه إلا رفعه اللّه».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ما من أحد إلا و معه ملكان و عليه حكمة يمسكانه بها، فإن هو رفع نفسه جبذاها ثمّ قالا: اللّهمّ ضعه، و إن وضع نفسه قالا: اللّهمّ ارفعه» [١]

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، و أنفق مالا جمعه من غير معصية، و رحم أهل الذّلّة و المسكنة، و خالط أهل الفقه و الحكمة».

وعن أبي سلمة المديني، عن أبيه، عن جدّه قال:كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عندنا بقباء و كان صائما فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن و جعلنا فيه شيئا من عسل فلمّا رفعه فذاقه وجد فيه حلاوة العسل، فقال: ما هذا؟ قلنا: يا رسول اللّه جعلنا فيه شيئا

---

[١] قال العراقي: أخرجه العقيلي في الضعفاء و البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة و أيضا من حديث ابن عباس و كلاهما ضعيف انتهى، أقول: و رواه الطبراني و البزار بنحوه

من حديث أبي هريرة و اسنادهما حسن كما في الترغيب للمنذرى ج ٣ ص ٥٦١. و مر عن الكافي آنفا بسند حسن.

من عسل، فوضعه، و قال: أما إنّي لا احرّمه، و من تواضع للّه رفعه اللّه، و من تكبّر وضعه اللّه، و من اقتصد أغناه اللّه، و من بذّر أفقره اللّه، و من أكثر ذكر اللّه أحبّه اللّه» [١].

ورويأنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب و به زمانة ننكره بها، فأذن له فلمّا دخل أجلسه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على فخذه ثمّ قال له: اطعم، و كان رجل من قريش اشمأزّ منه و يكرهه فما مات ذلك الرّجل حتّى كانت به زمانة مثلها.

وقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«خيّرني ربّي بين أمرين: أكون عبدا رسولا أو ملكا نبيّا فلم أدر أيّهما أختار و كان صفيّي من الملائكة جبرئيل فرفعت رأسي فقال: تواضع لربّك فقلت: عبدا رسولا».

و أوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السّلام: «إنّما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، و لم يتعاظم على خلقي، و ألزم قلبه خوفي و قطع النهار بذكري و كفّ نفسه عن الشهوات من أجلي».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«الكرم النقوى، و الشرف التواضع، و اليقين الغنى».

و قال عيسى عليه السّلام: «طوبى للمتواضعين في الدّنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدّنيا هم الّذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهّرة قلوبهم في الدّنيا هم الّذين ينظرون إلى اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة».

[۱] أخرجه البزار من رواية طلحة بن عبيد اللّه عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه الا قوله «و من أكثر ذكر اللّه أحبه اللّه» و لم يقل بقباء. قال الذهبي انه خبر منكر (المغني) و أخرجه الكليني ج ۲ ص ۱۲۳.

وقال بعضهم: بلغني أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«إذا هدى اللّه عبدا للإسلام و حسّن صورته و جعله في موضع غير شائن له و رزقه مع ذلك تواضعا فذلك من صفوة اللّه».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أربع لا يعطيهنّ اللّه إلا من يحبّ: الصمت و هو أوّل العبادة و التوكّل على اللّه، و التواضع، و الزّهد في الدّنيا» [۱].

وقال ابن عبّاس: قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إذا تواضع العبد رفعه اللّه إلى السّماء السابعة».

وقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم اللّه» [۲].

ورويأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «كان يطعم فجاء رجل أسود به جدريّ قد تقشّر فجعل لا يجلس إلى جنب أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى جنبه» [۳].

---

[۱] ما عثرت على أصل له نعمروى الحاكم و الطبراني من حديث أنس«أربع لا يصبن الا بعجب: الصمت و هو اوّل العبادة، و التواضع، و ذكر اللّه، و قلة الشيء»

و صحّحه الحاكم لكن أورده المقدسي في تذكرة الموضوعات و قال: هو من كلام الحسن البصرى و فيه العوام بن جويرية و قال ابن حبان: يروى الموضوعات.

[٢] كذا و أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب و فيه«يرفعكم اللّه»

و هكذا رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٢١.

[٣] تقدم أن العراقي قال: لم أجده هكذا و المعروف أكله مع المجذوم رواه أبو داود و الترمذي و قال غريب و ابن ماجه من حديث جابر، و الجدرى - بالضم - و الفتح لغة فيه - ما يقال له بالفارسية: آبله و هو بثور يظهر على البدن لدفع من الطبيعة المدبرة لبدن الإنسان فضلات طمثية منبثة في البدن عن اغتذائه بها و لذلك قيل: ان هذا المرض لابد أن يعرض لكل شخص غير أن تلك الفضلات تبقى في البدن إلى حين يحصل المحرك فينهض القوة الدافعة لدفعها و من الناس من يجدر مرتين و لذلك عند من لم يقو الطبيعة على دفع المادة في سن الصبي بل يبقى شيء منها ثم يتفق أسباب مسخنة مرطبة فيحرك المادة و يحرك الطبيعة لدفعها مرة ثانية (بحر الجواهر).

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّه ليعجبني أن يحمل الرّجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأصحابه:«مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة، قالوا: و ما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إذا رأيتم المتواضعين من امّتي فتواضعوا لهم، و إذا رأيتم المتكبّرين فتكبّروا عليهم فإنّ ذلك لهم مذلّة و صغار».

أقول:

و من طريق الخاصّة

مارواه في الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السّلام قال:«أرسل النجاشيّ إلى جعفر بن أبي طالب [١] و أصحابه قد خلوا عليه و هو في بيت له جالس على التراب و عليه خلقان الثياب، قال: فقال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلمّا رأى ما بنا و تغيّر وجوهنا قال: الحمد للّه الّذي نصر محمّدا و أقرّ عينه، ألا أبشّركم؟ فقلت: بلى أيّها الملك فقال: إنّه جاءني الساعة من نحو أرضكم عين من عيوني هناك فأخبرني أنّ اللّه تعالى قد نصر نبيّه محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهلك عدّوه و أسر فلان و فلان التقوا بواد يقال له: بدر، كثير الأراك لكأنّي أنظر إليه حيث كنت أرعى لسيّدي هناك و هو رجل من بني ضمرة فقال له جعفر: أيّها الملك فما لي أراك جالسا على التراب و عليك هذه الخلقان؟ فقال: يا جعفر إنّا نجد فيما أنزل اللّه على عيسى عليه السّلام أنّ من حقّ اللّه تعالى على عباده أن يحدثوا له تواضعا عندما

---

[١] النجاشي بفتح النون و تخفيف الجيم المعجمة لقب ملك الحبشة و المراد هنا الذي أسلم و آمن بالنبي (ص) و اسمه اصخمة بن بحر، أسلم قبل الفتح و مات قبله صلى عليه النبي (ص) لما جاءه خبر موته. و جعفر بن أبي طالب هو أخو أمير المؤمنين عليه السّلام و كان أكبر منه بعشر سنين و هو من كبار الصحابة و من الشهداء الأولين و هو صاحب الهجرتين الحبشة و هجرة المدينة و استشهد يوم مؤتة سنة ثمان و له إحدى و أربعون سنة فوجد فيما أقبل من جسده تسعون ضربة ما بين طعنة برمح و ضربة بسيف و قطعت يداه في الحرب فأعطاه اللّه جناحين يطير بهما في الجنة فلقب ذا الجناحين.

يحدث لهم من نعمة، فلمّا أحدث اللّه لي نعمة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحدثت للّه هذا التواضع، فلمّا بلغ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: إنّ الصدقة تزيد صاحبها كثرة فتصدّقوا يرحمكم اللّه، و إنّ التواضع يزيد صاحبه رفعة فتواضعوا يرفعكم اللّه، و إنّ العفو يزيد صاحبه عزّا فاعفوا يعزّكم اللّه».

وعنه عليه السّلام:«إنّ في السماء ملكين موكّلين بالعباد فمن تواضع رفعاه، و من تكبّر وضعاه».

وعنه عليه السّلام قال:أفطر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عشيّة خميس في مسجد قباء فقال:

هل من شراب فأتاه اوس بن خولي الأنصاريّ بعسّ مخيض بعسل، فلمّا وضعه على فيه نحّاه ثمّ قال: شرابان يكتفي بأحدهما من صاحبه لا أشربه و لا احرّمه و لكن أتواضع للّه فإنّه من تواضع للّه رفعه اللّه، و من تكبّر خفضه اللّه، و من اقتصد في معيشته رزقه اللّه، و من بذّر حرمه اللّه، و من أكثر ذكر الموت أحبّه اللّه».

وفي رواية«من أكثر ذكر اللّه أظلّه اللّه في جنّته».

وعن أبي جعفر عليه السّلام«أنّه أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ملك فقال: إنّ اللّه تعالى يخيّرك أن تكون عبدا رسولا أو ملكا رسولا - قال: فنظر إلى جبرئيل عليه السّلام أومأ بيده أن تواضع - فقال: عبدا رسولا، فقال الرّسول: مع أنّه لا ينقصك ممّا عند ربّك شيئا قال: و معه مفاتيح خزائن الأرض» [١].

وعن أبي عبد اللّه عليه السّلام قال:«أوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السّلام أنّ يا موسى

[١] يعنى قال أبو جعفر عليه السّلام: و كان مع الملك عند تبليغ هذه الرسالة المفاتيح و يحتمل أن يكون ضمير «قال» راجعا إلى الملك و مفعول القول محذوفا، و الواو في قوله «و معه» للحال اى قال ذلك و معه المفاتيح، و قيل: راجع إلى الرسول اى قال صلّى اللّه عليه و آله:

لا أقبل و ان كان معه المفاتيح و لا يخفى ما فيه. و الخبر في الكافي ج ٢ ص ١٢٢.

أ تدري لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا ربّ و لم ذاك؟ قال: فأوحى اللّه تعالى إليه يا موسى إنّي قلبت لعبادي ظهرا لبطن فلم أجد فيهم أحدا أذلّ لي نفسا منك، يا موسى إنّك إذا صلّيت وضعت خدّك على التّراب - أو قال: على الأرض».

وعنه عليه السّلام قال:«مرّ عليّ بن الحسين عليه السّلام على المجذمين و هو راكب حماره و هم يتغدون، فدعوه إلى الغداء، فقال: أما إنّي لولا أنّي صائم لفعلت، فلمّا صار إلى منزله أمر بطعام فصنع و أمر أن يتنوّقوا فيه، ثمّ دعاهم فتغدّوا عنده و تغدّى معهم».

وعنه عليه السّلام«أنّه نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئا و هو يحمله فلمّا رآه الرّجل استحيي منه فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام: اشتريته لعيالك و حملته إليهم، أما و اللّه لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشيء ثمّ أحمله إليهم».

وعنه عليه السّلام قال:«فيما أوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السّلام يا داود كما أقرب الناس إلى اللّه المتواضعون كذلك أبعد النّاس من اللّه المتكبّرون».

وعنه عليه السّلام«من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، و أن تسلّم على من تلقى، و أن تترك المراء و إن كنت محقّا، و لا تحبّ أن تحمد على التقوى».

وعنه عليه السّلام«إنّ من التواضع أن يجلس الرّجل دون شرفه».

وعن أبي بصير قال:دخلت على أبي الحسن موسى عليه السّلام في السنّة الّتي قبض فيها أبو عبد اللّه عليه السّلام فقلت له: جعلت فداك ذبحت كبشا و نحر فلان بدنة فقال:

«يا أبا محمّد إنّ نوحا كان في السّفينة و كان فيها ما شاء اللّه و كانت السفينة مأمورة فطافت البيت و هو طواف النّساء و خلّى سبيلها نوح فأوحى اللّه تعالى إلى الجبال أنّي واضع سفينة نوح عبدي على جبل منكنّ فتطاولت و شمخت و تواضع الجودي

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٢٥

و هو جبل عندكم فضربت السّفينة بجؤجؤها الجبل قال: فقال نوح عند ذلك: «يا ماري أتقن» و هو بالسّريانيّة ربّ أصلح، قال فظننت: أنّ أبا الحسن عليه السّلام عرّض بنفسه» [١].

وعن أبي الحسن عليه السّلام قال:«التواضع أن تعطي النّاس ما تحبّ أن تعطاه»

وفي حديث آخر قال:«التّواضع درجات: منها أن يعرف الرّجل قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحبّ أن يأتي إلى أحد إلا مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيّئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ، عاف عن النّاس، و اللّه يحبّ المحسنين».

وفي كتاب مصباح الشريعة قال الصّادق عليه السّلام:«التواضع أصل كلّ شرف نفيس و مرتبة رفيعة و لو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقايق ما في مخفيّات العواقب، و التواضع ما يكون للّه و في اللّه و ما سواه مكر، و من تواضع للّه شرّفه اللّه على كثير من عباده، و لأهل التّواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة و أهل الأرض من العارفين، قال اللّه عزّ و جلّ:و على الأعراف رجالٌ يعرفون كلا بسيماهم» ٧: ٤٦و أصل

التواضع من إجلال اللّه و هيبته و عظمته و ليس للّه عزّ و جلّ عبادة يرضاها و يقبلها إلا و بابها التواضع و لا يعرف ما في حقيقة التواضع إلا المقرّبون من عباده المتّصلين بوحدانيّته، قال اللّه عزّ و جلّ:و عِبادُ الرَّحمن الّذين يمشون على الأرض هونا و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» ٢٥: ٦٣و قد أمر اللّه عزّ و جلّ خير خلقه و سيّد بريّته محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال عزّ و جلّ:«و اخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين» ٢٦: ٢١٥و التواضع مزرعة الخشوع و الخضوع و الخشية و الحياء، و إنّهنّ

---

[١] يعنى أراد بهذه الحكاية أن يتبين أنه انما تواضع بذبح الشاة دون أن ينحر البدنة ليجبر اللّه تواضعه ذلك بالرفعة في قدره في الدنيا و الاخرة كما قاله المؤلف في الوافي، و الخبر مروى في الكافي ج ٢ ص ١٢٤.

لا يأتين إلا منها و لا يسلم الشّرف التامّ الحقيقيّ إلا للمتواضع في ذات اللّه تعالى».

وفي تفسير الإمام أبي محمّد الحسن بن عليّ العسكريّ عليهما السّلام«أعرف الناس بحقوق إخوانه و أشدّهم قضاء لهم أعظمهم عند اللّه شأنا، و من تواضع في الدّنيا لإخوانه فهو عند اللّه من الصّدّيقين و من شيعة عليّ بن أبي طالب عليه السّلام حقّا».

وقيل:ورد على أمير المؤمنين عليه السّلام إخوان له مؤمنان أب و ابن فقام إليهما و أكرمهما و أجلسهما في صدر مجلسه و جلس بين أيديهما ثمّ أمر بطعام فاحضر فأكلا منه ثمّ جاء قنبر بطست و إبريق خشب و منديل لييبس و ماء ليصبّ على يد الرّجل فوثب أمير المؤمنين عليه السّلام و أخذ

الإبريق ليصبّ على يد الرّجل فتمرّغ الرّجل في التراب و قال: يا أمير المؤمنين اللّه يراني و أنت تصبّ على يدي قال: اقعد و اغسل فإنّ اللّه عزّ و جلّ يراك و أخوك الّذي لا يتميّز منك و لا يتفضّل عليك يريد بذلك في خدمته في الجنّة مثل عشرة أضعاف أهل الدّنيا و على حسب ذلك في مماليكه فيها، فقعد الرّجل فقال عليّ عليه السّلام: أقسمت عليك بعظيم حقّي الّذي عرفته و بجلّته و تواضعك للّه تعالى حتّى جازاك عنه بأن ندبني لما شرّفك به من خدمتي لك لمّا غسلت مطمئنا كما كنت تفعل لو كان الصّابّ عليك قنبر، ففعل الرّجل ذلك فلمّا فرغ ناول الإبريق محمّد بن الحنفيّة، و قال: يا بنيّ لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده و لكنّ اللّه عزّ و جلّ يأبى أن يساوي بين ابن و أبيه إذا جمعهما مكان لكن قد صبّ الأب على الأب فليصبّ الابن على الابن، فصبّ محمّد بن الحنفيّة على الابن، قال الحسن بن عليّ عليهما السّلام فمن اتّبع عليّا عليه السّلام فهو الشّيعي حقّا

فصل قال أبو حامد: الآثار:

سئل الفضيل عن التواضع فقال: هو أن تخضع للحقّ و تنقاد له و لو سمعته من صبيّ قبلته منه و لو سمعته من أجهل الناس قبلته منه.

و قال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدّنيا حتّى تعلمه أنّه ليس لك عليه بدنياك فضل و أن ترفع نفسك عمّن هو فوقك في

الدّنيا حتّى تعلمه أنّه ليس له بدنياه عليك فضل.

و قال قتادة: من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثمّ لم يتواضع فيه كان عليه و بالا يوم القيامة.

و قيل: أوحى اللّه تعالى إلى عيسى عليه السّلام: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلتها بالاستكانة أتممتها عليك.

و كان سليمان بن داود عليهما السّلام إذا أصبح تصفّح وجوه الأغنياء و الأشراف حتّى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم و يقول: مسكين مع مساكين.

و قال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدّون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة.

و قيل: أرفع ما يكون العبد المؤمن عند اللّه أوضع ما يكون عند نفسه و أوضع ما يكون عند اللّه أرفع ما يكون عند نفسه.

و عن أبي الفتح بن شخرف قال: رأيت عليّ بن أبي طالب عليه السّلام في المنام فقلت له:

يا أبا الحسن عظني فقال: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب اللّه تعالى و أحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم باللّه عزّ و جلّ.

و قال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتّى يعرف نفسه.

و قال أبو يزيد: ما دام العبد يظنّ أنّ في الخلق من هو شرّ منه فهو متكبّر، فقيل: متى يكون متواضعا؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقاما و لا حالا، و تواضع كلّ إنسان على قدر معرفته بربّه عزّ و جلّ و معرفته بنفسه.

و قال عروة بن الورد: التواضع أحد مصايد الشرف، و كلّ نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع.

و قال يحيى بن خالد البرمكيّ: الشريف إذا تنسّك تواضع و السفيه إذا تنسّك تعاظم.

و قال يحيى بن معاذ: التكبّر على ذوي التكبّر عليك بماله تواضع.

و يقال: التواضع في الخلق كلّهم حسن و في الأغنياء أحسن، و التكبّر في

الخلق كلّهم قبيح و في الفقراء أقبح.

و يقال: لا عزّ إلا لمن تذلّل للّه عزّ و جلّ و لا رفعة إلا لمن تواضع للّه، و لا أمن إلا لمن خاف اللّه، و لا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من اللّه عزّ و جلّ.

و عن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكّة بين الصفا و المروة فرأيت رجلا راكبا بغلة و بين يديه غلمان و إذا هم يعنّفون الناس، قال: ثمّ عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت يوما على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه و أتأمّله فقال لي: مالك تنظر إليّ؟ فقلت له: شبّهتك برجل رأيته بمكّة و وصفت له الصفة، فقال: أنا ذلك الرّجل، فقلت: ما فعل اللّه بك؟ فقال: إنّي ترفّعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني اللّه حيث يترفّع فيه الناس.

و تفاخرت قريش عند سلمان - رضي اللّه عنه - يوما فقال سلمان: لكنّني خلقت من نطفة قذرة ثمّ أعود جيفة منتنة ثمّ آتي الميزان فإن ثقل فأنا كريم و إن خفّ فأنا لئيم.

(بيان حقيقة الكبر و آفته)

اعلم أنّ الكبر ينقسم إلى ظاهر و باطن و الباطن هو خلق في النفس و الظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح و اسم الكبر بالخلق الباطن أحقّ، و أمّا الأعمال فإنّها ثمرات لذلك الخلق و خلق الكبر موجب للأعمال و لذلك إذا ظهر على الجوارح يقال:

تكبّر و إذا لم يظهر يقال: في نفسه كبر، فالأصل هو الخلق الّذي في النفس و هو الاسترواح و الرّكون إلى رؤية النّفس فوق المتكبّر عليه فإنّ الكبر يستدعي متكبّرا عليه و متكبّرا به، و به ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي فإنّ العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصوّر أن يكون معجبا و لا يتصوّر أن يكون متكبّرا إلا أن يكون مع غيره و هو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبّرا و لا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبّرا فإنّه قد يستعظم نفسه و لكن يرى غيره أعظم

من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبّر عليه و لا يكفي أن يستحقر غيره فإنّه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبّر و لو

رأى غيره مثل نفسه لم يتكبّر بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة و لغيره مرتبة، ثمّ يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره [١]، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر لا أنّ هذه الرؤية هي الكبر بل هذه الرّؤية و هذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد و هزّة و فرح و ركون إلى ما اعتقده، و عزّ في نفسه بسبب ذلك فتلك العزّة و الهزّة و الرّكون إلى المعتقد هو خلق الكبر، و لذلكقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أعوذ بك من نفخة الكبرياء»

و لذلك قال بعض خلفاء النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أخشى أن تنتفخ حتّى تبلغ الثريّا. للّذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصّبح. و كأنّ الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين و هو الاستعظام كبر و انتفخ و تعزّز، فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، و تسمّى أيضا عزّة و تعظّما، و لذلك قال ابن عبّاس في قوله تعالى:إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ٤٠: ٥٦فقال: عظمة لم يبلغوها ففسّر الكبر بتلك العظمة ثمّ هذه العزّة تقتضي أعمالا في الظاهر و الباطن هي ثمراته و يسمّى ذلك تكبّرا فإنّه مهما عظم عنده قدر نفسه بالإضافة إلى غيره حقّر من دونه و ازدرأه و أقصاه عن نفسه و أبعده و ترفّع عن مجالسته و مواكلته و رأى أنّ حقّه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتدّ كبره، فإن كان كبره أشدّ من ذلك استنكف عن استخدامه و لم يجعله أهلا للقيام بين يديه و لا لخدمة عتبته فإن كان دون ذلك فيأنف من مساواته، و يتقدّم عليه في مضائق الطرق، و ارتفع عليه في المحافل، و انتظر أن يبدأه بالسّلام، و استبعد إن قصّر في قضاء حوائجه، و تعجّب منه، و إن حاجّ أو

ناظر أنف أن يردّ عليه، و إن وعظ استنكف من القبول، و إن وعظ عنف في النّصح، و إن ردّ عليه شيء من قوله غضب، و إن علّم لم يرفق بالمتعلّمين و استذلّهم و انتهرهم و امتنّ عليهم و استخدمهم، و ينظر إلى العامّة كأنّه ينظر إلى الحمير استجهالا لهم و استحقارا، و الأعمال الصّادرة عن خلق

---

[١] فيه نظر لأنه ينافي ماقال الصادق عليه السّلام:«ما من رجل تكبر او تجبر الا لذلة وجدها في نفسه».

الكبر كثيرة و هي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنّها مشهورة فهذا هو الكبر و آفته عظيمة و غائلته هائلة، و فيه يهلك الخواصّ من الخلق، و قلّما ينفكّ عنه العبّاد و الزّهاد و العلماء فضلا عن عوامّ النّاس و كيف لا تعظم آفته و قدقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر»

و إنّما صار حجابا عن الجنّة لأنّه يحول بين العبد و بين أخلاق المؤمنين كلّها و تلك الأخلاق هي أبواب الجنّة و الكبر و عزّ النّفس يغلق تلك الأبواب كلّها لأنّه لا يقدر على أنّ يحبّ للمؤمنين ما يحبّ لنفسه و فيه شيء من العزّ، و لا يقدر على التواضع و هو رأس أخلاق المتّقين و فيه العزّ، و لا يقدر على كظم الغيظ و فيه العزّ، و لا يقدر على ترك الحقد و فيه العزّ، و لا يقدر أن يدوم على الصّدق و فيه العزّ، و لا يقدر على ترك الحسد و فيه العزّ، و لا يقدر على ترك الغضب و فيه العزّ، و لا يقدر على النصح اللّطيف و فيه العزّ، و لا يقدر على قبول النصح و فيه العزّ، و لا يسلم

من الازدراء بالناس و من اغتيابهم و فيه العزّ، و لا معنى للتطويل، فما من خلق ذميم إلا و صاحب العزّ و الكبر مضطرّ إليه ليحفظ به عزّه، و ما من خلق محمود إلا و هو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزّه فمن هذا لم يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة منه و الأخلاق الذّميمة متلازمة و البعض منها داع إلى البعض لا محالة، و شرّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم و قبول الحقّ و الانقياد له و فيه وردت الآيات الّتي فيها ذمّ المتكبّرين قال اللّه تعالى:و الملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ٦: ٩٣- إلى قوله: - و كنتم عن آياته تستكبرون ٦: ٩٣- ثمّ قال -:ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبّرين ١٦: ٢٩[١].

---

[١] النحل: ٣١ و ظاهر قوله «ثم قال» أنها في سياق الآية السابقة لكن ليس كذلك و في سورة النحل هكذا«الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فالقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان اللّه عليم بما كنتم تعملون فادخلوا ابواب جهنم - الآية»و هكذا فيما يلي.

ثمّ أخبر أنّ أشدّ أهل النّار عذابا أشدّهم عتيّا على اللّه فقال:ثمَّ لننزعنَّ من كلِّ شيعة أيّهم أشدُّ على الرَّحمن عتيّا ١٩: ٦٩.

و قال:فالّذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة و هم مستكبرون ١٦: ٢٢.

و قال:يقول الّذين استضعفوا للّذين استكبروا لو لا أنتم لكنّا مؤمنين ٣٤: ٣١.

و قال:إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين ٤٠: ٦٠.

و قال:سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ ٧: ١٤٦قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، و في بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت، و قال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكّروا فيها و يعتبروا بها، و لذلك قال عيسى عليه السّلام: «إنّ الزّرع ينبت في السهل و لا ينبت على الصّفا كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع و لا تعمر في قلب المتكبّر، ألا ترون أنّه من يتشمّخ برأسه إلى السقف شجّه و من يطأطئ أظلّه و أكنّه» فهذا مثل ضربه للمتكبّرين و إنّهم كيف يحرمون الحكمة و لذلكذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جحود الحقّ في حدّ الكبر و الكشف عن حقيقته. و قال:«من سفه الحقّ و غمص الناس».

(بيان المتكبر عليه و أقسامه و درجاته و ثمرات الكبر فيه)

اعلم أنّ المتكبّر عليه هو اللّه تعالى أو رسله أو سائر الخلق و قد خلق الإنسان ظلوما جهولا، فتارة يتكبّر على الخلق، و تارة يتكبّر على الخالق، فإذن التكبّر باعتبار المتكبّر عليه ثلاثة أقسام:

الأوّل: التكبّر على اللّه

و ذلك هو أفحش أنواع الكبر و لا مثار له إلا الجهل المحض و الطغيان مثل ما كان من نمرود فإنّه كان يحدث نفسه بأن يقاتل ربّ السماء و كما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى عن كلّ من ادّعى الرّبوبيّة مثل

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٣٢

فرعون و غيره فإنّه لتكبّره قال:«أنا ربّكم الأعلى»إذ استنكف أن يكون عبد اللّه و لذلك قال تعالى:«إنّ الّذين يستكبرون عن عباتي سيدخلون جهنّم داخرين» ٤٠: ٦٠.

و قال اللّه تعالى:لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا للّه و لا الملائكة المقرّبون و من يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعا. فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات

فيوفّيهم أُجورهم و يزيدهم من فضله و أمّا الّذين استنكفوا و استكبروا فيعذِّبهم عذابا أليما و لا يجدون لهم من دون اللّه وليّا و لا نصيرا» ٤: ١٧٢ - ١٧٣.

و قال تعالى:و إذا قيل لهم اسجدوا للرَّحمن قالوا و ما الرّحمن أ نسجد لما تأمرنا و زادهم نفورا ٢٥: ٦٠.

القسم الثّاني: التكبّر على الرسل

من حيث تعزّز النفس و ترفّعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس و ذلك تارة يصرف عن الفكر و الاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد و هو ظانّ أنّه محقّ فيه و تارة يمتنع مع المعرفة إذ لا تطاوعه نفسه للانقياد للحقّ و التواضع للرّشد كما حكى اللّه تعالى عن قولهمأ نؤمن لبشرين مثلنا ٢٣: ٤٧وإن أنتم إلا بشر مثلنا ١٤: ١٠و لئن أطعتم بشرا مثلكم إنّكم إذا لخاسرون ٢٣: ٣٤و قال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم و عتوا عتوّا كبيرا ٢٥: ٢١و قالوا:لو لا انزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ٢٥: ٧.و قال فرعون فيما أخبر اللّه عنه:أو جاء معه الملائكة مقترنين ٤٣: ٥٣و قال اللّه تعالى:و استكبر هو و جنوده في الأرض بغير الحقِّ ٢٨: ٣٩فتكبّر هو على اللّه تعالى و على رسوله جميعا. قال وهب: قال له موسى عليه السّلام: يا فرعون آمن و لك ملكك، قال: حتّى اشاور هامان، فشاور هامان فقال له هامان: بينما أنت ربّ تعبد إذ صرت عبدا تعبد و استنكف عن عبوديّة اللّه

عزّ و جلّ و من اتّباع موسى عليه السلام، و قالت قريش:لو لا نزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ٤٣: ٣١قال قتادة: عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة و أبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبيّ صلّى اللّه عليه و

آله و سلّم إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه اللّه إلينا فقال تعالى:أ هم يقسمون رحمت ربّك ٤٣: ٣٢و قال تعالى:

ليقولوا أ هؤلاء منّ اللّه عليهم من بيننا ٦: ٥٣أي استحقارا لهم و استبعادا لتقدّمهم.

و قالت قريش: كيف نجلس إليك و عندك هؤلاء؟ أشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم، و تكبّروا عن مجالستهم فأنزل اللّه تعالىو لا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة و العشيّ يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء و ما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ٦: ٥٢.

و قال:و لا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدُّنيا ١٨: ٢٨.

ثمّ أخبر اللّه تعالى عن تعجبّهم حين دخلوا جهنّم إذ لم يروا الّذين استرذلوهم فقالوا:ما لنا لا نرى رجالا كنّا نعدُّهم من الأشرار ٣٨: ٦٢قيل: يعنون عمّارا و بلالا و صهيبا و المقداد.

ثمّ كان منهم من منعه الكبر عن الفكر و المعرفة فجهل كونه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم محقّا و منهم من عرف ذلك و منعه الكبر عن الاعتراف قال اللّه تعالى:فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به ٢: ٨٩و قال:و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوّا ٢٧: ١٤و هذا الكبر قريب من التكبّر على اللّه و إن كان دونه و لكنّه تكبّر عن قبول أمر اللّه و التواضع لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

القسم الثالث: التكبّر على العباد

و ذلك بأن يستعظم نفسه و يستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم و تدعوه إلى الترفّع عليهم فيزدريهم و يستصغرهم و يأنف من مساواتهم و هذا و إن كان دون الأوّل و الثاني فهو أيضا عظيم من وجهين: أحدهما

أنّ الكبر و العزّ و العظمة و العلاء لا يليق إلا بالملك القادر فأمّا العبد المملوك الضعيف العاجز الّذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق به الكبر، فمهما تكبّر العبد فقد نازع اللّه تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله و مثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه و يجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت، و ما أعظم تهدّفه للخزي و النكال، و ما أشدّ استجراؤه على مولاه، و ما أقبح ما تعاطاه، و إلى هذا المعنى الإشارةبقوله تعالى:«العظمة إزاري و الكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته»

أي أنّه خاصّ صفتي و لا يليق إلا بي و المنازع فيه منازع في صفة من صفاتي. و إذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبّر على عباده فقد جنى عليه إذ الّذي يسترذل خواصّ غلمان الملك و يستخدمهم و يترفّع عليهم و يستأثر بما حقّ الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره و إن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره و الاستبداد بملكه، فالخلق كلّهم عباد اللّه و له العظمة و الكبرياء عليهم، فمن تكبّر على عبد من عباد اللّه فقد نازع اللّه في حقّه، نعم الفرق بين هذه المنازعة و بين منازعة نمرود و فرعون ما هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده و استخدامهم و بين منازعته في أصل المملكة.
الوجه الثاني: الّذي تعظم به رذيلة الكبر أنّه يدعو إلى مخالفة اللّه تعالى في أوامره لأنّ المتكبّر إذا سمع الحقّ من عبد من عباد اللّه استنكف من قبوله و تشمّر لجحده و لذلك ترى المناظرين في مسائل الدّين يزعمون أنّهم يتباحثون عن أسرار الدّين ثمّ إنّهم يتجاحدون تجاحد المتكبّرين و مهما اتضّح الحقّ على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله و يتشمرّ لجحده و احتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس و ذلك من أخلاق الكافرين و المنافقين إذ وصفهم اللّه تعالى فقال:و قال الّذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه

لعلّكم تغلبون ٤١: ٢٦فكلّ من يناظر للغلبة و الإفحام لا ليغتنم الحقّ إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق و كذلك يحمل ذلك على

الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى:و إذا قيل له اتّق اللّه أخذته العزّة بالإثم ٢: ٢٠٦و قال ابن مسعود: كفى بالرّجل إثما إذا قيل له: اتّق اللّه قال: عليك بنفسك.

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لرجل:«كل بيمينك، فقال: لا أستطيع، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا استطعت فما منعه إلا كبره فقيل: ما رفعها بعد ذلك»

أي اعتلّت يده فإذن تكبّره على الخلق عظيم لأنّه سيدعوه إلى التكبّر على أمر اللّه و إنّما ضرب إبليس مثلا لهذا و ما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به فإنّه قال:«أنا خير منه»و هذا الكبر بالنسب لأنّه قال:خلقتني من نار و خلقته من طين ٧: ١٢فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الّذي أمره اللّه تعالى به فكان مبدؤه الكبر على آدم و الحسد له فجرّه ذلك على التكبّر على أمر اللّه فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة و لذلكشرح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شمّاسفقال: يا رسول اللّه إنّي امرؤ قد حبّب إليّ من الجمال ما ترى أ فمن الكبر هو؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا، و لكن الكبر من بطر الحقّ و غمص الناس»

أي ازدرأهم و استحقرهم و هم عباد اللّه أمثاله و خير منه، و هذه الآفة الأولى، و قوله: «سفه الحقّ» هو ردّه به و هي الآفة الثانية فكلّ من رأى أنّه خير من أخيه و احتقر أخاه فازدرأه و نظر إليه بعين الاستصغار أو ردّ الحقّ و هو يعرفه

فقد تكبّر فيما بينه و بين الخلق و من أنف من أن يخضع للَّه تعالى و يتواضع له بطاعته و اتّباع رسله فقد تكبّر فيما بينه و بين اللَّه تعالى و الرّسل.

(بيان ما به التكبر)

اعلم أنّه لا يتكبّر إلا من استعظم نفسه و لا يستعظمها إلا و هو يعتقد لها صفة

من صفات الكمال و مجامع ذلك يرجع إلى كمال دينيّ أو دنيويّ، فالدّينيّ هو العلم و العمل، و الدّنيويّ هو النسب و الجمال و القوّة و المال و كثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب.

الأوّل: العلم

و ما أسرع الكبر إلى العلماء و لذلكقال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«آفة العلم الخيلاء» [١]

فلا يلبث العالم أن يتعزّز بعزّ العلم و يستشعر في نفسه جمال العلم و كماله و يستعظم نفسه و يستحقر الناس و ينظر إليهم نظره إلى البهائم و يستجهلهم و يتوقّع أن يبدءوه بالسلام فإن بدأ أحدا منهم بالسلام أو ردّه عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده و يدا عليه يلزمه شكرها، و اعتقد أنّه أكرمهم و فعل بهم ما لا يستحقّون من مثله، و أنّه ينبغي أن يرقّوا له و يخدموه شكرا له على صنيعه بل الغالب أنّهم يبرّونه فلا يبرّهم و يزورونه فلا يزورهم، و يعودونه فلا يعودهم، و يستخدم من خالطه منهم و يستسخره في حوائجه فإن قصّر فيها استنكره كأنّهم عبيده أو أجراؤه و كأنّ تعليمه العلم صنيعة منه إليهم و معروف لديهم و استحقاق حقّ عليهم، هذا فيما يتعلّق بالدّنيا و أمّا في أمر الآخرة فتكبّره عليهم بأن يرى نفسه عند اللَّه أعلى و أفضل منهم فيخاف عليهم أكثر ممّا يخافه على نفسه و يرجو لنفسه أكثر ممّا يرجو لهم و هذا بأن يسمّى جاهلا أولى من أن يسمّى عالما بل العلم الحقيقيّ هو الّذي يعرف الإنسان به

نفسه و ربّه و خطر الخاتمة و حجّة اللّه على العلماء و عظم خطر العلم فيه كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم و هذه العلوم تزيد خوفا و تواضعا و تخّشعا و يقتضي أن يرى أنّ كلّ الناس خير منه لعظم حجّة اللّه تعالى عليه بالعلم و تقصيره في القيام بشكر نعمة العلم و لهذا قال أبو الدّرداء:

من ازداد علما ازداد خوفا و هو كما قال.

---

[۱] قال العراقي: هكذا ذكره المصنف و المعروف«آفة العلم النسيان و آفة الجمال الخيلاء»

هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث على بسند ضعيف. وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس«آفة الجمال الخيلاء»

و فيه الحسن بن الحميد الكوفى لا يدرى من هو، حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان. انتهى

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٣٧

فإن قلت: فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا و أمنا؟ فاعلم أن له سببين:

أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمّى علما و ليس بعلم حقيقيّ و إنّما العلم الحقيقيّ ما يعرف العبد به نفسه و ربّه و خطر أمره في لقاء اللّه و الحجاب عنه، و هذا يورث الخشية و التواضع دون الكبر و الأمن قال اللّه تعالى:إنّما يخشى اللّه من عباده العلماء ٣٥: ٢٨فأمّا ما وراء ذلك كعلم الطبّ و الحساب و اللّغة و الشعر و النحو و فصل الخصومات و طرق المجادلات فإذا تجرّد الإنسان لها حتّى امتلأ به امتلأ كبرا و نفاقا و هذه بأن تسمّى صناعات أولى من أن تسمّى

علوما، بل العلم هو معرفة العبوديّة و الرّبوبيّة و طريق العبادة و هذا يورث التواضع غالبا.
السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم و هو خبيث الدّخلة رديء النفس سيّئ الأخلاق فلم يشتغل أوّلا بتهذيب نفسه و تزكية قلبه بأنواع المجاهدات و لم يرض نفسه في عبادة ربّه فبقي خبيث الجوهر فإذا خاض في العلم أيّ علم كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره و لم يظهر في الخير أثره، و قد ضرب وهب لهذا مثلا فقال: العلم كالغيث ينزل من السّماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها، فيزداد المرّ مرارة و الحلو حلاوة، فكذلك العلم يحفظه الرّجال فتحوّله على قدر هممهم و أ هوائهم، فيزيد المتكبّر كبرا و المتواضع تواضعا و هذا لأنّ من كانت همّته الكبر و هو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبّر به فازداد كبرا، و إذا كان الرّجل خائفا مع جهله فإذا ازداد علما علم أنّ الحجّة قد تأكّدت عليه فيزداد خوفا و إشفاقا و تواضعا، فالعلم من أعظم ما يتكبّر به و من أجل ذلك قال اللَّه تعالى لنبيّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:و اخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين ٢٦: ٢١٥و قال:و لو كنت فظّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك ٣: ١٥٩و وصف أولياءه فقال تعالى:أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين ٥: ٥٤و لذلكقال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم فيما رواه العبّاس:«يكون قوما يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد

قرأنا القرآن فمن أقرأ منّا و من أعلم منّا، ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: أولئك منكم أيّها الامّة، أولئك هم وقود النّار»
و لذلك قيل: «لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم. و صلّى حذيفة بقوم فلمّا سلّم قال: لتلتمسنّ إماما غيري أو لتصلّنّ وحدانا إنّي رأيت في نفسي أنّه ليس في القوم أفضل منّي.

فإذا كان مثله لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخّري هذه الامّة فما أعزّ على بسيط الأرض عالم يستحقّ أن يقال: إنّه عالم، ثمّ إنّه لا يحرّكه عزّ العلم و خيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صدّيق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه و أحواله، لو عرفنا ذلك و لو في أقصى الصّين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته و تسري إلينا سيرته و سجيّته و هيهات فأنّى يسمح آخر الزّمان بمثلهم فهم أرباب الإقبال و أصحاب الدّول و قد انقرضوا في القرن الأوّل و من يليهم بل يعزّ في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف و الحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضا إمّا معدوم و إمّا عزيز و لولابشارة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله:«سيأتي زمان على الناس من تمسّك بعشر ما أنتم عليه نجا»

لكان جديرا بنا أن نقتحم - و العياذ باللّه - ورطة اليأس و القنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا و من أين لنا أيضا بالتمسّك بعشر ما كانوا عليه و ليتنا تمسّكنا بعشر عشره، فنسأل اللّه تعالى أن يعاملنا بما هو أهله و أن يستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه فضله و كرمه.

الثّاني العمل و العبادة

و ليس يخلو عن رذيلة العزّ و الكبر و استمالة قلوب الناس الزّهّاد و العبّاد و يترشّح الكبر منهم في الدّنيا و الدّين أمّا الدّنيا فهو أنّهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى من أنفسهم بزيارة غيرهم و يتوقّعون قيام الناس بقضاء حوائجهم و توقيرهم و التوسّع لهم في المجالس و ذكرهم بالورع و التقوى و تقديمهم على سائر الناس في الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه في حقّ العلماء و كأنّهم يرون

عبادتهم منّة على الخلق، و أمّا في الدّين فهو أن يرى الناس هالكين و يرى نفسه ناجيا و هو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلكقال النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«إذا سمعتم الرّجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»

و إنّما قال: ذلك لأنّ هذا القول يدلّ على أنّه مزدر لخلق اللَّه، مغترّ باللَّه، آمن من مكره، غير خائف من سطوته، و كيف لا يخاف و يكفيه شرّا احتقاره لغيره،قال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«كفى بالمرء شرّا أن يحقر أخاه المسلم،

و كم من الفرق بينه و بين من يحبّه للَّه و يعظمه لعبادته و يستعظمه و يرجو له ما لا يرجو لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إيّاه للَّه فهم يتقرّبون إلى اللَّه بالدّنوّ منه و هو يتمقّت إلى اللَّه بالتنزّه و التباعد منهم كأنّه مرتفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذا أحبّوه لصلاحه أن ينقلهم اللَّه إلى درجته في العمل و ما أجدره إذا ازدرأهم بعينه أن ينقله اللَّه إلى حدّ الإهمال كماروىأنّ رجلا في بني إسرائيل - يقال له: خليع بني إسرائيل لكثرة فساده - مرّ برجل آخر يقال له: عابد بني إسرائيل و كانت على رأس العابد غمامة تظلّه فلمّا مرّ الخليع به فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل و هذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه لعلّ اللَّه يرحمني فجلس إليه فقال العابد في نفسه: أنا عابد بني إسرائيل و هذا خليع بني إسرائيل كيف يجلس إليّ فأنف منه و قال له: قم عنّي فأوحى اللَّه إلى نبيّ ذلك الزّمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع و أحبطت عمل العابد،

وفي حديث آخرفتحوّلت الغمامة إلى رأس الخليع.

و هذا يعرفك أنّ اللَّه تعالى إنّما يريد من العبيد قلوبهم، فالجاهل العاصي إذا تواضع و ذلّ هيبة للَّه و خوفا منه فقد أطاع اللَّه بقلبه فهو أطوع للَّه من العالم المتكبّر و العابد

المعجب، و كذلكرويأنّ رجلا في بني إسرائيل أتى عابدا من بني إسرائيل فوطئ على رقبته و هو ساجد فقال له:

إرفع فو اللَّه لا يغفر اللَّه لك، فأوحى إليه أيّها المتآلي عليّ بل أنت لا يغفر اللَّه لك،

و لذلك قيل: و حتّى أنّ صاحب الصوف أشدّ كبرا من صاحب المطرف الخزّ أي أنّ صاحب الخزّ يذلّ لصاحب الصّوف و يرى الفضل له و صاحب الصوف يرى الفضل

لنفسه، و هذه الآفة أيضا قلّما ينفك عنها العباد و هو أنّه لو استخفّ به مستخفّ أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر اللَّه له و لا يشكّ في أنّه صار ممقوتا عند اللَّه و لو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار و ذلك لعظم قدر نفسه عنده و هو جهل و جمع بين العجب و الكبر و الاغترار باللَّه و قد ينتهي الحمق و الغباوة لبعضهم إلى أن يتحدّى و يقول:

سترون ما يجري عليه، و إذا أصيب بنكبة زعم أنّ ذلك من كراماته و أنّ اللَّه ما أراد به إلا شفاء علّته و الانتقام له منه مع أنّه يرى طبقات من الكفّار يسبّون اللَّه و رسوله و عرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات اللَّه عليهم فمنهم من ضربهم و منهم من قتلهم، ثمّ إنّ اللَّه أمهل أكثرهم و لم يعاقبهم في الدّنيا بل ربّما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدّنيا و لا في الآخرة، ثمّ إنّ الجاهل المغرور يظنّ أنّه أكرم على اللَّه من أنبيائه و أنّه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه، و لعلّه في مقت اللَّه بإعجابه و كبره و هو غافل عن هلاك نفسه. فهذه عقيدة المغترّين و أمّا الأكياس من العبّاد فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كانت تهبّ ريح أو تقع صاعقة: ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي و لو مات عطاء لاستراح الناس، و ما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرّحمة لجميعهم لولا كوني فيهم، فانظر إلى الفرق بين الرّجلين هذا يتّقي اللَّه ظاهرا و باطنا و هو وجل على

نفسه مزدر لعمله و سعيه و ذلك ربّما يضمر من الرّياء و الكبر و الحسد و الغلّ ما هو ضحكة للشياطين به ثمّ إنّه يمتنّ على اللَّه بعمله، و من اعتقد جزما أنّه فوق أحد من عباد اللَّه فقد أحبط بجهله جميع عمله فإنّ الجهل أفحش المعاصي و أعظم شيء يبعّد العبد عن اللَّه، و حكمه لنفسه بأنّه خير من غيره جهل محض و أمن من مكر اللَّه تعالى«و لا يأمن مكر اللَّه إلا القوم الخاسرون»و لذلكروي أنّ رجلا ذكر بخير للنبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم فأقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول اللَّه هذا الّذي ذكرناه لك، فقال: إنّي أرى في وجهه سفعة من الشيطان فسلّم و وقف على النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و أصحابه، فقال النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم: «أسألك باللَّه حدّثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك؟ فقال: اللّهمّ نعم»

فرأى رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم بنور النبوّة ما

استكنّ في قلبه سفعة في وجهه و هذه آفة لا ينفكّ عنها أحد من العبّاد إلا من عصمه اللَّه.

لكن العلماء و العبّاد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الدّرجة الأولى أن يكون الكبر مستقرّا في قلبه يرى نفسه خيرا من غيره إلا أنّه يجتهد و يتواضع و يفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه و هذا قد رسخت في قلبه شجرة الكبر و لكنّه قطع أغصانها بالكلّيّة.

الثانية أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفّع في المجالس و التقدّم على الأقران و إظهار الإنكار على من يقصر في حقّه و أدنى ذلك في العالم أن يصعّر خدّه للناس كأنّه معرض عنهم و في العابد أن يعبس وجهه و يقطب جبينه كأنّه متنزّه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، و ليس يعلم المسكين أنّ الورع ليس في الجبهة حتّى يقطبها و لا في

الوجه حتّى يعبس و لا في الخدّ حتّى يصعر و لا في الرّقبة حتّى يطأطأ و لا في الذيل حتّى يضمّ إنّما الورع في القلوبقال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«التقوى ههنا»

و أشار إلى صدره، فقد كان رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم أكرم الخلق و أتقاهم و كان أوسعهم خلقا و أكثرهم بشرا و تبسّما و انبساطا، و لذلك قال الحارث بن جزء الزّبيديّ صاحب رسول اللَّه: يعجبني من القرّاء كلّ طليق مضحاك فأمّا الّذي تلقاه ببشر و يلقاك بعبوس يمنّ عليك بعمله فلا أكثر اللَّه في المسلمين مثله و لو كان اللَّه يرضى ذلك لما قال لنبيّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«و اخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين» ٢٦: ٢١٥و هؤلاء - الّذين يظهرون أثر الكبر على شمائلهم و أحوالهم أخفّ حالا ممّن هو في الرّتبة الثالثة و هو الّذي يظهر الكبر على لسانه حتّى يدعوه إلى الدّعوى و المفاخرة و المباهاة و تزكية النّفس و حكاية الأحوال و المقامات و التشمير لغلبة الغير في العلم و العمل، أمّا العابد فإنّه يقول في معرض التّفاخر لغيره من العبّاد: من هو و ما عمله؟ و من أين زهده، فيطيل اللّسان فيهم بالتنقّص ثمّ يثني على نفسه و يقول: إنّي لم أفطر منذ كذا و لا أنام باللّيل و أختم القرآن كلّ يوم و فلان ينام سحرا و لا يكثر القراءة، و ما يجري مجراه و قد يزكّي نفسه ضمنا فيقول: قصدني

فلان بسوء فهلك ولده و أخذ ماله أو مرض، و ما يجري مجراه هذا يدّعي الكرامة لنفسه، و أمّا مباهاته فهو أنّه لو وقع مع قوم يصلّون باللّيل قام و صلّى أكثر ممّا كان يصلّي، و إن كانوا يصبرون على الجوع فيكلّف نفسه الصبر ليغلبهم و يظهر لهم قوّته و عجزهم و كذلك يشتدّ في العبادة خوفا من أن يقال: غيره أعبد منه و أقوى منه في دين اللَّه، و أمّا

العالم فإنّه يتفاخر و يقول: أنا متفنّن في العلوم و مطّلع على الحقائق رأيت من الشيوخ فلانا و فلانا، و من أنت؟ و ما فضلك و من لقيته و ما الّذي سمعت من الحديث؟ كلّ ذلك ليصغّره و يعظم نفسه، و أمّا مباهاته فهو أنّه يجتهد في المناظرة أن يغلب و لا يغلب و يسهر طول اللّيل و النهار في تحصيل علوم يتجمّل بها في المحافل كالمناظرة و الجدل و تحسين العبارة و تسجيع الألفاظ و حفظ العلوم الغريبة ليغرب بها عن الأقران و يتعظّم عليهم و يحفظ الأحاديث و ألفاظها و أسانيدها حتّى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله و نقصان أقرانه و يفرح مهما أخطأ واحد منهم ليردّ عليه و يسوءه إذا أصاب و أحسن خيفة من أن يرى أنّه أحسن منه و أعظم منه فهذا كلّه أخلاق الكبر و آثاره الّتي يثمرها التعزّز بالعلم و العمل و أين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه، يا ليت شعري من عرف هذه الأخلاق من نفسه و سمعقول رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر»

كيف يستعظم نفسه و يتكبّر على غيره ورسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم يقول:هو من أهل النّار

و إنّما العظيم من خلا عن هذا و من خلا عنه لم يكن فيه تعظّم و تكبّر، و العالم هو الّذي فهم أنّ اللَّه عزّ و جلّ قال له: إنّ لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا، و من لم يعلم هذا من الدّين فاسم العالم عليه كذب و من علمه لزمه أن لا يتكبّر و لا يرى لنفسه قدرا فهذا هو التكبّر بالعلم و العمل.

الثالث التكبّر بالنسب و الحسب

فالّذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب و إن كان أرفع منه عملا و علما و قد يتكبّر بعضهم فيرى أنّ الناس له موال و عبيد و يأنف من مجالستهم و مخالطتهم و ثمرته على اللّسان التفاخر به فيقول

لغيره: يا نبطيّ و يا هنديّ و يا روميّ من أنت و من أبوك؟ و أنا فلان بن فلان و أنّى لمثلك أن يكلّمني أو ينظر إليّ و مع مثلي تتكلّم؟ و ما يجري مجراه و ذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب و إن كان صالحا أو عاقلا إلا أنّه قد لا يترشّح منه عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته و ترشّح منه كماروي عن أبي ذرّ أنّه قال:قاولت رجلا عند النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم: فقلت له: يا ابن السوداء فقال النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم: «يا أباذرّ طف الصّاع طف الصّاع ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل» قال أبوذرّ: فاضطجعت و قلت للرّجل: قم فطأ على خدّي» [١]
فانظر كيف نبّهه رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم أنّه رأى نفسه فضلا بكونه ابن بيضاء و إنّ ذلك خطأ و جهل فانظر كيف تاب و كيف قلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبّر عليه إذ عرف أنّ العزّ لا يقمعه إلا الذّلّ.
و من ذلك ماروي‌أنّ رجلين تفاخرا عند رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أمّ لك؟ فقال النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم: «افتخر رجلان عند موسى عليه السّلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتّى عدّ تسعة، فأوحى اللَّه إلى موسى عليه السّلام قل للّذى افتخر: كلّ التسعة من أهل النّار و أنت عاشرهم».
وقال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«ليدعنّ قوم الفخر بآبائهم و قد صاروا فحما في جهنّم أو ليكوننّ أهون على اللَّه من الجعلان الّتي تدرف بآنافها القذر».
الرابع التفاخر بالجمال

و ذلك يجري أكثره بين النساء و يدعو ذلك إلى التنقّص و الثلب و الغيبة و ذكر عيوب الناس، و من ذلك ما روي عن عائشة أنّها

---

[١] قال العراقي:أخرجه ابن المبارك في البر و الصلة مع اختلاف و لا حمد من حديثهأن النبي صلّى اللّه عليه و آله قال له: انظر فإنك لست بخير من أحمر و لا اسود الا تفضله بتقوىراجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٨٤.

قالت:دخلت امرأة على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلمّا خرجت فقلت بيدي - هكذا - أي أنّها قصيرة، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «قد اغتبتها»

و هذا منشؤه خفيّ الكبر لأنّها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر فكأنّها أعجبت بقامتها و استقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت.

الخامس الكبر بالمال

و ذلك يجري بين الملوك في الخزائن، و بين التجّار في بضائعهم، و بين الدّهاقين في أراضيهم، و بين المتجمّلين في لباسهم و خيولهم و مراكبهم فيستحقر الغنيّ الفقير و يتكبّر عليه و يقول له: أنت مكدّ و مسكين و أنا لو أردت لاشتريت مثلك و استخدمت من هو فوقك، و من أنت و ما معك و أثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك، و أنا أنفق في اليوم ما لا تأكله في السنة و كلّ ذلك لاستعظامه للغنى، و استحقاره للفقر و كلّ ذلك جهل منه بآفة الغنى و فضيله الفقر، و إليه الإشارة بقوله تعالى:فقال لصاحبه و هو يحاوره أنا أكثر منك مالا و أعزُّ نفرا ١٨: ٣٤حتّى أجابه و قال:«إن

ترن أنا أقلّ منك مالا و ولدا فعسى ربّي أن يؤتين خيرا من جنّتك و يرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا»و كان ذلك تكبّرا منه بالمال و الولد ثمّ بيّن اللّه عاقبة أمره و هو قوله:يا ليتني لم أشرك بربّي أحدا ١٨: ٤٢.

و من ذلك تكبّر قارون إذ قال تعالى:«فخرج على قومه في زينته» ٢٨: ٧٩حتّى قال قومه:يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون ٢٨: ٧٩- الآية -.

السادس الكبر بالقوّة

و شدّة البطش و التكبّر به على أهل الضعف.

السابع التكبّر بالأتباع و الأنصار

و التلامذة و الغلمان و العشيرة و الأقارب و البنين و يجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود و بين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين، و بالجملة فكلّ ما هو نعمة و أمكن أن يعتقد كمالا و إن لم يكن في نفسه كمالا أمكن أن يتكبّر به، حتّى أن المخنّث ليتكبّر على أقرانه بزيادة قدرته و معرفته

في صنعة المخنّثين لأنّه يرى ذلك كمالا فيفتخر به و إن لم يكن فعله إلا نكالا، و كذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب و كثرة الفجور بالنّسوان و الغلمان و يتكبّر به لظنّه أنّ ذلك كمال و إن كان مخطئا فيه.

فهذه مجامع ما يتكبّر به العباد بعضهم على بعض فيتكبّر من يدلى بشيء منه على من لا يدلى به أو على من يدلى بما هو دونه في اعتقاده، و ربّما كان مثله أو فوقه عند اللّه تعالى كالعالم الّذي يتكبّر بعلمه على من هو أعلم منه لظنّه أنّه هو الأعلم و لحسن اعتقاده في نفسه.

(بيان البواعث على التكبّر و أسبابه المهيّجة له)

اعلم أنّ الكبر خلق باطن و أمّا ما يظهر من الأخلاق و الأفعال فهي ثمرتها و نتيجتها و ينبغي أن تسمّى تكبّرا و

يخصّ اسم الكبر بالمعنى الباطل الّذي هو استعظام النفس و رؤية قدرها فوق قدر الغير، و هذا الباطن له موجب واحد و هو العجب الّذي يتعلّق بالمتكبّر كما سيأتي معناه، فإنّه إذا أعجب بنفسه و بعلمه و عمله أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه و تكبّر، و أمّا الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة:

سبب في المتكبر، و سبب في المتكبّر عليه، و سبب يتعلّق بغيرهما، أما السبب الّذي في المتكبّر فهو العجب، و الّذي يتعلّق بالمتكبّر عليه هو الحقد و الحسد، و الّذي يتعلّق بغيرهما هو الرّياء فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب و الحقد و الحسد و الرّياء.

أمّا العجب فقد ذكرنا أنّه يورث الكبر الباطن و الكبر الباطن يثمر التكبّر الظاهر في الأعمال و الأقوال و الأحوال.

و أمّا الحقد فإنّه قد يحمل على التكبّر من غير عجب، كالّذي يتكبّر على من يرى أنّه مثله أو فوقه و لكن قد غضب عليه بسبب قد سبق منه فأورثه الغضب حقدا و رسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له و إن كان عنده مستحقّا للتواضع فكم من رذل لا تطاوعه النفس على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه و لبغضه له و يحمله ذلك على ردّ الحقّ إذا جاءه من جهته و على الأنفة

من قبول نصحه و على أن يجتهد في التقدّم عليه، و إن علم أنّه لا يستحقّ ذلك و على أنّه لا يستحلّه و إن ظلمه، و لا يعتذر إليه و إن جنى عليه، و لا يسأله عمّا هو جاهل به.

و أمّا الحسد فإنّه أيضا يوجب البغض للمحسود و إن لم يكن من جهته إيذاء و سبب يقتضي الغضب و الحقد و يدعو الحسد أيضا إلى جحد الحقّ حتّى يمنع من قبول النّصح و تعلّم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم و قد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا و بغيا عليه، فهو يعرض عنه و يتكبّر عليه مع

معرفته بأنّه يستحقّ التواضع لفضل علمه و لكنّ الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبّرين و إن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

و أمّا الرّياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبّرين حتّى أنّ الرّجل ليناظر من يعلم أنّه أفضل منه و ليس بينه و بينه معرفة و لا محاسدة و لا حقد و لكن يمتنع من قبول الحقّ منه و لا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس: إنّه أفضل منه فيكون باعثه على التكبّر عليه الرّياء المجرّد و لو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبّر عليه، و أمّا الّذي يتكبّر بالعجب أو الحسد أو الحقد فيتكبّر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث و كذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذبا و هو يعلم أنّه كاذب ثمّ يتكبّر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب و يترفّع عليه في المجالس و يتقدّم عليه في الطريق و لا يرضى بمساواته في الكرامة و التوقير و هو عالم باطنا بأنّه لا يستحقّ ذلك و لا كبر في باطنه لمعرفته بأنّه كاذب في دعوى النسب و لكن يحمله الرّياء على أفعال المتكبّرين و كان اسم المتكبّر إنّما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب و النظر إلى الغير بعين الاحتقار و هذا إن سمّي متكبّرا فلأجل التشبّه بأفعال الكبر.

(بيان أخلاق المتواضعين و مجامع ما يظهر فيه أثر التواضع و التكبّر)

اعلم أنّ التكبّر يظهر في شمائل الرّجل كصعر في وجهه و نظره شزرا

و إطراقه رأسه و جلوسه متربّعا أو متّكئا و في أقواله حتّى في صوته و نغمته و صيغته في الإيراد، و يظهر في مشيته و تبختره و قيامه و جلوسه و حركاته و سكناته، و في تعاطيه لأفعاله، و في سائر تقلّباته في أحواله و أقواله و

أعماله، فمن المتكبّرين من يجمع ذلك كلّه و منهم من يتكبّر في بعض و يتواضع في بعض فمنها التكبّر بأن يحبّ قيام الناس له أو بين يديه. وقد قال عليّ عليه السّلام:«من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد و بين يديه قوم قيام».

و قال: أنس لم يكن شخص أحبّ إليهم من رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و كانوا إذا رأوه لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك.

و منها أن لا يمشي إلا و معه غيره يمشي خلفه. قال: أبو الدرداء لا يزال العبد يزداد من اللَّه بعدا ما مشي خلفه. و كان رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدّم و يمشي في غمارهم» [١].

و منها أن لا يزور غيره و إن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدّين و هو ضدّ التواضع.

و منها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه و التواضع خلافه، قال أنس: «كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و لا ينزع يده منها حتّى تذهب به حيث شاءت».

و منها أن يتوقّى مجالسة المرضى و المعلولين و يتحاشى عنهم، و هو كبر، دخل رجل على رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و عليه جدريّ قد تقشّر و عنده ناس من أصحابه يأكلون فما جلس عند أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم إلى جنبه.

---

[١]أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي امامة بسند ضعيف جداأنه صلّى اللَّه عليه و آله يمشى إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف و أمرهم أن يتقدموا و مشى

خلفهم فسئل عن ذلك فقال: «انى سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر».

و قال: هو منكر و فيه جمع من الضعفاء.
المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٤٨

و منها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته و التواضع خلافه.
و منها أن لا يأخذ متاعا و يحمله إلى بيته، و هذا خلاف عادة المتواضعين كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يفعل ذلك وقال: عليّ عليه السّلام:«لا ينقص الرّجل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. و قال بعضهم: رأيت عليا اشترى لحما بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ قال: «لا أبو العيال أحقّ أن يحمل» [١].
و منها اللّباس إذ يظهر به التكبّر و التواضع، وقد قال: رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«البذاذة من الإيمان»

قيل: هي الدون من اللّباس.
وعوتب عليّ عليه السّلام في إزار مرقوع فقال:«يقتدي به المؤمن و يخشع له القلب».
و قال: عيسى عليه السّلام جودة الثياب خيلاء القلب.
وقال: رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من ترك زينة للّه و وضع ثيابا حسنة تواضعا للّه و ابتغاء وجهه كان حقّا على اللّه أن يدّخر له عبقريّ الجنّة».
فإن قلت: فقد قال: عيسى عليه السّلام جوده الثياب خيلاء القلب، وقد سئل نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال:«لا و لكن الكبر من سفه الحقّ و غمص الناس»

فكيف طريق الجمع بينهما؟.

فاعلم أنّ الثوب الجيّد ليس من ضرورته أن يكون من التكبّر في حقّ كلّ

---

[۱] البحار ج ۹ ص ۵۲۰ و فيه هكذا.

لا ينقص الكامل من كماله ما جر من نفع إلى عياله

أحد في كلّ حال و هو الّذي أشار إليه رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و هو الّذي عرّفه رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم من حال ثابت بن قيس إذ قال: إنّي امرؤ حبّب إليّ من الجمال ما ترى فعرّفه أن ميله إلى النظافة و جودة الثياب لا ليتكبّر على غيره فإنّه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، و قد يكون ذلك من الكبر كما أنّ الرّضا بالثوب الدّون قد يكون من التواضع، فإذا انقسمت الأحوال ينزل قول عيسى عليه السّلام على بعض الأحوال على أنّ قوله: خيلاء القلب يعني قد يورث خيلاء في القلب، وقول نبيّنا صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«إنّه ليس من الكبر»

يعني أنّ الكبر لا يوجبه، و يجوز أن لا يوجبه الكبر ثمّ يكون هو مورثا للكبر، و بالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا و المحمود الوسط من اللّباس الّذي لا يوجب شهرة بالجودة و لا بالرداءة، وقد قال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«كلوا و اشربوا و البسوا و تصدّقوا في غير سرف و لا مخيلة» «إنّ اللَّه يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده».

و قال بكر بن عبد اللَّه المزنيّ: البسوا ثياب الملوك و أميتوا قلوبكم بالخشية.

و إنّما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبّر بثياب أهل الصلاح.

و قال عيسى عليه السّلام: «ما لكم تأتوني و عليكم ثياب الرّهبان و قلوبكم قلوب الذّئاب الضواري البسوا ثياب الملوك و أميتوا قلوبكم بالخشية».

و منها أن يتواضع بالاحتمال إذا سبّ و أوذي و أخذ حقّه فذلك هو الأفضل، و قد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب و الحسد، و بالجملة فمجامع حسن الأخلاق و التواضع سيرة رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم فيه، فينبغي أن يقتدى به و منه ينبغي أن يتعلّم.

و قد قال أبو سلمة قلت لأبي سعيد الخدريّ: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس و المشرب و المركب و المطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل للَّه، و اشرب اللَّه، و البس للَّه و كلّ شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية و سرف، و عالج

في بيتك من الخدمة ما كان رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم يعالج في بيته كان يعلف الناضح، و يعقل البعير، و يقم البيت، و يحلب الشاة و يخصف النعل، و يرقّع الثوب، و يأكل مع خادمه، و يطحن عنه إذا أعيا، و يشتري الشيء من السوق و لا يمنعه الحياء أن يعلّقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه فينقلب إلى أهله، يصافح الغنيّ و الفقير و الصغير و الكبير و يسلّم مبتدئا على كلّ من استقبله من صغير أو كبير، أسود أو أحمر، حرّ أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلّة لمدخله و حلّة لمخرجه، لا يستحي من أن يجيب إذا دعي و إن كان أشعث أغبر، و لا يحقر ما دعي إليه و إن لم يجد إلا حشف الدّقل، لا يرفع غداء لعشاء و لا عشاء لغداء، هيّن المئونة لين الخلق كريم الطبيعة، جميل المعاشرة طليق الوجه، بسّاما من غير ضحك محزونا من غير عبوس، شديدا في غير عنف، متواضعا في غير مذلّة، جوادا من غير سرف، رحيما بكلّ ذي قربى، قريبا من كلّ ذمّي و مسلم،

رقيق القلب، دائم الإطراق، لم يبشم قطّ من شبع، و لا يمدّ يده إلى طمع، قال أبو سلمة: قد خلت على عائشة فحدّثتها كلّ هذا عن أبي سعيد، فقالت: ما أخطأ منه حرفا و لقد قصر إذ ما أخبرك أنّ رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم لم يمتلي قطّ شبعا و لم يبثّ إلى أحد شكوى و أن كانت الفاقة أحبّ إليه من اليسار و الغنى و أن كان ليظلّ جائعا يلتوي ليلته حتّى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه و لو شاء أن يسال ربّه فيؤتى بكنوز الأرض و ثمارها و رغد عيشها من مشارقها و مغاربها لفعل، و ربّما بكيت رحمة له ممّا أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي فأقول: نفسي لك الفداء لو تبلّغت من الدّنيا بقدر ما يقوتك و يمنعك من الجوع؟ فيقول: يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرّسل قد صبروا على ما هو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم و قدموا على ربّهم فأكرم مآبهم و أجزل ثوابهم فأجدني أستحي أن ترفّهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم، فأصبر أيّاما يسيرة أحبّ إليّ من أن ينقص حظّي غدا في الآخرة، و ما من شيء أحبّ إليّ من اللّحوق بإخواني و أخلائي، فقالت عائشة: فو اللَّه ما استكمل بعد ذلك جمعة حتّى قبضه اللَّه تعالى» [١].

---

[١] قال العراقي: لم أقف له على اسناد. أقول: يوجد بعض فصوله في الاخبار متفرقا عن غير أبي سلمة راجع المجلد الرابع و سنن ابن ماجه كتاب الزهد و مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣١٢.

فما نقل من أخلاقه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به و من رأى نفسه فوق محلّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و لم يرض

لنفسه بما رضي هو به فما أشدّ جهله فلقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعظم خلق اللّه تعالى منصبا في الدّنيا و الدّين، فلا عزّ و لا رفعة إلا في الاقتداء به و لذلك لمّا عوتب بعض الصحابة في بذاذة هيئتهقال:إنّا قوم أعزّنا اللّه تعالى بالإسلام فلا نطلب العزّ في غيره.

و قال أبو الدّرداء: اعلم أنّ للّه عبادا يقال لهم: الأبدال، خلف من الأنبياء، هم أوتاد الأرض فلمّا انقضت النبوّة أبدل اللّه تعالى مكانهم قوما من امّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يفضّلوا الناس بكثرة صلاة و لا صوم و لا حسن حلية و لكن بصدق الورع و حسن النيّة و سلامة الصدر لجميع المسلمين و النصح لهم ابتغاء مرضات اللّه بصبر من غير تجبّن، و تواضع في غير مذلّة، و هم قوم اصطفاهم اللّه تعالى و استخلصهم لنفسه و هم أربعون صدّيقا أو ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرّحمن عليه السّلام لا يموت الرّجل منهم حتّى يكون اللّه تعالى قد أنشأ من يخلفه. و اعلم يا أخي أنّهم لا يلعنون شيئا و لا يؤذونه و لا يحقرونه و لا يتطاولون عليه و لا يحسدون أحدا و لا يحرصون على الدّنيا هم أطيب الناس خيرا، و ألينهم عريكة، و أسخاهم نفسا، علامتهم السخاء، و سجيّتهم البشاشة، و صفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية و غدا في غفلة و لكن مداومين على حالهم الظاهر، و هم فيما بينهم و بين ربّهم لا تحرّكهم الرّياح العواصف و لا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد ارتياحا إلى اللّه و اشتياقا إليه و قدما في استباق الخيرات«أولئك حزب اللّه ألا إنّ حزب اللّه هم المفلحون»فقال الرّاوي:

فقلت: يا أبا الدّرداء ما سمعت بصفة أشدّ عليّ من هذه الصفة و كيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما بينك و بين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدّنيا، فإنّك إذا أبغضت الدّنيا أقبلت على حبّ الآخرة و بقدر حبّك للآخرة تزهد في الدّنيا، و قدر ذلك تبصر ما ينفكّ، فإذا علم اللّه من عبد

حسن الطلب أفرغ عليه السداد، و اكتنفه بالعصمة، و اعلم يا ابن أخي أنّ ذلك في كتاب اللّه المنزل«إنّ اللّه مع الّذين اتّقوا و الّذين هم محسنون»و قال يحيى بن كثير: فنظرنا في ذلك فما تلذّذ المتلذّذون

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٥٢

بمثل حبّ اللّه تعالى و طلب مرضاته.

(بيان الطريق في معالجة الكبر و اكتساب التواضع)

اعلم أنّ الكبر من المهلكات و لا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه و إزالته فرض عين و لا يزول بمجرد التمنّي بل بالمعالجة و استعمال الأدوية القامعة له و في معالجته مقامان أحدهما استئصال أصله من سنخه و قلع شجرته من مغرسها في القلب، و الثاني دفع العارض منه بالأسباب الخاصّة الّتي بها يتكبّر الإنسان على غيره.

المقام الأوّل في استئصال أصله و علاجه

علميّ و علميّ و لا يتمّ الشفاء إلا بمجموعهما.

أمّا العلميّ فهو أن يعرف نفسه و يعرف ربّه

و يكفيه ذلك في إزالة الكبر فإنّه مهما عرف نفسه حقّ المعرفة علم أنّه أذلّ من كلّ ذليل و أقلّ من كلّ قليل بذاته، و أنّه لا يليق به إلا التواضع و الذلّة و المهانة و إذا عرف ربّه علم أنّه لا تليق العظمة و الكبرياء إلا باللّه، أمّا معرفته ربّه و عظمته و مجده فالقول فيه يطول و هو منتهى علم الصدّيقين، أمّا معرفته نفسه فكذلك أيضا يطول و لكنّا نذكر منه ما ينفع في اثارة التواضع و المذلّة و يكفيه أن يعرف معنى آية واحدة من كتاب اللّه تعالى فإنّ في القرآن علم الأوّلين و الآخرين لمن فتحت بصيرته و قد قال:قتل الإنسان ما أكفره. من أيِّ شيء خلقه. من نطفة خلقه فقدَّره. ثمَّ السبيل يسّره. ثمَّ أماته فأقبره. ثمَّ إذا شاء أنشره ٨٠: ١٧ - ٢٢فقد أشارت الآية إلى أوّل خلق الإنسان و إلى آخر أمره و إلى وسطه فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أمّا أوّل

الإنسان فهو أنّه لم يكن شيئا مذكورا و قد كان ذلك في كتم العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أوّل فأيّ شيء أخسّ و أقلّ من المحو و العدم، و قد كان كذلك في القدم، ثمّ خلقه اللَّه تعالى من أرذل الأشياء، ثمّ من أقذرها إذ خلقه من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة، ثمّ جعله عظما ثمّ كسى العظام لحما، فقد كان هذا بداية وجوده حيث صار شيئا مذكورا، فما صار مذكورا إلا و هو على أخسّ الأوصاف و النعوت إذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع و لا يبصر و لا يحس

و لا يتحرّك و لا ينطق و لا يبطش و لا يدرك و لا يعلم، فبدأ بموته قبل حيوته، و بضعفه قبل قوّته، و بجهله قبل علمه، و بعماه قبل بصره، و بصممه قبل سمعه، و ببكمه قبل نطقه، و بضلالته قبل هداه، و بفقره قبل غناه، و بعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله تعالى«من أيّ شيء خلقه. من نطفة خلقه فقدّره» ٨٠: ١٨ - ١٩و معنى قوله تعالى:هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئا مذكورا. إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ٧٦: ١ - ٢كذلك خلقه أوّلا، ثمّ امتنّ عليه فقال:«ثمّ السبيل يسّره» ٨٠: ٢٠و هذه إشارة إلى ما تيسّر له في مدّة حياته إلى الموت و لذلك قال:«من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنّا هديناه السبيل»و معناه إنّه أحياه بعد أن كان جمادا ميتا ترابا أوّلا و نطفة ثانيا و أسمعه بعد ما كان أصمّ و بصّره بعد ما كان فاقد البصر، و قوّاه بعد الضعف، و علّمه بعد الجهل، و خلق له الأعضاء بما فيها من العجائب و الآيات بعد الفقد لها، و أغناه بعد الفقر، و أشبعه بعد الجوع، و كساه بعد العرى، و هداه بعد الضلال، فانظر كيف دبّره و صوّره و إلى السبيل كيف يسّره، و إلى طغيان الإنسان ما أكفره، و إلى جهل الإنسان كيف أظهره، فقال تعالى:أ و لم ير الإنسان أنّا

خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ٣٦: ٧٧و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون ٣٠: ٢٠فانظر إلى نعمة اللَّه عليه كيف نقله من تلك القلّة و الذّلّة و الخسّة و القذارة إلى هذه الرّفعة و الكرامة، فصار موجودا بعد العدم، و حيّا بعد الموت، و ناطقا بعد البكم، و بصيرا بعد العمى، و قويّا بعد الضعف، و عالما بعد الجهل، و مهديّا بعد الضلالة، و قادرا بعد العجز، و غنيّا بعد الفقر، فكان في ذاته لا شيء و أيّ شيء أخسّ من لا شيء و أيّ قلّة أقلّ من العدم المحض، ثمّ صار باللَّه شيئا و إنّما خلقه من التراب الذّليل و النطفة القذرة بعد العدم المحض ليعرفه خسّة ذاته فيعرف به نفسه و إنّما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربّه و يعلم بها عظمته و جلاله، و أنّه لا يليق الكبرياء إلا به و لذلك امتنّ

عليه فقال تعالى:أ لم نجعل له عينين. و لسانا و شفتين. و هديناه النجدين ٩٠: ٨ - ١٠و عرّف خسّته أوّلا فقال:أ لم يك نطفة من منيّ يمنى. ثمّ كان علقة - ثمّ ذكر منته عليه فقال: - فخلق فسوَّى. فجعل منه الزَّوجين الذكر و الأنثى ٧٥: ٣٧ - ٣٩ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده ابتداء بالاختراع، فمن كان هذا بدؤه و هذه أحواله فمن أين له البطر و الكبرياء و الفخر و الخيلاء و هو على التحقيق أخسّ الأخسّاء، و أضعف الضعفاء نعم لو أكمله و فوّض إليه أمره و أدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى و ينسى المبدء و المنتهى و لكنّه سلّط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة و الأسقام العظيمة و الآفات المختلفة و الطبايع المتضادة من المرّة و البلغم و الرّيح و الدّم يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى، رضي أم سخط، فيجوع كرها و يعطش كرها، و يمرض كرها و يموت كرها، لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرّا و لا خيرا و لا شرّا، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، و يريد أن

يذكر الشيء فينساه، و يريد أن ينسى الشيء و يغفل عنه فلا يغفل عنه، و يريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمّه فيجول في أودية الوساوس و الأفكار بالاضطرار فلا يملك قلبه قلبه و لا نفسه نفسه، و يشتهي الشيء و ربّما يكون هلاكه فيه و يكره الشيء و ربّما تكون حياته فيه، يستلذّ الأطعمة فتهلكه و ترديه، و يستبشع الأدوية و هي تنفعه و تحييه، لا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه و بصره و علمه و قدرته، و تفلج أعضاؤه، و يختلس عقله، و يختطف روحه، و يسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطرّ ذليل، إن ترك ما بقي، و إن اختطف فنى، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه و لا من غيره، فأيّ شيء أذلّ منه لو عرف نفسه و أنّى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمّله، و أمّا آخره و مورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى:ثمّ أماته فأقبره. ثمّ إذا شاء أنشره ٨٠: ٢١ - ٢٢و معناه أنّه يسلب روحه و سمعه و بصره و علمه و قدرته و حسّه و إدراكه و حركته فيعود جمادا كما كان أوّل مرّة لا يبقى إلا شكل أعضائه و صورته لا حسّ فيه و لا حركة، ثمّ يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأوّل نطفة

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٥٥

مذرة ثمّ تبلى أعضاؤه و صورته و تتفتّت أجزاؤه و تنخر عظامه، فيصير رميما و رفاتا، و يأكل الدّود أجزاءه فيبتدي بحدقتيه فيقلعهما، و بخدّيه فيقطعهما، و بسائر أجزائه فيصير روثا في أجواف الديدان، و يكون جيفة يهرب منه الحيوان و يستقذره كلّ إنسان، و يهرب منه لشدّة الانتان، و أحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابا يعمل منه الكيزان و يعمر منه البنيان، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا، و صار كأن لم يغن بالأمس حصيدا كما كان أوّل أمره أمدا مديدا.

و ليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك ترابا لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرّقة، و يخرج إلى أ هوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة، و سماء ممزّقة مشقّقة، و أرض مبدّلة، و جبال مسيّرة، و نجوم منكدرة، و شمس منكسفة، و أحوال مظلمة، و ملائكة غلاظ شداد، و جحيم تزفر، و جنّة ينظر إليها المجرم فيتحسّر، و يرى صحائف منشورة فيقال له: اقرأ كتابك، فيقول: و ما هو؟ فيقال: كان قد و كلّ بك في حياتك الّتي كنت تفرح بها و تتكبّر بنعيمها و تفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل و كثير و نقير و قطمير و أكل و شرب و قيام و قعود و قد نسيت ذلك و أحصاه اللّه عليك، فهلمّ إلى الحساب و استعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب فيتقطّع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب من قبل أن تنشر الصحف و يشاهد ما فيها من مخازيه فإذا شاهدها قال:«يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها»فهذا آخر أمره و هو معنى قوله عزّ و جلّ:«ثمّ إذا شاء أنشره»فما لمن هذه حاله و التكبّر و التعظّم؟ بل ماله و للفرح في لحظة واحدة فضلا عن البطر و التجبّر، فقد ظهر له أوّل حاله و وسطه و لو ظهر آخره - و العياذ باللّه - ربّما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا ليصير مع البهائم ترابا و لا يكون إنسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا، و إن كان عند اللّه مستحقّا للنار فالخنزير أشرف منه و أطيب و أرفع إذ أوّله التراب و آخره التراب و هو بمعزل عن الحساب و العذاب، و الكلب و الخنزير لا يهرب منه الخلق و لو رأى أهل الدّنيا العبد المذنب في النّار لصعقوا من وحشة خلقته و قبح

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٥٦

صورته، و لو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه و لو وقعت قطرة من شرابه الّذي يسقى منه في بحار الدّنيا لصارت أنتن من

الجيف فمن هذا حاله في العاقبة - إلا أن يعفو عنه و هو على شكّ من العفو - فكيف يفرح و يبطر؟ و كيف يتكبّر و يتجبّر؟ و كيف يرى نفسه شيئا حتّى يعتقد لها فضلا؟ و أيّ عبد لم يذنب ذنبا استحقّ به العقوبة إلا أن يعفو الكريم بفضله، أ رأيت من جنى على بعض الملوك فاستحقّ به ألف سوط فحبس في السجن و هو منتظر أن يخرج إلى العرض و تقام عليه العقوبة على ملاء من الخلق و ليس يدري أ يعفى عنه أم لا كيف يكون ذلّه في السجن أفترى أنّه يتكبّر على من معه في السّجن؟ و ما من عبد مذنب إلا و الدّنيا سجنه و قد استحقّ العقوبة من اللَّه تعالى و لا يدري كيف يكون أمره فيكفيه ذلك حزنا و خوفا و إشفاقا و مهانة و ذلا فهذا هو العلاج العلميّ القامع لأصل الكبر.

و أمّا العلاج العمليّ فهو التواضع للَّه تعالى بالفعل

و لسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه و حكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم حتّى أنّه كان يأكل على الأرض و يقول:«إنّما أنا عبد آكل كما يأكل العبد».

و قيل لسلمان: لم لا تلبس ثوبا جديدا فقال: إنّما أنا عبد فإذا اعتقت يوما لبست. أشار به إلى العتق في الآخرة.

و لا يتمّ التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل و لذلك امر العرب الّذين تكبّروا على اللَّه و رسوله بالإيمان و بالصّلاة جميعا. و قيل: الصّلاة عماد الدّين و في الصّلاة أسرار لأجلها كانت عمادا و من جملة ما فيها التواضع بالمثول قائما و بالرّكوع و السجود، و قد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان ربّما يسقط من يد أحد سوطه فلا ينحني لأخذه، و ينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، حتّى قال حكيم بن حزام: بايعت رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم على أن لا أخرّ إلا قائما فبايعه النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم على ذلك ثمّ فقه و كمل إيمانه بعد ذلك» [١] فلمّا

[١] أخرجه أحمد مقتصرا يعنى إلى قوله: «أن لا أخر الا قائما» و فيه إرسال خفى» (المغني).

كان السجود عندهم هو منتهى المذلّة و الضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم، و يزول به كبرهم، و يستقرّ التواضع في قلوبهم، و أمر به سائر الخلق فإنّ الرّكوع و السجود و المثول قائما هو العمل الّذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كلّ ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضها حتّى يصير التواضع له خلقا فإنّ القلوب لا تتخلّق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم و العمل جميعا و ذلك لخفاء العلاقة بين القلب و الجوارح و سرّ الارتباط الّذي بين عالم الملك و عالم الملكوت، و القلب من عالم الملكوت.

المقام الثّاني فيما يعرض من التكبّر بالأسباب السبعة المذكورة،

و قد ذكرنا في كتاب ذمّ الجاه أنّ الكمال الحقيقيّ هو العلم و العمل فأمّا ما عداه ممّا يفنى بالموت فكمال و همىّ فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبّر و لكنّا نذكر طريق العلاج من العلم و العمل في جميع الأسباب السبعة.

السبب الأوّل: النسب

فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين: أحدهما أنّ هذا جهل من حيث إنّه تعزّز بكمال غيره و لذلك قيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت

و لكن بئس ما ولدوافالمتكبّر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسّته بكمال غيره، بل لو كان الّذي ينتسب إليه حيّا لكان له أن يقول: الفضل لي و من أنت إنّما أنت دودة خلقت من بولي، أفترى أنّ الدّودة الّتي خلقت

من بول إنسان أشرف من الدّودة الّتي من بول فرس؟ هيهات بل هما متساويان و الشرف للإنسان لا للدّودة.

الثاني هو أن يعرف نسبه الحقيقيّ فيعرف أباه و جدّه، فإنّ أباه القريب نطفة قذرة و جدّه البعيد تراب ذليل و قد عرّفه اللّه تعالى نسبه فقال:«الّذي أحسن كلّ شيء خلقه و بدأ خلق الإنسان من طين. ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين» ٣٢: ٧ – ٨فمن أصله من التّراب المهين الّذي يداس بالأقدام ثمّ خمّر طينه حتّى

صار حمأ مسنونا كيف يتكبّر، و أخسّ الأشياء ما إليه نسبه إذ يقال: يا أذلّ من التراب و يا أنتن من الحمأ و يا أقذر من المضغة، فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: افتخر بالقريب دون البعيد، فالنطفة و المضغة أقرب إليه من الأب فليحتقر نفسه بهما، ثمّ إن كان ذلك يوجب رفعة بالأب لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته، فإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرّفعة لولده فإذن أصله من التراب و فصله من النطفة، فلا أصل له و لا فصل له و هذه غاية خسّة النسب و الأصل يوطأ بالأقدام و الفصل تغسل منه الأبدان. فهذا هو النسب الحقيقيّ للإنسان و من عرفه لم يتكبّر بالنسب، و يكون مثاله بعد هذه المعرفة و انكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم و قد أخبره بذلك والداه فلم تزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشكّ في قولهم أنّه ابن هنديّ حجّام يتعاطى القاذورات و كشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شكّ في صدقهم أفترى أنّ ذلك يبقى شيئا من كبره لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس و أذلّهم فهو من استشعار الخزي لخسّته في شغل عن أن يتكبّر على غيره، فهذه حال البصير إذا تفكّر في أصله و علم أنّه من النطفة و المضغة و التراب، إذ لو كان أبوه ممّن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى

الدّم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسّة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب و الدّم فكيف إذا عرف أنّه في نفسه من التراب و الدّم و الأشياء القذرة الّتي يتنزّه عنها هو في نفسه.

السّبب الثّاني: الكبر بالجمال

و دواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء و لا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم و مهما نظر إلى باطنه رأى من الفضايح ما يكدر عليه التعزّز بجماله، فإنّه وكّل به الأقذار في جميع أجزائه الرّجيع في أمعائه، و البول في مثانته، و المخاط في أنفه، و البصاق في فيه. و الوسخ في إذنه و الدّم في عروقه، و الصديد تحت بشرته، و الصنان تحت إبطه يغسل الغائط كلّ يوم دفعة أو دفعتين بيده يتردّد إلى الخلاء كلّ يوم مرّة أو مرّتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلا

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٥٩

عن أن يمسّه أو يشمّه كلّ ذلك يعرف قذارته و ذلّه هذا في حال توسّطه و في أوّل أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور من النطفة و دم الحيض و أخرج من مجاري الأقذار إذ خرج من الصلب، ثمّ من الذّكر مجرى البول، ثمّ من الرّحم مفيض دم الحيض، ثمّ خرج من مجرى القذر، هذا أوّله و وسطه و لو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهّدها بالتنظيف و الغسل لثارت منه الأنتان و الأقذار و صار أقذر و أنتن من الدّوابّ المهملة الّتي لا تتعهّد نفسها قطّ، فإذا نظر أنّه خلق من أقذار و أسكن في أقذار و سيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الّذي هو كخضراء الدّمن و كلون الأزهار في البوادي، فبينما هو كذلك إذا صار هشيما تذروه الرّياح، كيف و لو كان جماله باقيا و عن هذه القبايح خاليا لكان يجب أن لا يتكبّر به على القبيح إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه و لا كان جمال الجميل إليه حتّى يحمد عليه، كيف و لا بقاء له بل هو في كلّ حال يتصوّر أن يزول بمرض أو جدريّ أو قرحة أو سبب من الأسباب، فكم من

وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأمّلها.

السبب الثالث التكبّر بالقوّة و الأيدي

و يمنعه من ذلك أن يعلم ما سلّط عليه من العلل و الأمراض و أنّه لو توجّع عرق واحد من بدنه لصار أعجز من كلّ عاجز و أذلّ من كلّ ذليل، و أنّه لو سلبه الذّباب شيئا لم يستنقذه منه، و أنّ بقّة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في إذنه لقتلته، و أنّ شوكة لو دخلت رجله لأعجزته و أنّ حمىّ يوم تحلّل من قوّته ما لا ينجبر في مدّة فمن لا يطيق شوكة و لا يقاوم بقّة و لا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوّته، ثمّ إنّ قوى الإنسان لا يكون أقوى من حمار أو فيل أو جمل أو بقر و أيّ افتخار في صفة تسبقك البهائم فيها.

السبب الرابع و الخامس الغنى و كثرة المال

و في معناه كثرة الأتباع و الأنصار و التكبّر بولاية السلاطين و التمكّن من جهتهم، و كلّ ذلك تكبّر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال و القوّة و العلم، و هذا أقبح أنواع الكبر فإنّ المتكبّر بماله كأنّه متكبّر بفرسه و داره و لو مات فرسه و انهدمت داره لعاد ذليلا

و المتكبّر بتمكين السلطان و ولايته لا بصفة في نفسه بني أمره على قلب هو أشدّ غليانا من القدر، فإن تغيّر عليه كان أذلّ الخلق و كلّ متكبّر بأمر خارج من ذاته فهو ظاهر الجهل كيف و المتكبّر بالغنى لو تأمّل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى و الثروة و التجمّل، فأفّ لشرف يسبقك اليهود به، و أفّ لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا، فهذه أسباب ليست في ذاته، و ما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده و هو في الآخرة و بال و نكال فالتفاخر به غاية الجهل، و كلّ ما ليس إليك فليس لك و

شيء من الأمور ليس إليك بل إلى واهبها إن أبقاها بقيت و إن استرجعها زالت عنك و ما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء، فمن عرف ذلك فلا بدّ أن يزول كبره و مثاله أن يفخر الغافل بقوّته و جماله و ماله و حرّيته و استقلاله و سعة منازله و كثرة خيوله و غلمانه إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنّه رقيق لفلان و أنّ أبويه كانا مملوكين له فعلم ذلك و حكم به الحاكم فجاء مالكه فأخذه و أخذ جميع ما في يديه و هو مع ذلك يخشى أن يعاقبه و ينكل به لتفريطه في أمواله و تقصيره في طلب مالكه ليعرف أنّ له مالكا، ثمّ نظر العبد فرأى نفسه محبوسا في منزل قد أحدقت به الحيّات و العقارب و الهوامّ و هو في كلّ حال على وجل من كلّ واحدة منها و قد بقي لا يملك نفسه و لا ماله و لا يعرف طريقا في الخلاص البتّة، أفترى أنّ من هذه حاله هل يفتخر بقدرته و ثروته و ماله و قوّته و كماله؟ أم يذلّ في نفسه و يخضع؟ و هذا حال كلّ عاقل بصير فإنّه يرى نفسه كذلك فإنّه لا يملك رقبته و بدنه و أعضاءه و ماله و هو مع ذلك بين آفات و شهوات و أمراض و أسقام هي كالعقارب و الحيّات يخاف منها الهلاك فمن هذه حاله لا يتكبّر بقدرته و قوّته إذ يعلم أنّه لا قدرة له و لا قوّة.

فهذا طريق علاج التكبّر بالأسباب الخارجة و هو أهون من علاج التكبّر بالعلم و العمل فإنّهما كما لان في النفس جدير ان بأن يفرح بهما و لكن في التكبّر بهما

أيضا نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس الكبر بالعلم

و هذا أعظم الآفات و أغلب الأدواء و أبعدها عن قبول العلاج إلا بشدّة شديدة و جهد جهيد، و ذلك لأنّ قدر العلم عظيم عند اللّه، عظيم عند الناس، و هو أعظم من قدر المال و الجمال و غيرهما بل لا قدر لهما أصلا إلا إذا كان

معهما عمل و علم، و لذلك قيل: للعلم طغيان كطغيان الماء، و قيل:

العالم إذا زلّ زلّ بزلّته عالم كثير. فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم، و لن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين أحدهما أن يعلم أنّ حجّة اللّه على أهل العلم آكد و أنّه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم و أنّه عصى اللّه عن معرفة و علم فجنايته أفحش إذ لم يقض حقّ نعمة اللّه عليه في العلم و لذلكقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرّحا فيطيف أهل النّار فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير و لا آتيه و أنهى عن الشرّ و آتيه».

و قد مثّل اللّه سبحانه و تعالى من يعلم و لا يعمل بالحمار و الكلب فقال:«مثل الّذين حمّلوا التورية ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا» ٦٢: ٥أراد به علماء اليهود. و قال تعالى في بلعم بن باعورا:و اتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. و لو شئنا لرفعناه بها و لكنّه أخلد إلى الأرض و اتّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ٧: ١٧٥ – ١٧٦أي سواء آتيته الحكمة أو لم اوته فلا يدع شهوته، فيكفي العالم هذا الخطر فأيّ عالم لم يتبع شهوته و أيّ عالم لم يأمر بالخير الّذي لا يأتيه، فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكّر في الخطر العظيم الّذي هو بصدده فإنّ خطره أعظم

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٦٢

من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره فهذا بذلك، و هو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنّه إذا أخذ و قهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا، فكم من عالم

يشتهي في الآخرة سلامة الجهّال و العياذ باللّه فهذا الخطر يمنع التكبّر لأنّه إن كان من أهل النّار فالخنزير أفضل منه فكيف يتكبّر من هذا حاله، فلا ينبغي أن يكون العالم أكبر عند نفسه من الصحابة؟ و قد كان بعضهم يقول:
يا ليتني لم تلدني أمّي، و يأخذ الآخر تبنة من الأرض و يقول: يا ليتني كنت هذه التبنة، و يقول الآخر: يا ليتني كنت طيرا، كلّ ذلك خوفا من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير و من التراب و مهما أطال فكره في الخطر الّذي هو بصدده زال بالكلّية كبره و رأى نفسه كأنّه شرّ الخلق. و مثاله مثال عبد أمره سيّده بامور فشرع فيها و ترك بعضها و أدخل النقصان في بعضها و شكّ في بعضها أنّه هل أدّاها كما يرتضيه مولاه أم لا فأخبر مخبر أنّ مولاه مرسل إليه رسولا يخرجه من كلّ ما هو فيه عريانا ذليلا و يلقيه على بابه في الشمس و الحرّ زمانا طويلا حتّى إذا ضاق عليه الأمر و بلغ به الجهد أمر برفع حسابه و فتّش عن جميع أعماله قليلها و كثيرها ثمّ أمر به إلى سجن ضيق و عذاب دائم لا يروح عنه ساعة، و قد علم أنّ سيّده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك و عفى عن بعضهم و هو لا يدري في أيّ الفريقين يكون فإذا تفكّر في ذلك انكسرت نفسه و ذلّ و بطل عزّه و كبره و ظهر حزنه و خوفه و لم يتكبّر على أحد من الخلق بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكّر فيما ضيّعه من أوامر ربّه بجنايات على جوارحه و بذنوب في باطنه من الرّياء و الحقد و الحسد و العجب و النفاق و غيره و علم ممّا هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.
الأمر الثاني أنّ العالم يعلم أنّ الكبر لا يليق إلا باللّه جلّ و عزّ وحده و أنّه إذا تكبّر صار ممقوتا عند اللّه بغيضا و قد أحبّ اللّه منه أن يتواضع و قال له: إنّ لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي فلا بدّ

أن يكلّف نفسه ما يحبّ مولاه منه فهذا يزيل التكبّر عن قلبه و إن كان يستيقن أنّه لا ذنب له

مثلا إن تصوّر ذلك و بهذا زال الكبر عن الأنبياء إذ علموا أنّ من نازع اللَّه في رداء الكبرياء قصمه و قد أمرهم بأن يصغّروا أنفسهم حتّى يعظم عند اللَّه محلّهم، فهذا أيضا ممّا يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق و للمبتدع؟ و كيف يرى نفسه دونهم و هو عالم عابد؟ و كيف يجهل فضل العلم و العبادة عند اللَّه عزّ و جلّ؟ و كيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم و هو يعلم أنّ خطر الفاسق و المبتدع أكثر؟ فاعلم أنّ ذلك إنّما يمكن بالتفكّر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبّر عليه إذ يتصوّر أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان و يضلّ هذا العالم فيختم له بالكفر، و الكبير من هو كبير عند اللَّه في الآخرة و الكلب و الخنزير أعلى رتبة ممّن هو عند اللَّه من أهل النّار و هو لا يدري ذلك، فالعواقب مطويّة عن العباد و لا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة و جميع الفضائل في الدّنيا إنّما تراد للعاقبة فإذن من حقّ العبد أن لا يتكبّر على أحد، بل إن نظر إلى جاهل قال: إنّه عصى اللَّه بجهل و أنا عصيت اللَّه بعلم فهو أعذر منّي، و إن نظر إلى عالم فيقول: إنّه قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله، و إن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنّا قال: هذا قد أطاع اللَّه قبلي فكيف أكون مثله، و إن نظر إلى صغير قال: إنّي عصيت اللَّه قبله فكيف أكون مثله، و إن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعلّه يختم له بالإسلام و يختم لي بما هو عليه الآن فليس دوام الهداية إليّ كما لم يكن ابتداؤها إليّ فبملاحظة الخاتمة يقدر أن ينفي الكبر عن نفسه و كلّ ذلك بأن يعلم أنّ الكمال في سعادة الآخرة و القرب من اللَّه لا فيما يظهر في الدّنيا ممّا لا

بقاء له و لعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبّر و المتكبّر عليه و لكن حقّ على كلّ واحد أن يكون مصروف الهمّ إلى نفسه، مشغول القلب بخوفه لعاقبته لا أن يشتغل بخوف غيره، فإنّ الشفيق بسوء الظنّ مولع و شفقة كلّ إنسان على نفسه، فإذا حبس جماعة في جناية و أو عدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرّقوا لتكبّر بعضهم على بعض و إن عمّهم الخطر، اذ شغل كلّ واحد منهم همّ نفسه عن الالتفات إلى همّ غيره حتّى كان كلّ

واحد هو وحده في مصيبته و خطره.

فإن قلت: فكيف لا أبغض المبتدع في اللَّه و أبغض الفاسق و قد أمرت ببغضهما ثمّ مع ذلك أتواضع لهما؟ و الجمع بينهما متناقض؟ فاعلم أنّ هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك للَّه في إنكار البدعة و الفسق بكبر النفس و الإدلال بالعلم و الورع، فكم من عابد جاهل و عالم مغرور إذا رأى فاسقا جلس بجنبه أزعجه من عنده و تنزّه عنه بكبر باطن في نفسه و هو ظانّ أنّه قد غضب للَّه كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم، و ذلك لأنّ الكبر على المطيع ظاهر كونه شرّا و الحذر عنه ممكن و الكبر على الفاسق و المبتدع يشبه الغضب للَّه و هو خير فإنّ الغضبان أيضا يتكبّر على من غضب عليه و المتكبّر يغضب و أحدهما يثمر الآخر و يوجبه و هما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفّقون، و الّذي يخلّصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق إذا أمرتها بالمعروف و نهيتها عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدها التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك و خطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

و الثاني أن تكون ملاحظتك لما أنت متميّز به من العلم و اعتقاد الحقّ و العمل الصالح من حيث أنّها نعمة من اللَّه

عليك فله المنّة فيه لا لك فترى ذلك منه حتّى لا تعجب بنفسك و إذا لم تعجب لم تتكبّر.
و الثالث ملاحظة إبهام عاقبتك و عاقبته أنّه ربما يختم له بالخير و يختم لك بالسوء حتّى يشغلك الخوف عن التكبّر عليه.
فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك و سيّدك إذ أمرك بأن تغضب لا لنفسك و أنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيا و صاحبك هالكا بل يكون خوفك على نفسك بما علم اللَّه من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، و أعرفك ذلك بمثال لتعلم أنّه ليس من ضرورة الغضب للَّه أن تتكبّر على المغضوب عليه و ترى قدرك فوق قدره، فأقول: إذا كان للملك غلام
المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٦٥
و ولد هو قرّة عينه و قد وكّل الغلام بالولد ليراقبه و أمره بأن يضربه مهما أساء أدبه، و اشتغل بما لا يليق به و يغضب عليه، فإن كان الغلام مطيعا محبّا لمولاه فلا يجد بدّا من أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، و إنّما يغضب عليه لمولاه و لأنّه يريد التقرّب بامتثال أمره إليه، و لأنّه جرى من ولده ما يكره مولاه فيضرب ولده و يغضب عليه من غير تكبّر له عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لأنّ الولد أعزّ لا محالة من الغلام فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبّر و عدم التواضع، فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع و الفاسق و تظنّ أنّه ربما كان قدرهما عند اللَّه في الآخرة أعظم لما سبق لهما من الحسني في الأزل و لما سبق لك من سوء القضاء في الأزل و أنت غافل عنه و مع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبّة لمولاك إذا جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عند اللَّه أقرب منك في الآخرة فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضمّ إليه الخوف و التواضع، و أمّا المغرور فإنّه يتكبّر و يرجو لنفسه أكثر

ممّا يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة و ذلك غاية الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى اللَّه أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه و مجانبته بحكم الأمر.

السّبب السّابع التكبّر بالورع و العبادة

و ذلك أيضا فتنة عظيمة على العبّاد، و سبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد و هو أن يعلم أنّ من يتقدّم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبّر عليه كيف ما كان لما عرفه من فضيلة العلم و قد قال اللَّه تعالىهل يستوي الّذين يعلمون و الّذين لا يعلمون ٣٩: ٩وقال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»

إلى غير ذلك ممّا ورد في فضل العالم، فإن قال: العابد ذلك لعالم العامل بعلمه و هذا عالم فاجر؟ فيقال له: أما علمت أنّ الحسنات يذهبن السيئات و كما أنّ العلم يمكن أن يكون حجّة على العالم فيمكن أن يكون وسيلة له و كفّارة لذنوبه و كلّ واحد منهما ممكن، و قد وردت

الأخبار بما يشهد لذلك و إذا كان هذا الأمر غائبا عنه لم يجز له أن يحتقر عالما بل يجب عليه أن يتواضع له.

فإن قلت: فإن صحّ هذا فينبغي أن يكون العالم يرى نفسه فوق العابدبقول رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«فضل العالم على العابد كفضلي علي أدنى رجل من أصحابي»؟

فاعلم أنّ ذلك ممكن لو علم العالم عاقبة أمره، و خاتمة الأمر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند اللَّه أشدّ من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هيّنا و هو عند اللَّه عظيم و قد مقته به و إذا كان هذا ممكنا كان على نفسه خائفا فإذا كلّ واحد من العالم و العابد خائف على

نفسه و قد كلّف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حقّ نفسه الخوف و في حقّ غيره الرّجاء و ذلك يمنعه من التكبّر بكلّ حال، فهذا حال العابد مع العالم فأمّا مع غير العالم فهم منقسمون في حقّه إلى مستورين و إلى مكشوفين فينبغي أن لا يتكبّر على المستور فلعلّه أقلّ منه ذنبا و أكثر منه عبادة و أشدّ منه حبّا للّه. و أمّا المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذّنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبّر عليه و لا يمكن أن تقول هو أكثر منّي ذنبا لأنّ عدد ذنوبك و ذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتّى تعلم الكثرة من القلّة، نعم يمكن أن يعلم أنّ ذنوبه أشدّ كما لو رأيت منه القتل و الشرب و الزناء و مع ذلك فلا ينبغي أن تتكبّر عليه، إذ ذنوب القلوب من الكبر و الحسد و الرّياء و الغلّ و اعتقاد الباطل و الوسوسة في صفات اللّه و تخيّل الخطأ فيه كلّ ذلك شديد عند اللّه، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذّنوب ما صرت به عند اللّه ممقوتا، و قد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حبّ اللّه و إخلاص و خوف و تعظيم ما أنت خال عنه و قد كفّر بذلك سيئاته فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن و الإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك، و إن كنت مشفقا على نفسك فلا تتفكّر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقّك فإنّه لا تزر وازرة وزر أخرى و عذاب غيرك لا يخفّف شيئا من عذابك فإذا تفكّرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن

التكبّر و عن أن ترى نفسك فوق غيرك، و قد قال وهب بن منبّه: ما تمّ عقل عبد حتّى تكون فيه عشر خصال فعدّ تسعة حتّى بلغ العاشرة فقال: العاشرة و ما العاشرة بها ساد مجده و بها علا ذكره أن يرى الناس كلّهم خيرا منه و إنّما الناس عنده

فرقتان فرقة هي أفضل منه و أرفع و فرقة هي شرّ منه و أدنى فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه إن رأى من هو خير منه سرّه و تمنّى أن يلحق به. و إن رأى من هو شرّ منه قال: لعلّ هذا ينجو و أهلك أنا فلا يراه شرّا منه خائفا من العاقبة، و يقول: لعلّ برّ هذا باطن فذلك خير له، و لا أدري لعلّ فيه خلق كريم بينه و بين اللّه فيرحمه اللّه و يتوب عليه و يختم له بأحسن الأعمال و برّي ظاهر فذلك شرّ لي لا آمن فيما أظهر من الطاعة أن تكون دخلها الآفات فأحبطتها، ثمّ قال: فحينئذ كمل عقله و ساد أهل زمانه فهذا كلامه، و بالجملة من جوّز أن يكون عند اللّه شقيّا و قد سبق القضاء الأزليّ بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبّر بحال من الأحوال، نعم إذا غلبه الخوف رأى كلّ أحد خيرا من نفسه و ذلك هو الفضيلة كما روي أنّ عابدا أوى إلى جبل فقيل له في النوم: ائت فلانا الاسكاف فسله أن يدعو لك فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنّه يصوم النهار و يكتسب و يتصدّق ببعضه و يطعم عياله ببعضه فرجع و هو يقول: إنّ هذا لحسن و لكن ليس هذا كالتفرّغ لطاعة اللّه فأتى في النوّم ثانيا فقيل:

له ائت الاسكاف فقل له: ما هذا الصفار الّذي بوجهك فأتاه فسأله، فقال له: ما رأيت أحدا من الناس إلا وقع لي أنّه سينجو و أهلك أنا، فقال العابد بهذه.

و الّذي يدلّ على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى:و الّذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة ٢٣: ٦٠اي يؤتون الطاعات و هم على وجل عظيم من قبولها.

و قال:«إنَّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون» ٢٣: ٥٧.

و قال:إنّا كنّا قبل في أهلنا مشفقين ٥٢: ٢٦و قد وصف اللّه الملائكة مع تقدّسهم عن الذّنوب و مواظبتهم على العبادات على الدّءوب بالاشفاق فقال:يسبّحون

اللّيل و النهار لا يفترون ٢١: ٢٠و هم من خشيته مشفقون ٢١: ٢٨فمتى زال الإشفاق و الحذر ممّا سبق به القضاء في الأزل و ينكشف عند خاتمة الأجل غلب الأمن من مكر اللَّه و ذلك يوجب الكبر و هو سبب الهلاك، فالكبر دليل الأمن و الأمن مهلك، و التواضع دليل الخوف و هو مسعد، فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر و احتقار الخلق و النّظر إليهم بعين الاستصغار أكثر ممّا يصلحه بظاهر الأعمال، فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير، إلا أنّ النّفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع و تدعى البراءة من الكبر و هي كاذبة فإذا وقعت الواقعة عادت النّفس إلى طبعها و نسيت وعدها فعن هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرّد المعرفة بل ينبغي أن يكمل المعرفة بالعمل و يجرّب نفسه بأعمال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النّفس

و بيانه أن يمتحن النّفس بخمس امتحانات

هي أدلّة على استخراج ما في الباطن و إن كانت الامتحانات كثيرة.

الامتحان الاوّل أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه

فإن ظهر شيء من الحقّ على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله و الانقياد له و الاعتراف به و الشكر له على تنبيهه و تعريفه و إخراجه الحقّ فذلك يدلّ على أنّ فيه كبرا دفينا فليتّق اللَّه فيه و ليشتغل بعلاجه إمّا من حيث العلم فبأن يذكّر نفسه خسّة نفسه و خطر عاقبته و أنّ الكبر لا يليق إلا باللَّه تعالى، و إمّا من حيث العمل فبأن يكلّف نفسه ما يثقل عليه من الاعتراف بالحقّ فيطلق اللّسان بالحمد و الثّناء و يقرّ على نفسه بالعجز و يشكره على الاستفادة و يقول: ما أحسن ما فطنت له و قد كنت غافلا عنه فجزاك اللَّه خيرا كما نبّهتني له فالحكمة ضالّة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دلّه عليها، فإذا واظب على ذلك مرّات متواليه صار ذلك له طبعا و سقط ثقل الحقّ عن قلبه و طاب له قبوله، و مهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر فإن كان ذلك لا

يثقل عليه في الخلوة و يثقل في الملأ فليس فيه كبر و إنّما فيه رياء فليعالج الرّياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن النّاس و يذكّر القلب بأن منفعته

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٦٩

في كماله في ذاته و عند اللّه لا عند الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرّياء و إن ثقل عليه ذلك في الخلوة و الملأ جميعا ففيه الكبر و الرّياء جميعا و لا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلّص من الثاني فليعالج كلا الدّاعين فإنّهما جميعا مهلكان.

الامتحان الثاني أن يجتمع مع الأقران و الأمثال في المحافل و يقدّمهم على نفسه و يمشي خلفهم و يجلس في الصّدور تحتهم، فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبّر فليواظب عليه تكلّفا حتّى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر، و ههنا للشيطان مكيدة و هي أن يجلس في صفّ النّعال أو يجعل بينه و بين الأقران بعض الأرذال فيظنّ أنّ ذلك تواضع و هو عين الكبر فإنّ ذلك يخفّ على نفوس المتكبّرين إذ يوهمون أنّهم إنّما تركوا مكانهم بالاستحقاق و التفضّل فيكون قد تكبّر، و تكبّر بإظهار التواضع أيضا، بل ينبغي أن يقدّم أقرانه و يجلس تحتهم و لا ينحطّ عنهم إلى صفّ النعال فذلك هو الّذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث أن يجيب دعوة الفقير

و يمرّ إلى السّوق في حاجة الرّفقاء و الأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر فإنّ هذه الأفعال من مكارم الأخلاق و الثواب عليها جزيل فنفور النّفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكّر جميع ما ذكرناه من المعارف الّتي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرّابع أن يحمل حاجة نفسه و حاجة أهله و رفقائه من السّوق إلى البيت

فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلوّ الطريق فهو كبر فإن كان لا يثقل إلا عند مشاهدة الناس فهو رياء، و كلّ ذلك من أمراض القلب و علله المهلكة له إن لم تتدارك.

أقول: ليس كلّ رياء مذموما بل قد يكون مستحبّا بل واجبا إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه و أن لا يفعل ما يعاب عليه فلا يليق بذوي المروّات أن يرتكبوا الأمور الخسيسة بأنفسهم عند مشاهدة الناس و إن جاز لهم في الخلوة إلا أنّ ذلك يختلف باختلاف الأزمنة و البلاد و الأشخاص فلا بدّ من مراعاة ذلكروي في الكافي

عن الصّادق عليه السّلام«أنّه نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئا و هو يحمله فلمّا رآه الرّجل استحيي منه فقال عليه السّلام: اشتريته لعيالك و حملته إليهم أما و اللَّه لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشيء ثمّ أحمله إليهم»

أراد عليه السّلام لولا مخافة أن يعيبوا على ذلك، مع أنّ جدّه أمير المؤمنين عليه السّلام كان يفعل مثله إلا أنّه لمّا لم يعيبوا عليه بمثله في زمانه و في شأنه جاز له أن يرتكبه و كان منقبة له و تعليما.

قال أبو حامد: و قد أهمل النّاس طبّ القلوب و اشتغلوا بطبّ الأجساد مع أنّ الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة و القلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال اللَّه تعالى:إلا من أتى اللَّه بقلب سليم ٢٦: ٨٩.

و يروى عن عبد اللَّه بن سلام أنّه حمل حزمة حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في غلمانك و بنيك من يكفيك، قال: أجل و لكن أردت أن أجرّب نفسي هل تنكر ذلك، فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتّى جرّ بها أ هي

صادقه أم كاذبة وفي الخبر«من حمل الفاكهة أو الشيء فقد برئ من الكبر».

الامتحان الخامس أن يلبس ثيابا بذلة

فإنّ نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء و في الخلوة كبر، وقد قال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«من اعتقل البعير و لبس الصوف فقد برئ من الكبر».

وقال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«إنّما أنا عبد آكل بالأرض و ألبس الصّوف و أعقل البعير و ألعق أصابعي و أجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنّتي فليس منّي».

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٧١

و هذه مواضع يجتمع فيها الرّياء و الكبر فما يختصّ بالملإ فهو الرّياء و ما يكون في الخلوة فهو الكبر، فليعرف فإنّ من لا يعرف الشرّ لا يتّقيه و من لا يدرك المرض لا يداويه.

(بيان غاية الرّياضة في خلق التواضع)

اعلم أنّ هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان و واسطة فطرفه الّذي يميل إلى الزيادة يسمّى تكبّرا و طرفه الّذي يميل إلى النقصان يسمّى تخاسسا و مذلّة و الوسط يسمّى تواضعا و المحمود أن يتواضع في غير مذلّة و من غير تخاسس، فإنّ كلا طرفي قصد الأمور ذميم و أحبّ الأمور إلى اللَّه تعالى أوساطها فمن يتقدّم على أمثاله فهو متكبّر و من يتأخّر عنهم فهو متواضع أي أنّه وضع شيئا من قدره الّذي يستحقّه و العالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحّى له عن مجلسه و أجلسه فيه ثمّ تقدّم و سوّى له نعله و غدا إلى الباب خلفه فقد تخاسس و تذلّل و هذا أيضا غير محمود بل المحمود عند اللَّه العدل و هو أن يعطي كلّ ذي حقّ حقّه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله و لمن يقرب منه درجته، فأمّا تواضعه للسوقي فبالقيام و البشر في الكلام و الرّفق في السّؤال و إجابة دعوته و السعي في حاجته و أمثال ذلك، و أن لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه

على غيره فلا يحتقره و لا يستصغره و هو لا يعرف خاتمة أمره و خاتمته، فإذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران و لمن دونهم حتّى يخفّ عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خفّ عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع و إن كان يثقل عليه و هو يفعل ذلك فهو متكلّف لا متواضع، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل و من غير رويّة، فإن خفّ ذلك و صار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتّى أحبّ التملّق و التخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن يذلّ نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الّذي هو الصراط المستقيم و ذلك غامض في هذا الخلق و سائر الأخلاق و الميل عن الوسط إلى طرف النقصان و هو التملّق أهون من الميل إلى طرف الزّيادة بالتكبّر كما أنّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند

الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير و نهاية البخل مذمومان و أحدهما أفحش من الآخر، و كذلك نهاية التكبّر و نهاية التبصبص و التذلّل مذمومان و أحدهما أقبح من الآخر و المحمود المطلق هو العدل و وضع الأمور في مواضعها، و على ما يجب و على ما يعرف من ذلك بالشرع و العادة و لنقتصر على هذا من بيان خلق الكبر.

(الشطر الثاني من الكتاب في العجب)

و فيه بيان ذمّ العجب و آفته، و بيان حقيقة العجب و الإدلال و حدّهما، و بيان علاج العجب على الجملة، و بيان أقسام ما به العجب و تفصيل علاجه.

(بيان ذم العجب و آفته)

اعلم أنّ العجب مذموم في كتاب اللَّه تعالى و سنّة نبيّه محمّد صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم قال اللَّه تعالى:و يوم حُنَين إذ أعجبتكم كثرتكم ٩: ٢٥و ذكر ذلك في معرض الإنكار.

و قال اللَّه تعالى:و ظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من اللَّه فآتيهم اللَّه من حيث لم يحتسبوا ٥٩: ٢فردّ على الكفّار في إعجابهم بحصونهم و شوكتهم.

و قال تعالى:و هم يَحْسبون أنّهم يُحْسنون صنعا ١٨: ١٠٤و هذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل و قد يعجب الإنسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه.

وقال النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«ثلاث مهلكات شحّ مطاع و هوى متّبع و إعجاب المرء بنفسه».

وقال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الامّة فقال:«إذا رأيت شحّا مطاعا و هوى متّبعا و إعجاب كلّ ذي رأى برأيه فعليك نفسك».

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٧٣

وقال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك، العجب العجب» [١].

و قال ابن مسعود: «الهلاك في اثنتين القنوط و العجب» و إنّما جمع بينهما لأنّ السعادة لا تنال إلا بالسعي و الطلب و الجدّ و التشمّر، و القانط لا يسعى و لا يطلب و المعجب يعتقد أنّه قد سعد و ظفر بمراده فلا يسعى و الموجود لا يطلب و المحال لا يطلب و السّعادة في اعتقاد المعجب حاصلة له و مستحيلة في اعتقاد القانط فبهذا جمع بينهما و قد قال تعالى:فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى» ٥٣: ٣٢. قال ابن جريج: معناه إذا عملت خيرا فلا تقل عملت. و قال زيد بن أسلم:

لا تبرّوها أي لا تعتقدوا أنّها بارّة، و هو معنى العجب.

و قال تعالى:لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ و الأذى ٢: ٢٦٤و المنّ نتيجة استعظام الصدقة، و استعظام العمل هو العجب فظهر من هذا أنّ العجب مذموم جدّا.

أقول:

و من طريق الخاصّة

مارواه في الكافي بإسناده عن أبي عبد اللَّه عليه السّلام قال:«إنّ اللَّه تعالى علم أنّ الذّنب خير للمؤمن من العجب و لولا ذلك ما ابتلى مؤمنا بذنب أبدا».

وعنه عليه السّلام قال:«من دخله العجب ملك».

وعنه عليه السّلام قال:«إنّ الرّجل ليذنب الذّنب فيندم عليه و يعمل العمل فيسّره ذلك فيتراخى عن حاله تلك فلأن يكون على حاله تلك خير له ممّا دخل فيه».

وعنه عليه السّلام قال:«أتى عالم عابدا فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته؟ و أنا أعبد اللَّه منذ كذا و كذا، قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتّى تجري دموعي، فقال العالم: إنّ ضحكك و أنت خائف أفضل من بكائك و أنت مدلّ

---

[١] أخرجه البزار و ابن حبان في الضعفاء و البيهقي في الشعب من حديث أنس و قال العراقي: فيه سلام بن أبي الصهباء، قال البخاري: منكر الحديث أقول: و أورده الهيتمى في مجمع الزوائد و قال: رواه البزار من حديث أنس باسناد جيد.

إنّ المدلّ لا يصعد من عمله شيء».

وعن أحدهما عليهما السّلام قال:«دخل رجلان المسجد أحدهما عابد و الآخر فاسق فخرجا من المسجد و الفاسق صدّيق و العابد فاسق، و ذلك أنّه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته يدلّ بها فتكون فكرته في ذلك و تكون فكرة الفاسق في الذّم على فسقه و يستغفر اللَّه ممّا صنع من الذّنوب».

وعنه عليه السّلام قال: «قال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:بينما موسى عليه السّلام جالس إذ أقبل إبليس و عليه برنس ذو ألوان فلمّا دنا منه خلع البرنس و قام إلى

موسى عليه السّلام فسلّم عليه فقال له موسى عليه السّلام: من أنت فقال: أنا إبليس، قال: أنت فلا قرّب اللّٰه دارك قال: إنّي إنّما جئت لاسلّم عليك لمكانك من اللّٰه تعالى قال: فقال له موسى عليه السّلام: فما هذا البرنس؟ قال: أختطف به قلوب بني آدم فقال له موسى:

فأخبرني بالذّنب الّذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه فقال: إذا أعجبته نفسه و استكثر عمله و صغر في عينه ذنبه».

وقال:قال اللّٰه تعالى لداود عليه السّلام: «يا داود بشّر المذنبين و أنذر الصدّيقين قال: كيف ابشّر المذنبين و انذر الصدّيقين؟ قال: يا داود بشّر المذنبين أنّي أقبل التوبة و أعفو عن الذّنب، و أنذر الصدّيقين ألا يعجبوا بأعمالهم فإنّه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك».

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٧٥

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السّلام:«العجب كلّ العجب ممّن يعجب بعمله و هو لا يدري بما يختم له فمن أعجب بنفسه و فعله فقد ضلّ عن نهج الرّشاد و ادّعى ما ليس له و المدّعي من غير حقّ كاذب و إن خفي دعواه و طال دهره فإنّه أولى ما يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به ليعلم أنّه عاجز فقير و يشهد على نفسه لتكون الحجّة عليه أوكد كما فعل بإبليس، و العجب نبات حبّها الكفر، و أرضها النفاق، و ماؤها البغي، و أغصانها الجهل، و ورقها الضّلالة، و ثمرها اللّعنة و الخلود في النّار، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر و زرع النفاق، و لابدّ من أن يثمر.

(بيان آفات العجب)

اعلم أنّ آفات العجب يدعو إلى الكبر لأنّه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولّد من العجب الكبر و من الكبر الآفات الكثيرة الّتي لا تحصى. هذا مع العباد فأمّا مع اللّٰه تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذّنوب و إهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها و لا يتفقّدها لظنّه أنّه مستغن عن تفقّدها فينساها و ما يتذكّره

منها فيستصغر و لا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه و تلافيه، بل يظنّ أنّه يغفر له. و أمّا العبادات و الأعمال فإنّه يستعظمها و يتبجّح بها و يمنّ على اللّٰه بفعلها، و ينسى نعمة اللّٰه عليه بالتوفيق و التمكين منها، ثمّ إذا أعجب بها عمى عن آفاتها، و من لم يتفقّد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضايعا، فإنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقيّة عن الشوائب قلّما تنفع و إنّما يتفقّد من يغلب عليه الإشفاق و الخوف دون العجب و المعجب يغترّ بنفسه و بربّه و يأمن مكر اللّٰه و عذابه و يظنّ أنّه عند اللّٰه بمكان و أنّ له عند اللّٰه منّة و حقّا بأعماله الّتي هي نعمة من نعمه و عطيّة من عطاياه، و يخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه و يحمدها و يزكّيها، فإن أعجب برأيه و علمه و عقله منعه ذلك من الاستفادة و من الاستشارة و السؤال فيستبدّ بنفسه و برأيه و يستنكف من سؤال من هو أعلم منه، و ربّما يعجب بالرأي الخطأ الّذي خطر له فيفرح بكونه

من خواطره و لا يفرح بخاطر غيره فيصرّ عليه و لا يسمع نصح ناصح و لا وعظ واعظ بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال و يصرّ على خطائه فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقّق فيه و إن كان في أمر ديني لا سيّما فيما يتعلّق بأصول العقائد فيهلك به، و لو اتّهم نفسه و لم يثق برأيه و استضاء بنور القرآن، و استعان بعلماء الدّين، و واظب على مدارسة العلم، و تابع سؤال أهل البصيرة، لكان ذلك يوصله إلى الحقّ فهذا و أمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات و من أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنّه أنّه قد فاز و استغنى و هو الهلاك الصريح الّذي لا شبهة فيه.

(بيان حقيقة العجب و الإدلال و حدّهما)

اعلم أنّ العجب إنّما يكون بوصف هو كمال لا محالة و للعالم بكمال نفسه في علم و عمل و مال و غيره حالتان إحداهما أن يكون خائفا على زواله، مشفقا على تكدّره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب، و الأخرى أن لا يكون خائفا من زواله لكن يكون فرحا به من حيث إنّه نعمة من اللَّه تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه و هذا أيضا ليس بمعجب، و له حالة ثالثة هي العجب و هو أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنّا إليه و يكون فرحه به من حيث إنّه كمال و نعمة و رفعة و خير لا من حيث إنّه عطية من اللَّه تعالى و نعمة منه فيكون فرحه به من حيث إنّه صفته و منسوب إليه بأنّه له لا من حيث إنّه منسوب إلى اللَّه بأنّه منه فمهما غلب على قلبه أنّه نعمة من اللَّه مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه، فإذن العجب هو إعظام النعمة و الرّكون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم فإن انضاف إلى ذلك إن غلب على نفسه أنّ له عند اللَّه حقّا و أنّه منه بمكان حتّى يتوقّع بعمله كرامة له في الدّنيا و استبعد أن يجري عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجري على الفسّاق سمّي هذا إدلالا بالعمل فكأنّه يرى لنفسه على اللَّه دالّة و كذلك قد يعطي غيره شيئا فيستعظمه و يمنّ عليه فيكون معجبا فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلّفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٧٧

قال قتادة في قوله تعالى:و لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ٧٤: ٦:أي لا تدلّ بعملك. وفي الخبر«أنّ صلاة المدلّ لا ترفع فوق رأسه»

و لأن تضحك و أنت معترف بذنبك خير من أن تبكي و أنت مدلّ بعملك، و الإدلال وراء العجب فلا مدلّ إلا و هو معجب، و ربّ معجب لا يدلّ إذ العجب يحصل بالاستعظام و نسيان النّعمة دون توقّع جزاء عليه و الإدلال لا يتمّ إلا مع

توقّع جزاء، فإن توقّع إجابة دعوته و استنكر ردّها بباطنه و تعجّب منها كان مدلا بعمله فإنّه لا يتعجّب من ردّ دعاء الفسّاق و يتعجّب من ردّ دعاء نفسه لذلك. فهذا هو العجب و الإدلال و هو من مقدّمات الكبر و أسبابه.

أقول: وفي الكافي عن عليّ بن سويد عن أبي الحسن عليه السّلام قال:سألته عن العجب الّذي يفسد العمل فقال: «العجب درجات منها أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسنا و يحسب أنّه يحسن صنعا، و منها أن يؤمن العبد بربّه فيمنّ على اللَّه و للَّه عليه فيه المنّة».

(بيان علاج العجب على الجملة)

اعلم أنّ علاج كلّ علّة هو مقابلة سببها بضدّها و علّة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادّة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة و الصدقة و الغزو و سياسة الخلق و إصلاحهم، فإنّ العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال و القوّة و النسب و ما لا يدخل تحت اختياره و لا يراه من نفسه فنقول: الورع و التقوى و العبادة و العمل الّذي به يعجب إمّا أن يعجب به من حيث أنّه فيه و هو محلّه و مجراه أو من حيث إنّه منه و بسببه و قدرته و قوّته فإن كان يعجب به من حيث إنّه فيه و هو محلّه و مجراه، يجري فيه و عليه من جهة غيره فهذا جهل لأنّ المحلّ مسخّر و مجرى لا مدخل له في الإيجاد و التحصيل فكيف يعجب

بما ليس إليه و إن كان يعجب به من حيث هو منه و إليه و باختياره حصل و بقدرته و قوّته تمّ، فينبغي أن يتأمّل في قدرته و إرادته و أعضائه و سائر الأسباب الّتي بها تمّ عمله أنّها من أين كانت له، فإن كان علم أنّ جميع ذلك نعمة من اللَّه عليه من غير حقّ سبق له و من غير وسيلة يدلى بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود اللَّه تعالى و كرمه و فضله إذ

أفاض عليه ما لا يستحقّه و آثره به على غيره من غير سابقة و وسيلة فمهما برز الملك لغلمانه و نظر إليهم و خلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه و لا لوسيلة و لا لجمال و لا لخدمة فينبغي أن يتعجّب المنعم عليه من فضل الملك و حكمه و إيثاره له من غير استحقاق فإعجابه بنفسه من أين و ما سببه و لا ينبغي أن يعجب هو بنفسه نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لا يظلم و لا يقدّم و لا يؤخّر إلا لسبب فلولا أنّه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنه لما اقتضى الإيثار بالخلعة لما آثرني بها فيقال: و تلك الصفة هي أيضا من خلعة الملك و عطيته الّتي خصّصك بها من غيرك من غير وسيلة أو هي عطيّة غيره، فإن كانت من عطيّة الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به فأعطاك غلاما فصرت تعجب به و تقول إنّما أعطاني غلاما لأنّي صاحب فرس و أمّا غيري فلا فرس له، فيقال: و هو الّذي أعطاك الفرس، فلا فرق بين أنّ يعطيك الفرس و الغلام معا أو يعطي أحدهما بعد الآخر، فإذا كان الكلّ منه فينبغي أن يعجبك جوده و فضله لا نفسك، و أمّا إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة و هذا يتصوّر في حقّ الملوك و لا يتصوّر في حقّ الجبّار ملك الملوك، المنفرد باختراع الجميع، المتفرّد بإيجاد الموصوف و الصفة، فإنّك إن أعجبت بعبادتك و قلت وفّقني للعبادة لحبّي له فيقال: و من خلق الحبّ في قلبك؟ فستقول: هو، فيقال:

فالحبّ و العبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك و لا علاقة فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك و وجود صفاتك و بوجود أعمالك و أسباب أعمالك فإذا لا معنى لعجب العابد بعبادته، و عجب العالم بعلمه، و عجب الجميل بجماله، و عجب الغنيّ بغناه لأنّ كلّ ذلك من فضل اللّه

و إنّما هو محلّ لفيضان فضل اللَّه وجوده و المحلّ أيضا من جوده و فضله.

فان قلت: لا يمكنني أن أجهل أعمالي؟ و إنّي أنا عملتها و إنّي أنتظر عليها ثوابا و لولا أنّها عملي لما انتظرت الثواب فإن كانت الأعمال مخلوقة للَّه على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب و إن كانت الأعمال منّي و بقدرتي فكيف لا أعجب بها؟.

فاعلم أنّ جوابك من وجهين: أحدهما و هو صريح الحقّ و الآخر فيه مسامحة.

أمّا صريح الحقّ فهو أنّك و قدرتك و إرادتك و حركتك و جميع ذلك من خلق اللَّه و اختراعه فما عملت إذ عملت و ما صلّيت إذ صلّيت، قال اللَّه تعالى:«و ما رميت إذ رميت و لكنّ اللَّه رمى» ٨: ١٧هذا هو الحقّ الّذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين، بل خلقك، و خلق أعضاءك، و خلق فيها القوّة و القدرة و الصحّة، و خلق لك العقل و العلم، و خلق لك الإرادة و لو أردت أن تنفي شيئا من ذلك عن نفسك لم تقدر عليه، ثمّ خلق الحركات في أعضائك مستبدّا باختراعه من غير مشاركة له من جهتك معه في الاختراع إلا أنّه خلقها على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوّة و في القلب إرادة و لم يخلق إرادة ما لم يخلق علما بالمراد، و لم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الّذي هو محلّ العلم فتدريجه في الخلق شيئا بعد شيء هو الّذي خيّل إليك أنّك أوجدت عملك و قد غلطت، و إيضاح ذلك و كيفيّة الثواب على عمل هو من خلق اللَّه سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنّه أليق به فارجع إليه و نحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الّذي فيه مسامحة مّا.

و هو أن تحسب أنّ العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك و لا يتصوّر العمل إلا بوجودك و بوجود علمك و إرادتك و

قدرتك و سائر أسباب عملك و كلّ ذلك من اللَّه تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه و هذا المفتاح بيد اللَّه تعالى و مهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصّل إلى السعادات و مفاتيحها القدرة و الإرادة و العلم و هي بيد اللَّه لا محالة، أ رأيت أنّك لو رأيت خزائن الدّنيا مجموعة في قلعة حصينة و مفتاحها بيد خازن و لو جلست على بابها

و حول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار ممّا فيها و لو أعطاك المفتاح لأخذته من قرب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط فإذا أعطاك الخازن المفاتيح و سلّطك عليها و مكّنك منها فمددت اليد و أخذتها أ كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مدّ اليد إليه و أخذه؟ فلا تشكّ في أنّك ترى ذلك نعمة من الخازن لأنّ المئونة في تحريك اليد إليه لأخذ المال قريبة و إنّما الشأن كلّه في تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت القدرة و سلّطت الإرادة الجازمة و حركت الدّواعي و البواعث و صرفت عنك الموانع و الصوارف حتّى لم يبق صارف إلا دفع و لا باعث إلا وكّل بك فالعمل هيّن عليك، و تحريك البواعث و صرف العوائق و تهيئة الأسباب كلّها من اللَّه تعالى ليس شيء منها إليك فمن العجائب أن تعجب بنفسك و لا تعجب ممّن إليه الأمر كلّه و لا تعجب بجوده و فضله و كرمه في إيثاره إيّاك على الفسّاق من عباده إذ سلّط دواعي الفساد على الفسّاق و صرفها عنك و سلّط أقران السوء و دعاة الشرّ عليهم و صرفهم عنك و مكّنهم من أسباب الشهوات و اللّذات و زواها عنك و صرف عنهم بواعث الخير و دواعيه و سلّطها عليك حتّى تيسّر لك الخير و تيسّر لهم الشرّ، فعل ذلك كلّه بك من غير وسيلة سابقة منك و لا جريمة سابقة من الفاسق العاصي بل آثرك و قدّمك و اصطفاك بفضله و أبعد العاصي و أشقاه بعدله فما

أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك فإذن لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط اللّه عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها فكأنّه الّذي اضطرّك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر و المنّة لا لك. و سيأتي في كتاب التوحيد و التوكّل من بيان تسلسل الأسباب و المسبّبات ما تستبين به أنّه لا فاعل إلا اللّه و لا خالق سواه، و العجب ممّن يتعجّب إذا رزقه اللّه عقلا و أفقره ممّن أفاض اللّه عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعني قوت يومي و أنّا العاقل الفاضل و أفاض عليه نعيم الدّنيا و هو الجاهل الغافل حتّى يكاد يرى هذا ظلما و لا يدري المغرور أنّه لو جمع له بين العقل و المال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال إذ يقول الجاهل الفقير: يا ربّ لم جمعت له بين العقل و الغنى و منعتني و حرمتني منهما؟ فهلا جمعتهما لي؟ و هلا رزقتني أحدهما؟ و إلى هذا

أشار عليّ عليه السّلام حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال:«إنّ عقل الرّجل محسوب عليه من رزقه، و العجب أنّ العاقل الفقير ربّما يرى الجاهل الغنيّ أحسن حالا من نفسه و لو قيل له: هل تؤثر جهله و غناه عوضا من عقلك و فقرك لامتنع عنه فإذن ذلك يدلّ على أنّ نعمة اللّه عليه أكبر فلم يتعجّب منه و المرأة الحسناء الفقيرة ترى الحليّ و الجواهر على الدّميمة القبيحة فتتعجّب و تقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزّنية و يخصّص به مثل هذا القبيح و لا تدري المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها و أنّها لو خيّرت بين الجمال مع الفقر و بين القبح مع الغنى لآثرت الجمال فإذا نعمة اللّه عليها أكبر. و قول الحكيم العاقل الفقير بقلبه يا ربّ لم حرمتني الدّنيا و أعطيتها الجهّال كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول: أيّها الملك لم لا تعطيني الغلام و أنا صاحب فرس فيقول: كنت لا تتعجّب من هذا لو لم أعطك

الفرس فهب أنّي ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتي عليك وسيلة لك و حجّة تطلب بها نعمة أخرى فهذه أوهام لا تخلو الجهّال عنها و منشؤ جميع ذلك الجهل و يزال ذلك بالعلم المحقّق بأنّ العبد و عمله و أوصافه كلّ ذلك من عند اللَّه نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق و هذا ينفي العجب و الإدلال و يورث الخضوع و الشكر و الخوف من زوال النعمة و من عرف هذا لم يتصوّر أن يعجب بعلمه و عمله إذ يعلم أنّ ذلك من اللَّه تعالى و لذلك لمّا اتّكل أصحاب رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم يوم حنين على قوّتهم و كثرتهم و نسوا فضل اللَّه عليهم قالوا: لا نغلب اليوم من قلّة. وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى:«و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثمّ ولّيتم مدبرين» ٩: ٢٥[١]

وروى ابن عيينةأنّ أيّوب عليه السّلام قال: إلهي إنّك ابتليتني بهذا البلاء و ما ورد عليّ أمر إلا آثرت هواك على هواي فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيّوب أنّى لك ذلك؟ - أي من أين لك ذلك - قال: فأخذ رمادا فوضعه على رأسه و قال: «منك

---

[١] الآية في سورة التوبة: ٢٦ و أخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع أن رجلا قال: يوم حنين لن نغلب من قلة فشق ذلك على رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله فأنزل اللَّه عز و جل:«و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم»راجع الدر المنثور ج ٣ ص ٢٢٤.

يا ربّ منك يا ربّ» فرجع عن نسيانه و أضاف ذلك إلى اللَّه تعالى و لهذا قال اللَّه تعالى:و لو لا فضل اللَّه عليكم و رحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ٢٤: ٢١.

وقال النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم لاصحابه:«ما منكم من أحد ينجيه عمله قالوا: و لا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: و لا أنا إلا أن يتغمّدني اللَّه برحمته»

فإذن هذا هو العلاج القاطع لمادّة العجب من القلب و مهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها. فكم من مؤمن قد ارتدّ و مطيع قد فسق و ختم له بالسوء و هذا لا يبقى معه عجب بحال.

(بيان أقسام ما به العجب و تفصيل علاجه)

اعلم أنّ الإنسان قد يعجب بالأسباب الّتي بها يتكبّر كما ذكرناه و قد يعجب بما لا يتكبّر به كعجبه بالرأي الخطأ الّذي يزيّن له بجهله فما به العجب ثمانية أقسام

الأوّل أن يعجب ببدنه في جماله و هيئته و صحّته و قوّته و تناسب أشكاله و حسن صوته و بالجملة تفصيل خلقته فيلتفت إلى جمال نفسه و ينسى أنّه نعمة من اللَّه و هو معرضة للزوال في كلّ حال و علاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال و هو التفكّر في أقذار باطنه و في أوّل أمره و آخره و في الوجوه الجميلة و الأبدان الناعمة أنّها كيف تمزّقت في التراب و أنتنت في القبور بحيث استقذرتها الطّباع،

الثاني القوّة و البطش

كما حكي عن قوم عاد حين قالوا: فيما أخبر اللَّه عنهممن أشدُّ منّا قوَّة ٤١: ١٥و كما اتّكل عوج على قوّته فأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السّلام فثقب اللَّه تعالى تلك القطعة من الجبل حتّى صارت في عنقه و قد يتّكل المؤمن أيضا على قوّته كماروىعن سليمان عليه السّلام

أنّه قال: لأطوفنّ اللّيلة على مائة امرأة تلد كلّ امرأة غلاما - الحديث

و لم يقل إن شاء اللَّه فحرم ما أراد من الولد

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٨٣

و يورث العجب بالقوّة الهجوم في الحروب و إلقاء النفس في التهلكة و المبادرة إلى الضرب و القتل لمن قصده بالسوء و علاجه ما ذكرناه و هو أن يعلم أنّ حمّى يوم تضعف قوّته و أنّه إذا أعجب بها ربما سلبها اللَّه تعالى بأدنى آفة يسلّطها عليه.

الثالث العجب بالعقل و الكياسة

و التفطّن لدقائق الأمور من مصالح الدّين و الدّنيا و ثمرته الاستبداد بالرأي و ترك المشورة و استجهال الناس المخالفين له و لرأيه و يخرج إلى قلّة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأي و العقل و استحقارا لهم و إهانة و علاجه أن يشكر اللَّه على ما رزق من العقل و يتفكّر أنّه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس و يجنّ بحيث يضحك الناس منه، و لا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به و لم يقم بشكره، و ليستقصر عقله و علمه و ليعلم أنّه ما أوتي من العلم إلا قليلا و إن اتّسع علمه و أنّ ما جهله ممّا عرفه الناس أكثر ممّا علمه فكيف بما لم يعرفه الناس من علم اللَّه تعالى و أن يتّهم عقله و ينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم و يضحك الناس منهم، فيحذر أن يكون منهم و هو لا يدري فإنّ قاصر العقل قطّ لا يعلم قصور عقله فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه و من أعدائه لا من أصدقائه، فإنّ من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبا و هو لا يظنّ بنفسه إلا الخير و لا يفطن بجهل نفسه فيزداد به عجبا.

الرابع العجب بالنسب الشريف

كعجب الهاشميّة حتّى يظنّ بعضهم أنّه ينجو بسبب شرف نسبه و نجات آبائه و أنّه مغفور له و يتخيّل بعضهم أنّ جميع الخلق له موال و عبيد و علاجه أن يعلم أنّه مهما خالف آباءه في أفعالهم و أخلاقهم فظنّ أنّه ملحق بهم فقد جهل و إن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف و الإزراء على النفس و استعظام الخلق و مذمّة النفس و لقد شرّفوا بالطاعة و العلم و الخصال المحمودة لا بالنسب فليتشرّف بما شرّفوا به و قد ساواهم في النسب و شاركهم في القبائل من لم يؤمن باللّه، فكانوا عند اللّه شرّا من الكلاب و أخسّ من الخنازير، و لذلك قال اللّه تعالى:«يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و انثى» ٤٩: ١٣اي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثمّ ذكر فائدة النسب فقال:

«و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا» ٤٩: ١٣ثمّ بيّن أنّ الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال:

إنّ أكرمكم عند اللّه أتقيكم ٤٩: ١٣و لمّا قيل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من أكرم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل من ينتمي إلى نسبي و لكنقال:«أكثرهم للموت ذكرا و أشدّهم له استعدادا» [١]

و إنّما نزلت هذه الآية حين أذّن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحارث بن هشام و سهيل بن عمرو و خالدين اسيد: هذا العبد الأسود يؤذّن فقال تعالى:إنّ أكرمكم عند اللّه أتقيكم ٤٩: ١٣[٢].

وقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اللّه قد أذهب عنكم عيبة الجاهليّة - أي كبرها - كلّكم بنو آدم و آدم من تراب».

وقال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«يا معشر قريش يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة و تأتوني بالدّنيا تحملونها على رقابكم و تقولون: يا محمّد يا محمّد فأقول: هكذا» [٣]

أي أعرض عنكم فبيّن أنّهم أنّ مالوا إلى الدّنيا لم ينفعهم نسب قريش.

ولمّا نزل قوله تعالى:«و أنذر عشيرتك الأقربين» ٢٦: ٢١٤ناداهم بطنا بعد بطن حتّى

---

[١]أخرج ابن ماجه في السنن تحت رقم ٤٢٥٩ بسند مجهول عن ابن عمر أنه قال:كنت مع رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله فجاءه رجل من الأنصار. فسلم على النبي صلّى اللَّه عليه و آله. ثم قال: يا رسول اللَّه أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقا» قال: فأي المؤمنين اكيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكرا، و أحسنهم لما بعده استعدادا أولئك الاكياس»

و بهذه الزيادة رواه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب.

[٢] أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة فقال: بعض الناس هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة و قال: بعضهم ان يسخط اللَّه هذا يغيره فنزلت «يا أيها الناس - الآية -» راجع الدر المنثور ج ٦ ص ٩٨.

[٣] أخرجه الطبراني من حديث عمران بن حصين الا أنه قال: «يا معشر بني هاشم» و سنده ضعيف.

قال: يا فاطمة بنت محمّد يا صفيّة بنت عبد المطلب عمّة رسول اللَّه اعملا لأنفسكما فإنّي لا اغني عنكما من اللَّه شيئا».

فمن عرف هذه الأمور و علم أنّ شرفه بقدر تقواه و قد كان من عادة آبائه التواضع فإن اقتدى بهم في التقوى و التواضع و إلا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى إليهم و لم يشبههم في التواضع و التقوى و الخوف و الإشفاق.

فإن قلت:فقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد قوله لفاطمة و صفيّة:«إنّي لا اغني عنكما من اللّه شيئا إلا أنّ لكما رحما سأبلّها ببلالها».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أ ترجو سليم شفاعتي و لا يرجوها بنو عبد المطّلب»

و ذلك يدلّ على أنّه سيخصّ قرابته بالشفاعة. فاعلم أنّ كلّ مسلم منتظر شفاعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و النسب أيضا جدير بأن يرجوها و لكن بشرط أن يتّقي اللّه و يخاف أن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته فإنّ الذّنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة فيه و إلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة كالذّنوب عند ملوك الدّنيا فإنّ كلّ ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة في من اشتدّ عليه غضب الملك فمن الذّنوب ما لا ينجي منه الشفاعة و عنه العبارة بقوله تعالى:و لا يشفعون إلا لمن ارتضى ٢١: ٢٨و بقوله:من ذا الّذي يشفع عنده إلا بإذنه ٢: ٢٥٥و بقوله:لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرَّحمن و رضي له قولا ٢٠: ١٠٩و بقوله:فما تنفعهم شفاعة الشافعين ٧٤: ٤٨و إذا انقسمت الذّنوب إلى ما يشفع فيه و إلى ما لا يشفع فيه وجب

الخوف و الإشفاق لا محالة، و لو كان كلّ ذي ذنب يقبل منه الشفاعة لما أمر قريشا بالطاعة و لما نهاهم عن المعصية فالانهماك في الذّنوب و ترك التقوى اعتمادا على

الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره و ذلك جهل فإنّ سعي الطبيب و همّته و جدّه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلّها فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرّد الطبّ بل للطبّ أثر على الجملة و لكن في الأمراض الخفيفة و عند غلبة اعتدال المزاج فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء و الصلحاء للأقارب و الأجانب فإنّه كذلك قطعا و ذلك لا يزيل الخوف و الحذر.

الخامس العجب بنسب السلاطين الظلمة

و أعوانهم دون نسب الدين و العلم، و هذا غاية الجهل و علاجه أن يتفكّر في مخازيهم و ما جرى لهم من الظلم على عباد اللَّه و الفساد في دين اللَّه و أنّهم ممقوتون عند اللَّه، و لو نظر إلى صورهم في النّار و أنتانهم و أقذارهم لاستنكف منهم و لتبرّأ من الانتساب إليهم و لأنكر على من نسبه إليهم استقذارا لهم و استحقارا و لو انكشف له ذلّهم يوم القيامة و قد تعلّق الخصماء بهم و الملائكة آخذون بنواصيهم يجرّونهم على وجوههم إلى جهنّم في مظالم العباد لتبرّأ إلى اللَّه منهم و لكان انتسابه إلى الكلب و الخنزير أحسن إليه من الانتساب إليهم فحقّ أولاد الظلمة إن عصمهم اللَّه من ظلمهم أن يشكروا اللَّه على سلامة دينهم و يستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين، فأمّا العجب بنسبهم فجهل محض.

السادس العجب بكثرة العدد من الأولاد و الخدم

و الغلمان و العشيرة و الأقارب و الأنصار و الأتباع كما قال الكافرون:نحن أكثر أموالا و أولادا ٣٤: ٣٥كما قال المؤمنون يوم حنين «لا نغلب اليوم من قلّة» و علاجه ما ذكرناه في الكبر و هو أن يتفكّر في ضعفه و ضعفهم و أنّ كلّهم عبيد عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضرّا و لا نفعا«و كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللَّه»ثمّ كيف يعجب بهم و أنّهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه ولد و لا أهل و لا قريب و لا حميم

و لا عشير، فيسلّمونه إلى البلى و إلى الحيات و العقارب و الدّيدان و لا يغنون عنه شيئا و هو أحوج أوقاته إليهم و كذلك يهربون منه يوم القيامةيوم يفرُّ المرء من أخيه. و أمّه و أبيه. و صاحبته و بنيه. لكلِّ امرءٍ منهم يومئذ شأنٌ يغنيه ٨٠: ٣٤ – ٣٧فأيّ خير فيمن يفارقك في أشدّ أحوالك و يهرب منك و كيف تعجب و لا ينفعك في القبر و القيامة و على الصراط إلا عملك و فضل اللَّه تعالى فكيف تتّكل على من لا ينفعك و تنسى نعم من يملك ضرّك و نفعك و موتك و حياتك؟.

السابع العجب بالمال

كما قال اللَّه تعالى إخبارا عن صاحب الجنّتين إذ قال:
«أنا أكثر منك مالا و أعزّ نفرا»ورأى رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم رجلا غنيّا جلس بجنبه فقير فانقبض عنه و جمع ثيابه فقال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«أخشيت أن يعدو إليك فقره»

و ذلك للعجب بالغنى و علاجه أن يتفكّر في آفات المال و كثرة حقوقه و عظم غوائله، و إلى فضيلة الفقراء و سبقهم إلى الجنّة في القيامة، و إلى أنّ المال غاد و رائح و لا أصل له، و إلى أنّ في اليهود من يزيد عليه في المال، و إلىقوله صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«بينما رجل يتبختر في حلّة له قد أعجبته نفسه إذ أمر اللَّه الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلي يوم القيامة»

أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله و نفسه، و جميع ما ذكرناه في كتاب الزّهد و كتاب ذمّ الدّنيا و كتاب ذمّ المال يبين حقارة الأغنياء و شرف الفقراء عند اللَّه، فكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن الخوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حلّه و وضعه

في حقّه، و من لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي و البوار فكيف يعجب بماله؟.

الثامن العجب بالرأي الخطأ

قال تعالى:«أ فمن زُيِّنَ له سوءُ عمله فَرَآه حسنا» ٣٥: ٨و قال:و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا ١٨: ١٠٤.

و قد أخبر رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم أنّ ذلك يغلب على آخر هذه الامّة و بذلك هلك الأمم السالفة إذ افترقت فرقا و كلّ معجب برأيه و كلّ حزب بما لديهم فرحون و جميع أهل البدع و الضلال إنّما أصرّوا عليها بعجبهم بآرائهم و العجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى و الشهوة مع ظنّ كونه حقّا و علاج هذا العجب أشدّ من غيره لأنّ صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطائه، و لو عرفه لتركه و لا يعالج الدّاء الّذي لا يعرف، و الجهل داء لا يعرف فتعسّر مداواته جدّا لأنّ العارف يقدر على أن يبيّن للجاهل جهله و يزيله عنه إلا إذا كان معجبا برأيه و جهله فإنّه لا يصغى إلى العارف و يتّهمه فقد سلّط اللَّه عليه بليّة تهلكه و هو يظنّها نعمة فكيف يمكن علاجه و كيف يطلب الهرب ممّا هو سبب سعادته في اعتقاده و إنّما علاجه على الجملة أن يكون متّهما لرأيه أبدا لا يغترّ به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب اللَّه أو سنّة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلّة، و لن يعرف الإنسان أدلّة الشرع و العقل و شروطها و مكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامّة و عقل ثاقب و جدّ و تشمّر في الطلب و ممارسة للكتاب و السنّة و مجالسته لأهل العلم طول العمر و مدارسة العلوم، و مع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور و الصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب و لا يصغى إليها و لا يسمعها و لكن يعتقد أن اللَّه واحد لا شريك له و أنّه

ليس كمثله شيء و هو السميع البصير و أنّ رسوله صادق فيما أخبر به و يتّبع سنّة السلف.

أقول: بل يتبع سنّة أئمّة الهدى من أهل بيت النبيّ صلوات اللّه و سلامه عليه و عليهم خاصّة دون غيرهم من السلف كما عرفت غير مرّة.

قال: و يؤمن بجملة ما جاء به الكتاب و السنّة من غير بحث و تفتيش و سؤال عن تفصيل بل يقول: آمنّا و صدّقنا و يشتغل بالتقوى و اجتناب المعاصي و أداء الطاعات و الشفقة على المسلمين و سائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب و البدع و التعصّب في العقائد هلك من حيث لا يشعر. هذا حقّ كلّ من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء

غير العلم.

فأمّا الّذي عزم على التجرّد للعلم فأوّل مهمّ له معرفة الدّليل و شروطه و ذلك ممّا يطول الأمر فيه، و الوصول إلى المعرفة و اليقين في أكثر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيّدون بنور اللّه تعالى و هو عزيز الوجود جدّا.

فنسأل اللّه تعالى العصمة من الضلال و نعوذ به من الاغترار بخيالات الجهّال.

هذا آخر كتاب ذمّ الكبر و العجب من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و يتلوه إن شاء اللّه كتاب ذمّ الغرور منه.

و الحمد للّه أوّلا و آخرا و ظاهرا و باطنا.

كتاب ذمّ الغرور

و هو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الحمد للّه الّذي بيده مقاليد الأمور، و بقدرته مفاتيح الخيرات و الشرور،

مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور، و مورد أعدائه ورطات الغرور، و الصلاة على محمّد مخرج الخلائق من الديجور، و على آله و أصحابه الّذين لم تغرّهم الحياة الدّنيا و لم يغرّهم باللَّه الغرور، صلاة تتوالى على مرّ الدّهور و كرّ الساعات و الشهور.

أمّا بعد فمفتاح السعادة التيقّظ و الفطنة و منبع الشقاوة الغرور و الغفلة فلا نعمة للَّه على عباده أعظم من الإيمان و المعرفة و لا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنو و البصيرة و لا نقمة أعظم من الكفر و المعصية و لا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة فالأكياس و أرباب البصائر قلوبهم«كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزّجاجة كأنّها كوكب درّيّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقيّة و لا غربيّة يكاد زيتها يضيء و لو لم تمسسه نار نور على نور يهدي اللَّه لنوره من يشاء»و المغترّون قلوبهم«كظلمات في بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل اللَّه له نورا فما له من نور»و الأكياس هم الّذين أراد اللَّه تعالى أن يهديهم فشرح صدورهم للاسلام و الهدى، و المغترّون هم الّذين أراد أن يضلّهم فجعل صدورهم ضيّقا حرجا كأنّما يصّعّد في السماء، و المغرور هو الّذي لم ينفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا و بقي في العمى فاتّخذ الهوى قائدا و الشيطان دليلا«و من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضلّ سبيلا»و إذا عرف أنّ الغرور هو أمّ الشقاوات و منبع المهلكات فلا بدّ من شرح مداخله و مجاريه و تفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد

معرفته فيتّقيه فالموفّق من العباد من عرف مداخل الآفات و الفساد فأخذ منها حذره، و بني على الحزم و البصيرة أمره.

و نحن نشرح أجناس مجاري الغرور و أصناف المغترّين من العلماء و الصالحين الّذين اغترّوا بمبادي الأمور الجميلة ظواهرها، القبيحة سرائرها، و نشير إلى وجه اغترارهم بها و غفلتهم عنها فإنّ ذلك و إن كان أكثر من أن يحصى و لكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء. و فرق المغترّين كثيرة و لكن يجمعهم أربعة أصناف: الصنف الأوّل من العلماء، الصنف الثاني من العبّاد، الصنف الثالث من المتصوّفة، الصنف الرّابع من أرباب الأموال، و المغترّون من كلّ صنف فرق كثيرة و جهات غرورهم مختلفة فمنهم من رأى المنكر معروفا كالّذي يتّخذ المساجد و يزخرفها من المال الحرام، و منهم من لم يميّز بين ما يسعى فيه لنفسه و بين ما يسعى فيه للّه كالواعظ الّذي غرضه القبول و الجاه، و منهم من يترك الأهمّ و يشتغل بغيره، و منهم من يترك الفرض و يشتغل بالنافلة، و منهم من يترك اللّباب و يشتغل بالقشر كالّذي يكون همّه في الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف، إلى غير ذلك من المداخل الّتي لا تتّضح إلا بتفصيل الفرق و ضرب الأمثلة و لنبدء أوّلا بذكر غرور العلماء و لكن بعد بيان ذمّ الغرور و بيان حقيقته و أمثلته.

(بيان ذم الغرور و حقيقته و أمثلته)

اعلم أنّ قوله تعالى:فلا تغرّنّكم الحيوة الدّنيا و لا يغرّنّكم باللّه الغرور ٣١: ٣٣.

و قوله عزّ و جلّ:و لكنّكم فتنتم أنفسكم و تربّصتم و ارتبتم و غرّتكم الأمانيّ حتّى جاء أمر اللّه و غرّكم باللّه الغرور ٥٧: ١٤كاف في ذمّ الغرور.

وقد قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«حبّذا نوم الأكياس و فطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى و اجتهادهم، و لمثقال ذرّة من صاحب تقوى و يقين أفضل من ملء الأرض من المغترّين».

وقال صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم:«الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت، و الاحمق من أتبع نفسه هواها و تمنّى على اللّٰه الأمانيّ».

و كلّ ما ورد في فضل العلم و ذمّ الجهل فهو دليل على ذمّ الغرور لأنّ الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء و يراه على خلاف ما هو به، و الغرور هو الجهل إلا أنّ كلّ جهل ليس بغرور بل يستدعي الغرور مغرورا فيه مخصوصا، و مغرورا به و هو الّذي يغرّه، فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى و كان السبب الموجب للجهل شبهة و مخيلة فاسدة يظنّ أنّها دليل و لا يكون دليلا سمّي الجهل الحاصل به غرورا، فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى و يميل إليه الطبع عن شبهة و خدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنّه على خير إمّا في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، و أكثر الناس يظنّون بأنفسهم الخير و هم مخطئون فيه فأكثر الناس إذا مغرورون و إن اختلفت أصناف غرورهم و اختلفت درجاتهم حتّى كان غرور بعضهم أظهر و أشدّ من بعض، و أظهرها و أشدّها غرورا غرور الكفّار و غرور العصاة و الفسّاق، فنورد ههنا أمثلة لحقيقة الغرور.

المثال الأوّل غرور الكفّار

فمنهم من غرّته الحياة الدّنيا، و منهم من غرّه باللّٰه الغرور، أمّا الّذين غرّتهم الحياة الدّنيا فهم الّذين قالوا: النقد خير من النسيئة و الدّنيا نقد و الآخرة نسيئة فاذن هي خير فلا بدّ من إيثارها. و قالوا: اليقين خير من الشكّ و لذّات الدّنيا يقين و لذّات الآخرة شكّ فلا يترك اليقين بالشكّ. فهذه أقيسة فاسدة يشبه قياس إبليس حيث قال:«أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين»و إلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى:أولئك الّذين اشتروا الحيوة الدّنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب و لا هم ينصرون ۲: ۸۶و علاج هذا الغرور إمّا بتصديق الإيمان و

إمّا بالبرهان، أمّا التصديق بمجرّد الإيمان فهو أن يصدّق اللَّه تعالى في قوله:

ما عندكم ينفد و ما عند اللَّه باق ١٦: ٩٦و في قوله:و ما عند اللَّه خيرٌ و أبقى ٤٢: ٣٦و قوله:و الآخرة خيرٌ و أبقى ٨٧: ١٧و قوله:و ما الحيوة الدُّنيا إلا متاع الغرور ٥٧: ٢٠و قوله:فلا تغرَّنّكم الحيوة الدُّنيا و لا يغرَّنّكم باللَّه الغرور ٣١: ٣٣.

و قد أخبر رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم طوائف من الكفّار بذلك فقلّدوه و صدّقوه و آمنوا به و لم يطالبوه بالبرهان و منهم من قال: نشدتك اللَّه أبعثك اللَّه رسولا فكان يقول:

نعم فيصدّق و هذا إيمان العامّة و هو يخرج من الغرور و ينزل هذا منزلة تصديق الصبيّ والده في أنّ حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنّه لا يدري وجه كونه خيرا، و أمّا المعرفة بالبيان و البرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الّذي نظمه في قلبه الشيطان فإنّ كلّ مغرور فلغروره سبب و ذلك السبب هو دليلى و كلّ دليل فهو نوع قياس يقع في النفس و يورث السكون إليه و إن كان صاحبه لا يشعر به و لا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء، فالقياس الّذي نظمه الشيطان فيه أصلان:

أحدهما أنّ الدّنيا نقد و الآخرة نسيئة، و هذا صحيح، و الآخر أنّ النقد خير من النسيئة، و هذا محلّ التلبيس فليس الأمر كذلك، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار و المقصود فهو خير و إن كان أقلّ منها فالنسيئة خير فإنّ الكافر المغرور يبذل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة و لا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه، و إذا حذّره الطبيب الفواكه و لذائذ الأطعمة تركها في الحال خوفا من ألم المرض في المستقبل و قد ترك النقد و رضي بالنسيئة، و التجّار كلّهم

يركبون البحار و يتعبون في الأسفار نقدا لأجل الرّاحة و الربح نسيئة، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال فأنسب لذّة الدّنيا من حيث مدّتها إلى مدّة الآخرة فإنّ أقصى عمر الإنسان مائة سنة و ليس هو عشر عشير جزء من ألف ألف

جزء من الآخرة، فكأنّه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له، و لا حدّ و إن نظر من حيث النوع رأى لذّات الدّنيا مكدّرة مشوبة بأنواع المنغّصات، و لذّات الآخرة صافية غير مكدّرة، فإذن قد غلط في قوله «النقد خير من النسيئة» و هذا غرور منشؤه قبول لفظ عامّ مشهورا طلق و أريد به خاصّ، فغفل المغرور عن خصوص معناه فإنّ من قال: «النقد خير من النسيئة» أراد به خير من نسيئة هي مثله و إن لم يصرّح به، و عند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر و هو أنّ اليقين خير من الشكّ و الدّنيا يقين و الآخرة شكّ، و هذا القياس أكثر فسادا من الأوّل لأنّ كلا أصليه باطل إذ اليقين خير من الشكّ إذا كان مثله و إلا فالتاجر في تعبه على يقين و في ربحه على شكّ، و المتفقّه في اجتهاده على يقين و في إدراكه رتبة العلم على شكّ، و الصيّاد في تردّده في المقتنص على يقين و في اقتناصه الظفر بالصيد على شكّ، و كذلك الحزم دأب العقلاء بالاتفاق و كلّ ذلك ترك لليقين بالشكّ، و لكنّ التاجر يقول: إنّي إن لم أتّجر بقيت جائعا و عظم ضرري و إن اتّجرت كان تعبي قليلا و ربحي كثيرا و كذلك المريض يشرب الدّواء البشع الكريه و هو من الشفاء على شكّ و من مرارة الدّواء على يقين و لكن يقول: ضرر مرارة الدّواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض و الموت. و كذلك من شكّ في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول: أيّام الصبر قلائل و هو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذبا فما يفوتني

إلا التنعّم أيّام حياتي و قد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعّم فأحسب أنّي بقيت في العدم و إن كان ما قيل صدقا فأبقى في النار أبد الآباد و هذا لا يطاق، و لذلكقال عليّ عليه السّلام لبعض الملحدين:«إن كان ما قلته حقّا فقد تخلّصت و تخلّصنا و إن كان ما قلناه حقّا فقد تخلّصنا و هلكت»

و ما قال: هذا عن شكّ منه في الآخرة و لكن كلّم الملحد على قدر عقله و بيّن له أنّه و إن لم يكن متيقّنا فهو مغرور، و أمّا الأصل الثّاني من كلامه و هو أنّ الآخرة شكّ فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند

المؤمنين و ليقينه مدركان: أحدهما الإيمان و التّصديق تقليدا للأنبياء و العلماء و ذلك أيضا يزيل الغرور و هو مدرك يقين العوام و أكثر الخواصّ، و مثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علّته و قد اتّفق الأطبّاء و أهل الصّناعة من عند آخرهم على أنّ دواءه النبت الفلاني فإنّه تطمئنّ نفس المريض إلى تصديقهم و لا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين، بل يثق بقولهم و يعمل به و لو بقي سواديّ أو معتوه يكذّبهم في ذلك و هو يعلم بالتواتر و قرائن الأحوال أنّهم أكثر منه عددا و أغزر منه فضلا و أعلم بالطبّ منه، بل لا علم له بالطّبّ فيعلم كذبه بقولهم و لا يعتقد كذبهم بقوله و لا يغترّ في علمه بسببه و لو اعتمد على قوله و ترك قول الأطبّاء كان معتوها مغرورا، فكذلك من نظر إلى المقرّين بالآخرة و المخبرين عنها و القائلين بأنّ التّقوى هو الدّواء النافع في الوصول إلى سعادتها وجدهم خير خلق اللَّه و أعلاهم رتبة في البصيرة و المعرفة و العقل، فهم الأنبياء و الأولياء و الحكماء و العلماء و اتّبعهم عليه الخلق على أصنافهم و شذّ منهم آحاد من البطّالين، غلبت عليهم الشهوة، و مالت نفوسهم إلى التمتّع،

فعظم عليهم ترك الشهوات و عظم عليهم الاعتراف بأنّهم من أهل النّار فجحدوا الآخرة و كذّبوا الأنبياء، فكما أنّ قول الصبيّ و قول السواديّ لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتّفق عليه الأطبّاء، فكذلك قول هذا الغبيّ الّذي استرقته الشهوات لا يشكّ في صحّة أقوال الأنبياء و العلماء، و هذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق و هو يقين جازم مستحثّ على العمل لا محالة و الغرور يزول به.

و أمّا المدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي و الإلهام فالوحي للأنبياء و الإلهام للاولياء و لا تظننّ أنّ معرفة النبيّ لأمر الآخرة و لأمور الدّين تقليد لجبرئيل بالسماع منه كما أنّ معرفتك تقليد للنبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم حتّى تكون معرفتك كمعرفته و إنّما يختلف المقلّد فقطّ، و هيهات فإنّ التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح و الأنبياء عارفون و معنى معرفتهم أنّه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها و شاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع و تقليد و ذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الرّوح و أنّه من

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٢٩٦

أمر اللَّه و ليس المراد بكونه من أمر اللَّه الأمر الّذي يقابل النّهي لأنّ ذلك الأمر كلام و الرّوح ليس بكلام و ليس المراد به الأمر الّذي هو الشأن حتّى يكون المراد به أنّه من خلق اللَّه فقطّ لأنّ ذلك عامّ في جميع المخلوقات، بل العالم عالمان عالم الأمر و عالم الخلق، و للَّه الخلق و الأمر فالأجسام ذوات الكمّية و المقادير من عالم الخلق، إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللّسان، و كلّ موجود منزّه عن الكمّيّة و المقدار فإنّه من عالم الأمر، و شرح ذلك يستدعي كشف سرّ الرّوح و لا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسرّ القدر الّذي منع من إفشائه، فمن عرف سرّ الرّوح فقد عرف نفسه، و إذا عرف نفسه فقد عرف ربّه و إذا

عرف نفسه و ربّه عرف أنّه أمر ربّانيّ بطبعه و فطرته، و أنّه في العالم الجسمانيّ غريب، و أنّ هبوطه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته، و ذلك العارض الغريب ورد على آدم عليه السّلام و عبّر عنه بالمعصية و هي الّتي حطّته عن الجنّة الّتي هي أليق بمقتضى ذاته فإنّها في جوار الرّبّ تعالى و أنّه أمر ربّانيّ و حنينه إلى جوار الرّبّ تعالى له طبعيّ ذاتيّ إلا أن تصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه و ربّه و مهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له:«و لا تكونوا كالّذين نسوا اللَّه فأنسيهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون»أي الخارجون عن مقتضى طبعهم و مظنّة استحقاقهم يقال: فسقت الرّطبة عن كمامها إذا خرجت عن معدنها الفطريّ و هذه إشارة إلى أسرار يهتزّ لاستنشاق روائحها العارفون و يشمئزّ من سماع ألفاظها القاصرون فإنّها تضرّ بهم كما تضرّ رياح الورد بالجعل، و تبهر أعينهم الضّعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش، و انفتاح هذا الباب من سرّ القلب إلى عالم الملكوت يسمّى معرفة و ولاية، و يسمّى صاحبها وليّا و عارفا و هي مبادي مقامات الأنبياء و آخر مقامات الأولياء أوّل مقامات الأنبياء، و لنرجع إلى الغرض.

فالمقصود أنّ غرور الشيطان بأنّ الآخرة شكّ، يدفع إمّا بيقين تقليدي و إمّا ببصيرة و مشاهدة من جهة الباطن، و المؤمنون بألسنتهم و بعقائدهم إذا ضيّعوا أوامر اللَّه و هجروا الأعمال الصّالحة و لابسوا الشهوات و المعاصي فهم مشاركون

للكفّار في هذا الغرور لأنّهم آثروا الحياة الدّنيا على الآخرة، نعم و أمرهم أخفّ لأنّ أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار، و لو بعد حين و لكنّهم أيضا مغرورون فإنّهم اعترفوا بأنّ الآخرة خير من الدّنيا و لكنّهم

مالوا إلى الدّنيا و آثروها و مجرّد الإيمان لا يكفي للفوز قال اللَّه تعالى:و إنّي لغفّار لمن تاب و آمن و عمل صالحا ثمَّ اهتدى ٢٠: ٨٢و قال:إنَّ رحمة اللَّه قريبٌ من المحسنين ٧: ٥٦وقال النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم للأعرابيّ:«الإحسان أن تعبد اللَّه كأنّك تراه»

و قال تعالى:و العصر إنَّ الإنسان لفي خسر. إلا الّذين آمنوا و عملوا الصالحات ١٠٣: ١ - ٣.فوعد المغفرة في جميع كتاب اللَّه منوط بالإيمان و العمل الصّالح جميعا لا بالإيمان وحده فهؤلاء أيضا مغرورون أعني المطمئنّين إلى الدّنيا، الفرحين بها، المترفين بنعيمها، المحبّين لها، الكارهين للموت خيفة فوات لذّات الدّنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده، فهذا مثال المغرور بالدّنيا من الكفّار و المؤمنين جميعا.

و لنذكر للغرور باللَّه مثالين من غرور الكافرين و العاصين فأمّا غرور الكفّار باللَّه فمثاله قول بعضهم في أنفسهم و بألسنتهم أنّه إن كان للَّه من معاد فنحن أحقّ به من غيرنا و نحن أوفر حظّا فيه و أسعد حالا كما أخبر اللَّه تعالى عنه من قول الرّجلين المتحاورين إذ قال:و ما أظنُّ السّاعة قائمة و لئن رددت إلى ربّي لأجدنَّ خيرا منها منقلبا ١٨: ٣٦و جملة أمرهما كما نقل في التفسير أنّ الكافر منهما بني قصرا بألف دينار و اشترى بستانا بألف دينار، و اشترى خدما بألف دينار و تزوّج امرأة على ألف دينار و في ذلك كلّه يعظه المؤمن و يقول: اشتريت قصرا يخرب و يفنى ألا اشتريت قصرا في الجنّة، و اشتريت بستانا يخرب و يفنى ألا اشتريت بستانا في الجنّة لا تفنى، و خدما لا يفنون و لا يموتون، و زوجة من الحور العين لا تموت، و في كلّ ذلك يردّ عليه الكافر و يقول: ما هناك شيء و ما قيل من ذلك فهو أكاذيب و إن كان

فليكوننّ لي في الآخرة خير من هذا، و كذلك وصف اللَّه قول العاص بن وائل [١] إذ يقول:«لاوتينّ مالا و ولدا»فقال اللَّه تعالى ردّا عليه«أطّلع الغيب أم اتّخذ عند الرّحمن عهدا كلا».و روي عن خبّاب بن الأرتّ [٢] أنّه قال: كان لي على العاص بن وائل دين

---

[١] عاص بن وائل السهمى فهو الشقى الابتر شانئ النبيّ (ص) الذي نزلت فيه«ان شانئك هو الابتر»و هو من المعادين للنبي صلّى اللَّه عليه و آله و المستهزئين به و هو الذي لقب في الإسلام بالابتر لقوله «سيموت هذا الابتر غدا فينقطع ذكره» يعنى رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله. و هو من الذين روّعوا زينب بنت رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله في هودجها حتى اجهضت جنينا ميتا فلما بلغه (ص) لعنهم. و هو أبو عمرو بن العاصي المعروف الذي كشف عن سوءته يوم صفين و كفى أباه بهذا الابن فخرا و بالعكس أيضا؟.

[٢] خباب - كشداد - ابن الارت - بالراء المهملة و التاء المثناة المشددة - صحابي بدرى من فضلاء المهاجرين الأولين، شهد بدرا و ما بعدها من المشاهد مع رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله، و كان قديم الإسلام ممن عذب في اللَّه و صبر على دينه نزل الكوفة و مات بها سنة ٣٧ أو سنة ٣٩. روى أن قريشا أوقدت له نارا و سحبوه عليها فما أطفئوها الا ودك ظهره، و كان أثر النار ظاهرا عليه في جسده و لما رأى عمر ظهره قال: ما رأيت كاليوم ظهر رجل مثله و في اسد الغابة: انهم البسوه الدرع الحديد و صهروه في الشمس فبلغ منه الجهد و لم يعط الكفار ما سألوه و روى أن فيه و في سلمان و أبي ذر و عمار أنزل اللَّه تعالى:«و لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه.»و عن ابن عبد البر في الاستيعاب و ابن أبي الحديد في شرح

النهج أنه شهد صفين و النهروان و لكن يظهر من نصر بن مزاحم أنه لم يشهد صفين و لا النهروان بل مات بالكوفة و أمير المؤمنين عليه السّلام كان بصفين فلما رجع من صفين رأى قبره بظاهر الكوفة. ورووىأنه كان في سفر فشكت بنيته إلى النبي صلّى اللَّه عليه و آله نفاد النفقة، قال النبي صلّى اللَّه عليه و آله: ايتينى بشويه لكم فمسح يده على ضرعها فكانت تدر إلى انصراف خباب

. و قال الطبرسي: كان خباب رجلا غنيا و له على العاص بن وائل دين فأتاه يتقاضاه فقال: لا اقضيك حتى تكفر بمحمد قال: لن أكفر به حتى نموت و نبعث. و في المناقب باع خباب بن الارت سيوفا من العاص بن وائل فجاءه يتقاضاه فقال: اليس يزعم محمد أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب و فضة و ثياب و خدم؟ قال: بلى، قال: «فأنظرنى أقضك هناك حقك فو اللَّه لا تكون هناك و أصحابك عند اللَّه آثر منى فنزلت«أ فرأيت الذي كفر بآياتنا- الى قوله -

فجئت أتقاضاه فلم يقض لي، فقلت: إنّي آخذه في الآخرة، فقال لي: إذا صرت في الآخرة فإنّ لي هناك ولدا و مالا فأقضيك منه، فأنزل اللَّه تعالىأ فرأيت الّذي كفر بآياتنا و قال لاوتينَّ مالا و ولدا ١٩: ٧٧- الآيات - و قال اللَّه تعالى:و لئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذا لي و ما أظنّ الساعة قائمة و لئن رجعت إلى ربّي ٤١: ٥٠- الآية - ».

و هذا كلّه من الغرور باللَّه و سببه قياس من أقيسة إبليس و ذلك لأنّهم ينظرون مرّة إلى نعم اللَّه عليهم في الدّنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، و ينظرون إلى تأخير اللَّه العذاب عنهم، فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى:و يقولون في

أنفسهم لو لا يعذّبنا اللّه بما نقول حسبهم جهنّم يصلونها فبئس المصير ٥٨: ٨

-فردا»وفي اعلام الورى ص ٥٧ عن خباب قال:اتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و هو متوسد برده و هو في ظل الكعبة و قد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو اللّه، فقعد و هو محمر وجهه فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، و يوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، و ليتمن اللّه هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف الا اللّه أو الذئب على غنمه.رواه البخاري [ج ٥ ص ٥٦]

و قال ابن أبي الحديد:
خباب من فقراء المسلمين و خيارهم و كان في الجاهلية قينا يعمل السيوف و هو قديم الإسلام انتهى. و قد كان خباب في أول أمره غنيا كما قال الطبرسي - ره - فلما أسلم أخذت كفار قريش أمواله ففر بدينه و هاجر إلى المدينة فصار من فقراء المسلمين راجع سفينة البحار ج ١ ص ٣٧٢.روىأن أمير المؤمنين عليه السّلام لما أقبل من صفين دخل الكوفة فجاز دور بني عوف فرأى قبورا سبعة أو ثمانية فقال: ما هذه القبور؟ فقيل: ان خباب بن الارت توفى بعد مخرجك فأوصى أن يدفن في الظهر و كان الناس يدفنون في دورهم و أفنيتهم فدفن الناس إلى جنبه، فقال: «رحم اللّه خبابا فقد أسلم طائعا و عاش مجاهدا و ابتلى في جسده أحوالا و لن يضيع اللّه أجر من أحسن عملا»، ثم جاء حتى وقف عليهم و قال: «السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة و المحال المقفرة من المؤمنين - الى آخر ما قال عليه السّلام -».

و مرّة ينظرون إلى المؤمنين و هم فقراء شعث غبر، فيزدرون بهم و يستحقرونهم فيقولون:أ هؤلاء منَّ اللَّه عليهم من بيننا ٦: ٥٣و يقولون:لو كان خيرا ما سبقونا إليه ٤٦: ١١و ترتيب القياس الّذي نظمه الشيطان في قلوبهم أنّهم يقولون: قد أحسن اللَّه إلينا بنعيم الدّنيا و كلّ محسن فهو محبّ و كلّ محبّ فإنّه يحسن في المستقبل، أيضا كما قال الشاعر:

كما أحسن اللَّه فيما مضى كذلك يحسن فيما بقيفإنّما يقيس المستقبل على الماضي برابطة الكرامة و الحبّ إذ يقول: لولا أنّي كريم عند اللَّه و محبوب لما أحسن إليّ، و التلبيس تحت ظنّه أنّ كلّ محسن محبّ لا بل تحت ظنّه أنّ إنعامه عليه في الدّنيا إحسان، فقد أغترّ باللَّه إذ يظنّ أنّه كريم عنده بدليل لا يدلّ على الكرامة بل عند ذوي البصائر يدلّ على الهوان، و مثاله أن يكون عند الرّجل عبدان صغيران يبغض أحدهما و يحبّ الآخر فالّذي يحبّه يمنعه من اللّعب و يلزمه المكتب و يحبسه فيه ليعلّمه الأدب، و يمنعه من الفواكه و ملاذّ الأطعمة الّتي تضرّه و يسقيه الأدوية الّتي تنفعه، و الّذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب و لا يدخل المكتب و يأكل كلّ ما يشتهي فيظنّ هذا العبد المهمل أنّه عند سيّده محبوب كريم لأنّه مكّنه من شهواته و لذّاته و ساعده على جميع أعراضه فلم يمنعه و لم يحجر عليه، و ذلك محض الغرور، و هكذا نعيم الدّنيا و لذّاتها فإنّها مهلكات و مبعدات من اللَّه تعالى و إنّ اللَّه يحمي عبده من الدّنيا و هو يحبّه كما يحمي أحدكم مريضه الطعام و الشراب و هو يحبّه. هكذا ورد في الخبر و كان أرباب البصائر إذ أقبلت عليهم الدّنيا حزنوا و قالوا: ذنب عجّلت عقوبته و رأوا ذلك أمارة المقت و الإهمال، و إذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحبا بشعار الصالحين، و المغرورون إذا أقبلت الدّنيا عليهم ظنّوا أنّها كرامة من اللَّه و إذا صرفت

عنهم ظنّوا أنّه هوان كما أخبر اللّه تعالى عنه إذ قال:فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه و نعّمه. فيقول ربّي أكرمن ٨٩: ١٥

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٠١

و أمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه. فيقول ربّي أهانن ٨٩: ١٦- فأجاب اللّه عن ذلك -كلا ٨٩: ١٧بيّن أنّ ذلك غرور، قيل: كذّبهما جميعا بقوله:«كلا» ٨٩: ١٧يقول: ليس هذا بكرامتي و لا هذا بهواني و لكن الكريم من أكرمته بطاعتي غنيّا كان أو فقيرا، و المهان من أهنته بمعصيتي غنيّا كان أو فقيرا و هذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة و الهوان، إمّا بالبصيرة، و إمّا بالتقليد، أمّا بالبصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدّنيا مبعدا عن اللّه تعالى، و وجه كون التباعد عنها مقرّبا إلى اللّه تعالى، و يدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين و الأولياء، و شرحه في جملة علوم المكاشفة و لا يليق بعلم المعاملة. و أمّا معرفته بطريق التقليد و التصديق فهو أن يؤمن بكتاب اللّه تعالى و يصدّق رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد قال تعالى:أ يحسبون أنّما نمدُّهم به من مال و بنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ٢٣: ٥٥ - ٥٦.

و قال تعالى:سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ٧: ١٨٢و قال:«فتحنا عليهم أبواب كلِّ شيء حتّى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ٦: ٤٤.

و في تفسير قوله:«سنستدرجهم من حيث لا يعلمون»إنّهم كلّما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم.

و قال تعالى:إنّما نملي لهم ليزدادوا إثما ٣: ١٧٨و قال تعالى:و لا تحسبنَّ اللّه غافلا عمّا يعمل الظّالمون. إنّما نؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتدّ إليهم طرفهم و أفئدتهم هواء ١٤: ٤٢ - ٤٣إلى غير

ذلك ممّا ورد في كتاب اللَّه تعالى و سنّة رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم، فمن آمن به خلص و نجا من هذا الغرور فإنّ منشأ هذا الغرور الجهل باللَّه و بصفاته، فإنّ من عرفه لا يأمن مكره و لا يغترّ بأمثال هذه الخيالات الفاسدة و ينظر إلى فرعون و قارون و إلى ملوك الأرض و كيف أحسن اللَّه إليهم ابتداء ثمّ دمّرهم تدميرا، و قد حذّر اللَّه مكره و استدراجه فقال:«فلا

يأمن مكر اللَّه إلا القوم الخاسرون» ٧: ٩٩.

و قال تعالى:و مكروا مكرا و مكرنا مكرا و هم لا يشعرون ٢٧: ٥٠و قال:

و مكروا و مكر اللَّه و اللَّه خير الماكرين ٣: ٥٤و قال:إنّهم يكيدون كيدا. و أكيد كيدا. فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا ٨٦: ١٥ - ١٧.

و كما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدلّ بإهمال السيّد إيّاه و تمكينه من النعم على حبّ السيّد بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرا منه، مع أنّ السيّد لم يحذّره مكر نفسه فبأن يحبّ ذلك في حقّ اللَّه مع تحذيره باستدراجه أولى فإذن من أمن مكر اللَّه فهو مغترّ، و منشؤ هذا الغرور أنّه استدلّ بنعيم الدّنيا على أنّه كريم عند المنعم، و احتمل أن يكون ذلك دليل الهوان و لكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه و هو التصديق بدلالته على الكرامة و هذا هو حدّ الغرور.

المثال الثاني هو غرور العصاة من المؤمنين

باللَّه بقولهم: إنّ اللَّه كريم و إنّا نرجو عفوه، و اتّكالهم على ذلك و إهمالهم الأعمال، و تحسين ذلك بتسميتهم تمنّيهم و اغترارهم رجاء، و ظنّهم أنّ الرّجاء مقام محمود في الدّين، فإنّ نعمة اللَّه واسعة و رحمته شاملة و كرمه عميم، و أين معاصي العباد في بحار رحمته و إنّا موحّدون و مؤمنون

فنرجوه بوسيلة الإيمان، و ربّما كان مستند رجائهم التمسّك بصلاح الآباء و علوّ رتبتهم كاغترار العلويّة بنسبهم و مخالفتهم سيرة آبائهم في الخوف و التّقوى و الورع، و ظنّهم أنّهم أكرم على اللّه من آبائهم، إذ آباؤهم مع غاية الورع و التقوى كانوا خائفين و هم مع غاية الفسق و الفجور آمنون [۱] و ذلك نهاية الاغترار

---

[۱]روى الصدوق - رحمه اللّه - في عيون أخبار الرضا عليه السّلام باسناده عن الوشاء قال:كنت بخراسان مع على بن موسى عليه السّلام في مجلسه و زيد بن موسى حاضر قد أقبل على جماعة في المجلس يفتخر عليهم و يقول: «نحن و نحن نقول» و أبو الحسن عليه السّلام مقبل على قوم يحدثهم فسمع مقالة زيد فالتفت إليه و قال: يا زيد أغرك قول ناقلى

باللّه تعالى، فقياس الشيطان للعلويّة أنّ من أحبّ إنسانا أحبّ أولاده، و أنّ اللّه قد أحبّ آباءكم فيحبّكم فلا تحتاجون إلى الطاعة، و ينسى المغرور أنّ نوحا صلوات اللّه عليه أراد أن يستصحب ولده في السّفينة فقال:«ربّ إنّ ابني من أهلي»فقال:

«إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح»و إن إبراهيم استغفر لأبيه فلم ينفعه ذلك فهذا أيضا اغترار باللّه لأنّ اللّه تعالى يحبّ المطيع و يبغض العاصي فكما أنّه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحبّ الولد العاصي بحبّه للأب المطيع و لو كان الحبّ يسري من الأب إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أيضا، بل الحقّ أن«لا

تزر وازرة وزر أخرى»و من ظنّ أنّه ينجو بتقوى أبيه كان كمن ظنّ أنّه يشبع بأكل أبيه، و يروى بشرب أبيه، و يصير عالما بتعلّم أبيه، و يصل إلى الكعبة و يراها بمشي أبيه. فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئا و كذا العكس، و عند اللّه جزاء التقوى«يوم يفرّ المرء من أخيه و أمّه و أبيه و صاحبته و بينه»إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتدّ غضب اللّه عليه فيأذن في الشفاعة له كما سبق في كتاب الكبر و العجب.

فإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة و الفجّار «إنّ اللّه كريم و إنّا نرجو

الكوفة «ان فاطمة احصنت فرجها فحرم اللّه ذريتها على النار فو اللّه ما ذاك الا للحسن و الحسين و ولد بطنها خاصة فاما أن يكون موسى بن جعفر عليهما السلام يطيع اللّه و يصوم نهاره و يقوم ليله، و تعصيه أنت ثم تجيئان يوم القيامة سواء لانت أعز على اللّه عز و جل منه، ان على بن الحسين عليهما السلام كان يقول: «لمحسننا كفلان من الاجر و لمسيئنا ضعفان من العذاب» قال الحسن الوشاء: ثم التفت إلى و قال لي: يا حسن كيف تقرءون هذه الآية«قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح»فقلت: من الناس من يقرء «انه عمل غير صالح» [على صيغة المصدر] و منهم من يقرء «أنه عمل غير صالح» [على صيغة فعل الماضي] فمن قرء «أنه عمل غير صالح» [على صيغة المصدر] فقد نفاه عن أبيه، فقال عليه السّلام: كلا لقد كان ابنه و لكن لما عصى اللّه عز و جل نفاه عن أبيه، كذا من كان منا لم يطع اللّه عز و جل فليس منا و أنت إذا اطعت اللّه عز و جل فأنت منا أهل البيت.

مغفرته و رحمته» وقد قال:«أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي خيرا» [١]

فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب.

فاعلم أنّ الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن، و لو لا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب و لكنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كشف ذلكفقال:«الكيّس من دان نفسه، و عمل لما بعد الموت، و الأحمق من أتبع نفسه هواها و تمنّى على اللّه»

و هذا هو التمنّي على اللّه غيّر الشيطان اسمه فسمّاه رجاء حتّى خدع به الجهّال، و قد شرح اللّه تعالى الرّجاء فقال:إنّ الّذين آمنوا و الّذين هاجروا و جاهدوا في سبيل اللّه أولئك يرجون رحمة اللّه ٢: ٢١٨يعني أنّ الرجاء بهم يليق و هذا لأنّه ذكر أنّ ثواب الآخرة أجر و جزاء على الأعمال قال تعالى:جزاءً بما كانوا يعملون ٣٢: ١٧و قال تعالى:إنّما توفّون اجوركم يوم القيامة ٣: ١٨٥أفترى أنّ من استؤجر على إصلاح أوان و شرط له أجرة عليها و كان الشارط كريما يفي بالوعد مهما وعد و لا يخلف بل يزيده فجاء الأجير و كسر الأواني و أفسد جميعها ثمّ جلس ينتظر الأجر و يزعم أنّ المستأجر كريم أ فيراه العقلاء في انتظاره متمنّيا مغرورا أو راجيا، و هذا للجهل بالفرق بين الرّجاء و الغرّة، فإنّ من رجا شيئا طلبه و من خاف شيئا هرب منه [٢]، و كما أنّ الّذي يرجو في الدّنيا ولدا و هو بعد لم ينكح أو

[۱]أخرجه الطبراني في الأوسط و أبو نعيم في الحلية من حديث واثلة بن الاسقع بسند صحيح هكذا«ان اللّه يقول: أنا عند ظن عبدي بي ان خيرا فخير و ان شرا فشر».

[۲]في الكافي مسندا عن أبي عبد اللّه عليه السّلامقيل له: قوم يعملون بالمعاصي و يقولون نرجو فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت فقال: «هؤلاء قوم يترجحون في الامانى، كذبوا ليسوا براجين، ان من رجا شيئا طلبه و من خاف من شيء هرب منه»

. وفيه أيضاقيل له عليه السّلام: ان قوما من مواليك يلمون بالمعاصي و يقولون نرجو، فقال: «كذبوا ليسوا لنا بموال، أولئك قوم ترجّحت بهم الامانى، من رجا شيئا عمل له و من خاف من شيء هرب منه».

نكح و لم يجامع أو جامع و لم ينزل فهو معتوه، فكذلك من رجا رحمة اللّه و هو لم يؤمن أو آمن و لم يعمل صالحا أو عمل و لم يترك المعاصي فهو مغرور، و كما أنّه إذا نكح و وطئ و أنزل بقي متردّدا في الولد يخاف و يرجو فضل اللّه في خلق الولد و دفع الآفات عن الرّحم و عن الأمّ إلى أن يتمّ فهو كيّس فكذلك إذا آمن و عمل الصالحات و ترك السيّئات و بقي متردّدا بين الخوف و الرّجاء يخاف أن لا يقبل منه و أن لا يثاب عليه و أن يختم له بالسوء و يرجو من فضل اللّه أن يثبته بالقول الثابت في الحياة الدّنيا و في الآخرة و يحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتّى يموت على التوحيد و يحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقيّة عمره حتّى لا يميل إلى المعاصي فهو إذن كيّس، و من عدا هؤلاء فهم

المغرورون باللَّه و سوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلا و لتعلمنّ نبأه بعد حين، و عند ذلك يقولون كما أخبر اللَّه عنهم:ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنّا موقنون ٣٢: ١٢أي علمنا أنّه كما لا يولد ولد إلا بوقاع و نكاح، و لا ينبت زرع إلا بحراثة و بثّ بذر، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب و أجر إلا بعمل صالح، فارجعنا نعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك في قولك:و أن ليس للإنسان إلا ما سعى و أنّ سعيه سوف يرى ٥٣: ٣٩ - ٤٠وكلّما القي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير ٦٧: ٨ - ٩أي ألم نسمعكم سنّة اللَّه في عباده و أنّه «توفّى كلّ نفس ما كسبت»؟ و أنّ«كلّ نفس بما كسبت رهينة» ٧٤: ٣٨فما الّذي غرّكم باللَّه بعد أن سمعتم و عقلتم؟قالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم فسقحا لأصحاب السعير ٦٧: ١٠ - ١١.

فإن قلت: فأين مظنّة الرّجاء و موضعه المحمود؟ فاعلم أنّه محمود في موضعين: أحدهما في حقّ العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان: و أنّى تقبل توبتك؟ فيقنطه من رحمة اللَّه فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء و يتذكّر

أنّ اللَّه كريم يقبل التوبة عن عباده و أنّ التوبة طاعة تكفّر الذّنوب قال تعالى:

قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللَّه إنَّ اللَّه يغفر الذّنوب جميعا إنّه هو الغفور الرحيم. و أنيبوا إلى ربّكم و أسلموا له ٣٩: ٥٣ - ٥٤أمرهم بالإنابة و قال:و إنّي لغفّار لمن تاب و آمن و عمل صالحا ثمَّ اهتدى ٢٠: ٨٢فإذا توقّع المغفرة مع التوبة فهو راج و إن توقّع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور، كما أنّ من ضاق عليه وقت الجمعة و هو في السوق فخطر له أن يسعى إلى

الجمعة فقال له الشيطان: إنّك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذّب الشيطان و قام يعدو و هو يرجو إدراك الجمعة فهو راج و إن استمرّ على التجارة و أخذ يرجو تأخير الإمام الصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب الّتي لا يعرفه فهو مغرور لا محالة.

و الثاني أن تفتر نفسه من فضائل الأعمال و يقتصر على الفرائض فيرجّى نفسه نعيم اللّه تعالى و ما وعد اللّه به الصالحين حتّى ينبعث من الرّجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل و يتذكّر قوله تعالى:قد أفلح المؤمنون. الّذين هم في صلوتهم خاشعون ٢٣: ١ - ٢- إلى قوله -أولئك هم الوارثون. الّذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ٢٣: ١٠ - ١١فالرّجاء الأوّل يقمع القنوط المانع من التوبة و الرّجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط و التشمّر، فكلّ توقّع حثّ على توبة أو على تشمّر في العبادة فهو رجاء و كلّ توقّع أوجب فتورا في العبادة و ركونا إلى البطالة فهو غرّة كما إذا خطر له أن يترك الذنب و يشتغل بالعمل فيقول له الشيطان: مالك و إيذاء نفسك و تعذيبها و لك ربّ كريم غفور رحيم فيفتر به عن التوبة و العبادة فهي الغرّة و عند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوّف نفسه بغضب اللّه و عظيم عقابه و يقول: إنّه مع أنّه غافر الذّنب و قابل التوب شديد العقاب. و إنّه مع أنّه كريم خلّد الكفار في النار أبد الآباد مع أنّه لم يضرّه كفرهم بل سلّط العذاب و المحن

و الأمراض و العلل و الفقر و الجوع على جملة من عباده في الدّنيا و هو قادر على إزالتها فمن هذه سنّته في عباده و قد خوّفني عقابه فكيف لا أخافه و أغترّ به، فالخوف و الرّجاء قائدان و سائقان يبعثان على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمنّ و غرور، و رجاء كافّة الخلق هو سبب

فتورهم و سبب إقبالهم على الدّنيا و سبب إعراضهم عن اللَّه و إهمالهم السعي للآخرة فذاك غرور و قد أخبر النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و ذكر أنّ الغرور سيغلب على آخر هذه الامّة و قد كان ما وعد به صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم. فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات و يؤتون ما آتوا و قلوبهم و جلة أنّهم إلى ربّهم راجعون، يخافون على أنفسهم و هو طول اللّيل و النهار في طاعة اللَّه يبالغون في التقوى و الحذر من الشهوات و الشبهات و يبكون على أنفسهم في الخلوات، و أمّا الآن فترى الناس آمنين مسرورين مطمئنّين غير خائفين، مع إكبابهم على المعاصي و انهماكهم في الدّنيا و إعراضهم عن اللَّه تعالى، زاعمين أنّا واثقون بكرم اللَّه و فضله و راجون لعفوه و مغفرته كأنّهم يزعمون أنّهم عرفوا من كرم اللَّه و فضله ما لم يعرفه الأنبياء و السلف الصالحون فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى و ينال بالهوينا فعلى ما ذا كان بكاء أولئك و خوفهم و حزنهم و قد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الرّجاء و الخوف. وقد قال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم فيما رواه معقل بن يسار:«يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرّجال كما تخلق الثياب على الأبدان، أمرهم كلّه يكون طمعا لا خوف معه، إن أحسن أحدهم قال: يتقبّل منّي، و إن أساء قال: يغفر لي»

فأخبر أنّهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن و ما فيه. و بمثله أخبر عن النصارى إذ قال:«فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ۷: ۱٦۹(أي علماء)يأخذون عرض هذا الأدنى ۷: ۱٦۹(أي شهواتهم من الدّنيا حلالا كان أو حراما)و يقولون سيغفر

لنا» ٧: ١٦٩و قال تعالى:ذلك لمن خاف مقامي و خاف وعيد ١٤: ١٤و القرآن من أوّله إلى آخره تحذير و تخويف لا يتفكّر فيه متفكّر إلا و يطول حزنه و يعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه و ترى الناس يهذّونه هذّا، يخرجون الحروف من مخارجها و يتناظرون على رفعها و خفضها و نصبها و كأنّهم يقرءون شعرا من أشعار العرب لا يهمّهم الالتفات إلى معانيه و العمل بما فيه. و هل في العالم غرور يزيد على هذا؟ فهذه أمثلة الغرور باللّه و بيان الفرق بين الرّجاء و الغرور، و يقرب منه غرور طوائف لهم طاعات و معاص إلا أنّ معاصيهم أكثروهم يتوقّعون المغفرة و يظنّون أنّه تترجّح كفّة حسناتهم مع أنّ ما في كفّة السيّئات أكثر و هذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدّق بدراهم معدودة من الحلال و الحرام و يكون ما يتناول من أموال المسلمين و الشبهات أضعافه و لعلّ ما تصدّق به من أموال المسلمين و هو يتّكل عليه و يظنّ أنّ أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدّق بعشرة من الحلال أو الحرام و ما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كفّة ميزان و في الكفّة الأخرى ألف و أراد أن يميل الكفّة الثقيلة بالكفّة الخفيفة و ذلك غاية الجهل، نعم و منهم من يظنّ أنّ طاعاته أكثر من معاصيه لأنّه لا يحاسب نفسه و لا يتفقّد معاصيه و إذا عمل طاعة حفظها و اعتدّ بها كالّذي يستغفر اللّه بلسانه أو يسبّح اللّه في اليوم مائة مرّة ثمّ يغتاب المسلمين و يمزّق أعراضهم و يتكلّم بما لا يرضاه اللّه طول النهار من غير حصر و عدد و يكون نظره إلى عدد سبحته و أنّه استغفر مائة مرّة و غفل عن هذيانه طول نهاره الّذي لو كتبها لكان مثل تسبيحه مائة مرّة أو ألف مرّة و قد كتبه الكرام الكاتبون و أوعد اللّه العقاب على كلّ كلمة و قال:ما يلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد ٥٠: ١٨فهو أبدا يتأمّل في فضائل التسبيحات و التهليلات و لا يلتفت إلى ما ورد في عقوبة المغتابين و الكذابين و النّمامين، و المنافقين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللّسان و ذلك

محض الغرور و لعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٠٩

الّذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكفّ لسانه حتّى عن جملة من مهمّاته و ما نطق به في فتراته كان يعدّه و يحسبه و يوازنه بتسبيحاته حتّى لا يفضل عليه أجرة نسخه، فيا عجبا لمن يحاسب نفسه و يحتاط خوفا على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ و لا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الأعلى و نعيمه، ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكّر فيها و قد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنّا من الكفرة الجاحدين و إن صدقنا به كنّا من الحمقى المغرورين فما هذه أعمال من يصدّق بما جاء به القرآن و إنّا نبرأ إلى اللّه أن نكون من أهل الكفر، فسبحان من صدّنا عن التنبّه و اليقين مع هذا البيان و ما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة و الغرور على القلوب أن يخشى و يتّقي و لا يغترّ به اتّكالا على أباطيل المنى و تعاليل الشيطان و الهوى.

(بيان أصناف المغترّين و أقسام فرق كلّ صنف من الاصناف)

الصنف الأوّل أهل العلم و المغترّون منهم فرق:

ففرقة منهم أحكموا العلوم الشرعيّة و العقليّة

و تعمّقوا فيها و اشتغلوا بها و أهملوا تفقّد الجوارح و حفظها عن المعاصي و إلزامها الطاعات، و اغترّوا بعلمهم، و ظنّوا أنّهم عند اللّه بمكان، و أنّهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذّب اللّه مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، و أنّه لا يطالبهم بذنوبهم و خطاياهم لكرامتهم على اللّه و هم مغرورون، فإنّهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أنّ العلم علمان علم معاملة و علم مكاشفة و هو العلم باللّه تعالى و بصفاته المسمّى بالعادة علم المعرفة، فأمّا العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال و الحرام و معرفة أخلاق النفس المذمومة و المحمودة و كيفيّة علاجها و

الفرار منها فهي علم لا تراد إلا للعمل و لولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، و كلّ علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل، فمثال هؤلاء كمريض به علّة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذّاق الأطباء فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتّى عثر على طبيب حاذق فعلّمه الدّواء و فصّل له الأخلاط و أنواعها و مقاديرها و معادنها الّتي منها تجتلب و علّمه كيفيّة دقّ كلّ واحد منها و كيفيّة الخلط و العجن، فتعلّم ذلك منه فكتب منه نسخة حسنة بخطّ حسن و رجع

إلى بيته و هو يكرّرها و يقرؤها و يعلّمها المرضى و لم يشتغل بشربها و استعمالها، أفترى أنّ ذلك يغني عنه من مرضه شيئا؟ هيهات هيهات لو كتب منه ألف نسخة و علّمه ألف مريض حتّى شفى جميعهم و كرّره كلّ ليلة ألف مرّة لم يغنه ذلك من مرضه شيئا إلا أن يزن الذّهب و يشتري الدّواء و يخلطه كما تعلّم و يشربه و يصبر على مرارته و يكون شربه في وقته و بعد تقديم الاحتماء و جميع شروطه، و إذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلا، فمهما ظنّ أنّ ذلك يكفيه و يشفيه فقد ظهر غروره، و هكذا الفقيه الّذي أحكم علم الطاعات و لم يعملها، و أحكم علم المعاصي و لم يجتنبها، و أحكم علم الأخلاق المذمومة و لم يزكّ نفسه منها، و أحكم علم الأخلاق المحمودة و لم يتّصف بها فهو مغرور إذ قال اللّه تعالى:

قد أفلح من زكّيها ٩١: ٩و لم يقل قد أفلح من تعلّم كيفية تزكيتها و كتب علمها و علّمها الناس، و عند هذا يقول له الشيطان: لا يغرّنك هذا المثال فإنّ العلم بالدّواء لا يزيل المرض و إنّما مطلبك القرب من اللّه تعالى و ثوابه و العلم يجلب الثواب و يتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم، فإن

كان المسكين معتوها مغرورا وافق ذلك مراده و هواه فاطمأنّ إليه و أهمل العمل و إن كان كيّسا فيقول للشيطان:
أ تذكّرني فضائل العلم و تنسيني ما ورد في العالم الفاجر الّذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى:«فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث» ٧: ١٧٦و كقوله تعالى:مثل الّذين حمّلوا التورية ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ٦٢: ٥فأيّ خزي أعظم من التمثيل بالكلب و الحمار؟ وقد قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من ازداد علما و لم يزدد هدى لم يزدد من اللّه تعالى إلا بعدا».
وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«يلقى العالم في النّار فتندلق أقتابه فيدور بها في النّار كما يدور الحمار في الرّحى».

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«شرّ الناس العلماء السوء»

وقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه اللّه بعلمه»

فهذا و أمثاله ممّا أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى إلا أنّ هذا فيما لا توافق هوى العالم الفاجر و ما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه و ذلك عين الغرور فإنّه إن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه و إن نظر بعين الإيمان فالّذي أخبره بفضيلة العلم هو الّذي أخبره بذمّ العلماء السوء و أنّ حالهم عند اللّه تعالى أشدّ من حال الجهّال فبعد ذلك اعتقاده أنّه على خير مع تأكّد حجّة اللّه عليه غاية الغرور. و أمّا الّذي يدّعي علوم المكاشفة كالعلم باللّه و صفاته و أسمائه و هو مع ذلك يهمل العمل و يضيّع أمر اللّه تعالى و حدوده

فغروره أشدّ، و مثاله كمن أراد خدمة ملك فعرف الملك و عرف أخلاقه و أوصافه و لونه و شكله و طوله و عرضه و عادته و مجلسه و لم يتعرّف ما يحبّه و يكرهه و ما يغضب عليه و ما يرضى به أو عرف ذلك إلا أنّه قصد خدمته و هو ملابس بجميع ما يغضب به و عاطل عن جميع ما يحبّه من زيّ و هيئة و كلام و حركة و سكون، فورد على الملك و هو يريد التقرّب منه و الاختصاص به متلطّخا بجميع ما يكرهه الملك، عاطلا عن جميع ما يحبّه، متوسّلا إليه بمعرفته له و لنسبه و اسمه و بلده و شكله و صورته و عادته في سياسة غلمانه و معاملة رعيّته، فهذا مغرور جدّا إذ لو ترك جميع ما عرفه و اشتغل بمعرفته فقطّ و معرفة ما يحبّه و يكرهه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه و الاختصاص به، بل تقصيره في التقوى و اتّباعه للشهوات يدلّ على أنّه لم ينكشف له من معرفة اللَّه تعالى إلا الأسامي دون المعاني، إذ لو عرف اللَّه تعالى حقّ معرفته لخشيه و اتّقاه قال اللَّه تعالى:إنّما يخشى اللَّه من عباده العلماء ٣٥: ٢٨و فاتحة الزّبور «رأس الحكمة خشية اللَّه». و قال ابن مسعود: «كفى بخشية اللَّه

علما، و كفى بالاغترار باللَّه جهلا».

فإذن الفقيه من فقه عن اللَّه أمره و نهيه و علم من صفاته ما أحبّه و ما كرهه، فهو العالم بالحقيقة«و من يرد اللَّه به خيرا يفقّهه في الدّين»

فإذا لم يكن بهذا الصفة فهو من المغرورين.

و فرقة أخرى أحكموا العلم و العمل

فواظبوا على الطاعات الظاهرة و تركوا المعاصي إلا أنّهم لم يتفقّدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند اللَّه تعالى من الكبر و الحسد و الرّياء و طلب الرّئاسة و العلاء و إرادة السوء للأقران و النظراء و طلب الشهرة في البلاد و العباد و

ربّما لم يعرف بعضهم أنّ ذلك مذموم فهو مكبّ عليها غير محترز عنها و لا يلتفت إلىقوله صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«أدنى الرّياء شرك»

و إلىقوله:«لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر»

و إلىقوله:«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»

و إلىقوله:«حبّ المال و الشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»

إلى غير ذلك من الأخبار الّتي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة، فهؤلاء زيّنوا ظواهرهم و أهملوا بواطنهم و نسواقوله صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«إنّ اللَّه لا ينظر إلى صوركم و لا إلى أموالكم و إنّما ينظر إلى قلوبكم و أعمالكم»

فتعهّدوا الأعمال و ما تعهّدوا القلوب و القلب هو الأصل إذ لا ينجو إلا من أتى اللَّه بقلب سليم، و مثال هؤلاء كبئر الحشّ ظاهرها جصّ و باطنها نتن، أو كقبور الموتى ظاهرها مزينّة و باطنها جيفة، أو كبيت مظلم باطنه و وضع السراج على ظاهره حتّى استنار ظاهره و باطنه مظلم، أو كرجل قصد ضيافة الملك إلى داره فجصّص باب داره و ترك المزابل في صدر داره، و لا يخفى أنّ ذلك غرور بل أقرب مثال إليه رجل زرع زرعا فنبت و نبت معه حشيش يفسده فأمر

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣١٣

بتنقية الزّرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يجزّ رأسه و أطرافه فلا يزال يقوى أصله و ينبت، لأنّ مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب فمن لا يطهّر القلب منها لم تتمّ له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة بل هو

كمريض ظهر به الجرب و قد امر بالطلاء و شرب الدّواء، فالطلاء ليزيل ما على ظهره و الدّواء ليقلع مادّته من باطنه فقنع بالطلاء و ترك الدّواء و بقي يتناول ما يزيد في المادّة فلا يزال يطلي الظاهر و الجرب دائم به يتفجّر من المادّة الّتي في الباطن.

و فرقة أخرى علموا هذه الأخلاق الباطنة،

و علموا أنّها مذمومة من جهة الشرع إلا أنّهم لعجبهم بأنفسهم يظنّون أنّهم منفكّون عنها و أنّهم أرفع عند اللّه من أن يبتليهم بذلك و إنّما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأمّا هو فأعظم عند اللّه من أن يبتليه، ثمّ إذا ظهر عليه مخائل الكبر و الرئاسة و طلب العلوّ و الشرف قال: ما هذا كبر و إنّما هذا طلب عزّ الدّين و إظهار شرف العلم و نصرة دين اللّه و إرغام أنف المخالفين من المبتدعين. فإنّي لو لبست الدّون من الثياب و جلست في الدّون من المجالس لشتمت بي أعداء الدّين و فرحوا به و كان ذلّي ذلا على الإسلام و نسي المغرور أنّ عدوّه الّذي حذّره مولاه منه هو الشيطان و أنّه يفرح بما يفعله و يسخر به، و نسي أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما ذا نصر الدّين و بما ذا أرغم الكافرين، و نسي ما روي عن السلف من التواضع و التبذّل و القناعة بالفقر و المسكنة حتّى عوتب بعضهم في بذاذة زيّهفقال:إنّا قوم أعزّنا اللّه بالإسلام فلا نطلب العزّ في غيره.

ثمّ هذا المغرور يطلب عزّ الدّين بالثياب الرّقيقة من القصب الدّيبقي و الإبريسم المحرم و الخيول و المراكب و يزعم أنّه يطلب به عزّ الدّين و شرف العلم و كذلك مهما أطلق اللّسان بحسد في أقرانه أو في من ردّ عليه شيئا من كلامه لم يظنّ بنفسه أنّ ذلك حسد و لكن قال: إنّما هذا غضب للحقّ و ردّ على المبطل في عدوانه و ظلمه. و لم يظنّ بنفسه أنّ ذلك من الحسد حتّى يعتقد أنّه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رئاسة و زوحم فيها هل كان غضبه و عداوته

مثل غضبه الآن فيكون غضبه للَّه أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر و منع

بل ربّما يفرح به فيكون غضبه لنفسه، و حسده لأقرانه من خبث باطنه و هكذا يرائي بأعماله و بعلومه، و إذا خطر له خاطر الرّياء قال: هيهات إنّما غرضي من إظهار العلم و العمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين اللَّه و يتخلّصوا من عقاب اللَّه و لا يتأمّل المغرور أنّه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما بفرح باقتدائهم به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم لم يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر، و ربّما يذكر هذا له فلا يخلّيه الشيطان أيضا بل يقول: إنّما ذاك لأنّهم إذا اهتدوا بي كان الأجر و الثواب لي فإنّما فرحي بثواب اللَّه تعالى لا بقبول الخلق، هذا ما يظنّه بنفسه و اللَّه يطّلع من ضميره على أنّه لو أخبره نبيّ بأنّ ثوابه في الخمول و إخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، و حبس مع ذلك في سجن و قيّد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن و حلّ السلاسل حتّى يرجع إلى موضعه الّذي به ظهر رئاسته من تدريس أو وعظ أو غيره، و كذلك يدخل على السلطان و يتودّد إليه و يثني عليه و يتواضع له، و إذا خطر له أنّ التّواضع للسلاطين الظّلمة حرام قال له الشّيطان: هيهات إنّما ذلك عند الطمع في مالهم و أمّا أنت فغرضك أن تتشفّع للمسلمين و تدفع الضرّ عنهم و تدفع شرّ أعدائك عن نفسك و اللَّه يعلم من باطنه أنّه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفّعه في كلّ مسلم حتّى يدفع الضرر عن جميع المسلمين لثقل ذلك عليه، و لو قدر على أن يقبّح حاله عند السلطان بالطعن فيه و الكذب عليه لفعل، و كذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم و إذا خطر له أنّه حرام قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له و هو

لمصالح المسلمين و أنت إمام المسلمين و عالمهم و بك قوام دين اللّه أ فلا يحلّ لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيغترّ بهذا التلبيس في ثلاثة أمور: أحدها في أنّه مال لا مالك له و أنّه يعرف أنّه يأخذ الخراج من المسلمين و أهل السّواد و الّذين أخذ منهم أحياء قيام و أولادهم و ورثتهم أحياء، و نهاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم و من غصب مائة دينار من عشرة أنفس و خلطها فلا خلاف في أنّه مال حرام و لا يقال: هو مال لا مالك له و يجب أن يقسّم بين

العشرة و يردّ إلى كلّ واحد عشرة و إن كان مال كلّ واحد قد اختلط بمال الآخر.

الثاني في قوله: إنّك من مصالح المسلمين و بك قوام الدّين و لعلّ الّذين فسد دينهم و استحلّوا أموال السّلاطين و رغبوا في طلب الدّنيا و الإقبال على الرّئاسة و الإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الّذين زهدوا في الدّنيا و رفضوها و أقبلوا على اللّه، فهو على التحقيق دجّال الدّين و قوام مذهب الشياطين لا إمام الدّين إذ الإمام هو الّذي يقتدى به في الإعراض عن الدّنيا و الإقبال على اللّه كالأنبياء و متابعيهم، و الدّجّال هو الّذي يقتدى به في الإعراض عن اللّه و الإقبال على الدّنيا و لعلّ موت مثل هؤلاء أنفع للمسلمين من حياته و هو يزعم أنّه قوام الدّين و مثله كما قال عيسى عليه السّلام للعالم السّوء: «إنّه كصخرة وقعت على فم الوادي فلا هي تشرب الماء و لا هي تترك الماء يخلص إلى الزّرع».

و أصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخّرة خارجة عن الحصر، و فيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير.

و فرقة أخرى أحكموا العلوم و طهّروا الجوارح

و زيّنوها بالطاعات و اجتنبوا ظاهر المعاصي و تفقّدوا أخلاق النفس و صفات القلب من الرّياء و الحسد و الكبر و الحقد و طلب العلوّ و جاهدوا أنفسهم في التبرّي منها و قلعوا

من القلوب منابتها الجليّة القويّة و لكنّهم بعد مغرورون إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكائد الشيطان و خبايا خدايع النّفس ما دقّ و غمض مدركه فلم يفطّنوا لها و أهملوها و إنّما مثاله من يريد تنقية الزّرع من الحشيش فدار عليه و فتّش عن كلّ حشيش رآه فقلعه إلا أنّه لم يفتّش عمّا لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض و ظنّ أنّ الكلّ قد ظهر و برز، و كان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها و هو يظنّ أنّه قد اقتلعها فإذا هو بها في غفلته و قد نبتت و قويت و أفسدت أصول الزّرع من حيث لا يدري، فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك و يذهل عن المراقبة للخفايا و التفقّد للدّقائق فتراه يسهر ليله و نهاره في جمع العلوم و ترتيبها و تحسين ألفاظها و جمع التصانيف فيها و هو يرى أنّ باعثه الحرص على إظهار دين اللَّه و نشر شريعته

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣١٦

و لعلّ باعثه الخفيّ هو طلب الذّكر و انتشار الصيت في الأطراف و كثرة الرّحلة إليه من الآفاق و انطلاق الألسنة عليه بالثناء و المدح بالزّهد و الورع و العلم و التقديم له في المهمّات و إيثاره في الأغراض و الاجتماع حوله للاستفادة و التلذّذ بحسن الإصغاء عند حسن اللّفظ و الإيراد و التمتّع بتحريك الرّءوس على كلامه و البكاء عليه و التعجّب منه و الفرح بكثرة الأصحاب و المستفيدين و السرور بالتخصّص بهذه الخاصيّة من بين سائر الأقران و الأشكال للجمع بين العلم و الورع و ظاهر الزّهد و التمكّن به من إطلاق لسان الطعن في الكافّة المقبلين على الدّنيا لا عن تفجّع بمصيبة الدّين و لكن عن إدلال بالتمييز و اعتداد بالتخصيص، و لعلّ هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر و إمارة و عزّ و انقياد و توقير و حسن ثناء فلو تغيّرت عليه القلوب و اعتقدوا فيه خلاف الزّهد بما يظهر من أعماله

فعساه يتشوّش عليه قلبه و تختلط أوراده و وظائفه، و عساه يعتذر بكلّ حيلة لنفسه و ربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه، و عساه يؤثر بالكرامة و المراعاة من اعتقد فيه الزّهد و الورع و إن كان قد اعتقد فيه فوق قدره و ينبو قلبه عمّن عرف حدّ فضله و ورعه و إن كان ذاك على وفق حاله، و عساه يؤثر بعض أصحابه على بعض و هو يرى أنّه يؤثره لتقدّمه في الفضل و الورع و إنّما ذلك لأنّه أطوع له و أتبع لمراده و أكثر ثناء عليه و أشدّ أصحابه إصغاء إليه و أحرص على خدمته، و لعلّهم يستفيدون منه و يرغبون في العلم و هو يظنّ أنّ قبولهم لإخلاصه و صدقه و قيامه بحقّ علمه فيحمد اللّه تعالى على ما يسرّ على لسانه من منافع خلقه و يرى أنّ ذلك مكفّر لذنوبه و لم يتفقّد مع نفسه تصحيح النيّة فيه، و عساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول و العزلة و إخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة و الاختفاء لذّة القبول و عزّة الرّئاسة و لعلّ مثل هذا هو المراد بقول الشيطان: من زعم من ابن آدم أنّه بعلمه امتنع منّي فبجهله وقع في حبائلي. و عساه يصنّف و يجتهد فيه ظانّا أنّه يجمع علم اللّه لينتفع به و إنّما يريد استطارة اسمه بحسن التصنيف فلو ادّعى مدّع تصنيفه و محا عنه اسمه و نسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأنّ ثواب الاستفادة من

التصنيف إنّما يرجع إلى المصنّف و اللّه عالم بأنّه هو المصنّف لا من ادّعاه و لعلّه في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إمّا صريحا بالدّعاوي الطويلة العريضة، و إمّا ضمنا بالطعن في غيره ليستبين من طعنه في غيره أنّه أفضل ممّن طعن فيه و أعظم منه علما و لقد كان في غنية عن الطعن فيه و لعلّه يحكي من الكلام المزيّف ما يريد تزييفه فيعزيه إلى قائله و ما يستحسنه فلعلّه لا يعزيه إليه ليظنّ أنّه

من كلامه فينقله بعينه كالسارق له أو يغيّره أدنى تغيير كالّذي يسرق قميصا فيتّخذه قباء حتّى لا يعرف أنّه مسروق و لعلّه يجتهد في تزيين ألفاظه و تسجيعها و تحسين نظمها كيلا ينسب إلى الرّكاكة و يرى أنّ غرضه ترويج الحكمة و تحسينها و تزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس. و عساه غافل عمّا روي أنّ بعض الحكماء وضع ثلاثمائة و ستّين مصحفا في الحكمة فأوحى اللَّه إلى نبيّ زمانه قل له: قد ملأت الأرض نفاقا و إنّي لا أقبل من نفاقك شيئا. و لعلّ جماعة من هذا الصنف من المغترّين إذا اجتمعوا ظنّ كلّ واحد بنفسه السّلامة عن عيوب القلوب و خفاياها، فلو افترقوا و أتبع كلّ واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كلّ واحد إلى كثرة من يتبعه و أنّه أكثر تبعا أم غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر و إن علم أنّ غيره أحقّ بكثرة الأتباع منه حسده، ثمّ إذا تفرّقوا و اشتغلوا بالإفادة تغايروا و تحاسدوا و لعلّ من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه و وجد في نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتزّ باطنه لإكرامه و لا يتشمّر لقضاء حوائجه كما كان يتشمّر من قبل و لا يحرص على الثناء عليه كما أثنى من قبل مع علمه بأنّه مشغول بالاستفادة، و لعلّ التحيّز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة و سلامته منها في تلك الفئة و مع ذلك فلا تزول النفرة عن قلبه، و لعلّ واحدا منهم إذا تحرّكت فيه مبادي الحسد لم يقدر على إظهاره فيعلّل بالطّعن في دينه و في ورعه ليحمل غضبه على ذلك و يقول: إنّما غضبت لدين اللَّه لا لنفسي، و مهما ذكرت عيوبه بين يديه ربّما فرح به، و إن أثنى عليه ربّما ساءه و كرهه، و ربّما قطب وجهه إذا ذكر عيوبه يظهر أنّه كاره لغيبة المسلمين و سرّ قلبه راض به و مريد له، و اللَّه

مطّلع عليه في ذلك، فهذا و أمثاله من خفايا العيوب لا يفطن لها إلا الأكياس، و لا يتنزّه عنها إلا الأقوياء، و لا مطمع فيها لأمثالنا من الضعفاء إلا أنّ أقلّ الدّرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه و يسوءه ذلك و يكرهه و يحرص على إصلاحه، فإذا أراد اللّه تعالى بعبد خيرا بصّره بعيوب نفسه، و من سرّته حسنته و ساءته سيّئته فهو مرجوّ الحال و أمره أقرب من المغرور المزكّي لنفسه، الممتنّ على اللّه تعالى بعلمه و عمله، الظانّ أنّه من خيار خلقه فنعوذ باللّه من الغفلة و الاغترار و من المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال، و هذا غرور الّذين حصّلوا العلوم المهمّة و لكن قصّروا في العمل بالعلم. و لنذكر الآن غرور الّذين قنعوا من العلوم بما لا يهمّهم و تركوا المهمّ و هم به مغترّون إمّا لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم و إمّا لاقتصارهم عليه.

فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات و الخصومات و تفاصيل المعاملات الدّنيويّة الجارية بين الخلق لمصالح المعايش فخصّصوا اسم الفقه بها و سمّوه الفقه و علم المذهب، و ربّما ضيّعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة و الباطنة و لم يتفقّدوا الجوارح و لم يخرسوا اللّسان عن الغيبة و لا البطن عن الحرام و لا الرّجل عن المشي إلى السلاطين و كذا سائر الجوارح و لم يخرسوا قلوبهم عن الكبر و الرّياء و الحسد و سائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل و الآخر من حيث العلم، أمّا العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه و أنّ مثالهم مثال المريض إذا تعلّم نسخة الدّواء و اشتغل بتكراره و حفظه و تعليمه، لا بل مثالهم مثال من به علّة البواسير و البرسام و هو مشرف على الهلاك، محتاج إلى تعلّم الدّواء و استعماله فاشتغل بتعلّم دواء الاستحاضة و بتكرار ذلك ليلا و نهارا مع علمه بأنّه رجل لا يحيض و لا يستحاض و لكن يقول ربّما يقع علّة الاستحاضة لامرأة و تسألني عنها و ذلك غاية الغرور، و كذلك المتفقّه المسكين قد تسلّط عليه حبّ الدّنيا و اتّباع الشهوات و الحسد

و الكبر و الرّياء و سائر المهلكات الباطنة و ربّما يختطفه الموت قبل التوبة و التلافي فيلقى اللّه تعالى و هو عليه غضبان فترك ذلك كلّه و اشتغل بعلم السلم و الإجارة و الظهار و اللّعان و الجراحات و الدّيات و الدّعاوي و البيّنات و

بكتاب الحيض و هو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قطّ في عمره لنفسه و إذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك و يحرص عليه لما فيه من الجاه و المال و الرّئاسة و قد دهاه الشيطان و ما يشعر إذ يظنّ المغرور بنفسه أنّه مشغول بفرض كفاية دينيّة و ليس يدري أنّ الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ عن فرض العين معصية، هذا لو كانت نيّته صحيحة كما قال، و كان قد قصد بالفقه وجه اللّه تعالى فإنّه و إن قصد وجه اللّه فهو باشتغاله به معرض عن فروض عينه في جوارحه و قلبه، فهذا غروره من حيث العمل، و أمّا غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوي و ظنّ أنّه علم الدّين و ترك علم كتاب اللّه و سنّة نبيّه و ربّما طعن على المحدّثين و قال: إنّهم نقلة أخبار و حملة أسفار لا يفقهون، و ترك أيضا علم تهذيب الأخلاق و ترك الفقه عن اللّه بإدراك جلاله و عظمته و هو العلم الّذي يورث الخوف و الهيبة و الخشوع و يحمل على التقوى فتراه آمنا من اللّه مغترّا به متّكلا على أنّه لابدّ و أن يرحمه فإنّه قوام دينه و إنّه لو لم يشتغل بالفتاوي لتعطّل الحلال و الحرام فقد ترك العلوم الّذي هي أهمّ و هو غافل مغرور و سبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه و لم يدر أنّ ذلك الفقه هو الفقه عن اللّه و معرفة صفاته المخوّفة و المرجوّة ليستشعر القلب الخوف و يلازم التقوى إذ قال تعالى:«فلو لا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم» ٩: ١٢٢و الّذي به يحصل الإنذار

غير هذا العلم فإنّ مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات و حفظ الأبدان بالأموال و بدفع القتل و الجراحات، و المال في طريق اللَّه تعالى آلة و البدن مركب و إنّما العلم المهمّ هو معرفة سلوك الطريق و قطع عقبات القلب الّتي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد و بين اللَّه تعالى و إذا مات ملوّثا بتلك الصّفات كان محجوبا عن اللَّه تعالى، فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحجّ على علم خرز الراوية و الخفّ و لا يشكّ في أنّه لو لم يكن لتعطّل الحجّ و لكنّ المقتصر عليه ليس من الحجّاج في شيء. و قد

ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم. و من هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيّات و لم يهمّه إلا تعلّم طريق المجادلة و الإلزام و إفحام الخصوم و دفع الحقّ لأجل الغلبة و المباهاة فهو طول اللّيل و النّهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب و التفقّد لعيوب الأقران و التلقّف لأنواع التسبيبات المؤذية، و هؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء و همّهم السفه، و لا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران، فكلّ علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب و علم سلوك الطريق إلى اللَّه تعالى بمحو الصفات المذمومة و تبديلها بالمحمودة فإنّهم يستحقرونه و يسمّونه التزويق و كلام الوعّاظ و إنّما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة الّتي تجري بين المتصارعين في الجدل و هؤلاء قد جمعوا ما جمعه الّذين من قبلهم في علم الفتاوي لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف. و أمّا أدلّة الأحكام فيشتمل عليها علم المذاهب و هو كتاب اللَّه تعالى و سنّة رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و فهم معانيهما، و أمّا حيل الجدل من الكسر و القلب و فساد الوضع و التركيب

و التعدية فهي إنّما أبدعت لإظهار الغلبة و الإفحام و إقامة سوق الجدل بها، فغرور هؤلاء أشدّ كثيرا و أقبح من غرور من قبلهم.

و فرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام و المجادلة في الأهواء

و الردّ على المخالفين و تتبّع مناقضاتهم، و استكثروا من معرفة المقالات المختلفة و اشتغلوا بتعلّم الطرق في مناظرة أولئك و إفحامهم و افترقوا في ذلك فرقا كثيرة و اعتقدوا أنّه لا يكون لعبد عمل إلا بالإيمان و لا يصحّ إيمان إلا بأن يتعلّم جدلهم و ما يسمّونه أدلّة عقائدهم و ظنّوا أنّه لا أحد أعرف باللّه و بصفاته منهم و أنّه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم و لم يتعلّم علمهم ودعت كلّ فرقة منهم إلى نفسها ثمّ هم فرقتان: ضالّة و محقّة، و الضالّة هي الّتي تدعو إلى غير السنّة، و المحقّة هي الّتي تدعو إلى السنّة، و الغرور شامل لجميعهم، أمّا الضالّة فلغفلتها عن ضلالها و ظنّها بنفسها النجاة، و هم فرق كثيرة يكفّر بعضهم بعضا و إنّما اتيت من حيث أنّها لم تتّهم رأيها و لم تحكم أوّلا شروط الأدلّة و منهاجها فرأى أحدهم الشبهة دليلا و الدّليل شبهة، و أمّا الفرقة المحقّة

فإنّما اغترارها من حيث أنّها ظنّت بالجدل أنّه أهمّ الأمور و أفضل القربات في دين اللّه و زعمت أنّه لا يتمّ لأحد دينه ما لم يتفحّص و لم يبحث و إنّ من صدّق اللّه و رسوله من غير بحث و تحرير دليل فليس بمؤمن و لا بكامل و لا مقرّب عند اللّه فلهذا النظر الفاسد قطعت أعمارها في تعلّم الجدل و البحث عن المقالات و هذيانات المبتدعة و مناقضاتهم و أهمل نفسه و قلبه حتّى عمى عليه ذنوبه و خطاياه الظاهرة و الباطنة و هو يظنّ أنّ اشتغاله بالجدل أولى و أقرب عند اللّه و أفضل و لكنّه لالتذاذه بالغلبة و الافحام و لذّة الرئاسة و عزّ الانتماء إلى الذّبّ عن دين اللّه

عميت بصيرته و لم يلتفت إلى القرن الأوّل و أنّ النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم شاهد لهم بأنّهم خير الخلق و أنّهم قد أدركوا كثيرا من أهل البدع و الأهواء فما جعلوا أعمارهم و دينهم غرضا للخصومات و المجادلات و ما اشتغلوا بذلك عن تفقّد قلوبهم و جوارحهم و أحوالهم، بل لم يتكلّموا فيه إلا حيث رأوا حاجة و توسّموا مخائل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدلّ الضالّ على ضلالته، و إذا رأوا مصرّا على ضلالة هجروه و أعرضوا عنه و أبغضوه في اللَّه و لم يلزموا الملاحاة معه طول العمر بل قالوا: إنّ الحقّ هو الدّعوة إلى السنّة و من السنّة ترك الجدال في الدّعوة إلى السنّة إذروى أبو أمامة عن النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم أنّه قال:«ما ضلّ قوم قطّ بعد هدى إلا اتوا الجدل و حرموا العمل».

وخرج رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم يوما على أصحابه و هم يتجادلون و يختصمون فغضب عليهم حتّى كأنّه فقئ في وجهه حبّ الرمّان حمرة من الغضب فقال: «أ لهذا بعثتم أ بهذا أمرتم أن تضربوا كتاب اللَّه بعضه ببعض؟ انظروا إلى ما امرتم به فاعملوا و إلى ما نهيتم عنه فانتهوا».

فقد زجرهم رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم عن ذلك و كانوا أولى خلق اللَّه بالحجاج و الجدال،

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٢٢

ثمّ إنّهم رأوا النبيّ صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و قد بعث إلى كافّة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام و إفحام و تحقّق حجّة و دفع سؤال و إيراد إلزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم و لم يزد في المجادلة عليه لأنّ ذلك يشوّش القلوب و يستخرج منها الإشكالات و الشبه، ثمّ لا يقدر على محوها من قلوبهم و ما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقييسات و دقائق الأقيسة و لم يعلّم أصحابه كيفيّة الجدل و الإلزام.

و لكنّ الأكياس و أهل الحزم لم يغترّوا بهذا و قالوا: لو نجا أهل الأرض و هلكنا لم تنفعنا نجاتهم، و لو نجونا و هلكوا لم يضرّنا هلاكهم، و ليس علينا في المجادلة أكثر ممّا كان على الصحابة مع اليهود و النصارى و أهل الملل، و ما ضيّعوا العمر بتحرير مجادلتهم فما لنا نضيّع العمر و لا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا و فاقتنا و لم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ثمّ نرى أنّ المبتدع ليس يترك بدعته بجدالنا بل يزيده التعصّب و الخصومة تشدّدا في بدعته فاشتغالي بمخاصمة نفسي و مجاهدتها و مجادلتها لتترك الدّنيا للآخرة أولى، هذا لو كنت لم انه عن الجدل و الخصومة فكيف و قد نهيت عنه فكيف أدعو إلى السنّة بترك السنّة فالأولى لي أن أتفقّد نفسي و أنظر من صفاتها ما يبغضه اللّه تعالى لأتنزّه عمّا يبغضه و أتمسّك بما يحبّه.

و فرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ

و أعلاهم رتبة من يتكلّم في أخلاق النفس و صفات القلب من الخوف و الرّجاء و الصبر و الشكر و التوكّل و الزّهد و اليقين و الإخلاص و الصدق و نظائره، و هم مغرورون يظنّون بأنفسهم أنّهم إذا تكلّموا بهذه الصفات و دعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات و هم منفكّون عنها عند اللّه إلا عن قدر يسير لا ينفكّ عنه عوام المسلمين، و غرور هؤلاء أشدّ الغرور لأنّهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب و يظنّون أنّهم ما تبحّروا في علم المحبّة إلا و هم محبّون للّه و ما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا و هم مخلصون و ما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا و هم عنها منزّهون و لو لا أنّه مقرّب عند اللّه لما عرّفه معنى القرب و البعد و علم السلوك إلى اللّه و كيفيّة قطع المنازل في طريق اللّه، فالمسكين

بهذه الظنّون يرى أنّه من الخائفين و هو آمن من مكر اللَّه، و يرى أنّه من الرّاجين و هو من المغترّين المضيّعين، و يرى أنّه من الرّاضين بقضاء اللَّه عزّ و جلّ و هو من الساخطين، و يرى أنّه من المتوكّلين على اللَّه و هو من المتّكلين على العزّ و الجاه و المال و الأسباب، و يرى أنّه من المخلصين و هو من المرائين، بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف، و يصف الرّياء و يذكره و هو يرائي بذكره ليعتقد فيه أنّه لولا أنّه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرّياء، و يصف الزهد في الدّنيا لشدّة حرصه على الدّنيا و قوّة رغبته فيها، فهو يظهر الدّعاء إلى اللَّه و هو منه فارّ، و يخوّف باللَّه و هو منه آمن، و يذكّر باللَّه و هو له ناس، و يقرّب إلى اللَّه و هو منه متباعد، و يحثّ على الإخلاص و هو غير مخلص، و يذمّ الصفات المذمومة و هو بها متّصف، و يصرف الناس عن الخلق و هو على الخلق أشدّهم حرصا، لو منع عن مجلسه الّذي يدعو فيه الناس إلى اللَّه تعالى لضاقت عليه الأرض بما رحبت [١] و يزعم أنّ غرضه إصلاح الخلق و لو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه و صلحوا على يديه لمات غمّا و حسدا، و لو أثنى أحد من المتردّدين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق اللَّه إليه، فهؤلاء أعظم الناس غرّة، و أبعدهم عن التنبّه و الرّجوع إلى السداد لأنّ المرغّب في الأخلاق المحمودة و المنفّر عن المذمومة هو العلم بغوائلها و فوائدها و هذا قد علم ذلك و لم ينفعه، و شغله حبّ دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك بما ذا يعالج و كيف سبيل تخويفه نفسه و إنّما المخوّف ما يتلوه على عباد اللَّه فيخافون و هو ليس بخائف نعم لو ظنّ بنفسه أنّه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدلّ على طريق الامتحان و التجربة و هو أنّه يدّعي مثلا حبّ اللَّه تعالى فما الّذي تركه من محابّ الدّنيا لأجله؟ و يدّعي الخوف فما الّذي امتنع منه بالخوف؟ و يدّعي

[١] اى بما اتسعت و الرحب: سعة المكان و منه رحبة المسجد، و رحبت الدار اتسعت، و استعير للواسع الجوف فقيل رحب البطن، و لواسع الصدر كما استعير الضيق لضده قال اللّه تعالى:«و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت» ٩: ٢٥و يقال رحيب الفناء لمن كثرت غاشيته.

و قولهم مرحبا و أهلا اى وجدت مكانا رحبا. (قاله الراغب في مفرداته).

الزّهد؟ فما الّذي تركه مع القدرة عليه لوجه اللّه تعالى؟ و يدّعي الانس باللّه، فمتى طابت له الخلوة؟ و متى استوحش من مشاهدة الخلق؟ لا بل يرى قلبه يمتلي بالحلاوة إذا أحدق به المريدون و تراه يستوحش إذا خلا باللّه تعالى، فهل رأيت محبّا يستوحش من محبوبه و يستروح منه إلى غيره؟ الأكياس يمتحنون أنفسهم في هذه الصفات و يطالبونها بالحقيقة و لا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من اللّه غليظ، و المغترّون يحسنون بأنفسهم الظنون، و إذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون، بل يطرحون في الآخرة في النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنّهم يأمرون بالخير و لا يأتونه و ينهون عن الشرّ و يأتونه، و إنّما وقع الغرور لهؤلاء لأنّهم يصادفون من قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول هذه المعاني و هو حبّ اللّه تعالى و الخوف منه و الرّضا بفعله، ثمّ قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنّوا أنّهم ما قدروا على وصف ذلك و ما رزقهم اللّه علمه و ما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتّصافهم بها و ذهب عليهم أنّ القبول للكلام، و الكلام للمعرفة، و جريان اللّسان و المعرفة للعلم، و أنّ كلّ ذلك غير الاتّصاف بالصفة، فلم يفارق آحاد المسلمين في

الاتّصاف بصفة الحبّ و الخوف بل في القدرة على الوصف، بل ربّما زاد أمنه و قلّ خوفه و ظهر إلى الخلق ميله، و ضعف في قلبه حبّ اللّه تعالى، و إنّما مثاله مثال مريض يصف المرض و يصف دواءه بفصاحته و يصف الصحّة و الشفاء، و غيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحّة و الشفاء و أسبابه و درجاته و أصنافه، فهؤلاء يفارقهم في صفة المرض و الاتّصاف به، و إنّما يفارقه في الوصف و العلم بالطبّ فظنّه عند علمه بحقيقة الصحّة أنّه صحيح غاية الجهل فكذلك العلم بالخوف و الحبّ و التوكّل و الزّهد و سائر هذه الصفات غير الاتّصاف بحقائقها، و من التبس عليه وصف الحقائق بالاتّصاف بالحقائق فهو مغرور، فهذه حالة الوعّاظ الّذين لا عيب في كلامهم، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن

و الأخبار.

و فرقة أخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ و هم وعّاظ أهل هذا الزّمان كافّة إلا من عصمه اللّه على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان و لسنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات و الشطح [١] و تلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع و العقل طلبا للاغراب، و طائفة شغفوا بطيارات النكت و تسجيع الألفاظ و تلفيقها فأكثر همّهم في الاسجاع و الاستشهاد بأشعار الوصال و الفراق و غرضهم أن تكثر في مجلسهم الزّعقات و التواجد و لو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس ضلّوا و أضلّوا عن سواء السبيل فإنّ الأوّلين و إن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم و صحّحوا كلامهم و وعظهم، و أمّا هؤلاء فإنّهم يصدّون عن السبيل و يجرّون الخلق إلى الغرور باللّه بلفظ الرّجاء فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي و رغبة في الدّنيا لا سيّما إذا كان الواعظ متزيّنا بالثياب و الخيل و المركب فإنّه تشهد هيئته من

قرنه إلى قدمه بشدّة حرصه على الدّنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر ممّا يصلحه بل لا يصلح أصلا و يضلّ خلقا كثيرا فلا يخفى وجه كونه مغرورا.

و فرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزّهّاد و أحاديثهم في ذمّ الدّنيا

فهم يحفظون الكلمات على وجهها و يؤدّونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك

---

[١] «طامات» في اصطلاح العرفاء و المتصوّفة هي المعارف التي تصدر عن لسان السالك في أوّل سلوكه. و في رسائل خواجه عبد اللّه الأنصاري ما لفظه:

«طامات سخنى باشد نامفهوم يا كنايتى نامعلوم و عبارت از داشتن يا نشان از پنداشتن است، كه خلق از آن عاجز باشند و عقل در آن معجز باشد و فؤاد در آن متفكر گردد و تفكر در آن متحير گردد، يا سخنى باشد از عيان بي‌شرح و بيان، بشناسد آنكه با راه باشد يا از آن معنى آگاه باشد، و سخنى باشد كه از وجدى صادر شود و گوينده نه حاضر باشد» اه. و الشطحة: الخرجة عن الاحكام المقررة و في اصطلاح المتصوفة الشطحات عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة و غلبة شهود الحق تعالى عليهم بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق كقول بعضهم «انا الحق» و «ليس في الجبة غير اللّه» قال في التاج: في مادة بهصم «لازم الخلوة و كانت له أحوال و شطحات».

على المنابر و بعضهم في المحاريب و بعضهم في الأسواق مع الجلساء و كلّ منهم يظنّ أنّه إذا تميّز بهذا القدر عن

السوقيّة و الجنديّة - إذ حفظ كلام الزّهّاد و أهل الدّين دونهم - فقد أفلح و نال الفرض و صار مغفورا له و امن من عقاب اللّه من غير أن يحفظ ظاهره و باطنه عن الآثام و لكنّه يظنّ أنّ حفظه لكلام الزّهّاد من أهل الدّين يكفيه و غرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم.

و فرقة أخرى استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث

أعني في سماعه و جمع الرّوايات الكثيرة منها و طلب الأسانيد الغريبة العالية، و همّة أحدهم أن يدور في البلاد و يرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان و قد لقيت فلانا و معي من الأسانيد ما ليس مع غيري. و غرورهم من وجوه منها أنّهم كحملة الأسفار فإنّهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنّة فعلمهم قاصر و ليس معهم إلا النقل و يظنّون أنّ ذلك يكفيهم.

و منها أنّهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بما فيها و قد يفهم بعضهم أيضا فلا يعملون بها. و منها أنّهم يتركون العلم الّذي هو فرض عينهم و هو معرفة معالجة القلوب و يشتغلون بكثرة الاستنادات و طلب الأسانيد العالية و لا حاجة بهم إلى شيء من ذلك.

و منها و هو الّذي أكبّ عليه أهل الزّمان أيضا أنّهم لا يقومون بشرط السماع فإنّ السماع بمجرّده و إن لم تكن له فائدة و لكنّه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث إذ التفهّم بعد الإثبات و العمل بعد التفهّم، فالأوّل السماع ثمّ التفهّم ثمّ الحفظ ثمّ العمل ثمّ النشر [١]، و هؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثمّ تركوا حقيقة السماع فترى الصبيّ يحضر في مجلس الشيخ و الحديث يقرأ و الشيخ ينام و الصبيّ يلعب ثمّ يكتب اسم الصبيّ في السماع فإذا كبر تصدّى ليسمع منه و البالغ الّذي يحضر ربّما يغفل و لا يسمع و لا يصغى و لا يضبط و ربّما يشتغل بحديث

[١]في الكافي ج ١ ص ٤٨ عن أبي عبد اللَّه، عن آبائه عليهم السلام قال:جاء رجل الى رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله فقال: يا رسول اللَّه ما العلم؟ قال: الانصات، قال:

ثم مه؟ قال: الاستماع، قال: ثم مه؟ قال: الحفظ، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه يا رسول اللَّه؟ قال: نشره.

أو نسخ و الشيخ الّذي يقرأ عليه لو صحّف أو غيّر ما يقرأ عليه لم يشعر و لم يعرفه و كلّ ذلك جهل و غرور إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم فيحفظه كما يسمعه و يرويه كما حفظ فتكون الرّواية عن الحفظ و الحفظ عن السماع فإن عجزت عن سماعه من رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم سمعته من الصحابة أو التابعين و صار سماعك عن الرّاوي كسماع من يسمع من رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم و هو أن تصغى و تحفظ و تروي كما حفظت و تحفظ كما سمعت بحيث لا تغيّر منه حرفا و لو غيّر غيرك منه حرفا أو أخطأ علمت خطأه، و لحفظك طريقان أحدهما أن تحفظ بالقلب و تستديمه بالذّكر و التكرار كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الأحوال و الثاني أن تكتب كما تسمع و تصحّح المكتوب و تحفظ كتابك حتّى لا تصل إليه يد من يغيّره و يكون حفظك للكتاب معك و في خزانتك فإنّه لو امتدّت إليه يد غيرك ربّما غيّره و إذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكّرا لما سمعته و تأمن فيه من التغيير و التحريف فإذا لم تحفظ لا بالقلب و لا بالكتاب و جرى على سمعك صوت غفل و فارقت المجلس الّذي قرأت فيه ثمّ رأيت نسخة لذلك الشيخ و جوّزت أن يكون ما فيه مغيّرا أو يفارق حرف منه من النسخة الّتي سمعتها لم

يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب فإنّك لا تدري لعلّك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئا يخالف ما فيه و لو في كلمة، فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك و لا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنّك سمعت ذلك و قد قال تعالى:و لا تقف ما ليس لك به علم ١٧: ٣٦و قول الشيوخ كلّهم في هذا الزّمان إنّا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الّذي ذكرناه فهو كذب صريح و أقلّ شروط السماع أن يجري الجميع على سمعك مع نوع من الحفظ يشعر بالتغيير، و لو جاز أن يكتب سماع الصبيّ و الغافل و النائم الّذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع الصبيّ في المهد و سماع المجنون ثمّ إذا بلغ الصبيّ و أفاق المجنون يسمع عليه و لا خلاف في عدم جوازه و لو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبيّ في المهد

لأنّه لا يفهم و لا يحفظ، فالصبيّ الّذي يلعب و الغافل و المشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم و لا يحفظ، و هل للسماع مستند إلاقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«نضّر اللّه امرءا سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها»

و كيف يؤدّي كما سمعها من لا يدري ما سمعه فهذا هو أفحش أنواع الغرور و قد بلي به أهل الزّمان و لو احتاط أهل الزّمان لم يجدوا شيوخا إلا الّذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة إلا أنّ للمحدّثين في ذلك جاها و قبولا، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقلّ من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم و تقلّ أيضا أحاديثهم الّتي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربّما عدموا ذلك و افتضحوا فاصطلحوا على أنّه ليس يشترك إلا أن يقرع سمعه دمدمة و إن كان لا يدري ما يجري و صحّة السماع لا تعرف من قول المحدّثين لأنّه ليس من علمهم بل من علم علماء أصول الفقه و ما ذكرناه

مقطوع به في قوانين أصول الفقه، فهذا غرور هؤلاء و لو سمعوا على الشرط لكانوا مغرورين في اقتصارهم على النقل و في إفناء أعمارهم في جمع الرّوايات و الأسانيد و إعراضهم عن مهمّات الدّين و معرفة معاني الأخبار، بل الّذي يقصد من الحديث سلوك طريق اللَّه تعالى ربّما يكفيه الحديث الواحد عمرا كما روي عن بعض الشيوخ أنّه حضر مجلس السماع فكان أوّل حديثروي قوله صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»

فقام و قال: يكفيني هذا حتّى أفرغ منه ثمّ أسمع غيره فهكذا كان سماع الأكياس الّذين يحذرون الغرور.

و فرقة أخرى اشتغلوا بعلم النحو

و اللّغة و الشعر و غريب اللّغة و اغترّوا به و زعموا أنّهم قد غفر لهم و أنّهم من علماء الامّة إذ قوام الدّين بالكتاب و السنّة و قوام الكتاب و السنّة بعلم اللّغة و النحو فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو و في صناعة الشعر و في غريب اللّغة و مثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلّم الخطّ و تصحيح

الحروف و تحسينها و يزعم أنّ العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلابدّ من تعلّمها و تصحيحها و لو عقل لعلم أنّه يكفيه أن يتعلّم أصل الخطّ بحيث يمكن أن يقرأ كيف ما كان و الباقي زيادة على الكفاية، و كذلك الأديب لو عقل لعرف أنّ لغة العرب كلغة الترك و المضيّع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيّع عمره في معرفة لغة الترك و الهند و إنّما فارقتها لأجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللّغة علم الغريبين في الأحاديث و الكتاب و من النحو ما يتعلّق بالكتاب و السنّة و أمّا التعمّق فيه إلى درجات لا تتناهى ففضول مستغنى عنه، ثمّ لو اقتصر عليه و أعرض عن معرفة

المعاني الشرعيّة و العمل بها فهو أيضا مغرور، بل مثاله مثال من ضيّع العمر في تصحيح مخارج الحروف في القرآن و اقتصر عليه و هو غرور إذ المقصود من الحروف المعاني و إنّما الحروف ظروف و أدوات و من احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزيل ما به من الصّفراء فضيّع أوقاته في تحسين القدح الّذي يحفظ فيه السكنجبين فهو من الجهّال المغرورين، فكذلك غرور أهل النحو و اللّغة و الأدب و القراءة و التدقيق في مخارج الحروف مهما تعمّقوا فيها و تجرّدوا لها و عرّجوا عليها أكثر ممّا يحتاج إليه في تعلّم العلوم الّتي هي فرض عين فاللّب الأقصى هو العمل و الّذي فوقه هو معرفة العلم و هو كالقشر للعمل، و كاللّبّ بالإضافة إلى ما فوقه و ما فوقه هو سماع الألفاظ و حفظها بطريق الرّواية و هو قشر بالإضافة إلى المعرفة و لبّ بالإضافة إلى ما فوقه و ما فوقه هو العلم باللّغة و النحو و فوق ذلك و هو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف، و القانعون بهذه الدّرجات كلّهم مغرورون إلا من اتّخذ هذه الدّرجات منازل فلم يعرّج عليها إلا بقدر حاجته فيجاوزها إلى ما وراءها حتّى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه و جوارحه و رجى عمره في حمل النفس عليه، و تصحيح الأعمال و تصفيتها عن الشوائب و الآفات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع و سائر العلوم خدم له و وسائل إليه و قشور له و منازل بالإضافة إليه و كلّ من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد و هذه العلوم لما كانت متعلّقة بعلوم الشرع أغترّ بها أربابها، فأمّا علم الطبّ و الحساب

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٣٠

و الصناعات و ما يعلم أنّه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنّهم ينالون المغفرة بها من حيث أنّها علوم و كان الغرور فيها أقلّ من الغرور بعلوم الشرع، لأنّ العلوم الشرعيّة

مشتركة في أنّها محمودة كما يشارك القشر اللّبّ في كونه محمودا و لكنّ المحمود منه بعينه هو المنتهى و الباقي محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى فمن ظنّه مقصودا و عرّج إليه فقد اغترّ به.

و فرقة أخرى عظم غرورهم في فنّ الفقه

و ظنّوا أنّ حكم العبد بينه و بين اللّه تعالى يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق و اساءوا تأويل الألفاظ المبهمة و اغترّوا بالظواهر و أخطأوا فيها و هذا من قبيل الخطأ في الفتوى و الغرور فيه و الخطأ في الفتوى ممّا يكثر و لكنّ هذا نوع عمّ الكافّة إلا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة له فمن ذلك فتواهم بأنّ المرأة مهما أبرأت الزوج من الصداق برئ الزوج بينه و بين اللّه تعالى و ذلك خطأ بل الزّوج قد يسيء إلى الزّوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطرّ إلى طلب الخلاص فتبرئ الزّوج لتتخلّص منه و هو إبراء من غير طيبة نفس و قد قال تعالى:فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا ٤: ٤و طيبة النفس غير طيبة القلب فالقلب قد يريد ما لا تطيب به النفس كالإنسان يريد الحجامة بقلبه و لكن تكرهها نفسه، فإنّما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتّى إذا ردّدت بين ضررين اختارت أ هونهما فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن نعم القاضي في الدّنيا لا يطّلع على القلوب و الأغراض فينظر إلى الإبراء الظاهر و إنّها لم تكره بسبب ظاهر و الإكراه الباطن ليس يطّلع الخلق عليه و لكن مهما تصدّى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا و لا مفيدا في تحصيل الإبراء و كذلك لا يحلّ مال الإنسان أن يؤخذ إلا بطيبة النفس منه فلو طلب من إنسان مالا على ملاء من الناس فاستحيى من الناس أن لا يعطيه و كان يودّ أن يكون سؤاله في خلوة حتّى لا يعطيه و لكن خاف ألم مذمّة الناس، و خاف ألم تسليم المال و ردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين و

هو ألم التسليم فسلّمه فلا فرق بين هذا و بين المصادرة، إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتّى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألمين و السؤال في مظنّة الحياء و الرّياء ضرب للقلب بالسوط و لا فرق بين ضرب الباطن و ضرب الظاهر عند اللَّه، فإنّ الباطن عند اللَّه ظاهر و إنّما حاكم الدّنيا هو الّذي يحكم بظاهر قوله «وهبت» لأنّه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب و كذلك من يعطي اتّقاء لشرّ لسانه أو لشرّ سعايته فهو حرام عليه و كذلك كلّ ما يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام إذ طيبة القلب لا تكون في الإبراء و الهبة و غيره إلا إذا خلا الإنسان و اختياره حتّى تنبعث الدّواعي من ذات نفسه لا أن تضطرّ دواعيه إلى الحركة بالحيل و الإلزام و من ذلك هبة الرّجل مال الزّكوة في آخر الحول من زوجته و اتّهابه مالها لإسقاط الزّكاة فالفقيه يقول: سقطت الزّكاة فإن أراد به أنّ مطالبة السلطان و الساعي قد سقطت عنه فقد صدق فإنّ مطمح نظرهم ظاهر الملك و قد زال، و إن ظنّ أنّه يسلم في القيامة و يكون كمن لم يملك المال، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد، فما أعظم جهله بفقه الدّين و سرّ الزّكاة، فإنّ سرّ الزّكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإنّ البخل مهلك،قال صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«ثلاث مهلكات شحّ مطاع»

و إنّما صار شحّه مطاعا بما فعله و قبله لم يكن مطاعا فقد تمّ هلاكه بما يظنّ أنّ فيه خلاصه فإنّ اللَّه مطّلع على قلبه و حبّه المال و حرصه عليه و إنّه بلغ على المال أن استنبط الحيل حتّى يسدّ على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل و الغرور. و من ذلك إباحة اللَّه تعالى مال المصالح للفقيه و غيره بقدر الحاجة، و الفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانيّ و الفضول و الشهوات و بين الحاجات بل كلّ ما لا

تتمّ رعونتهم إلا به يرونه حاجة و هو محض الغرور، بل الدّنيا خلقت للحاجة إليها في العبادة و سلوك طريق اللَّه، فكلّ ما تناوله العبد للاستعانة على الدّين و العبادة فهو حاجته، و ما عدا ذلك فهو فضوله و شهوته، و لو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلّدات و الغرض التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب، فإنّ ذلك يطول.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٣٢

الصنف الثاني أرباب العبادة و العمل و المغرورون منهم فرق كثيرة.

فمنهم من غروره في الصّلاة

و منهم في تلاوة القرآن و منهم في الحجّ و منهم في الصوم و منهم في الغزو و منهم في الزّهد و كذلك كلّ مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا من غرور إلا الأكياس و قليل ما هم، و منهم فرقة أهملوا الفرائض و اشتغلوا بالفضائل و النوافل و ربّما تعمّقوا في الفضائل حتّى خرجوا إلى العدوان و السرف كالّذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه و لا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع و يقدّر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة و إذا آل الأمر إلى الأكل الحلال قدّر الاحتمالات القريبة بعيدة و ربما أكل الحرام المحض، و لو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة، ثمّ من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صبّه الماء و ذلك منهيّ عنه، و قد يطول الأمر حتّى يضيّع الصلاة و يخرجها عن وقتها و إن لم يخرجها عن وقتها أيضا فهو مغرور لما فاته من فضيلة أوّل الوقت و إن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء و إن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الّذي هو أعزّ الأشياء فيما له مندوحة إلا أنّ الشيطان يصدّ الخلق عن اللَّه بطرق شتّى و لا يقدر على صدّ العباد إلا بما يخيّل إليهم أنّه عبادة فيبعّدهم عن اللَّه بمثل ذلك.

و فرقة أخرى غلبت عليها الوسوسة في نيّة الصلاة فلا يدعه الشيطان حتّى يعقد نيّته صحيحة بل يشوّش عليه حتّى تفوته الجماعة و يخرج الصلاة عن الوقت و إن تمّ تكبيره فيكون في قلبه بعد تردّد في صحّة نيّته و قد يوسوسون في التكبير حتّى قد يغيّرون صيغة التكبير لشدّة الاحتياط فيه يفعلون ذلك في أوّل الصلاة، ثمّ يغفلون في جميع الصلاة و لا يحضرون قلوبهم و يغترّون بذلك و يظنّون أنّهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النيّة في أوّل الصلاة و تميّزوا عن العامّة بهذا الجهد و الاحتياط فهم على خير عند ربّهم.

و فرقة أخرى تغلب عليها الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة و سائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات و الفرق بين الضاد و الظاء و تصحيح

مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمّه غيره و لا يتفكّر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن و الاتّعاظ به و صرف الهمّ إلى فهم أسراره، و هذا من أقبح أنواع الغرور، فإنّه لم يكلّف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام، و مثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان فأمر أن يؤدّيها على وجهها فأخذ يؤدّي الرّسالة و يتأنّق في مخارج الحروف و يكررّها و يعيدها مرّة بعد أخرى، و هو في ذلك غافل عن مقصود الرّسالة و مراعاة حرمة المجلس، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة فيردّ إلى دار المجانين و يحكم عليه بفقد العقل.

و فرقة أخرى اغترّوا بقراءة القرآن فيهذّونه هذا، و ربّما يختمون في اليوم و اللّيلة مرّة و لسان أحدهم يجري به و قلبه يتردّد في أودية الأمانيّ إذ لا يتفكّر في معاني القرآن لينزجر بزواجره، و يتّعظ بمواعظه، و يقف عند أوامره و نواهيه، و يعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك ممّا ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة، فهو مغرور

يظنّ أنّ المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه، و مثاله مثال عبد كتب إليه مولاه و مالكه كتابا و أشار عليه فيه بالأوامر و النواهي فلم يصرف عنايته إلى فهمه و العمل به و لكن اقتصر على حفظه، فهو مستمرّ على خلاف ما أمر به مولاه إلا أنّه مكرّر للكتاب بنغمته و صوته كلّ يوم مائة مرّة فهو مستحقّ للعقوبة، و مهما ظنّ أنّ ذلك هو المراد منه فهو مغرور، نعم تلاوته إنّما تراد لكيلا ينسى بعد و لحفظه و حفظه يراد لمعناه و معناه يراد للعمل به و الانتفاع بمعانيه، و قد يكون له صوت طيّب فهو يقرؤه و يتلذّذ به و يغترّ باستلذاذه و يظنّ أنّ ذلك لذّة مناجاة اللَّه تعالى و سماع كلامه و إنّما هي لذّته في صوته و لو ردّد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذّ به ذلك الالتذاذ فهو مغرور إذ لم يتفقّد قلبه فيعرف أنّ لذّته بكلام اللَّه من حيث نظمه و معانيه أو بصوته.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٣٤

و فرقة منهم اغترّوا بالصوم

و ربّما صاموا الدّهر و صاموا الأيّام الشريفة و هم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة و خواطرهم عن الرّياء و بطونهم عن الحرام عند الإفطار و ألسنتهم من الهذيان بأنواع الفضول طول النهار و هو مع ذلك يظنّ بنفسه الخير يهمل الفرض و يطلب النفل، ثمّ لا يقوم بحقّه و ذلك غاية الغرور.

و فرقة أخرى اغترّوا بالحجّ فيخرجون إلى الحجّ

من غير خروج عن المظالم و قضاء الدّيون، و استرضاء الوالدين، و طلب الزّاد الحلال، و قد يفعلون ذلك بعد سقوط حجّة الإسلام و يضيّعون في الطريق الصلاة و الفرائض، و يعجزون عن طهارة الثوب و البدن و يتعرّضون لمكس الظلمة حتّى يؤخذ منهم و لا يحذرون في الطريق عن الرفث و الخصام، و ربّما جمع بعضهم الحرام و أنفقه على الرفقاء في الطريق و هو يطلب به السمعة و الرّياء فيعصي اللَّه في

كسب الحرام أوّلا و في إنفاقه بالرّياء ثانيا، فلا هو أخذه من حلّه و لا هو وضعه في حقّه ثمّ يحضر البيت بقلب ملوّث برذائل الأخلاق و ذمائم الصفات، لم يقدم تطهير قلبه على حضور بيت ربّه، و هو مع ذلك يظنّ أنّه على خير من ربّه و هو مغرور.

و فرقة أخرى أخذت في طريق الحسبة

و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ينكر على الناس و يأمرهم بالخير و ينسى نفسه فإذا أمرهم بالخير عنف و طلب الرّئاسة و العزّة و الجاه، و إذا باشر هو بنفسه منكرا فردّ عليه غضب، و قال: أنا المحتسب فكيف ينكر عليّ، و قد يجمع الناس إلى مسجده، و من تأخّر عنه أغلظ القول عليه و إنّما غرضه الرّياء و الرّئاسة و لو قام بتعهّد المسجد غيره لحرد عليه بل منهم من يؤذّن للّه و لو جاء غيره فأذّن في وقت غيبته قامت عليه القيامة، و قال: لم اخذ حقّي و زحمني على مرتبتي، و كذلك قد يتقلّد إمامة مسجد و يظنّ أنّه على خير و إنّما غرضه أن يقال: إنّه إمام المسجد فلو تقدّم غيره و لو كان أورع منه و أعلم ثقل عليه.

و فرقة أخرى جاوروا بمكّة و المدينة و اغترّوا بذلك

و لم يراقبوا قلوبهم و لم

يطهّروا ظاهرهم و باطنهم، قلوبهم معلّقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أنّ فلانا مجاور بمكّة تراه يتحدّى و يقول: قد جاورت بمكّة كذا و كذا سنة و إذا سمع أنّ ذكر ذلك قبيح ترك صريح التحدّي و أحبّ أن يعرفه الناس بذلك، ثمّ إنّه يجاور و يمدّ عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس فإذا جمع من ذلك شيئا شحّ عليه و أمسكه و لم تسمح نفسه بلقمة يتصدّق بها على فقير فيظهر فيه الرّياء و البخل و الطمع و جملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة و لكنّ

حبّ المحمدة و أن يقال: إنّه من المجاورين ألزمه المجاورة و لكن مع التصنّع بهذه الرّذائل فهو أيضا مغرور، و ما من عمل من الأعمال و لا عبادة من العبادات إلا و فيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها و اعتمد عليها بغير معرفة فهو مغرور و لا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتاب إحياء العلوم فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة، و في الحجّ و الزكاة و سائر القربات من الكتب الّتي رتّبناها فيها، و إنّما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب.

و فرقة أخرى تزهّدت و قنعت من اللّباس و الطعام بالدّون و من المسكن بالمساجد و ظنّت أنّها أدركت رتبة الزّهّاد و هو مع ذلك راغب في الرئاسة و الجاه إمّا بالعلم أو بالوعظ أو بمجرّد الزّهد فقد ترك أهون الأمرين رياء بأعظم المهلكين فإنّ الجاه أعظم من المال، و لو ترك الجاه و أخذ المال كان إلى السلامة أقرب و هذا مغرور إذ ظنّ أنّه من الزّهّاد في الدّنيا، و هو لم يعرف معنى الدّنيا و لم يدر أن منتهى لذّاتها الرئاسة، و إنّ الراغب فيها لا بدّ و أن يكون منافقا و حسودا و متكبّرا و مرائيا و متّصفا بجميع خبائث الأخلاق، نعم و قد يترك الرئاسة و يؤثر الخلوة و العزلة و هو مع ذلك مغرور إذ يتطاول بذلك على الأغنياء و يخشن معهم الكلام و ينظر إليهم بعين الاستحقار و يرجو بنفسه أكثر ممّا يرجو لهم و يعجب بعمله و يتّصف بجملة من خبائث القلوب و هو لا يدري و ربّما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال: بطل زهده، و لو قيل له: إنّه حلال فخذه في الظاهر و ردّه في الباطن لم تسمح به نفسه خوفا من ذمّ الناس فهو راغب في حمد الناس و هو من ألذّ أبواب الدّنيا،

و يرى نفسه أنّه زاهد في الدّنيا و هو مغرور و مع ذلك فربّما لا يخلو عن توقير الأغنياء و تقديمهم على الفقراء و الميل إلى المريدين له و المثنين عليه و النفرة عن المائلين إلى غيره

من الزّهاد و كلّ ذلك خدعة و غرور من الشيطان و في العباد من يشدّد على نفسه في أعمال الجوارح حتّى يصلّي في اليوم و اللّيلة مثلا ألف ركعة و يختم القرآن فيه و هو مع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب و تفقّده و تطهيره من الرّياء و الكبر و العجب و سائر المهلكات، فلا يدري أنّ ذلك مهلك و إن علم ذلك فلا يظنّ بنفسه ذلك و إن ظنّ بنفسه ذلك فربّما توهّم أنّه مغفور له بعمله الظاهر، و أنّه غير مؤاخذ بأحوال القلب، و إن توهّم فيظنّ أنّ العبادات الظاهرة تترجّح بها كفّة حسناته و هيهات و ذرّة من ذي تقوى و خلق واحد من خلق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح. ثمّ لا يخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس و خشونته و تلوّث باطنه بالرّياء و حبّ الثناء فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض و أولياء اللّه و أحبّائه فرح فرحا شديدا و صدّق به و زاده ذلك غرورا و ظنّ انّ تزكية الناس له دليل على كونه مرضيّا عند اللّه و لا يدري أنّ ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه.

و فرقة أخرى حرصت على النوافل

و لم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة اللّيل و سائر الرّواتب و لا يجد للفريضة لذّة و لا يشتدّ حرصه على المبادرة بها في أوّل الوقت و ينسىقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما يرويه عن ربّه عزّ و جلّ«ما تقرّب المتقرّبون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم»

و ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتعيّن على الإنسان فرضان أحدهما يفوت و الآخر لا يفوت، أو نفلان أحدهما يضيق وقته و الآخر يتّسع وقته فإن لم يحفظ الترتيب فيه فهو مغرور، و نظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإنّ المعصية ظاهرة و الطاعة ظاهرة، و إنّما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلّها على النوافل، و تقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات، و تقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، و تقديم

الأهمّ من فروض الأعيان على ما دونه، و تقديم ما يفوت على ما لا يفوت،

و هذا كما يجب أن يقدّم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذسئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقيل له: «من أبرّ؟ قال: أمّك، ثمّ قال: ثمّ من؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أباك، قال: ثمّ من؟ قال: أدناك ثمّ أدناك»

فينبغي أن يبدأ في الصّلة بالأقرب فالأقرب، و إن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى و الأورع و كذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين و الحجّ فربّما يحجّ فهو مغرور بل ينبغي أن يقدّم حقّيهما على الحجّ و هذا من تقديم فرض أهمّ على فرض هو دونه و كذلك إذا كان على العبد ميعاد و دخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت بالاشتغال بالوفاء بالوعد و الاشتغال بالوفاء بالوعد معصية و إن كان هو في نفسه طاعة، و كذلك تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه و أهله بسببه فالنجاسة محذورة و إيذاؤهما محذور، فالحذر من الأذى أهمّ من الحذر من النجاسة، و أمثلة تقابل المحذورات و الطاعات لا تنحصر، و من ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، و هذا غرور في غاية الغموض لأنّ المغرور فيه في طاعة إلا أنّه لا يفطن بصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهمّ منها، و من جملته الاشتغال بالمذهب و الخلاف من الفقه في حقّ من بقي عليه شغل من الطاعات و المعاصي الظاهرة و الباطنة المتعلّقة بالجوارح و المتعلّقة بالقلب لأنّ مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في جوارحهم فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أنّ حبّ الرّئاسة و الجاه و لذّة المباهاة و القهر للأقران و التقدّم عليهم يعمي عليه حتّى يغترّ به مع نفسه و يظنّ أنّه مشغول بهمّ دينه.

الصنف الثالث المتصوّفة

و ما أغلب الغرور عليهم و المغترّون منهم فرق كثيرة، ففرقة هم متصوّفة أهل الزّمان إلا من عصمه اللّه اغترّوا بالزّيّ و المنطق و الهيئة فساعدوا الصّادقين من الصّوفيّة في زيّهم و هيئتهم و في ألفاظهم و في آدابهم و مراسمهم و اصطلاحاتهم و في أحوالهم الظاهرة في السّماع و الرقص و الطهارة و الصّلاة و الجلوس

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٣٨

على السّجادات مع إطراق الرّأس و إدخاله في الجيب كالمتفكّر و في تنفّس الصعداء و في خفض الصّوت في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل و الهيئات.

أقول: و أيّ فضل و كرامة للصادقين من الصّوفيّة حتّى يكون للمتشبّهين بهم فضل و غرور؟ فإنّ أكثرهم من أهل البدع من السّماع و الرّقص و الجهر من القول في الدّعاء و غير ذلك.

قال: فلمّا تكلّفوا هذه الأمور و تشبّهوا بهم فيها ظنّوا أنّهم أيضا صوفيّة و لم يتعبوا أنفسهم قطّ في المجاهدة و الرّياضة و مراقبة القلب و تطهير الباطن و الظاهر من الآثام الخفيّة و الجليّة و كلّ ذلك من أوائل منازل التصوّف و لو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدّوا أنفسهم من الصوفيّة كيف و لم يحوموا قطّ حولها و لم يسوموا أنفسهم شيئا منها، بل يتكالبون على الحرام و الشبهات و أموال السلاطين، و يتنافسون في الرّغيف و الفلس و الحبّة، و يتحاسدون على النقير و القطمير، و يمزّق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه و هؤلاء غرورهم ظاهر. و مثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أنّ الشجعان و الأبطال من المقاتلين يثبت أسماؤهم في الدّيوان و يقطع كلّ واحد منهم قطرا من أقطار المملكة فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درعا و وضعت على رأسها مغفرا، و تعلّمت من رجز

الأبطال أبياتا و تعوّدت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتّى تيسّرت عليها و تعلّمت كيفيّة تبخترهم في الميدان و كيف تحريكهم الأيدي و تلقّفت جميع شمائلهم في الزّيّ و المنطق و الحركات و السّكنات ثمّ توجّهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلمّا وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض و امرت بأن تجرّد عن المغفر و الدّرع و ينظر إلى ما تحته و تمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها في الشجاعة، فلمّا جرّدت عن المغفر و الدّرع فإذا هي عجوزة ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدّرع و المغفر فقيل لها: أ جئت للاستهزاء بالملك و استحماق أهل حضرته بالتلبيس عليه؟ خذوها فألقوها إلى قدّام الفيل لسخفها، فالقيت إلى الفيل، و هكذا يكون حال المدّعين للتصوّف في القيامة إذا

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٣٩

كشف عنهم الغطاء و عرضوا على القاضي الأكبر الّذي لا ينظر إلى الزّيّ و المرقّع بل إلى سرّ القلب.

و فرقة أخرى زادت على هؤلاء في الغرور

إذ شقّ عليها الاقتداء بهم في بذاذة الثياب و الرّضاء بالدّون و أرادت أن تتظاهر بالتصوّف و لم تجد بدّا من التزيّي بزيّهم فتركت الخزّ و الإبريسم و طلبت المرقّعات النفيسة و الفوط الرّقيقة و السجّادات المصبغة و لبست من الثياب ما هو أرفع قيمة من الخزّ و الإبريسم، فظنّ أحدهم مع ذلك أنّه متصوّف بمجرّد لون الثوب و كونه مرقّعا و نسي أنّهم إنّما لوّنوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كلّ ساعة لإزالة الوسخ. و إنّما لبسوا المرقّع إذ كانت ثيابهم مخرقة و كانوا يرقّعونها و لا يلبسون الجديد، فأمّا تقطيع الفوط الرّقيقة قطعة قطعة و خياطة المرقّعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه فهؤلاء أظهر حماقة من كافّة المغرورين فإنّهم يتنعّمون بنفيس الثياب و لذيذ الأطعمة، و يطلبون رغد العيش، و يأكلون أموال السلاطين،

و لا يجتنبون المعاصي الظّاهرة فضلا عن الباطنة، و هم مع ذلك يظنّون بأنفسهم الخير. و شرّ هؤلاء ممّا يتعدّى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم و من لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التّصوّف كافّة إذ يظنّ أنّ جميعهم كانوا من جنسه فيطيل اللّسان في الصادقين منهم و كلّ ذلك من شؤم المتشبّهين و شرّهم.

و فرقة أخرى ادّعت علم المعرفة

و مشاهدة الحقّ و مجاوزة المقامات المحمودة و الأحوال و الملازمة في عين الشهود و الوصول إلى القرب و لا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامى و الألفاظ لأنّه تلقّف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يردّدها و يظنّ أنّ ذلك أعلى من علم الأوّلين و الآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء و المفسّرين و المحدّثين و أصناف العلماء بعين الازدراء فضلا عن العوام، حتّى أنّ الفلاح ليترك فلاحته و الحائك يترك حياكته و يلازمهم أيّاما معدودة و يتلقّف منهم تلك الكلمات المزيّفة فهو يردّدها كأنّه يتكلّم عن الوحي، و يخبر عن سرّ الأسرار و يستحقر بذلك جميع العبّاد و العلماء فيقول في العبّاد: إنّهم أجراء متعبون، و يقول في العلماء:

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٤٠

إنّهم بالحديث عن اللَّه محجوبون، و يدّعي لنفسه أنّه الواصل إلى الحقّ و أنّه من المقرّبين، و هو عند اللَّه من الفجّار المنافقين، و عند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، و لم يحكم قطّ علما و لم يهذّب خلقا، و لم يرتّب عملا، و لم يراقب قلبا سوى اتّباع الهوى و تلقّف الهذيان و حفظه.

و فرقة أخرى وقعت في الإباحة

و طووا بساط الشرع و رفضوا الأحكام و سوّوا بين الحلال و الحرام، فبعضهم يزعم أنّ اللَّه مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي، و بعضهم يقول: قد كلّفوا الناس تطهير القلوب عن الشهوات و عن حبّ الدّنيا و ذلك محال، فقد كلّفوا ما لا

يمكن و إنّما يغترّ به من لم يجرّب و أمّا نحن فقد جرّبنا و أدركنا أنّ ذلك محال. و لا يعلم الأحمق أنّ الناس لم يكلّفوا قلع الشهوة و الغضب من أصلهما بل كلّفوا تأديبهما بحيث ينقاد كلّ واحد منهما لحكم العقل و الشرع، و بعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها و إنّما النظر إلى القلوب و قلوبنا و الهة إلى حبّ اللَّه، و واصلة إلى معرفة اللَّه، و إنّما نخوض في الدّنيا بأبداننا و قلوبنا عاكفة في الحضرة الرّبوبيّة فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، و يزعمون أنّهم قد ترقّوا عن رتبة العوام و استغنوا عن تهذيب النّفس بالأعمال البدنيّة و إنّ الشهوات لا تصدّهم عن طريق اللَّه تعالى لقوّتهم فيها و يرفعون درجتهم على درجة الأنبياء عليهم السّلام إذ كان يصدّهم عن طريق اللَّه تعالى خطيئة واحدة حتّى كانوا يبكون عليها و ينوحون سنين متوالية.

و أصناف غرور أهل الإباحة من المتشبّهين بالصوفيّة لا تحصى، و كلّ ذلك بناء على أغاليط و وساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، و من غير اقتداء بشيخ متقن في الدّين و العلم الصالح للاقتداء و إحصاء أصنافهم يطول.

و فرقة أخرى جاوزت حدّ هؤلاء

و أحسنت الأعمال و طلّقت الحلال و اشتغلت بتفقّد القلب و صارت أحدهم تدّعي المقامات من الزّهد و التوكّل و الرّضا و الحبّ من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات و شروطها و علاماتها و آفاتها، فمنهم من يدّعي الوجد و الحبّ للَّه تعالى و يزعم أنّه واله باللَّه، و لعلّه قد تخيّل في اللَّه تعالى خيالات هي بدعة أو كفر فيدّعي حبّ اللَّه قبل معرفته، ثمّ إنّه لا يخلو عن مقارفة

ما يكره اللَّه و عن إيثار هوى نفسه على أمر اللَّه تعالى و عن ترك بعض الأمور حياء من الخلق و لو خلا لما تركها

حياء من اللّٰه تعالى و ليس يدري أنّ كلّ ذلك يناقض الحبّ، و بعضهم ربّما يميل إلى القناعة و التوكّل فيخوض البوادي من غير زاد ليصحّح دعوى التوكّل و ليس يدري أنّ ذلك بدعة لم تنقل عن السلف و الصحابة و قد كانوا أعرف بالتوكّل منه فما فهموا أنّ التوكّل المخاطرة بالرّوح و ترك الزّاد بل كانوا يأخذون الزّاد و هم متوكّلون على اللّٰه تعالى لا على الزّاد و هذا ربّما يترك الزّاد و هو متوكّل على سبب من الأسباب واثق به، و ما من مقام من المقامات المنجيات إلا و فيه غرور و قد اغترّ به قوم و قد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب.

و فرقة أخرى ضيّقت على نفسها

في أمر القوت حتّى طلبت منه الحلال الخالص و أهملوا تفقّد القلوب و الجوارح في غير هذه الخصلة الوحدة، و منهم من أهمل الحلال في مطعمه و ملبسه و مسكنه و أخذ يتعمّق في غير ذلك و لم يدر المسكين أنّ اللّٰه لم يرض من عبده بطلب الحلال فقطّ و لا رضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه إلا تفقّد جميع الطاعات و المعاصي، فمن ظنّ أنّ بعض هذه الأمور يكفيه و ينجيه فهو مغرور.

و فرقة أخرى ادّعوا حسن الخلق و التواضع و السماحة

فتصدّوا لخدمة الصوفيّة فجمعوا قوما و تكلّفوا بخدمتهم و اتّخذوا ذلك شبكة للرئاسة و جمع المال، و إنّما غرضهم التكبّر و هم يظهرون أنّ غرضهم الخدمة و التواضع و غرضهم الارتفاع و هم يظنّون أنّ غرضهم الإرفاق و غرضهم الاستتباع و هم يظهرون أن غرضهم الخدمة و التبعيّة، ثمّ إنّهم يجمعون من الحرام و الشبهات و ينفقون عليهم ليكثر أتباعهم و ينتشر بالخدمة اسمهم، و بعضهم يأخذ أموال السلاطين و ينفق عليهم و بعضهم يأخذها لينفق في طريق الحجّ على الصوفيّة و يزعم أنّ غرضه البرّ و الإنفاق و باعث جميعهم الرّياء و السمعة و آية ذلك إهمالهم لجميع أوامر اللّٰه عليهم ظاهرا و باطنا و رضاهم بأخذ الحرام

و الإنفاق منه، و مثال من ينفق الحرام في طريق الحجّ لإرادة الخير كمن

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٤٢

يعمر مساجد اللّه فيطينها بالعذرة و يزعم أنّ قصده العمارة.

و فرقة أخرى منهم اشتغلوا بالمجاهدة و تهذيب الأخلاق و تطهير النفس من عيوبها و صاروا يتعمّقون فيها فاتّخذوا البحث عن عيوب النفس و معرفة خدعها علما و حرفة فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس باستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون: هذا في النفس عيب و الغفلة عن كونه عيبا عيب و الالتفات إلى كونه عيبا عيب و يشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها و من جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب و تحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحجّ و آفاته و لم يسلك طريق الحجّ فذلك لا يغنيه.

و فرقة أخرى جاوزوا هذه الرّتبة و ابتدأوا سلوك الطريق و انفتحت لهم أبواب المعرفة فكلّما تشمّموا من مبادي المعرفة رائحة تعجّبوا منها و فرحوا بها، و أعجبتهم غرابتها فتقيّدت قلوبهم بالالتفات إليها و التفكّر فيها، و في كيفيّة انفتاح بابها عليهم و انسداده على غيرهم، و كلّ ذلك غرور لأنّ عجائب طريق اللّه ليس له نهاية، فلو وقف مع كلّ اعجوبة و تقيّد بها قصرت خطاه و حرم عن الوصول إلى المقصد، و كان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار و أنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها فوقف ينظر إليها و يتعجّب حتّى فاته الوقت الّذي يمكن فيه لقاء الملك.

و فرقة أخرى جاوزوا هؤلاء و لم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار

في الطريق و إلى ما يتيسّر لهم من العطايا الجزيلة و لم يعرّجوا على الفرح بها و الالتفات إليها جادّين في السير حتّى قاربوا فواصلوا إلى حدّ القربة إلى اللّه تعالى و ظنّوا أنّهم قد

وصلوا إلى اللَّه فوقفوا و غلطوا فإنّ للَّه سبعين حجابا من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا و يظنّ أنّه قد وصل. و إليه الإشارة بقول إبراهيم صلوات اللَّه عليه إذ قال اللَّه تعالى إخبارا عنه:فلمّا جنّ عليه اللّيل رأى كوكبا قال هذا ربّي ٦: ٧٦و ليس المعنىّ به هذه الأجسام المضيئة فإنّه كان

يراه في الصغر و يعلم أنّها ليست آلهة و هي كثيرة و ليست بواحدة، و الجهّال يعلمون أنّ الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم لا يغرّه الكوكب الّذي لا يغرّ السوادية و لكن المراد به أنّه نور من الأنوار الّتي هي من حجب اللَّه عزّ و جلّ و هي على طريق السالك و لا يتصوّر الوصول إلى اللَّه إلا بالوصول إلى هذه الحجب و هي حجب من النور بعضها أعظم من بعض و أصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه، و أعظمها الشمس و بينهما رتبة القمر فلم يزل إبراهيم عليه السّلام لما رأى ملكوت السماوات حيث قال عزّ و جلّ:و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات و الأرض ٦: ٧٥يصل إلى نور بعد نور و يتخيّل إليه في أوّل ما كان يلقاه أنّه قد وصل ثمّ كان يكشف له أنّ وراءه أمر فيترقّى إليه و يقول: قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتّى وصل إلى الحجاب الأقرب الّذي لا وصول إلا بعده، فقال: هذا أكبر فلمّا ظهر له أنّه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض النقص و الانحطاط عن ذروة الكمال قال:«لا أحبّ الآفلين ٦: ٧٦...إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السموات و الأرض حنيفا و ما أنا من المشركين» ٦: ٧٩و سالك هذا الطريق قد يغترّ في الوقوف على بعض هذه الحجب، و قد يغترّ بالحجاب الأوّل و أوّل الحجاب بين اللَّه و بين العبد هو نفسه فإنّه أيضا أمر ربّاني و هو نور من أنوار اللَّه أعني سرّ القلب الّذي تتجلّى فيه حقيقة الحقّ كلّه حتّى أنّه ليتّسع لجملة العالم

و يحيط به و تتجلّى فيه صورة الكلّ، و عند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما إذ يظهر فيه الوجود كلّه على ما هو عليه، و هو في أوّل الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له فإذا تجلّى نوره و انكشف فيه جمال القلب بعد إشراق نور اللّه تعالى عليه ربّما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه فربّما يسبق لسانه في هذه الدّهشة فيقول: أنا الحقّ فإن لم يتّضح له ما وراء ذلك اغترّ به و وقف عليه و هلك، و كان قد اغترّ بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهيّة و لم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور و هذا محلّ الالتباس إذ المتجلّى يلتبس بالمتجلّى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة، فيظنّ أنّه لون المرآة و كما

يلتبس ما في الزّجاج بالزّجاج كما قيل:

رقّ الزّجاج و رقّت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنّما خمر و لا قدح و كأنّما قدح و لا خمرو

بهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور اللّه قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا في المرآة أو في الماء فيمدّ اليد إليه ليأخذه و هو مغرور.

و أنواع الغرور في طريق السلوك إلى اللّه لا تحصى في مجلّدات و لا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة و ذلك ممّا لا رخصة في ذكره و لعلّ القدر الّذي ذكرناه أيضا كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره، و الّذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربّما يستضرّ به إذ يورث ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم و لكن في ذكره فائدة و هو إخراجه من الغرور الّذي هو فيه إذ ربّما يصدّق بأنّ الأمر أعظم ممّا يظنّه و ممّا يتخيّله بذهنه المختصر و خياله القاصر وجد له المزخرف و يصدّق أيضا

بما يحكى له من المكاشفات الّتي أخبر عنها أولياء اللَّه تعالى، و من عظم غروره ربّما أصرّ مكذّبا بما يسمعه الآن كما يكذّب بما سمعه من قبل و اللَّه أعلم.

الصنف الرابع أرباب الأموال و المغترّون منهم فرق كثيرة.

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد

و المدارس و الرباطات و القناطر و ما يظهر للناس كافّة و يكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلّد ذكرهم و يبقى بعد الموت أثرهم و هم يظنّون أنّهم قد استحقّوا المغفرة بذلك و قد اغترّوا فيه من وجهين أحدهما أنّهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم و النهب و الرّشي و الجهات المحظورة فهم قد تعرّضوا لسخط اللَّه في كسبها و تعرّضوا لسخطه في إنفاقها و كان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها فإذا عصوا اللَّه تعالى بكسبها كان الواجب عليهم التوبة و الرّجوع إلى اللَّه تعالى و ردّها إلى ملاكها إمّا بأعيانها أو ردّ بدلها عند العجز، فإن عجزوا عن الملاك فكان الواجب ردّها إلى الورثة، فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهمّ المصالح، و ربّما يكون الأهمّ التفرقة على المساكين و هم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالآجر و غرضهم

من بنائها الرّياء و جلب الثناء و حرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم بها لا لبقاء الخير.

و الوجه الثاني أنّهم يظنّون بأنفسهم الإخلاص و قصد الخير في الإنفاق على الأبنية، و لو كلّف واحد منهم أن ينفق دينارا و لا يكتب اسمه على الموضع الّذي أنفق عليه لشقّ عليه ذلك و لم تسمح به نفسه، و اللَّه تعالى مطّلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب، فلو لا أنّه يريد به وجه الناس لا وجه اللَّه لما افتقر إلى ذلك.

و فرقة أخرى ربّما اكتسبت الأموال من الحلال

و انفقت على المساجد و هي أيضا مغرورة من وجهين أحدهما الرّياء و طلب الثناء فإنّه ربّما يكون في جواره أو في بلده فقير و صرف المال إليه أهمّ و أفضل من الصرف إلى المساجد و زينتها و إنّما يخفّ عليه الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس. و الثاني أنّه يصرف إلى زخرفة المسجد و تزيينه بالنقوش الّتي هي منهيّ عنها [١] و شاغلة لقلوب المصلّين و مختطفة أعينهم و المقصود من الصلاة الخشوع و حضور القلب و ذلك يفسد قلوب المصلّين و يحبط ثوابهم بذلك و وبال ذلك كلّه يرجع إليه و هو مع ذلك يغترّ به و يرى أنّه من الخيرات و يعدّ ذلك وسيلة إلى اللَّه تعالى و هو بذلك تعرّض لسخط اللَّه و هو يظنّ أنّه مطيع للَّه و ممتثل لأمره، و قد شوّش قلوب عباد اللَّه بما زخرف من المسجد، و ربّما شوّقهم به إلى زخارف الدّنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم، و يشتغلون بطلبه و وبال ذلك كلّه في رقبته إذ المسجد للتواضع و لحضور القلب مع اللَّه تعالى.

قيل: دخل رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب و قال: مثلي لا يدخل بيت اللَّه، فكتبه الملكان عند اللَّه صدّيقا، فبهذا ينبغي أن يعظم المساجد و هو أن يرى تلويث المسجد بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدّنيا منّة على اللَّه تعالى.

و قال الحواريّون للمسيح عليه السلام: انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه

---

[١]روى الراوندي في لب اللباب كما في مستدرك الوسائل ج ١ ص ٢٢٨ عن النبي صلّى اللَّه عليه و آله أنه قال:«لا تزخرفوا مساجدكم كما زخرفت اليهود و النصارى بيعهم».

فقال: امّتي امّتيّ بحق أقول لكم لا يترك اللَّه من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله، إنّ اللَّه لا يعبأ بالذّهب و الفضّة و لا بهذه الحجارة الّتي تعجبكم شيئا، و إنّ أحبّ الأشياء إلى اللَّه القلوب الصالحة، بها يعمر اللَّه الأرض، و بها يخرب إذا كانت على غير ذلك.
وقال أبو الدرداء: قال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم:«إذا زخرفتم مساجدكم و حلّيتم مصاحفكم فالدّمار عليكم»

رويأنّ رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم لمّا أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبرئيل عليه السّلام فقال: ابنه سبعة أذرع طولا في السماء لا تزخرفه و لا تنقّشه»

فغرور هذا من حيث إنّه رأى المنكر معروفا و اتّكل عليه.
و فرقة أخرى ينفقون الأموال في الصدقات،
و على الفقراء و المساكين و يطلبون به المحافل الجامعة، و من الفقراء من عادته الشكر و الإفشاء للمعروف، و يكرهون التصدّق في السرّ، و يرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم و كفرانا، و ربّما يحرصون على إنفاق المال في الحجّ فيحجّون مرّة بعد أخرى، و ربّما يتركون جيرانهم جائعين، و لذلك قال ابن مسعود في آخر الزّمان يكثر الحاجّ بلا سبب يهون عليهم السفر و يبسط لهم في الرزق و يرجعون محرومين مسلوبين يهوي بأحدهم بعيره بين القفار و الرّمال و جاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه، و روى أبو نصر التمّار أنّ رجلا جاء يودّع بشر بن الحارث و قال: عزمت على الحجّ فقام بشر فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال: فأيّ شيء تبتغي بحجّك نزهة أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضات اللَّه؟ قال: ابتغاء مرضات اللَّه قال: فإن أصبت رضا اللَّه و أنت في منزلك و تنفق ألفي درهم و تكون على

يقين من مرضاة اللَّه أ تفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: فاذهب فأعطها عشرة أنفس مديون يقضي دينه و فقير يلمّ شعثه و معيل تغني عياله و مربّي يتيم تفرّحه، و إن قوي قلبك أن تعطيها واحدا

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٤٧

فافعل فإنّ إدخالك السرور على قلب المسلم و إغاثة اللّهفان و كشف الضرّ و إعانة الضعيف أفضل من مائة حجّة بعد حجّة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك و إلا فقل لنا ما في قلبك فقال: يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي فتبسّم بشر و أقبل عليه فقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات و الشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات و قد آلى اللَّه تعالى على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتّقين.

و فرقة أخرى من أرباب الأموال يحفظون الأموال و يمسكونها بحكم البخل

ثمّ يشتغلون بالعبادات البدنية الّتي لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار و قيام اللّيل و الختم للقرآن و هم مغرورون لأنّ البخل المهلك قد استولى على باطنهم، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغلوا بطلب فضائل هم مستغنون عنها، و مثاله مثال من دخل في ثوبه حيّة و قد أشرف على الهلاك و هو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء، و من قتلته الحيّة فمتى يحتاج إلى السكنجبين؟.

و فرقة أخرى غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقطّ

ثمّ إنّهم يخرجون من المال الخبيث الرّدي الّذي يرغبون عنه و يطلبون من الفقراء من يخدمهم و يتردّد في حاجاتهم أو من يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخار في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسلّمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممّن يستظهر بحشمته لينال بذلك عنده منزلة

فيقوم بحاجاته، و كلّ ذلك مفسدات للنيّة و محبطات للعمل و صاحبه مغرور و يظنّ أنّه يطيع اللّه تعالى و هو فاجر إذ طلب بعباده اللّه عوضا من غيره و هذا و أمثاله من غرور أرباب الأموال أيضا لا تحصى و إنّما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور.

و فرقة أخرى من عوام الخلق و أرباب الأموال أو الفقراء اغترّوا بحضور مجالس الذكر و اعتقدوا أنّ ذلك يغنيهم و يكفيهم و اتّخذوا ذلك عادة و يظنّون أنّ لهم على مجرّد سماع الوعظ دون العمل و دون الاتّعاظ أجر و هم مغرورون لأنّ فضل مجلس الذّكر لكونه مرّغبا في الخير فإن لم يهيّج الرغبة فلا خير فيه و الرّغبة محمودة لحملها على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها و ما يراد لغيره

فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له، و ربّما يغترّ أحدهم بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس و فضل البكاء، و ربّما دخلته رقّة كرقّة النساء فيبكي، و ربّما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه و يقول: يا سلام سلّم أو نعوذ باللّه أو سبحان اللّه و يظنّ أنّه قد أتى بالخير كلّه و هو مغرور، و إنّما مثاله مثال المريض الّذي يحضر مجالس الأطبّاء فيسمع ما يجري أو الجائع الّذي يحضر عند من يصف له الأطعمة اللّذيذة الشهيّة ثمّ ينصرف و ذلك لا يغني عنه من مرضه و جوعه شيئا، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من اللّه شيئا. و كلّ وعظ لم يغيّر منك صفة تغييرا يغيّر أفعالك حتّى تقبل على اللّه تعالى إقبالا قويّا أو ضعيفا و تعرض عن الدّنيا فذلك الوعظ زيادة حجّة عليك فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا.

فصل فإن قلت: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلّص عنه أحد

و لا يمكن الاحتراز عنه، و هذا يوجب اليأس إذ لا يقوي أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات؟.

فأقول: الإنسان إذا فترت همّته في شيء أظهر اليأس منه و استعظم الأمر فيه و استوعر الطريق و إذا صحّ منه الهوى اهتدى إلى الحيل و استنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض حتّى أنّ الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلّق في جوّ السّماء مع بعده عنه فأنزله، و أراد أن يستصعد الحوت من أعماق البحار فأصعده و أراد أن يستخرج الذّهب و الفضّة من تحت الجبال فأخرجه، و أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري و الصحاري فاقتنصها، و أراد أن يستسخر السباع و الفيلة و عظيم الحيوانات فاستسخرها، و أراد أن يأخذ الأفاعي و الحيّات و يعبث بها فأخذها و استخرج الترياق، و أراد أن يتّخذ الدّيباج الملوّن المنقوش من ورق التوت فاتّخذه، و أراد أن يعرف مقادير الكواكب و طولها و عرضها فاستخرج بدقيق

الهندسة و هو مستقرّ على الأرض و كلّ ذلك باستنباط الحيل و إعداد الآلات فسخّر الفرس للركوب و الكلب للصيد و سخّر البازي لاقتناص الطيور، و هيّأ السبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدميّ، كلّ ذلك لأنّه أهمّه أمر دنياه و ذلك معين له على دنياه. فلو أهمّه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد و هو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه و تخاذل و قال: هذا محال و من ذا الّذي يقدر عليه، و ليس ذلك بمحال و لو أصبح و همّه هذا الهمّ الواحد احتال له، بل هو كما يقال: «لو صحّ منك الهوى أرشدت للحيل» فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون و من اتّبعهم بإحسان فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته و قويت همّته بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدّنيا و نظم أسبابها.

فإن قلت: قد قربت الأمر فيه بعد أن أكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور؟.

فاعلم أنّه ينجو عنه بثلاثة أمور: بالعقل و العلم و المعرفة فهذه ثلاثة أمور لا بدّ منها أمّا العقل فأعني به الفطرة الغريزيّة و النور الأصلي الّذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة و الكيس فطرة و الحمق و البلادة فطرة و البليد لا يقدر على التحفّظ عن الغرور فصفاء العقل و ذكاء الفهم لا بدّ منه في أصل الفطرة، و هذا إذا لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلّها العقل و الكياسة.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«تبارك اللّه الّذي قسّم العقل بين عباده أشتاتا إنّ الرّجلين ليستوي عملهما و برّهما و صومهما و صلاتهما و لكنّهما يتفاوتان في العقل كالذّرة في جنب أحد و ما قسّم اللّه لخلقه حظا هو أفضل من العقل و اليقين».

وعن أبي الدرداءأنّه قيل: يا رسول اللّه أ رأيت الرّجل يصوم النهار و يقوم اللّيل و يحجّ و يعتمر و يتصدّق و يغزو في سبيل اللّه و يعود المرضى و يشيّع الجنائز

و يعين الضّعيف ما تعلم منزلته عند اللّه تعالى يوم القيامة؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«إنّما يجزى على قدر عقله».

وقد اثنى على رجل عند رسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا خيرا، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «كيف عقله؟ فقالوا: يا رسول اللّه: نقول من عبادته و فضله و خلقه فقال: كيف عقله فإنّ الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر و إنّما يقرّب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم».

وقال أبو الدّرداء:«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا بلغه عن رجل شدّة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا:

حسن قال: أرجوه و إن قالوا غير ذلك قال: لن يبلغ ذلك» [١]. قال: و ذكر له شدّة عبادة رجل فقال: كيف عقله؟ قالوا: ليس بشيء، قال: لن يبلغ صاحبكم حيث تظنّون» [٢].

أقول: و قد أسلفنا أخبارا من طريق أهل البيت عليهم السّلام في ذلك في كتاب العقل من ربع العبادات.

قال: و الذّكاء و شدّة غريزة العقل نعمة من اللّه تعالى في أصل الفطرة فإن فاتت ببلادة و حماقة فلا تدارك لها.

الثاني المعرفة، و أعني بها أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه، و يعرف ربّه، و يعرف الدّنيا، و يعرف الآخرة، فيعرف نفسه بالعبوديّة و الذّل و بكونه غريبا في هذا العالم و أجنبيّا من هذه الشّهوات البهيميّة و هي مضرّة له، و إنّما الموافق له طبعا هو معرفة اللّه و النظر إلى وجهه فقطّ. و لا يتصوّر أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه و لم يعرف ربّه و ليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبّة

---

[١]روى الطبراني في مسنده الكبير عن أبي الدرداء قال:«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فان قالوا حسن قال أرجو له، و ان قالوا غير ذلك قال: لا يبلغ صاحبكم حيث تظنون»

و فيه مروان بن سالم متروك كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٨.

[٢]روى الطبراني في مسنده الكبير عن أبي الدرداء قال:«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فان قالوا حسن قال أرجو له، و ان قالوا غير ذلك قال: لا يبلغ صاحبكم حيث تظنون»

و فيه مروان بن سالم متروك كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٨.

و في كتاب شرح عجائب القلب و كتاب التفكّر و كتاب الشكر إذ فيها إشارات إلى وصف النفس و وصف جلال اللّه تعالى فيحصل به التنبّه على الجملة و كمال المعرفة وراءه فإنّ هذا من علوم المكاشفة و لم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة، و أمّا معرفة الدّنيا و الآخرة فيستعين عليه بما ذكرناه في كتاب ذمّ الدّنيا و في كتاب ذكر الموت ليتبيّن له أن لا نسبة للدّنيا إلى الآخرة. فإذا عرف نفسه و ربّه و عرف الدّنيا و الآخرة ثار من قلبه بمعرفة اللّه تعالى حبّ اللّه و بمعرفة الآخرة شدّة الرّغبة فيها و بمعرفة الدّنيا الرّغبة عنها فيصير أهمّ أموره ما يوصله إلى اللّه تعالى و ينفعه في الآخرة، و إذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحّت نيّته في الأمور كلّها، فإن أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة و صحّت نيّته و اندفع عنه كلّ غرور محذور منشؤه تجاذب الأغراض و النزوع إلى الدّنيا و الجاه و المال، فإنّ ذلك هو المفسد للنيّة و ما دامت الدّنيا أحبّ إليه من الآخرة، و هوى نفسه أحبّ إليه من رضا اللّه فلا يمكنه الخلاص من الغرور، فإذا غلب حبّ اللّه على قلبه بمعرفته باللّه و بنفسه الصادرة عن كمال عقله، فيحتاج إلى المعنى الثالث و هو العلم أعني العلم بكيفيّة سلوك الطريق إلى اللّه و العلم بما يقرّ به من اللّه تعالى و ما يبعّده عنه. و العلم بآفات الطريق و عقباته و غوائله و جميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدّين فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها و آفاتها فيتّقيها، و من ربع العادات أسرار المعائش و ما هو مضطرّ إليه فيأخذه بإذن الشرع و ما هو مستغن عنه فيعرض عنه، و من ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق اللّه، فإنّ المانع من اللّه الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم و يعلم طريق علاجه، و يعرف من ربع المنجيات الصفات

المحمودة الّتي لا بدّ و أن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر عن الأنواع الّتي أشرنا إليها من الغرور، و أصل ذلك كلّه أن يغلب حبّ اللَّه على القلب و يسقط حبّ الدّنيا منه حتّى تقوى به الإرادة و تصحّ فيه النيّة و لا يحصل ذلك إلا بالمعرفة الّتي ذكرناها.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٥٢

فإن قلت: فإذا فعل جميع ذلك فما الّذي يخاف عليه؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان و يدعوه إلى نصح الخلق و نشر العلم و دعوة الناس إلى ما عرفه من دين اللَّه عزّ و جلّ فإنّ المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب الأخلاق و راقب القلب حتّى صفاه عن جميع الكدورات و استوى على الصّراط المستقيم و صغرت الدّنيا في عينه و تركها و انقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم و لم يبق له إلا همّ واحد و هو اللَّه تعالى و التلذّذ بذكره و مناجاته و الشوق إلى لقائه و قد عجز الشيطان عن إغوائه إذ يأتيه من جهة الدّنيا و شهوات النفس فلا يطيعه و يأتيه من جهة الدّين و يدعوه إلى الرّحمة على خلق اللَّه و الشفقة عليهم و على دينهم بالنصح بهم و الدّعاء إلى اللَّه، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صمّا عميا قد استولى عليهم المرض و هم لا يشعرون و فقدوا الطبيب و أشرفوا على العطب فغلب على قلبه الرّحمة لهم و قد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم و يبيّن لهم ضلالهم و يرشدهم إلى سعادتهم و هو يقدر على ذكرها من غير تعب و مئونة و لزوم غرامة، و كان مثله كرجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه و قد كان لذلك يسهر ليله و يقلق نهاره لا يأكل و لا يشرب و لا يتحرّك و لا يتصرّف لشدّة ضربان الألم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن و لا تعب و لا مرارة في تناوله فاستعمله فبرأ و صحّ فطاب نومه باللّيل بعد طول سهره، و هدأ بالنهار بعد شدّة القلق، و طاب عيشه بعد نهاية الكدر و

أصاب لذّة العافية بعد طول السّقام ثمّ نظر إلى عدد كثير من المسلمين و إذا بهم تلك العلّة بعينها و قد طال سهرهم، و اشتدّ قلقهم، و ارتفع إلى السماء أنينهم، فتذكّر أنّ دواءهم هو الّذي يعرفه و يقدر على شفائهم بأسهل ما يكون و في أسرع زمان يقدر، فأخذته الرّحمة و الرّقّة، و لم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم، فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق و شفي من أمراض القلوب شاهد الخلق، و قد مرضت قلوبهم، و أعضل داؤهم، و قرب هلاكهم و شقاؤهم، و سهل عليه دواؤهم، فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم و حرّضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجال

الفتنة، فلمّا اشتغل به وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه إلى الرّئاسة دعاء خفيّا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد، فلم يزل ذلك الدّبيب في قلبه حتّى دعاه إلى التصنّع و التزيّن للخلق بتحسين الألفاظ و النغمات و الحركات و التصنّع في الزّيّ و الهيئات، فأقبل النّاس إليه يعظّمونه و يبجّلونه و يوقّرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك إذا رأوه شافيا لأدوائهم بمحض الشفقة و الرّحمة من غير طمع فصار أحبّ إليهم من آبائهم و امّهاتهم و أقاربهم فآثروه بأبدانهم و أموالهم فصاروا له خولا كالخدم و العبيد، فخدموه و قدّموه في المحافل و حكموه على الملوك و السّلاطين، فعند ذلك انتشر الطبع و ارتاحت النفس و ذاقت لذّة يا لها من لذّة، و أصابت من الدّنيا شهوة يستحقر معها كلّ شهوة، و كان قد ترك الدّنيا فوقع في أعظم لذّاتها، و عند ذلك وجد الشيطان فرصة و امتدّت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كلّ ما يحفظ عليه تلك اللّذّة، و أمارة انتشار الطبع و ركون النفس إلى الشيطان أنّه لو أخطأ فردّ عليه بين يدي الخلق غضب، فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان يخيّل إليه أنّ ذلك

غضب للّه لأنّه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق اللّه فوقع في الغرور، فربّما أخرجه ذلك إلى الوقيعة في من ردّ عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتّسع و وقع في الكبر الّذي هو تمرّد عن قبول الحقّ و الشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات، و كذلك إذا سبقه الضحك، أو فتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطّلعوا عليه فيسقط قبوله أتبع ذلك باستغفار و تنفّس الصعداء، و ربّما زاد في الأعمال و الأوراد من أجلهم و الشيطان يخيّل إليه أنّك إنّما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق اللّه، فيتركون الطريق بتركك لها، و إنّما ذلك خدعة و غرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرّئاسة، و لذلك لا تأبي نفسه من اطّلاعهم على مثل ذلك من أقرانه بل ربّما يحبّ ذلك و يستبشر به و لو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله و زاد أثر كلامه في القبول على كلامه شقّ ذلك عليه، و لولا أنّ النفس قد استبشرت و استلذّت الرّئاسة لكان يغتنم ذلك إذ مثاله مثال من يرى جماعة من إخوانه

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٥٤

قد وقعوا في بئر و تغطّى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرّقي من البئر بسببه فرقّ قلبه لإخوانه فجاء يرفع الحجر من رأس البئر و شقّ عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتّى تيسّر عليه أو كفاه ذلك و نحّاه بنفسه فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النّار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه فرح بذلك و لم يثقل عليه أ رأيت لو اهتدوا جميعهم بأنفسهم لما كان ينبغي أن يثقل عليه ذلك إن كان غرضه هدايتهم فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه، و مهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب و فواحش الجوارح و أهلكه، فنعوذ باللّه من زيغ القلوب بعد الهدى و من اعوجاج النفس بعد الاستواء.

فإن قلت: فمتى يصحّ له أن يشتغل بنصح الناس؟ فأقول: إذا لم يكن له قصد سوى هدايتهم للّه تعالى و كان يودّ لو وجد من يعينه أو لو اهتدوا بأنفسهم و انقطع بالكلّية طمعه عن ثنائهم و عن أموالهم، فاستوى عنده حمدهم و ذمّهم، فلم يبال بذمّهم إذا كان اللّه يحمده و لم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد اللّه تعالى، و نظر إليهم كما ينظر إلى السادات و إلى البهائم، أمّا إلى السادات فمن حيث إنّه لا يتكبّر عليهم و يرى كلّهم خيرا من نفسه لجهله بالخاتمة، و أمّا إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم، فإنّه لا يبالى كيف تراه البهائم، فلا يتزيّن لها و لا يتصنّع، بل راعي الماشية إنّما غرضه رعاية الماشية و دفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه بعين الحمد و الثناء، فما لم ير سائر الناس كالماشية الّتي لا يلتفت إلى نظرها و لا يبالي بها لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم نعم ربّما يصلحهم و لكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالشمع الّذي يضيء لغيره و يحترق في نفسه.

فإن قلت: فلو ترك الوعّاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدّرجة لخلت الدّنيا من الوعظ و خربت القلوب.

فأقول: وقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة»

و لو

لم يحبّ الناس الدّنيا لهلك العالم و بطلت المعائش و هلكت القلوب و الأبدان جميعا، إلا أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علم أنّ حبّ الدّنيا مهلك و أنّ ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحبّ من قلوب الأكثرين لا الأقلّين الّذين لا تخرب الدّنيا بتركهم فلم يترك النصح و ذكر ما في حبّ الدّنيا من الخطر و لم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات الّتي سلّطت على

الناس. فكذلك لا تزال ألسنة الوعّاظ مطلقة بحبّ الرئاسة و لا يدعونها بقول من يقول إنّ الوعظ لحبّ الرئاسة حرام كما لا يدع الخلق الشراب و الزنى و السرقة و الرّياء و الظلم و سائر المعاصي بقول اللَّه و بقول رسوله أنّ ذلك حرام، فانظر إلى نفسك و كن فارغ القلب عن حديث الناس فإنّ اللَّه يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد و أشخاص«و لو لا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» ٢: ٢٥١،فإنّ اللَّه يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر و أقوام لا خلاق لهم في الآخرة فإنّما يخشى أن ينسدّ باب طريق الاتّعاظ فأمّا أن تخرس ألسنة الوعّاظ و وراءهم باعث الرئاسة و حبّ الدّنيا فلا يكون ذلك أبدا.

فإن قلت: فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه و ترك النصح أو نصح و راعى شرط الصدق و الإخلاص فيه فما الّذي يخاف عليه؟ و ما الّذي بقي بين يديه من الأخطار و حبائل الاغترار؟ فاعلم أنّه بقي عليه أعظمها و هو أنّ الشيطان يقول له: قد أعجزتني و أفلتّ منّي بذكائك و كمال عقلك، و قد قدرت على جملة من الأولياء و الكبراء و ما قدرت عليك، فما أصبرك و ما أعظم عند اللَّه محلّك إذ قوّاك على قهري و مكّنك من التفطّن لجميع مداخل غروري فيصغى إليه و يصدّقه و يعجب بنفسه في فراره من الغرور كلّه فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور و هو المهلك الأكبر فالعجب أعظم من كلّ ذنب، فلذلك قال الشيطان: يا ابن آدم إذا ظننت أنّك بعلمك تخلّصت منّي فبجهلك قد وقعت في حبائلي.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٥٦

فإن قلت: فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أنّ ذلك من اللَّه تعالى لا منه و إنّ مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه إلا بتوفيق اللَّه و معونته و من عرف ضعف نفسه و عجزه عن أقلّ

القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنّه لم يقو عليه بنفسه بل باللَّه فما الّذي يخاف عليه بعد نفي العجب؟.
فأقول: يخاف عليه الغرور بفضل اللَّه و الثقة بكرمه و الأمن من مكره حتّى يظنّ أنّه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل و لا يخاف من الفترة و الانقلاب، فيكون حاله الاتّكال على فضل اللَّه فقطّ دون أن يقارنه الخوف من مكره، و من أمن مكر اللَّه فهو خاسر جدّا، بل سبيله أن يكون مشاهدا لجملة ذلك من فضل اللَّه، ثمّ خائفا على نفسه أن يكون قد سدّت عنه صفة من صفات قلبه من حبّ الدّنيا و رئاء و سوء خلق و التفات إلى عزّ و هو غافل عنه و يكون خائفا أن يسلب حاله في كلّ طرفة عين غير امن من مكر اللَّه و لا غافل عن خطر الخاتمة، و هذا خطر لا محيص عنه و خوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصّراط، و لذلك لمّا ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع و كان قد بقي له نفس فقال له: أفلتّ منّي يا فلان فقال لا بعد و لذلك قيل:
النّاس كلّهم هلكى إلا العالمون، و العالمون كلّهم هلكى إلا العاملون، و العاملون كلّهم هلكى إلا المخلصون، و المخلصون على خطر عظيم، فإذن المغرور هالك و المخلص الفارّ من الغرور على خطر، فلذلك لا يفارق الخوف و الحذر قلوب الأولياء أبدا، نسأل اللَّه تعالى حسن الخاتمة فإنّ الأمور بخواتيمها.
أقول: و لنختم الكتاب بكلام الصادق عليه السّلام على ما روي عنه في كتاب مصباح الشريعةقال عليه الصلوة و السلام:«المغرور في الدّنيا مسكين و في الآخرة مغبون لأنّه باع الأفضل بالأدنى و لا تعجب من نفسك حيث ربّما اغتررت بمالك و صحّة جسمك أن لعلّك تبقى، و ربّما اغتررت بطول عمرك و أولادك و أصحابك لعلّك تنجو بهم. و ربّما اغتررت بجمالك و منيتك و إصابتك مأمولك و هواك، فظننت أنّك صادق و مصيب، و ربّما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة و

لعلّ اللَّه تعالى يعلم من قلبك بخلاف ذلك، و ربّما أقمت نفسك على العبادة متكلّفا و اللَّه يريد الإخلاص، و ربّما افتخرت بعلمك و نسبك و أنت غافل عن مضمرات ما في غيب اللَّه، و ربّما توهّمت أنّك تدعو اللَّه و أنت تدعو سواه، و ربّما حسبت أنّك ناصح للخلق و أنت تريدهم لنفسك و أن تميلوا إليك، و ربّما ذممت نفسك و أنت تمدحها على الحقيقة، و اعلم أنّك لن تخرج من ظلمات الغرور و التمنّي إلا بصدق الإنابة إلى اللَّه و الإخبات له و معرفة عيوب أحوالك من حيث لا توافق العقل و العلم و لا يحتمله الدّين و الشريعة و سنن القدوة و أئمة الهدى، و إن كنت راضيا بما أنت فيه، فما أحد أشقى بعلمك منك و أضيع عمرا فأورثت حسرة يوم القيامة».

هذا آخر الكلام في كتاب ذمّ الغرور و بتمامه تمّ ربع المهلكات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء.

و يتلوه إن شاء اللَّه تعالى في ربع المنجيات كتاب التوبة، و الحمد للَّه أوّلا و آخرا و ظاهرا و باطنا.

(فهرست ما في هذا المجلد)

رقم الصفحة الموضوع

(مصادر التعليق و التصحيح)
١ - الاتقان للسيوطي.
٢ - الاحتجاج للطبرسي.
٣ - احياء علوم الدين للغزالى.
٤ - الاختصاص للشيخ المفيد الطبعة الأولى.
٥ - الإرشاد للشيخ المفيد ط ١٣٧٧.
٦ - آداب المتعلمين للمحقق الطوسي.
٧ - الاستبصار للشيخ الطوسي ط النجف.
٨ - الاستغاثة لاحمد بن موسى القمي.
٩ - الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة.
١٠ - اسد الغابة لابن أثير الجزري.
١١ - أسرار الصلاة للشهيد الثاني.
١٢ - الإصابة لابن حجر العسقلانى ط ١٣٥٩
١٣ - اعتقادات الصدوق.
١٤ - اعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي ط ١٣٧٩.

١٥ - الامالى للشيخ الصدوق.

١٦ - الامالى للشيخ الطوسي.

١٧ - الامالى للشيخ المفيد.

١٨ - الإمامة و السياسة لابن قتيبة ط ١٣٧٧.

١٩ - الانساب للبلاذرى.

٢٠ - بحار الأنوار للمجلسي.

٢١ - بصائر الدرجات للصفار الطبع الحجرى

٢٢ - البيان و التعريف لابن حمزة الحسينى ط الحلب.

٢٣ - التاج الجامع الأصول.

٢٤ - تاريخ الخطيب طبع مصر.

٢٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي.

٢٦ - تاريخ الأمم و الملوك للطبرى.

٢٧ - تاريخ الذهبي.

٢٨ - تحف العقول لابن شعبة ط ١٣٧٦.

٢٩ - التذكرة لسبط ابن جوزى الطبع الحجرى

٣٠ - الترغيب و الترهيب للمنذرى ط ١٣٧٣

٣١ - تفسير على بن إبراهيم القمي ط ١٣١٣.

٣٢ - التفسير الكبير لفخر الدين الرازي.

٣٣ - التوحيد للصدوق ط ١٣٢١.

٣٤ - تفسير الأنوار للبيضاوى.

٣٥ - التهذيب للشيخ الطوسي ط ١٣١٧.

٣٦ - تيسير الوصول لابن الديبع الدمشقي.

٣٧ - ثواب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥.

٣٨ - جامع الاخبار.

٣٩ - جامع الرواة للاردبيلى.

٤٠ - الجامع الصغير للسيوطي.

٤١ - الجعفريات و الاشعثيات الطبع الحجرى.

٤٢ - حلية الأولياء لابي نعيم.

٤٣ - الخصال للصدوق الطبعة الأولى.

٤٤ - الخصائص للنسائي طبع النجف.

٤٥ - الخرائج و الجرائح.
٤٦ - الدر المنثور للسيوطي.
المحجة البيضاء ج : ٦ ص :
٣٦٣
٤٧ - دلائل النبوة لابي نعيم.
٤٨ - رجال النجاشي.
٤٩ - الرجال للكشي.
٥٠ - الرسالة المعراجية لابن سينا.

٥١ - روضات الجنات للخوانسارى الطبعة الثانية.
٥٢ - روضة الواعظين للفتال النيشابورى.
٥٣ - السرائر لابن إدريس.
٥٤ - سر العالمين.
٥٥ - سفينة البحار للمحدث القمي.
٥٦ - السنن الكبرى لابي بكر أحمد بن الحسين البيهقي.
٥٧ - السنن لابي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي.
٥٨ - السنن لابي عبد اللّه محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى.
٥٩ - السنن لابي محمد عبد اللّه بن عبد الرحمن ابن الدارمي.
٦٠ - السنن لسليمان بن الاشعث السجستانى.
٦١ - السيرة النبوية لابن هشام.
٦٢ - الشافى للسيد الشريف المرتضى.
٦٣ - شرح احياء العلوم للزبيدي.
٦٤ - شرح النهج لابن أبي الحديد.
٦٥ - شرح النهج لابن ميثم البحرانى.
٦٦ - الشمائل للترمذي.
٦٧ - الصحاح للجوهرى.
٦٧ - الصحيح لابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى.

٦٩ – الصحيح لابن عيسى محمد بن عيسى الترمذي الطبعة الأولى.

٧٠ – الصحيح لمحمد بن إسماعيل البخاري طبع محمد على صبيح.

٧١ – صحيفة الرضا عليه السّلام.

٧٢ – الصواعق المحرقة للهيتمى.

٧٣ – طبقات لابن سعد طبع ليدن.

٧٤ – الطرائف لابن طاوس.

٧٥ – عدة الداعي لابن فهد الحلي.

٧٦ – عقاب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥.

٧٧ – علل الشرائع للصدوق ط ١٣١١.

٧٨ – علم اليقين للمؤلف (الفيض).

٧٩ – عيون اخبار الرضا عليه السّلام للصدوق.

٨٠ – عيون الاخبار لابن قتيبة.

٨١ – الغدير للعلامة الامينى طبع طهران.

٨٢ – الغيبة للنعمانى.

٨٣ – الفقيه (من لا يحضره الفقيه) ط ١٣٧٦.

٨٤ – الفهرست للشيخ الطوسي.

٨٥ – القاموس المحيط للفيروزآبادى.

٨٦ – قرب الاسناد للحميرى الطبع الحجرى.

٨٧ – الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه للسيد جواد المصطفوى.

٨٨ – الكافي للكلينى الطبع الحروفى الحديث.

٨٩ – الكافي الشاف للعسقلانى بهامش تفسير الكشاف.

٩٠ – الكشاف للزمخشرى.

٩١ – كشف المحجة لابن طاوس.

المحجة البيضاء ج : ٦ ص : ٣٦٤

٩٢ – كشف الغمة لعلى بن عيسى الاربلى.

٩٣ – كمال الدين للشيخ الصدوق.

٩٤ - كنز العمال لعلى متقى.
٩٥ - كنز الفوائد للكراجكى.
٩٦ - كنوز الحقائق لعبد الرءوف المناوى.
٩٧ - الكنى و الألقاب للمحدث القمي.
٩٨ - المجازات النبوية للشريف الرضي.
٩٩ - مجمع البيان للطبرسي.
١٠٠ - مجمع الزوائد و منبع الفوائد للهيتمى.
١٠١ - المحاسن لاحمد بن محمد بن خالد البرقي.
١٠٢ - المحلي لابن حزم.
١٠٣ - المختصر (مختصر بيان العلم) لاحمد عمر المحمصانى البيروتي طبع مصر.
١٠٤ - مرآة العقول للمجلسي.
١٠٥ - مراصد الاطلاع لعبد المؤمن البغدادى.
١٠٦ - مروج الذهب للمسعودى الطبعة الثالثة.
١٠٧ - المستدرك لابن البيع الحاكم النيشابورى.
١٠٨ - مستدرك الوسائل للنوري.
١٠٩ - المسند لابي عوانة.
١١٠ - المسند لابي عبد اللّه أحمد بن حنبل.
١١١ - المسند لابي داود الطيالسي.
١١٢ - مشكاة المصابيح لولى الدين محمد ابن عبد اللّه الخطيب التبريزى.
١١٣ - مصابيح السنة لابي محمد الحسين ابن مسعود الفراء البغوي.
١١٤ - مصباح الشريعة.
١١٥ - مصباح المنير للفيومى.
١١٦ - مطالب السئول لابن طلحة.
١١٧ - معالم التنزيل للبغوى.
١١٨ - معانى الاخبار للصدوق ط ١٣٧٩.
١١٩ - المعارف للدينوري.
١٢٠ - المغني عن الاسفار للعراقى برمز (م).

١٢١ – مفتاح الفلاح للشيخ البهائى طبع بمصر.

١٢٢ – مفردات القرآن للراغب.

١٢٣ – مقائيس اللغة لاحمد بن فارس.

١٢٤ – مكارم الأخلاق للطبرسي ط ١٣٧٦.

١٢٥ – المناقب للخوارزمى.

١٢٦ – منتخب كنز العمال بهامش المسند.

١٢٧ – منية المريد للشهيد الثاني.

١٢٨ – المواهب اللدنية للقسطلانى.

١٢٩ – الموضوعات لمولى على القارى.

١٣٠ – النوادر في جمع الأحاديث للفيض.

١٣١ – النهاية لابن الاثير الجزري.

١٣٢ – نهج البلاغة.

١٣٣ – نيل الاوطار للشوكانى.

١٣٤ – نظم در السمطين للزرندى.

١٣٥ – وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملى.

١٣٦ – الوافي لمولانا الفيض.

١٣٧ – الهداية للصدوق.

هذه المصادر هي الّتي نقلت عنها بلا واسطة و بقي غيرها من المصادر المنقولة عنها مع الواسطة و هي كثيرة كما هو المشاهد في الكتاب.